رحلة داخل الإسلام

أزمة العولمة

أكبر أحمد

نقله إلى العربية

معين الإمام

العبيكان
Obeikan

المحتوى

كلمة شكر

1- نزهة أنثروبولوجية في العالم الإسلامي

2- الصراع داخل الإسلام

3- القبيلة والمرأة والشرف في عصر العولمة

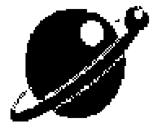
4- من يعرّف الإسلام بعد الحادي عشر من سبتمبر ولماذا؟

5- صدام حضارات؟

6- نزع الغشاوة

خاتمة: أمل العالم

ملحق: تحليل الاستبيانات



كلمة شكر

يعد هذا الكتاب نتاج رحلة إلى العالم الإسلامي مع فريق من المساعدين الذين نذروا أنفسهم لتفكيك وحلحلة التعقيدات العديدة في الإسلام. ونظرا لوعيي بالحاجة الماسة إلى تعرف المجتمعات الإسلامية، بدأت مشروعا يتيح لي اختبارها ومعاينتها مباشرة. على الطريق، أفدت فائدة عظيمة من جملة الحكم الحصيفة والرؤى الثاقبة والدعم المقدم من العديد من الأشخاص، ومنهم كرام استضافوني في الميدان، عددهم ينأى عن الحصر، لكن مساعدتهم لا تقدر بثمن.

ما كان للمشروع أن يتحقق لولا الدعم الاستثنائي الذي قدمه الرئيس المؤقت كورنيليوس كيروين والعميد لويس غودمان من الجامعة الأمريكية، وستيفن كوهين وبيتر سينغر من معهد بروكينغز، ولويس لوغو وتيم شاه من منتدى بيو للأديان والحياة العامة. أعبر عن شكر خاص للعميد غودمان لصداقته ومساعدته، خلال وبعد انتهاء المشروع. تلقيت تشجيعا كبيرا حين عينت مشرفا رئيسا على مشروع «الإسلام في عصر العولمة» إلى جانب مسلم آخر عمل مساعدا بحثيا لي في وقت تنامى فيه الخوف الرهابي من الإسلام («إسلاموفوبيا»). وبدا ذلك إشارة دلالية على رغبة أمريكية في فهم العالم الإسلامي وفقا لشروطه الخاصة.

أعبر عن عظيم الشكر أيضا لصداقة ومساندة جين وستيف كيس من مؤسسة كيس، والسفير دوغ هولاداي وروبرت وودي من مبادرة بوكستون، ولاشلان ومارثا ريد، وجون غودمان، وناصر كازيمني، وميليسينت وروبرت مونكس، وسيمي ومالك حسن من مؤسسة عائلة حسن لتشجيع الفهم المتبادل بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي، وهارويشا هاندا من مؤسسة شينتو الدولية.

عمل معي في هذا المشروع فريق رائع منذ البداية حتى النهاية، يدفعه إيمان راسخ بأهدافه والتزام قوي بها. ولا يسعني إلا التعبير عن أعمق التقدير لما فعله أفراده لمساعدتي

على تحمل الرحلة المرهقة جسديا والمتحدية وجدانيا، فضلا على المرحلة المكثفة من تأليف هذا الكتاب. فقد أترعوا كياني بالتفاؤل والأمل بالمستقبل. شارك كل منهم وساهم بطرق مختلفة، وأدى دورا كان جزءا لا يتجزأ من الكل. ولم يعيقه تغيير المواعيد وتبديل البرنامج ولا حتى المرض، بل تابع بإصرار جمع البيانات أو إجراء المقابلات، فشكلت رغبته في المعرفة وحماسته للعمل مصدرا مستمرا للإلهام. كان الفريق حاضرا معي عند مقابلة الرؤساء والأمراء، والجولات في الجامعات والمدارس، والتحدث والخطب في المحافل الدولية، وزيارة الكنس والكنائس والمساجد، وحتى معابد الهندوس والسيخ. تعلمت الكثير من أفراده بحيث انقلبت الآية أحيانا: الطلاب المتعلمون أصبحوا أساتذة ومعلمين.

هاديا مبارك، مساعدتي البحثية المعينة خلال وبعد الرحلة الميدانية، أمريكية مسلمة من أصل عربي، اهتمت اهتماما كبيرا بالموضوع ومضامينه ومقتضياته المحتملة للجالية المسلمة في الولايات المتحدة. أما هيلي ولدت وفرانكي مارتن، وهما اثنان من ألمع طلابي في الجامعة الأمريكية، فقد تغلبا على عدة عقبات قبل مرافقتي في الرحلة. في حين رافقني في الهند تريديفيش سينغ، وهو طالب من طلابي أيضا، ووضع لنا برنامجا ممتازا هناك. وانضم جوناثان هايدن، سكرتيري، خلال المراحل الأخيرة من الرحلة. سرني انضمام زينات، زوجتي، ونفيس، ابنتي إلينا في باكستان، وأمينة، ابنتي الكبرى، التي حصلت للتو على شهادة الدكتوراه في الأنثروبولوجيا من جامعة كيمبردج، في المراحل الأخيرة أيضا، واستفدت من وجود أمينة ورؤاها الأنثروبولوجية المتعمقة. إضافة إلى ما قدمه جيروشا غضنفري وعائشة معروف من مساعدة وعون في واشنطن، وطلحة كوسي في استنبول، وكريستل كول في القاهرة. وساعدتنا ميلا نورمان ومارتا زولادز في فرز البيانات والمخططات البيانية والنتائج عند عودتنا.

على أولئك الذين اعتادوا الشكوى من قلة انضباط الشباب وعدم التزامهم أن ينظروا إلى منجزات الفريق في صيف عام 2006، عند عودتنا من العالم الإسلامي. فبين منتصف شهر نيسان/أبريل وآب/أغسطس من تلك السنة، قمنا بترميز الاستبيانات، وتدوين المقابلات، وعقدنا حلقة لمناقشة ما توصلنا إليه من نتائج، واكتمل

كتابي المستمد من الرحلة – تم ذلك كله تحت ظروف ضاغطة: نقلت والدة هاديا إلى المستشفى، وكسرت ذراع جوناثان، واضطر فرانكي إلى العمل حتى ساعة متأخرة من الليل باحثا في بعض الحقائق المتعلقة بالكتاب، في حين بذلت هيلي جهدا مضنيا أسبوعا وراء أسبوع (حتى في أيام العطلة)، بعد أن تركت فصلا دراسيا بكامله للمشاركة في الرحلة الميدانية. كانت العضو الوحيد في الفريق الذي رافقني منذ البداية حتى النهاية، ولولا التزامها الذي لا يعرف الكلل، وطاقتها الحيوية، ورؤاها المتعمقة، لما تمكنت من استكمال المسودة الأولى للكتاب في خلال ثلاثة أشهر. إضافة إلى ذلك، التقطت هيلي، أو استخدمت كاميرتها لالتقاط جميع صور الكتاب. وعبرت كلماتها الوداعية لي ولعائلتي عند نهاية ذلك الصيف المضني تعبيرا صادقا عن حماسها: «لسوف أذكر هذه الشهور كأسعد شهور مرت في حياتي، حيث تعلمت.. وعشت حقا كما علمتموني جميعا».

دعيت طوال الرحلة إلى إلقاء المحاضرات في مختلف المؤسسات والمناسبات: المنتدى العالمي الأمريكي - الإسلامي في الدوحة، مركز الأبحاث الإسلامية في استنبول، خطبة الجمعة في مسجد في دمشق، المعهد الملكي للدراسات الدينية وجامعة الأميرة سمية للتكنولوجيا في عمان، نادي السند في كراتشي، المعهد الوطني للأبحاث التاريخية والثقافية في إسلام أباد، جامعة همدارد والجامعة الإسلامية الملية في نيودلهي، مناسبة «سوكا غاكاي» في كوالالمبور، المعهد الدولي للفكر والحضارة الإسلامية والجامعة الإسلامية الدولية الماليزية في كوالالمبور، جامعة تون عبد الرزاق في بيتالينغ جايا (قرب كوالالمبور)، الجامعة الإسلامية في جاكرتا. وأود أن أشكر هذه المؤسسات على كرم ضيافتها وعلى ما لقيته، أنا وفريقي، من ترحيب.

أعبر عن شكري أيضا للأشخاص التالية أسماؤهم على ما قدموه من ملاحظات وتعليقات على مختلف مسودات المخطوط: روجر بواس، راجموهان غاندي، انتوني غيدنز، هيليل ليفاين، جوديا بيرل، لورنس روزن، السير جوناثان ساكس، تامارا سون، ايلي فايزل.

وأشكر جزيل الشكر أيضا جميع العاملين في معهد بروكينغز الذين ساعدوا في وصول هذا الكتاب إلى المطبعة، خصوصا ستيف غراند، فضلا على بوب فاهرتي في مطبعة

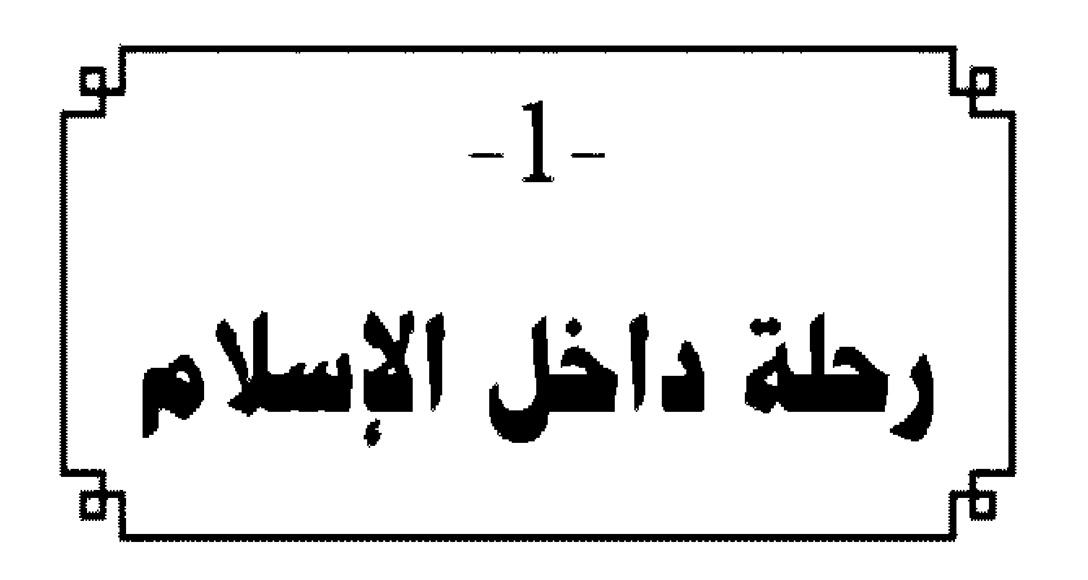
المعهد على حماسه للمشروع، وأولئك الذين عملوا بدأب ومقدرة على إنتاج الكتاب: لاري كونفرس، وفيكي ماكنتاير، وجانيت ووكر، وسوزان وولن.

أخيرا، أدين بفضل يتجاوز قدرة الكلمات على التعبير إلى عائلتي المحبة والمدهشة، حيث ساهم كل فرد فيها مساهمة كبيرة في فهم الإسلام حولنا: زينات، وارسال الله، وبابر، وفاطمة، وعمر، وميلودي، ونفيس. وأود أن أخص بالشكر زينات، التي استحضرت الحكمة والتعقل والفهم إلى القضايا المعقدة التي أثارها المشروع، وكانت مشاركة مخلصة دون تحفظ في استكماله. وبلغ مدى وعمق مساهمتها حدا استثنائيا: فقد ساهمت في فهم الأفكار المركزية، وشاركت في المقابلات، وساعدت في استكمال المخطوطات المختلفة، على الرغم من المرض الذي أصابها والإرهاق من العمل في المكتب والمنزل. أشكر إخلاصها للمشروع ولا يمكنني إلا الإعجاب بثباتها ودأبها وصحبتها وصداقتها بكل ما في قلبي من حب وروحي من امتنان. وما كان لها الكتاب أن يرى النور لولاها، ولذلك أرغب في إهدائه إلى زينات مع كل الحب.

أكبر أحمد

نيسان/أبريل 2007.





-1-
رحلة داخل الإسلام

«أفعـال أسامة بن لادن وحـزب الله وحماس والطالبان، حتى إن أدت إلى قتل النساء والأطفـال، مبررة وجائـزة تماما في الإسلام». هـذه الكلمات المرعبـة، التي تنذر بمزيد مـن القتل والعنف، نطق بهـا دون مبالاة أكثر الشبان رقة ولطفـا في أحد الأيام المشمسة التـي صفت سماؤها في الهند. الخطيـب كان مضيفنا، إعجاز قاسمـي، الذي رافقنا أنا وصحبـي، بوجهه البسام، ونظارته السميكة، ولحيته المشذبة، وهو يرتدي لباس المسلمين التقليدي في جنوب آسيا (سروال قطني أبيض، ورداء طويل، وطاقية بيضاء صغيرة) إلى محطة مهمة في رحلتنا داخل الإسلام: ديوباند، المدرسة الدينية البارزة في إسلام جنوب آسيا. وكان إعجاز واحدا من كبار منظريها.

أعطت ديوباند اسمها إلى مذهب فكري داخل الإسلام. فعلى شاكلة الحركة الوهابية المعروفـة في العالم العربي، يمثل المذهب حركة قوية للدفاع عن التراث الإسلامي والهوية الإسلاميـة والحفاظ عليهما ونشرهما. ومثل حركة الإخوان المسلمين في الشرق الأوسط، تعـد ديوبانـد منارة للهوية الإسلاميـة للعديد من المسلمين. أما للكثيريـن في الغرب فإن «العدو» اللدود هو ديوباند بعينها، إضافة إلى الناطقين باسمها، مثل إعجاز قاسمي.

حـين اقتربنا من وجهتنـا المقصودة، بدا المشهد موحشا؛ فقد زالت الشاخصات من الطريـق، وغابـت محطات الوقود، واختفت حتـى أكشاك شرب الشـاي. راودتني الآمال الكبـار بتعـرف حال ومزاجية المسلمين والجـو الإسلامي العام في عصـر العولمة، عندما بـدأت رحلتـي على هذا الطريق المقفر البعيد عن دلهي مسافـة عدة ساعات. فلو أخذونا رهائـن أو قطعوا أوصالنا إربا إربا، «لما عرف أحـد ذلك قبل مرور أسبوعين على الأقل»، كما قلت هامسا لفريقي المكون من شاب وشابة أمريكيين.

كانـت هذه محاولة هازلة لتخفيف حدة الاندفاع الجـريء لدى هيلي ولدت وفرانكي مارتـن (عضـوي الفريق) نحو المغامرة بجسـارة وحماسة الشباب. ونظـرا لأنني ضيف

«شرف»، وقلت إن هيلي مثل «ابنتي»، وفرانكي مثل «ابني»، فقد تيقنت أننا في مأمن. ومع أن كلا من الطالبين قد قرأ تصوير اي . ام. فورستر الكلاسيكي للإسلام في روايته «ممر إلى الهند»، إلا أنه شاهد أيضا «انديانا جونز ومعبد الهلاك». ورافقني في هذه الرحلة وهو على ثقة بأن أستاذه سيعيده إلى الوطن سالما غانما. وعلى شاكلة البروفسور جونز، وجب علي إبعاد الأذى عنهما وتمكينهما من المشاركة الكاملة في الدراسة.

لم يزر أي منهما من قبل العالم الإسلامي الذي يعاني الآن مشكلات عديدة واضطرابات كثيرة. لم يردعه ذلك، ولا مخاوف الأسرة وقلق الأصدقاء، بل قطع دراسته الأكاديمية، ودفع تكاليف الرحلة، ووضع ثقته فيّ. لا يمكن لأستاذ أن يتوقع مكافأة أعظم، وآمل أن يقدر القارئ السبب الذي جعلهما جزءا مهما من المشروع في نظري. وأعرف أن المشاعر بيننا متبادلة[1].

خلال حديثنا في السيارة، بدا إعجاز، الذي كان يجلس في المقعد الأمامي ويلتفت نحوي، أنه يتجاهل جميع الأسئلة التي تطرحها هيلي ويوجه الحديث إلي. وباعتباري مسلما، أعرف أن ذلك يعد سلوكا متزمتا منه. فقد كان يحترم وضع هيلي كامرأة من خلال عدم النظر إليها مباشرة. فذلك يعد برأيه انتهاكا لحشمتها. وكان سيلاحظ بتقدير وإعجاب أنها ترتدي زيا إسلاميا حصلت عليه من باكستان: رداء فضفاضا وحجابا أبيض تغطي به رأسها في المسجد كما جرت العادة.

ناولتني سرا ورقة كتبت فيها على عجل جملة تعبر عن سخطها الواضح: «لن ينظر إلي». وعلى الرغم من أنني استطعت رؤية أنها تتبع، كمراقبة متلقية للثقافة والتقاليد، تراث الرحالات الغربيات اللاتي سافرن إلى العالم الإسلامي في القرن العشرين، إلا أن نفاد الصبر الذي يميز الأمريكيين لم يكن غائبا عنها. أشرت إليها بالهدوء. إذ لم يكن الزمان والمكان مناسبين لتصعيد حدة صراع بين الثقافات.

دار أحد الأسئلة التي طرحتها حول هل يبرر القرآن الهجوم على الأبرياء. كنا نتحدث عن الجهاد، الكلمة التي أصبحت ترتبط في الغرب بالعمل العسكري العدواني، مع أنها في العربية أتت من الفعل / جاهد/ بمعنى /جد وسعى/. وبرأي النبي، كان للتعبير مدلولان اثنان: «الجهاد الأكبر»، أي الجد والسعي والكفاح للارتقاء بالنفس روحيا وأخلاقيا،

وهـو أمر لا علاقة له بالعنـف، فضلا على التعرض للنساء والأطفـال الأبرياء؛ و«الجهاد الأصغـر»، أي الدفاع عن العائلة والأمة أمام الهجـوم. في هذه الحالة أيضا، ليس ثمة أي ذكر للعدوان. ووفقا لإعجاز قاسمي، فإن الهجمات التي يشنها المسلمون على الأمريكيين والإسرائيليـين (حيـث يعد أمريكا وإسرائيل كيانا واحدا) هـي دفاع مشروع عن النفس؛ إضافـة إلى ذلك، لا تعـد النساء والأطفال الأمريكيـون والإسرائيليون أبرياء بالضرورة، كمـا يتضح من دعمهم للفظائع المرتكبة بحـق المسلمين في أفغانستان والعراق وفلسطين. بـل يعتقـد أن الأمريكان بدعم مـن الإسرائيليين، يشجعون أعمـال التعذيب الوحشية في أبو غريـب وغوانتانامو. ونظرا لأنهم قادرون على وقف هذه الجرائم لكنهم يمتنعون عن ذلك، فهمنظريامذنبون بارتكاب الفظائع ذاتها.

قدم إعجاز هذه الحجج في كتاب أصدره مؤخرا ولقي رواجا كبيرا: «الجهاد والإرهاب» (باللغة الأوردية)[2]. وفي طبعته السابعة، عبر الكتاب عن غضب المسلمين على تعرضهم للهجوم والقتل في شتى أرجاء العالم. فما يدعى بالعنف الإسلامي، كما كتب إعجاز، ليس سـوى دفاع مبرر عن النفس أمام «البربرية الأمريكيـة والهمجية الإسرائيلية». لقد شعر إعجـاز أن أسلوبه في الحياة، وثقافتـه، ودينه، عرضة للهجوم. وهؤلاء «البرابرة والهمج» وصلـوا إلى حـد الانقضاض على نبـي الإسلام ذاتـه «عليه الصلاة والسـلام». ولذلك، فـإن من واجب كل مسلم الانضمام إلى الجهـاد، أي الدفاع عن دين الإسلام والذب عن «إخوانـه» المسلمين في أرجاء العالم كافة. وأبلغنا وقد تملكه الحماس الآن أن المسلمين لن يتخلـوا عن دينهم أبدا، وسوف يـذودون عن حياضه حتى آخر رمـق، ويهزمون الولايات المتحـدة في حربهـا على الإسلام. في نظـر إعجاز، المسلمون الحقيقيـون هم الطالبان - وأسامـة بن لادن الذي يضيف إلى اسمه لقب التوقـير الشيخ. هذا الموقف، برأيي، سوف يعقد الأمور لمسلمين مثلي، يرغبون في ترويج تعاليم الإسلام الأصلية القائمة على الرحمة والإحسان والسلام.

وفي سبيـل معرفة هـل يتساهل مع آراء إسلامية أكثر اعتدالا، سألته عن رأيه بمحمد علي جناح، مؤسس باكستان والزعيم الذي نادى بحقوق المرأة، وحقوق الإنسان، واحترام القانـون. ولدهشتـي لم يحـاول إدانة محمد علي جنـاح بوصفه علمانيا لكـن عده زعيما

سياسيا عظيما، وإن لم يكن قائدا إسلاميا كبيرا. وهذا يعني أنه لا يمثل بالضرورة قدوة للمسلمين ولذلـك لا توجد صلة وثيقة تجمعه بالإسلام. من المؤكد أن بالإمكان الاعتراف بأهميـة ومرجعية محمد علي جناح لأسباب تتسم بضيـق الأفق. فمن الملامح التعويضية بالنسبـة لإعجـاز أن أحـد أقرب مؤيدي جنـاح كان شخصية دينية شهـيرة تتبع مدرسة ديوبانـد. فالصلـة بديوباند حجة دامغـة لا تدحض، بل إن اسم عائلـة إعجاز - قاسمي - مستمد من اسم مولانا قاسم نانوتوي، الأب المؤسس للمذهب / المدرسة.

حين سعيت لاستطلاع آرائه عن الجانب الروحاني/ الصوفي من الإسلام، غدا إعجاز حريصـا وحذرا. ذكرت لـه معين الدين تشستي، المتصـوف الشهير (1141.1230م)، الـذي روج صيغـة تراحمية للإسلام ودفـن في أجمر في قلب مقاطعـة راجستان الريفية الهنديـة. قـال إعجاز إنه لم يزر أجمر قـط، ونأى ببصره صامتا، تـاركا الأمر عند هذا الحد. فلربما مثلت أجمر سبيلا وعرا ومظلما لم يرغب في استكشافه.

فيما يخص موضـوع التقانة، كانت إجاباته مفاجئة. فبدلا من إدانة التقانة الحديثة بوصفهـا امتدادا للغرب (كما حسبـت)، أخرج متباهيا بطاقة تحمـل لقب «محرر موقع الويـب» لديوبانـد. وبصفتـه هذه، كما شـرح، تمكن مـن مخاطبة وتوجيـه وتعليم آلاف الشبـاب المسلم في مختلف أرجاء جنوب آسيا. ولم يجـد أي تناقض في استخدام التقانة الغربية لنشر وبث الرسالة الإسلامية.

وسمت هذه وغيرها من ملاحظات إعجاز قاسمي ضخامة واتساع الهوة الفاصلة بين الولايـات المتحدة والعـالم الإسلامي. وعبر تعليق فرانكي عن ذلـك بشكل بسيط ودقيق: «حسبـت أن الأمـور سيئة حين كنت في واشنطن، لكنها في الحقيقـة أشد سوءا». في ذلك اليـوم، واجـه هذان الشابـان الأمريكيـان أعظم تحد يجبـه وطنهما في القـرن الحادي والعشرين: الأزمة مع العالم الإسلامي.

رؤية إعجاز قاسمي للعولمة

كان إعجاز قاسمي في الحقيقة يعلق على العولمة دون استخدام الكلمة ولو مرة واحدة. ففي ذهنه، ترادفت العولمة مع طمع وجشع الشركات المتعددة الجنسية التي استغلت الموارد الطبيعية للبلدان الإسلامية، والغضب الذي نفست عنه الولايات المتحدة من خلال قصف

أفغانستان ثم العراق بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001، والجهل الذي أبدته وسائل الإعلام الغربية بدين إعجاز قاسمي وثقافته وتقاليده وتراثه. وربطها أيضا بثقافة الجنس والعنف غير المبررة، التي تمجدها هوليود. وأضاف إن الأمريكان لا يشكلون سوى نسبة 6% من سكان العالم ومع ذلك يستهلكون 60% من موارده الطبيعية، وهي حقيقة أثبتها انتشار وباء البدانة في أمريكا وتبذير وإسراف حتى الطبقة الوسطى.

ساوى إعجاز دون قصد بين أفعال وتصرفات الولايات المتحدة - ومن ثم قوى العولمة - وبين «السموم الثلاثة» الذي حذر بوذا من أنها يمكن أن تدمر الأفراد وحتى المجتمعات: الجشع والغضب والجهل. ففي العقيدة الإسلامية، يمكن «معالجة» هذه الرذائل بفضائل العدل والإحسان والعلم. فترياق الجشع هو العدل؛ ولا يمكن السيطرة على الغضب إلا بالرحمة والإحسان؛ ولا يقضي على الجهل إلا العلم.

أسهبت في تقديم حجج إعجاز قاسمي الحماسية في مستهل هذه المناقشة لأنها تجسد الأزمة التي أحدثتها العولمة في العالم الإسلامي، وهذه قضية جوهرية يجب أن يدركها العقل الغربي. فعلى العكس من مفهومي العدل والإحسان، تظهر شاشات التلفزيون للمسلمين أن بمقدور كبار المديرين التنفيذيين للشركات المتعددة الجنسية جمع ثروات طائلة بينما يتضور باقي البشر جوعا في بلدانهم وفي البلدان الأخرى، ولا مانع من ذبح آلاف الأبرياء في أفغانستان والعراق، وتعرض الفلسطينيين في قلب العالم الإسلامي للقمع والاضطهاد دون أن يأملوا بتلقي أي عون من الغرب، وخضوع مئات ملايين المسلمين لحكومات قمعية دون أمل بتحقيق العدالة. يشعر المسلمون أن صوتهم غائب في مثل هذه الظروف ولم يدعهم أحد للمشاركة في العديد من أحداث العالم التي تعنيهم. وما زاد الطين بلة أن الثقافة الأمريكية غزت مجتمعهم عبر وسائل الإعلام وطوفان المنتجات الغربية. أما ردة فعل المسلمين على ذلك كله فقد تلونت بالحماس والغضب. ومن أجل مغالبة ما عدّوه عالما خارجا عن السيطرة والحفاظ على شعورهم بالأمن والأمان، فهم يعودون إلى جذورهم ويتشبثون بها.

شجعت هذه الظروف الساحقة بعض المجتمعات الإسلامية على التمسك بموقف دفاعي ومتشدد ومتوتر تجاه الغرب. فهذه النظرة التي نشرها زعماء وقادة يتمتعون بتأثير نافذ في هذه المجتمعات، تهدد وتربك الخطاب الإنساني في العالم، لأنها تثمن اللامبالاة

والقسـوة، وتسمح لرجال مثل بن لادن بالتحول إلى أبطال شعبيين، وتعارض جوهر أفكار العدل والإحسان والحكمة التي تشترك فيها جميع التقاليد التراثية الدينية.

ومنـذ أن شنت «الحرب على الإرهاب»، عمت الفوضـى المجتمعات المحلية في العراق وأفغانسـتـان، وهذا أتاح للنزاعات الدينيـة والقبلية والمذهبية والطائفية القديمة الظهور علـى السطح مرة أخرى. وفي غيـاب الهدوء والأمن، بدأ الناس ينظـرون إلى ديكتاتورية صـدام حسين، مثلا، بنوع من الحنـين إلى الماضي. المواطنون يعيشون في حالة دائمة من عدم اليقين: لا يعرفون أن بيوتهم ستكون آمنة، وأنهم سيصلون سالمين إلى مكان عملهم، وأن أولادهم سيعودون إلى المنزل من المدرسة. والأسوأ أن القتلة مجهولون وطلقاء. بعض النـاس يوجهون اللوم إلى الجنود الأمريكيين، وبعضهم الآخر يشيرون بإصبع الاتهام إلى المتمردين الذين يلفهم الغموض والسرية، وغيرهم يضعون المسؤولية على عاتق عناصر مـن قوات الأمـن العراقية ذاتها. الحـرب على الإرهاب انحـدرت إلى درك حرب يشنها الـكل على الكل. رأى الفيلسوف الإنكليزي تومـاس هوبز، وكذلك عدّ الفقهاء المسلمون - تاريخيا - الطغيان مفضلا على الفوضى، وسمعنا إعادة توكيد هذا المبدأ في أحاديثنا مع المسلمـين في مختلف أرجاء العالم الإسلامي. فقبل ألف سنة، ذكر الإمام مالك (مؤسس أحد المذاهب الرئيسة الأربعة في الإسلام) أن ساعة من الفوضى أسوأ من ستين سنة من الطغيان[3].

وفي حين أنه لا يوجد من ينكر الفوائد العظيمة للعولمة - سياسات التنمية الاقتصادية، مثـل قروض التمويـل الصغيرة، انتشلت الملايـين من وهدة الفقر في الهنـد وبنغلادش، والتقانـات الجديدة أتاحت التوزيع السريع لمعونات الإغاثـة والمساعدات الطبية لضحايا الزلـزال الـذي ضـرب باكستـان والناجين من إعصـار تسونامـي في إندونيسيـا. إلا أن العديـد من سكان العالم يربطون العولمة بالقسوة وعـدم الرحمة. وكان بمقدور الإحسان بـين البشر أن يمنع الفظائع الوحشية التي ارتكبـت في السنوات القليلة الماضية، مثل قتل عائلة بأكملها في بلدة حديثة العراقية على يد الجنود الأمريكيين، أو قطع رأس نيك بيرغ في العـراق ودانييل بـيرل في باكستان. ومنـذ أن بدأت الحرب على الإرهـاب، لم يستطع الطرفـان استعادة شعورهما بالتـوازن والرحمة والإحسان والحكمـة، وهي سمات كانت ذات مرة تحظى بالتقدير والإجلال.

كل مناقشة أجريناها طوال رحلتنا أدت بشكل مباشر أو غير مباشر إلى الأحداث التي وقعت هناك في أمريكا في الحادي عشر من سبتمبر 2001، وإلى العواطف التي تولدت عن ذلك اليوم. لقد أصبحت الولايات المتحدة والعالم الإسلامي مرتبطين بعلاقة عدائية لا يمكن فصم عراها، وبالتالي فإن كل فعل يقوم به طرف سوف يستدعي رد فعل من الآخر. إذ غير الحادي عشر من سبتمبر العالمين وتحداهما بطرق لم تكن متوقعة.

الحادي عشر من سبتمبر 2001

في الحادي عشر من سبتمبر 2001، وفي التاسعة إلا بضع دقائق صباحا، دخلت أحد صفوف الجامعة الأمريكية بواشنطن دي. سي، بعد أن انضممت إلى الهيئة التدريسية قبل بضعة أيام. كنت على وشك إلقاء محاضرتي عن الإسلام أمام طلاب السنة الثانية، وهو موضوع بدا آنذاك بعيدا عن اهتمام الشبان الأمريكيين الذين جلسوا أمامي. وتساءلت هل أستطيع أن أجذب انتباههم.

ما كدت أبدأ شرح استحالة فهم الإسلام خارج الإطار المعقد للاهوت وعلم الاجتماع والشؤون الدولية، وأن قصته تتمركز على حضارة تقليدية كبرى تواجه قوى العولمة، حتى غادر طالبان قاعة الصف فجأة، ليعودا بعد بضع دقائق وقد بدت عليهما أمارات الذهول والاهتياج. وانتشرت موجة من الهمهمات الهامسة في الصف. أول ما خطر ببالي أن «شيئا رهيبا قد حدث». خرج عدد آخر من الطلاب من الصف حاملين هواتفهم النقالة. همس أحد الطلاب قائلا إن مسلمين اختطفوا طائرة وصدموا بها مبنى في نيويورك. وقال طالب شاحب الوجه إن طائرة مكتظة بالركاب صدمت مبنى البنتاغون أيضا، على بعد بضعة أميال من حرم جامعتنا. بدا الأمر وكأنه فيلم خيالي من إنتاج هوليود.

حينما حاولت متابعة مناقشتي للعلاقات الأمريكية الإسلامية، لم أدرك أن أشد اللحظات إثارة في التاريخ الأمريكي في القرن الحادي والعشرين تحدث قرب أسوار جامعتنا وعلى بعد بضع مئات من الأميال إلى الشمال. لم يتطلب تبدي ضخامة الحدث الجلل في الصباح وقتا طويلا. فمهما حدث وبغض النظر عن المسؤولين، سوف تلطخ المآسي في نيويورك وواشنطن وبنسلفانيا سمعة المسلمين. ولن يعود العالم كما كان أبدا.

ما جرى هو فشل ذريع للمسلمين. فإضافة إلى أن المنفذين من المسلمين، فقد ارتكبوا عمـلا محرما في الإسلام، هو قتـل الأبرياء. وعلى مستوى أعمق، فشل الزعماء المسلمون في التكيـف مع قواعد العـالم الجديد، وأخفق العلماء المسلمـون في نشر وبث حكمتهم في مجتمعاتهم. وعلى القدر ذاته من الأهمية، أهمل العالم فهم الإسلام واستيعاب واحد من أكبر أديانه وأوسعها انتشارا.

قبـل الوصول إلى واشنطـن، قضيت سنوات عديدة أشرح وأفسـر تعقيدات الإسلام أمـام تشكيلات متنوعة من الناس في منتديات مختلفـة. في بعض الأحيان، تحدثت أمام جمهور من المسلمين لأساعدهم على فهم عالمهم. وبوصفي شخصا عاش وعمل في البلدان الإسلاميـة والغربية، استشعرت بأن عاصفة عنيفة تتجمع نذرها في الأفق، وحيث وصلت في الحادي عشر من سبتمبر، أصبحت الحاجة إلى الفهم أكثر إلحاحا عن قبل.

لكـن حسبت أن ردة فعل الأمريكيين سـوف تتميز بالحس المنطقي السليم، والتراحم والرحمة، والحكمة والحصافة. فمثل هذا الرد لن يظهر القوة الأخلاقية والقدرة المعنوية فقط، بل سيضع الكوكب الأرضي على مسار سليم وسديد ومفيد للمستقبل. ولم أظن أنه سيأتي بهذه السرعة ويكون مدفوعا بباعث الغضب الصرف.

وباعتباري باحثـا مختصا أدرس الإسلام ومسلما يعيشـ في الولايات المتحدة، رأيت أننـي أواجـه أعظم تحد في حياتـي. عقدت العزم علـى الاستفادة من تعليمـي وثقافتي، وصداقاتي، وتجاربي وخبراتي في مختلف المجتمعات الإسلامية: لسوف أضاعف جهودي لمساعـدة غير المسلمين والمسلمين على حد سواء علـى تقدير الجوانب والملامح الحقيقية للإسلام ومن ثم تكوين رابطة تجمع بينهم. فبغير هذا الفهم المشترك سوف يغرق العالم في الصراع ويغوص في غيهبه.

ومنـذ ذلـك الحين لم يمر يـوم لم أقض فيه وقتـا أتحدث عن الإسـلام - في وسائل الإعـلام، أو الحـرم الجامعي، أو مع الزملاء المهتمين بحـوار الأديان. ويعد هذا الكتاب، الـذي هو نتاج لأبحاث ودراسـات أجريت في تسعة بلدان إسلاميـة إضافة إلى الجاليات الإسلاميـة في الغرب، جزءا من ذلك المسعى. وهو يتنـاول ذلك اليوم المروع في سبتمبر، والأحداث التي أدت إليه، والتطورات اللاحقة عليه، ومضامينها ومقتضياته وتأثيراتها في

المستقبل القريب والبعيد. موضوعه الصدام بين الدول الغربية والإسلام - الذي يعد أكثر الديانات تعرضا لسوء الفهم والأفكار المغلوطة - في عصر بلغ فيه الاتصال المتبادل حدا مذهلا، حيث تفرز الأحداث في جزء من العالم تأثيرا فوريا تقريبا في الأجزاء الأخرى، وهذا يضع المجتمعات المتباعدة في اتصال مباشر. الكتاب في الجوهر محاولة لتحديد وتعريف المشكلات العالمية التي تواجهها المجتمعات، واقتراح حلول لها، وفوق كل شيء مناشدة الأقوياء والأغنياء والمترفين الانضمام إلى جهد أوسع للتوصل إلى فهم أفضل وصداقة أوثق بين المجتمعات المختلفة عبر الرحمة والإحسان والتعاطف والحكمة وضبط النفس.

حين تتصادم العوالم

ألقت الأحداث التي جرت خلال السنوات القليلة الماضية ظلا كئيبا مشؤوما على كوكبنا. فقد أطلقت ما دعاه الرئيس جورج بوش بـ"الحرب (العالمية) على الإرهاب". وهي حرب لم يشهد التاريخ لها مثيلا. فليس هناك عدو مرئي أو محدد، ولا تبدو لها نهاية في المستقبل المنظور. وهي لا تتصل فعلا بالديانات أو الحضارات، لكنها متورطة فيها. الإسلام لا يمثل القضية المركزية، لكن من المعتقد على نطاق واسع أنه مرتبط ارتباطا وثيقا بحالة العنف وانعدام الأمن والأمان المنتشرة في العالم. السبب ليس العولمة -التحولات التي تطرأ على التقانة والنقل والتطور الاقتصادي والاتصالات وممارسة السياسة الدولية - لكن نتيجة الحرب، تجتاح ضغوط التغيير المجتمعات التقليدية مثل المجتمعات الإسلامية. ولم تظهر في التاريخ من قبل مثل هذه الحاجة الملحة إلى تعريف تعابير غامضة ومصطلحات مراوغة مثل "الحرب" و"الدين"، أو ممارسة الحكمة والحصافة في العلاقات الإنسانية، أو تمييز الآراء الساذجة والأفكار السطحية (في وسائل الإعلام، ليست هذه سوى أحكام مسبقة ومتحيزة، لكنها تقبل على الفور بوصفها حقائق)، أو استهجان الوحشية والتنديد بعدم المبالاة لمعاناة وتباريح البشر.

هذه الحرب العالمية لا تدور حول نهاية الزمان، لكن رؤساء دول العالم - من المسلمين وغير المسلمين -يتصرفون وكأنهم ينجرفون بتهور لخوض معركة ارماجدون(*). وتأكد للكثيرين أن القيامة على الأبواب بسبب انتشار العنف والفوضى والظلم - وهي من

(*) المعركة النهائية الحاسمة التي ستخوضها قوى الخير وقوى الشر عند نهاية العالم (المترجم).

علامات اقتراب الساعة. وفي حين يتحدث المسيحيون من أتباع العقيدة الإنجيلية بحماس وحمية عن العودة الثانية للمسيح والمعركة النهائية بين الخير والشر (حيث يمثل المسلمون أعداء المسيح)، ينتظر معظم المسلمون الشيعة عودة الإمام المهدي المنتظر الذي سيقودهم في معركة مشابهة. ولإضافة مزيد من التعقيد على القضية، يعتقد المسلمون أن المسيح سيكون في صفهم في المعركة ضد الشر وسوف يكتب لهم النصر حتما. وهكذا، أصبحت سياسات الرئيس بوش، المعروفة باسم مبدأ بوش، المؤسسة على أفكار مثل "الضربة الاستباقية" و"تغيير النظام"، وبيانات الرئيس الإيراني أحمدي نجاد التي تدعو إلى محو إسرائيل، الخطوات المنطقية الأولى نحو تحقيق هذه النبوءة، أي المواجهة الحاسمة بين الخير والشر. لم تتبد من قبل مثل هذه الحاجة إلى تلك الألفاظ التي نادرا ما ذكرت، بل لم تذكر على الإطلاق: "الإحسان" و"التعاطف" و"المحبة".

مثل الحادي عشر من سبتمبر معلما مميزا للتصادم بين حضارتين: حضارة الغرب التي تقودها وتمثلها الولايات المتحدة، وتلك المكونة من المجتمعات الإسلامية وأتباع الإسلام كلهم. ووفقا لأطروحة صمويل هنتنغتون، يجسد هذا جزءا من صدام تاريخي مستمر بين الحضارة الغربية والحضارات اللاغربية، ثم اختزله المعلقون الأمريكيون إلى مواجهة بين الولايات المتحدة والإسلام. وكأنما أراد ناشر كتاب هنتنغتون إثبات هذه المقولة، حيث وضع على غلاف الطبعة الأولى رايتين متعارضتين: علم الولايات المتحدة بنجومه وخطوطه، وراية خضراء عليها هلال أبيض ونجمة بيضاء[4]. لكن الحقيقة أشد تعقيدا من ذلك.

تختلف الحضارتان إثنيا، وتضمان مجتمعات متباينة في خلفياتها التاريخية، وتجمعهما علاقة متوترة. كانت الولايات المتحدة، التي خرجت منتصرة بعد انهيار عدوها القديم الاتحاد السوفييتي، مستعدة نفسيا للوقوف في وجه تهديد عالمي آخر. استخدم الخطاب البلاغي التحريضي لبعض المسلمين، مثل أسامة بن لادن، وتفجير السفارتين الأمريكيتين في إفريقيا، والمدمرة "كول"، كذرائع تبريرية أولية لاستهداف العالم الإسلامي. وشعر المسلمون بالإحباط نتيجة عدد من المخاوف والمشاغل والهموم: العجز الأمريكي عن حل مشكلتي فلسطين وكشمير، والتخلي عن أفغانستان بعد أن

هلك العديد من سكانها في قتال الاتحاد السوفييتي، وتمركز الجنود الأمريكيين في بعض البلدان الإسلامية.

ومع ذلك، صدم ما حدث في الحادي عشر من سبتمبر وما نجم عنه من خراب ودمار وقتل وفوضى وارتباك الغالبية الساحقة من المسلمين، الذين تعاطفوا مع أحزان ومآسي الأمريكيين. ونظمت تجمعات عامة في القاهرة وطهران وإسلام أباد للصلاة من أجل الضحايا والتعبير عن الوقوف إلى جانبهم. لكن هذه النيات الحسنة لم تعمر طويلا. إذ تحول الحزن والتعاطف إلى غضب وحنق حين نفست الولايات المتحدة عن غضبها وانتقامها في أفغانستان ثم العراق. ومع استمرارها في مسعاها الأعمى لتحقيق الأهداف المراوغة، مثل الديمقراطية والأمن، انحدرت العلاقة بين العالمين إلى درك الصراع، واتسعت الشقة بينهما باطراد.

الولايات المتحدة التي عرفتها كانت مختلفة. فقبل عقدين من السنين عملت أستاذا زائرا في معهد الدراسات المتقدمة في برنستون، قادما للتو من تلال وجبال وزيرستان الوعرة (في باكستان)، التي يعتقد الآن أن أسامة بن لادن ربما يختبئ فيها. سحرتني البحيرات الهادئة، والغابات الخضراء، وممرات وحدائق المعهد، وبهرني زملائي من الأساتذة البارزين، وبعضهم من الفائزين بجائزة نوبل. اتسم الأمريكان الذين قابلتهم بالود والانفتاح ورحبوا بي أجمل ترحيب. ومع أنني أدركت أن هذا المجتمع لا يمثل المجتمع الأمريكي كله، إلا أنه ترك في نفسي انطباعا لا يزول عن كرم وحسن ضيافة الأمريكيين، واحترامهم للتعليم، وانفتاحهم على الأفكار الجديدة. وكانت الولايات المتحدة هي المكان الذي اخترته دون تردد لأعيش فيه في صيف عام 2000. ولهذا وجدت نفسي في واشنطن في الحادي عشر من سبتمبر 2001، عندما اقتحم الإسلام خشبة المسرح العالمي بتلك الطريقة المباشرة والدرامية التي يصعب محو آثارها.

كان الخاطفون التسعة عشر من المسلمين. لقد دمروا الرمز المالي للعولمة في نيويورك، وهاجموا أهم رمز عسكري في الولايات المتحدة. وقتلوا 2973 من المدنيين الأبرياء، إضافة إلى أربعة وعشرين من المفقودين الذين اعتبروا في عداد الأموات. أصيبت الولايات المتحدة، الرمز المجسد للعولمة في الفكر والممارسة، بضربة موجعة في الصميم.

ومثلت الهجمات المروعة أيضا ضربة ماحقة لقيم العدل والإحسان والعلم التي أعجبت بها في الحضارتين كلتيهما.

انجرفت الولايات المتحدة، القوة العظمى الوحيدة في العالم والقادرة على قيادة الطريق في مواجهة التحديات العالمية، مع مشاعر الغضب، وركزت طاقاتها ومواردها على طلب الثأر والانتقام. ومع تنامي مشاعر الغضب والإحباط لدى المسلمين أيضا، سمحت الحضارتان للكراهية والتحيز بالهيمنة على الفصل الجديد في كتاب العولمة. ومنذ الحادي عشر من سبتمبر، تجاهل الطرفان الأزمات العالمية الأخرى المحفوفة بالخطر، التي يستحيل العثور على حل لأي منها قبل أن يدخل عالم الإسلام في علاقة تشاركية يسودها الاحترام المتبادل مع بقية بلدان العالم.

لن يكون ذلك سهلا. إذ فاقم الحادي عشر من سبتمبر الانقسامات الفلسفية والتاريخية العميقة بين الغرب والعالم الإسلامي. فإدراك الإسلام بوصفه دينا يتناقض مع الغرب ومتخلفا عن ركبه يقع في صميم تعريف الغرب لذاته. فهو يعتقد أنه نجح في التوصل إلى تسوية توافقية ومتوازنة بين الدين والعقل، في حين فشل الإسلام في ذلك. وهذا التناقض بين الغرب (الذي يهيمن عليه الفكر العلماني والعقلاني كما هو مفترض) والمجتمع الإسلامي التقليدي هو الذي يمثل أساس الاحتكاك وسوء الفهم. فهل يجب الافتراض إذن، كما يزعم بعض النقاد، أن الإسلام يتناقض مع العقل؟

استطاع الدين والعقل في الإسلام، خلال ما تدعوه أوروبا بالعصور الوسطى، التعايش معا في تناغم مريح وتوائم صريح. وقدم الفقهاء والعلماء الحجة على أن الدين يعزز ويغني ويزيد فهم العالم الدنيوي والمادي، فيتعمق الإيمان ذاته. ونتيجة لذلك، أعيد تفسير النصوص المقدسة. وأكد العديد من المفكرين والفلاسفة المسلمين أن النص المقدس بحاجة إلى إعادة تقصي وتفحص وحتى إلى إعادة تفسير في ضوء المدركات والمعارف المعاصرة، إذا بدا أنه يناقض - ظاهريا - ما يقوله العقل. فالله، برأيهم، لم ينزل على البشر كلامه فقط بل وهبهم العقل أيضا، وهو المرشد الهادي لفهم النص.

قبل زهاء ثلاثة قرون، بدأ العقل يتفوق على الدين ويكتسحه في المجتمعات المسيحية، وهذا ما حتم فصل الكنيسة عن الدولة، وشجع وروج العقلانية والمنطق والعلم، إلى جانب

التقـدم الصناعـي. وسرعان ما أصبح تحسين الوضع المـادي / الدنيوي الهدف الرئيس للمجتمـع البشري الذي كبـح في أعلى أشكاله الدين وعده متشبثا بتقاليد عتيقة تجاوزها الزمـن. ومثلت الثورة الصناعية والتأثير اللاحق للأفـكار والممارسات الرأسمالية دليلا على هذا التوكيد الجديد.

وبـدءا من القرن التاسع عشر، قامت الأمم الأوروبية التي اتبعت هذا السبيل بتوسيع سلطانهـا وسلطتهـا في العالم، فاستعمـرت واستغلـت المجتمعات التي كانـت أقل تقدما وأخضعـت معظـم العـالم الإسلامي لهيمنتهـا الإمبراطوريـة. وبحلـول منتصف القرن العشريـن، بدأت هذه المناطق والبلاد الإسلامية بالظهور مجددا متخذة أشكالا سياسية مختلفة نتيجة معاركها النضالية المتنوعة لنيل "الاستقلال". بعضها طمح لتأسيس نظام ديمقراطي، وبعضها الآخر رضي بحكم الأسر المالكة المدعومة من القوى الغربية، في حين تطلع غيرها إلى النماذج الاشتراكية التي شاعت آنذاك وتلقت المساندة من موسكو.

ومنذ أواخر القرن العشرين غاص العالم الإسلامي في عصر العولمة، الذي عده الكثير مـن شعوبه مشابها لصيغـة جديدة من الإمبريالية الغربية. حيـث تركزت بؤرة اهتمامه على إنتاج معظم السلع بأقل تكلفة ممكنة، على طريق تراكم الثروة للقلة وارتفاع مستوى المعيشـة دون الالتفـات إلى الأثر السلبي علـى المجتمع. ولم يحظ الديـن في أنقى معانيه الروحيـة، ولا العقل المؤسس على الأفكار التقليدية للعدالة والمنطق، بمكان بارز في فلسفة العولمة. أما غيابهما (الدين والعقل)، إضافة إلى أحداث الحادي عشر من سبتمبر، فقد فاقم تشوه مقاربة الغرب للإسلام.

رحلة إلى العالم الإسلامي

أوجـدت هـذه العوامل جميعا قدرا كبـيرا من الانزعاج والقلـق في العالم الإسلامي، ونتيجـة لذلـك، كانت الأصـوات التي تدعـي التحدث باسـم الإسلام مختلفـة ومتباينة ومتضاربة منذ الحادي عشر من سبتمبر. عقدتُ العزم بعد أن صدمت بهذا الاضطراب والهيجـان وسـوء فهم الغرب للعالم الإسلامي على العودة إليـه لأسمع ما يقوله المسلمون فعـلا وأختـبر الأحداث على أرض الواقع مباشرة لا عـبر مرشحات "سي.ان.ان" أو "بي بي سي"، وأقوّم كيف يستجيبون للعولمة. ففي كثير من الأحيان، ينغمس العلماء والأساتذة

الزائرون في نظرياتهم ويهملون النظر خارجها ومعاينة العالم الإسلامي الحقيقي. أردت تجنب هذا الخطأ عبر مراقبة المسلمين والتحدث إليهم وسماع آرائهم وأفكارهم. وحين ناقشت فكرة القيام برحلة ميدانية طويلة من هذا النوع قدمت الجامعة الأمريكية، ومعهد بروكينز، ومنتدى بيو المعني بالأديان والحياة العامة، الدعم والتأييد والمساندة.

بدا أن إحدى الطرق الواضحة لفهم المجتمع الإسلامي بصورة أفضل تتمثل في معرفة واكتشاف ما يلهم أفراده ويصوغ قيمهم في الماضي والحاضر. وفي سبيل هذه الغاية، كان من المهم معرفة الكتب التي يقرؤونها، وكيف تؤثر الإنترنت ووسائل الإعلام العالمية في حياتهم، وهل يمكن تحديد وتعريف ذهنية المسلم في نهاية المطاف وكيف تتصل بالإسلام. ولن تكون هذه دراسة "استشارية" نمطية تتألف من مقابلات شخصية مع نظراء وأنداد يتبنون آراء وأفكارا مشابهة في بيئة مريحة. بل محاولة جادة حقيقية للتنقيب والحفر في عمق المجتمع الإسلامي وتوثيق تجارب ومدركات المسلمين العاديين عبر طيف جغرافي واسع وعريض.

تختلف المناطق التي قمنا بزيارتها - الشرق الأوسط، وجنوب آسيا، وشرق آسيا - من عدة جوانب وملامح مهمة. فالمعلم المميز للشرق الأوسط يتمثل في اللغة المشتركة - العربية - التي يستخدمها سكانه، وهي لغة القرآن الذي تنزل على النبي: فضلا على أن النبي نفسه كان عربيا. ولأن القرآن وسنة النبي هما الركيزة المؤسسة للعقيدة الإسلامية والهوية الإسلامية، يشعر العرب بنوع من التفوق الروحي على المسلمين الآخرين. بعض البلدان العربية غنية بالنفط، وبعضها الآخر يتأثر تأثرا مباشرا بالصراع في فلسطين والعراق بسبب القرب الجغرافي. أما الملمح اللافت في المنطقة التالية، جنوب آسيا، فهو الأصول الهندية لسكانها. هنا، تفاعل وتآثر الهندوس من ممارسي اليوغا مع المتصوفة المسلمين للعثور على طرق وسبل لتبادل فهم المقدس عبر فجوة الأديان. وما تزال الحيوية ترشح من هذه المنطقة، التي ظهرت فيها إمبراطورية المغول وغيرها من الإمبراطوريات الإسلامية القوية ونافست تلك الموجودة في المنطقة العربية. المنطقة الثالثة، الشرق الأقصى من آسيا، التي تضم ماليزيا وإندونيسيا، لا تتحدث العربية ولم تكن جزءا من أي إمبراطورية إسلامية كبرى، فقد وصل الإسلام إلى هناك برفق وبطء بواسطة التجار

والمتصوفة، وتكيف وامتزج وتوالف مع مختلف الديانات، خصوصا الهندوسية والبوذية والمسيحية.

كانت مقاربتنا، بالضرورة، متعددة التخصصات: فقد سعينا إلى الاعتماد على أفضل الرؤى والمنجزات المتحققة في العلوم السياسية والاجتماعية واللاهوتية، وفوق كل شيء الأنثروبولوجية. وأعتقد أن الأنثروبولوجيا تقدم أدق صورة ممكنة للمجتمع - أي مجتمع - برمته عبر مناهجها الجامعة والشاملة[5]. فالأنثروبولوجيون يعيشون بين الناس الذين يدرسونهم ويتفاعلون ويتآثرون معهم، ويجمعون المعلومات عن أنماط مميزة من السلوك عبر "مشاهدة المشارك"، إضافة إلى الاستبيانات واللقاءات والمقابلات. هذه الأنماط - وهي في حالتنا أنماط تتعلق بالزعامة، وتأثير الأفكار الأجنبية في المجتمع، ودور المرأة، وقواعد السلوك القبلية والعشائرية خلال وقت التغيير، وانتشار الاضطراب وحتى العنف - يمكن أن توفر أدلة لمعالم تعرّف ومفاتيح لملامح تحدد المجتمع، وهي ما دعاه أحد الآباء المؤسسين للأنثروبولوجيا، برونيسلاف مالينوفسكي "عوامل الحياة الأهلية والسلوك النمطي غير القابلة للقياس"[6]. ومثلما أشار عالم آخر من كبار المتخصصين في هذا الميدان "توفر الأنثروبولوجيا ركيزة علمية للتعامل مع المعضلة الحاسمة لعالم اليوم: كيف يمكن لشعوب مختلفة في المظهر واللغة وأساليب الحياة المتباينة أن تتعايش معا بسلام؟"[7].

حتى بعض الكتب التي ألفها أنثروبولوجيون قبل جيل من الآن تستحق أن تقرأ لتعرّف بصيرة وفطنة أفكارها، وذلك على العكس من الحالة الكئيبة والأفكار الهزيلة للدراسات والتعليقات المعاصرة. فعلى سبيل المثال، يعرض كتابا كليفورد غيرتز "الإسلام تحت المراقبة"، وارنست غيلنر "المجتمع الإسلامي"، تحليلا متقنا للمجتمعات الإسلامية من المغرب حتى إندونيسيا، وما زال كل منهما يبهر القارئ برؤاه الثاقبة الجديدة[8].

حين عملت على رسالة الدكتوراه في كلية الدراسات الشرقية والإفريقية بجامعة لندن قبل ثلاثة عقود ودرست قبائل البشتون، التي يدعوها البريطانيون "الباتان" وعاشت على طول الحدود الباكستانية الأفغانية، كان يجب على العالم المتخصص بعلم الاجتماع أن يقضي في الحالة النموذجية سنة واحدة في إعداد العمل الميداني، ثم سنة أخرى في

إجـراء الأبحـاث في الميدان، وسنة ثالثة وأخـيرة في كتابة النتائج التـي توصل إليها. لكن التطـورات التي حدثت مذاك في تقنية المعلومـات، والاتصالات، والسفر، عدلت الشروط اللازمة للعمل الميداني الأنثروبولوجي التقليدي، وهذا سهّل الوصول إلى المجتمعات المحلية النائيـة، لكنه أحدث أيضـا بعض التغييرات فيها. ونتيجة لذلـك، وجدنا أن بضعة أشهر مكثفة من البحث الميداني كافية لتحقيق أهدافنا. إذن، لم تكن هذه دراسة أنثروبولوجية تقليدية بل نزهة أنثروبولوجية إذا جاز التعبير.

منهج البحث

الاستبيانـات التـي وضعناها كانـت مصممة للحصـول على رؤية متعمقـة للمجتمع الإسلامـي المعاصر عبر استطـلاع آراء ومشاعـر الناس الحقيقية فيما يتعلـق بالشؤون الدوليـة. وقد أعطيت إلى زهاء 120 شخصا في مواقع مختلفة (جامعات، فنادق، مقاه، مدارس، مساجـد، منازل) في كل بلد زرناه، وشملت استفسـارات عما يقرؤه المبحوثون، وماهيـة التغـيرات التي لاحظوهـا في مجتمعاتهم، وطبيعـة تفاعلهم اليومي مـع التقانة والأخبـار، والأهم آراءهـم الشخصية عن النمـاذج المعاصرة والتاريخيـة التي يحتذون مثالها (انظر الملحق).

لكن ثبت أن أسلوب المقابلة الشخصية مفيد على نحو خاص لأن المبحوثين شعروا أن الكوابـح تقل في الأحاديث المباشرة. ففي البيئـة القامعة والقاهرة في العديد من البلدان الإسلاميـة، حيث المؤسسات الاستخبارية والأمنية متيقظـة ومنتبهة على الدوام، يحجم الأفراد عن الإدلاء بآرائهم السياسية الحقيقية كتابة. وكثيرا ما يصرح هؤلاء بصدق عن آرائهـم ومعتقداتهم في الأحاديث الخاصـة في حين يلتزمون الحيطة والحذر في أجوبتهم المكتوبة. على سبيل المثال، أخبرني العديد من المدرسين أن الطلاب أشد إعجابا وانسحارا بـبن لادن مقارنة بما يكشفونه لنا في الصفوف المدرسية. ولذلك، لم نعد استبياناتنا أداة إحصائية معيارية، بل مصدر مكمل للمعلومات "لاختبار المياه الجارية" في كل بلد، وليس أخذ درجة حرارتها الدقيقة.

كانت مقاربتنا الإجمالية أشبه برواية وتقويم وتقدير شخصي لما كان يحدث في العالم الإسلامـي منذ الحادي عشر من سبتمبر. ومن اللافت أن مشروع بيو لاستطلاع المواقف

العالمية، الـذي نفذ في الوقت ذاته على نطـاق أوسع في مختلف أرجـاء العالم الإسلامي وأوروبا والولايات المتحدة، أيد عموما النتائج التي توصلنا إليها[9].

غلت الأسئلة معلومات مهمة ووثيقة الصلة بموضوعنا، مع أنها بدت بسيطة وساذجة. على سبيل المثال، السؤال الأول في اللائحة تناول خمسة نماذج معاصرة يحتذي المسلمون مثالها (إذا لم يجد المبحوث أحدا، يمكن أن يتطلع إلى قدوة له خارج المجتمع الإسلامي). فـإن اختـار المبحوث الشاعـر الصوفي جلال الديـن الرومي، نعلم أنه أكـثر تسامحا من الآخريـن؛ وإن اختـار برويز مشـرف، فربما يفضل التعـاون الاقتصـادي والسياسي مع الغـرب. أما في حالة اختيـار المبحوث أسامة بن لادن أو أحمدي نجـاد، فمن الأرجح أنه يفضـل النموذج الذي "يقف في وجه الغرب". لم تشر اللقاءات الشخصية والإجابات عن أسئلـة الاستبيانات على حد سواء إلى نماذج معاصـرة واضحة المعالم ومحددة الدلالات في نظـر المسلمين في الشرق الأوسـط وجنوب آسيا. ربمـا كان المبحوثون على صواب من الناحيـة السياسية. لكن إندونيسيا، أكبر دولة إسلاميـة في العالم، أظهرت فعلا اتجاها واضحـا - وراديكاليا. فقـد احتل بن لادن المرتبة الثانية في الشعبيـة لأكثر النماذج التي يحتـذى مثالهـا، في حين تنافس صـدام حسين وياسر عرفات على المركـز الرابع، بنسبة 20% مـن الأصوات. واستنتجنـا أن المبحوثين الذين اختـاروا شخصيات تمثل الحداثة في الإسـلام، مثـل سيافي أنـور - وإسماعيل نـور في ماليزيا - لا بد أنهـم شعروا بالعزلة والإقصـاء والاضطهـاد في مجتمعاتهم. وربما وجد اتجاه راديـكالي مشابه في مجتمعات إسلاميـة أخرى زرناها، لكن لم يعـبر عنه صراحة أمامنا. أما ما توضح لنا فهو أن مارد الشرق النائم كان يتحرك. وعلى العالم أن ينتبه له.

النمـاذج التـي يحتذى مثالها من الماضـي والتاريخ كشفت أيضـا الكثير عن المجتمع المعاصـر. في دمشق، احتل عمر بن الخطـاب (الخليفة الراشدي الثاني في القرن السابع الميـلادي) وصلاح الدين (الذي عاش في القرن الثـاني عشر) قمة اللائحة، حيث تفوقا في الشعبية حتى على النبي ذاته، الذي يمثل القدوة الأولى لمعظم المسلمين كما هو متوقع. لكـن في هـذه الإجابات معنـى ضمنيا: فقد فتح عمـر وصلاح الدين القدسـ للمسلمين، وكلاهمـا حاكم مسلم عظيم اتصف بالنبل والشهامـة والورع والتقى، والأهم أنه انتصر

في ساحة الوغى. ونظرا لقرب القدس من دمشق وخضوعها للاحتلال، يتطلع المسلمون هنا بتشوق إلى قادة من طراز عمر وصلاح الدين.

وفرت المسوح غير الرسمية بداية لما توقعنا أن نعرف عنه المزيد: ففي حين أدرك المسلمون أنساق العولمة ورغب الكثيرون منهم بالمشاركة فيها، إلا أنهم شعروا بأنهم ممنوعون من الحصول على منافعها وفوائدها. فنفسوا عن غضبهم في خضم إحباطهم وخيبة أملهم باللجوء إلى النماذج والقادة الذين وعدوهم ببعض الأمل في استعادة شرفهم وكرامتهم. لهذا يفضل هذا العدد الكبير من الشباب المسلم في عصر العولمة بن لادن على بيل غيتس.

في حين أن قاعدة عملياتنا للرحلة كثيرا ما كانت فندقا رحبا، إلا أننا زرنا أيضا أماكن بعيدة جدا عن حدوده وتخومه. وعبر زيارة الأسواق أو البلدات النائية أو مجرد ركوب سيارات الأجرة، مثلا، تمكنا من التحاور والتحدث مع المسلمين العاديين، الذين حرصوا عادة على عدم التكلم في السياسة مع الغرباء، لكنهم كانوا أكثر صراحة حين علموا أنني مسلم. وبذلك، شاهدنا جانبا من المجتمع الإسلامي لا يظهر غالبا على العلن.

فضلا على ذلك كله، وفرت المقابلات مع الشخصيات الإسلامية المهمة لمحة إلى أفكارها الداخلية المتعلقة لا بدورها كنماذج يحتذى مثالها فقط، بل برؤيتها لمستقبل الأمة الإسلامية. بعض الإجابات كانت مفاجئة فعلا. فقد ملأت الإثارة الرئيس برويز مشرف وهو يصف الحملات العسكرية الناجحة لبطله، نابليون بونابرت (كانت معركة اوسترليتز أعظم نصر حققه نابليون برأيه). أما مصطفى سيريتش، مفتي البوسنة الذي قابلناه في الدوحة، فقد اختار الإمام الغزالي، الفيلسوف والفقيه الشهير، قدوة له. في حين تحدثت بنظير بوتو بحماس عن القدوة التي اختارتها، فاطمة بنت النبي، ووجدت فيها العديد من أوجه الشبه، فكلتاهما فقدت والدها الحبيب في وقت حاسم من حياتها. ولم يكن من المفاجئ أن يكون نبي الإسلام النموذج الذي يحتذى مثاله برأي جميع هذه الشخصيات الإسلامية العالمية.

كان هؤلاء القادة والزعماء المسلمون يعبرون عن مشاعر أوسع تجتاح العالم الإسلامي. فالنبي هو القدوة النهائية في نظر الأغلبية الساحقة من المسلمين، بغض النظر عن الجنس

والعمـر والعرق والجنسيـة. لذلك لم يفاجئنـي اكتشاف أن الإدراك المشـوه للإسلام في الغرب - الذي يشمل شن الهجمات والانتقادات اللاذعة على النبي - كان الشغل الشاغل لعقول المسلمين حين سئلوا عن أهم مشكلة تواجه الإسلام. وهيمنت على الأجوبة المتوقعة - إسرائيـل، محنة الفلسطينيـين، الوضع في العراق - فكرة أن الغرب يضمر حقدا دفينا خبيثـا علـى الإسلام ويحـاول إلحـاق الأذى به. ولا شـك أن أولئك الذيـن يخططون في العواصـم الغربية ويضعون استراتيجية تستهدف اكتساب قلوب وعقول المسلمين، بحاجة لأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار.



رئيس الوزراء الباكستاني السابق، تشودري شوجات حسين (الثاني من اليسار)، ورئيس وزراء إقليم البنجاب، أكبر مقاطعـة باكستانيـة، برويـز إلاهي (في أقصى اليمين)، أقامـا حفل غداء في مكتب إلاهـي في لاهور (حيث أحاطت بالضيوف صور أباطرة المغول) تكريما للفريق، ويبدو أكبر أحمد وهيلي ولدت.

كنـا - أنـا وفريقي - على وعي تـام بالسياق الثقـافي للمسح الذي أجرينـاه. ولأنني مسلم، استطعنا الوصول بطريقة استثنائية إلى العديد من الأشخاص والشخصيات طوال رحلتنـا. فقد تلقينا دعوات عديدة إلى المنازل أو الغداء أو العشاء أو لحضور الاجتماعات غير الرسمية، وتعلمنا الكثير عن آليات عمل المجتمعات الإسلامية: ومن بين هؤلاء الذين أظهـروا كـرم الضيافة لنـا أصدقـاء في استنبول، والشيـخ فرفور في دمشـق، وأصدقاء وعائـلات في كراتشـي وإسلام أباد، وكبير علمـاء الدين في ديوباند. حتـى الشخصيات السياسية الشهيرة دعتنـا إلى الغداء أو العشاء وشاركتنا أفكارها عن الإسلام وتجاربها

في المجتمعات الإسلامية. في باكستان مثلا، ضمت قائمة مضيفينا محمد ميان سومرو، رئيس مجلس الشيوخ؛ وعضو مجلس الشيوخ مشاهد حسين؛ والوزير السابق شفقت شاه جاموت؛ وأسد شاه؛ وصدر الدين هشواني؛ وغضنفر مهدي.

أرسل تشودري شوجات حسين، رئيس وزراء باكستان الأسبق، وبرويز إلاهي رئيس وزراء البنجاب، أكبر أقاليم باكستان، موكبا من الشرطة إلى مطار لاهور لاصطحابنا إلى مأدبة غداء قبل أن نغادر إلى دلهي. ولم نستقبل بحرارة فقط بل قدمت لكل منا سجادة باكستانية ملونة تذكارا لزيارتنا. كان حسين مضيفا ودودا وكريما، حتى حين اشتكى مازحا من أنني "سيئ مثل بوش" بعد أن عرف بأنني سأمضي في الهند ضعف المدة التي قضيتها في باكستان. وكان يشير بذلك إلى زيارة بوش إلى باكستان التي استمرت يوما واحدا وأثارت عاصفة من الانتقاد في وسائل الإعلام لأنه أمضى أسبوعا تقريبا في الهند. كانت صورة شابين أمريكيين يتناولان الغداء مع رئيس وزراء باكستان السابق في غرفة الطعام الخاصة الكبيرة لرئيس وزراء البنجاب، وقد ملأت جدرانها صور أباطرة المغول، شهادة تثبت الكرم المتأصل في الأشخاص الذين زرناهم ومدى أهمية الدراسة التي أجريناها. تلقينا طوال الرحلة أيضا ترحيبا مشابها من السفارات الأمريكية، التي تحيط بها عادة إجراءات أمنية مشددة فتبدو مثل السجون المحروسة، ومن السفارات الباكستانية. واكتسبنا مزيدا من الرؤى المتعمقة من وجهات نظر الدبلوماسيين وتجاربهم وخبراتهم.

لم تمنعنا الأخطار الحقيقية والمباشرة المحدقة من المغامرة بتجاوز أسوار الفنادق وحراس السفارات. ألقيت محاضرات عامة في المساجد والمدارس، فضلا على غيرها من المنتديات. وفي كل مكان واجهت وابلا دفاقا من المشاعر والأسئلة المناهضة لأمريكا والمعادية للسامية (غدا العداء للسامية أكثر مراوغة نسبيا، وإن ظل حماسيا، حين انتقلنا خارج العالم العربي). كنت أجيب بالقول إن أمريكا ليست كتلة جامدة واحدة وكذلك اليهود، مع الإشارة إلى أن من الخطأ أن يرى المسلمون والأمريكيون بعضهم ككتلة صلدة واحدة وغير متمايزة. مستشهدا بقس وحاخام، وغيرهما، مد كل منهم يد الصداقة والترحيب إلي في واشنطن في تلك الأيام الكئيبة والعصيبة بعد الحادي عشر

من سبتمبر، ذاكرا على وجه الخصوص القس جون تشاني من الكاتدرائية الوطنية الذي بعث إلي برسالة تهنئة وتحية بمناسبة عيد الميلاد حركت مشاعري بسبب ما أظهرته من إحسان وتراحم وتعاطف ووحدة بين ذرية إبراهيم: "جبريل أرسله الله لينزل التوراة على موسى، والقرآن المقدس الكريم على النبي محمد". كان الإقرار بقداسة القرآن ونبوة محمد كافيا لإحداث زلزال لاهوتي في ذهني، لكن كلمات القس في سياق العداء المستفحل للمسلمين بعد الحادي عشر من سبتمبر، أظهرت شجاعة نادرة ومخيلة استثنائية وتراحما قل نظيره.

على جانب المسلمين، عبرت وزيرة المغتربين في سورية، بثينة شعبان، والعديد من المسلمين طوال رحلاتنا، عن مشاعر مشابهة من الروحانية المشتركة بين الأديان. أبلغتنا شعبان أن "المسلمين والمسيحيين ظلوا من عام 627 وحتى عام 647م يصلون معا في الجامع الأموي، إلى أن تقرر بناء كنيسة. يجب ألا نفكر بشرق وغرب. إذ لا يمكن أن تكون مسلما حتى تؤمن بإبراهيم وعيسى. إن أقدم كنيس يهودي موجود في دمشق وكذلك أقدم كنيسة في العالم".



المسلمون يصلون داخل الجامع الأموي أمام مقام النبي يحيى (القديس يوحنا المعمدان). أما قبر صلاح الدين، الحاكم المسلم العظيم، فيقع لصق سور المسجد.

بثينـــة شعبان على حق. فالتاريخ الإسلامــي يظهر ثراء وتعقيدا على الصعيد الثقافي يؤكـد ان قدرة الإسلام على استيعاب وتمثل التقاليد التراثية المختلفة. تأكد لنا ذلك عند زيارتنا للمسجد الكبير في دمشق الذي بناه الأمويون، أول أسرة عظيمة حكمت المسلمين. فحـين شيـد المسجـد في القـرن السابع، اشـترك في الحيز المـكاني مع كنيسـة موجودة سابقـا، ومارس المسلمون والمسيحيون شعائرهم التعبدية معا. لكن في القرن الثامن، أمر الخليفة ببناء مسجد كامل في المكان ليرمز إلى الأهمية المتعاظمة لدمشق كعاصمة للعالم الإسلامـي. ويقال إن المسجد، الذي كان أكبر وأكـثر المساجد تأثيرا آنذاك، ضم أضخم فسيفسـاء مذهبة في العـالم إلى أن أتلف حريق نشب عـام 1893 تشكيلات الفسيفساء ودمر معظم المسجد ذاته تقريبا.

تظهـر عمـارة المسجـد الكبـير بأسلـوب درامـي التأثـيرات البيزنطيـة والرومانية والعربيـة، مـع أن المخطط الهيكلي العام مؤسس على بيـت الرسول في المدينة. وهو يضم مقـام رأس يوحنا المعمدان (النبي يحيـى في الإسلام)، ومقاما آخر يحوي رأس الحسين حفيـد الرسـول وابن علي بـن أبي طالب الذي يجلـه الشيعة؛ ويقع خـارج أسوار المسجد مباشـرة قـبر صلاح الدين، أحد أعظم القادة المسلمـين، وكان البابا يوحنا بولس الثاني قـد زار مقام يوحنا المعمدان عام 2001، وأصبح بذلك أول بابا يزور المسجد. رأيت رأي العـين كيف يأتي الزوار إلى كل هـذه المواقع التاريخية: حيث يصلي المسيحيون عند مقام النبـي يحيى، والنساء المتشحـات بالسواد اللاتي أتين من إيران وما زلن يندبن الحسين، والعلماء والفقهاء والسياح يعبرون عن إعجابهم وتقديرهم لصلاح الدين.

سمـى العديد من المسلمين خـلال رحلتنا المسيحيـين واليهود "أهـل الكتاب" الذين يجلهـم القـرآن ويتقاسمون مع المسلمـين كثيرا من الروابط المشتركـة. تلك هي الرسالة التي كنت أسعى إلى نشرها في الولايات المتحدة. وخلال حديثي مع جمهوري من المسلمين، كنـت أذكر أيضا أنني تأثرت شخصيا بمثال صديقي جوديا بيرل، الذي فقد ابنه الوحيد داني في جريمـة قتل وحشية ومروعة في كراتشي. وبصفتي أبا، عرفت مدى عمق الجراح التـي أصابت جوديا وزوجتـه روث. فبعد أن عرفته على مدى السنـين عبر حواراتنا التي أجريناهـا على الصعيدين الوطني والعالمي لتشجيع الفهم المتبادل بين المسلمين واليهود،

رأيت كيف حول بأسلوب بطولي مأساته الشخصية إلى جسر في سبيل فهم الحضارة ذاتها التي أفرزت قتلة ولده. كنت أشرح قائلا إن مثل هذه الصداقات ساعدت على تغيير العلاقات بين المسلمين واليهود والمسيحيين في الولايات المتحدة.

قتل داني بيرل نتيجة الكراهية، والمشكلة مع الكراهية أنها تزدهر وتنمو على الكذب والتزوير. لقد صدمت حين اكتشفت المدى الذي تستخدم فيه الكتابات المزورة والخيالية، مثل كتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" لتوليد الكراهية لليهود. هنالك أفلام صنعت في الشرق الأوسط منذ عهد قريب اعتمادا على هذه الرواية المختلقة، ويبدو أن الملايين يقبلونها كحقيقة لا لبس فيها. في هذا المناخ، حازت الكتابات والعبارات التي تضع محرقة اليهود (الهولوكوست) موضع المساءلة والتشكيك وتشجع على استئصال شأفة شعوب بأكملها، حازت القبول والموافقة، مع أن العديد من المسلمين أمثالي يجدونها غير مقبولة وكريهة وعبروا عن رأيهم بها علنا. في الوقت ذاته، انتشرت أكاذيب مماثلة عن المسلمين، "عبدة الشيطان" وأتباع رجل كان "إرهابيا". وشاعت وقبلت بوصفها حقائق دامغة. ولا شك في أن مثل هذه القوالب المنمطة تشجع مزيدا من الكذب والتزوير والبهتان وتخلق جوا يمكن أن يفضي إلى العنف.

يتطلب كبح انتشار مثل هذه المدركات الخاطئة والتصورات المغلوطة أكثر من مجرد أساليب لبقة ومهذبة. ففكرة أن اليهود "يسيطرون" على العالم بطريقة مباشرة أو غير مباشرة عبر مختلف أشكال المؤامرات تتخلل النقاش في العالم الإسلامي على مستويات عديدة، بدءا بالتعبيرات الحماسية عن النظرة الإيديولوجية إلى العالم، إلى الأحاديث العابرة في الأسواق. وحتى الشخصيات السياسية الشهيرة قد تشير بعبارات جذلة إليها على سبيل التسلية، وذلك كما اكتشفت في المقابلة الشخصية التي أجريتها مع بنظير بوتو في الدوحة (شباط / فبراير 2006). فما زالت السيدة بوتو تحتفظ بحس الدعابة الذي يميز مرحلة الصبا والشباب، مع أنها شغلت منصب رئيسة وزراء باكستان مرتين، وهي مهمة صعبة أوصلت والدها إلى حبل المشنقة. حين التقينا، قالت بخفر مع ومضة التمعت في عينيها: "إذن، أنت تعمل الآن مع مركز سابان؟". فهمت الإشارة المبطنة إلى صلتي مع معهد دراسات الشرق الأوسط الذي حمل اسم المؤسس اليهودي البارز المشهور بأعماله

الخيرية. ابتسمت وأنا أفكر بالمفارقة: كنا معا ضيفين على المؤتمر الذي نظمه المركز ذاته وتكرس لتشجيع الفهم المتبادل بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي.

وبسبب المستويات المرتفعة من المشاعر المناهضة لأمريكا والمعادية للسامية التي واجهتنا خلال رحلتنا، مال الكثيرون إلى لوم غير المسلمين على مختلف المؤامرات التي تحاك ضد الإسلام. وأبلغوا فريقنا أن أعمال العنف في الحادي عشر من سبتمبر، ثم في تفجيرات لندن في السابع من تموز/ يوليو 2005، لم يرتكبها المسلمون بل أشخاص يريدون تشويه سمعة الإسلام. حالة الإنكار الواضحة هذه كانت تملأ بالهم والغم أشخاصا مثلي أدانوا العنف وقبلوا الأدلة الدامغة والمتوفرة على نطاق واسع - ومنها المقابلات على شاشات التلفزيون. وما يثير قدرا مماثلا من الحزن والكرب أن المسلمين غير قادرين على ما يبدو على قبول حقيقة أن جماعات من المسلمين هي المسؤولة عن الصدامات الدموية بين السنة والشيعة في مساجد باكستان أو ضواحي المدن العراقية، أو أعمال القتل الوحشية التي ذهب ضحيتها دانييل بيرل، ومارغريت حسن، ونيكولاس بيرغ. في منتدى بعد آخر، هاجمت أعمال العنف هذه وتحدثت عن الحاجة إلى التوكيد للشباب المسلم أنها تتعارض مع الطبيعة الحقيقية للإسلام.

أعطت تعاليم الإسلام - في صيغتها المثالية - الأولوية فيما يتعلق بالشؤون الإنسانية إلى العلم والمعرفة واستخدام العقل بدلا من العاطفة والغضب والصرعة. ومثلما كنت أذكر المسلمين الذين جاؤوا ليستمعوا إلى محاضراتي، فقد قال النبي "حبر العالم أقدس من دم الشهيد". يحظى هذا الحديث الشريف بأهمية بالغة وله مضامين تتصل بالحالة المعاصرة في العالم الإسلامي. إذ يتلقى العديد من المسلمين الشباب التشجيع على العمل بعكس ما يقوله الحديث وتؤكد التعليمات والدروس التي يتلقونها أهمية التضحية والقتال على حساب المعرفة وطلب العلم والعقل والمنطق. وأردت من كل مدرس وزعيم مسلم استخدام الحديث كشعار؛ ومن غير المسلمين فهم الطبيعة الحقيقية للإسلام بواسطته.

ما أذهلني أكثر من التشكيك الذي عبر عنه المسلمون فيما يتعلق بالأحداث المحيطة بالحادي عشر من سبتمبر التغير في مواقف الأمريكيين تجاه أحداث ذلك اليوم: فبحلول

عـام 2006، أفصـح ثلـث الأمريكيـين عن مثل هـذه الشكـوك وتزايـدت الكتابات التي تضـع نظريـات مختلفة مثيرة للجدل[10]. فقد كان النـاس -بأسلوب بطيء في البداية- يتحـدون سياسـات الإدارة لا فيمـا يتعلق بالحرب على الإرهاب فقـط، بل بالعراق وحتى باستراتيجيتها للأمن.

وفي معرض الاستجابـة للمستوى المرتفع مـن المشاعر المناهضة لأمريـكا والمعادية للساميـة خلال رحلتنـا، لم أستطـع مقاومة اللجـوء إلى غرائز التدريـس الفطرية لدي واقـتراح بعض الكتـب ذات الصلـة ليقرأها جمهـوري في المساجد أو المدارس. الكتاب الأول هـو: "احترام الاختلاف" لجوناثـان ساكس كبير حاخامي بريطانيـا[11]. الكتاب يناشـد ويطالب بإلحاح بالفهم الإبراهيمي في عصر العولمة، ويؤكد الحاجة إلى التعاطف والتراحم والإحسان في جميع ميادين ومجالات التفاعل العالمية، ومنها توزيع الثروة. تلك كانـت واحدة من المرات القليلة التي يوصي فيهـا مسلم بقراءة كاتب يهودي، بل حاخام، في أحـد مساجد دمشق، والمعهد الملكـي في عمان، والمدارس الدينية في دلهيوهذا ما فاجأ الجمهور، حتما.

أوصيـت أيضا بقـراءة كتاب كارين ارمسترونـغ "المعركة من أجـل الله"، الذي يصف الجـدل المحتدم داخل اليهودية والمسيحية والإسـلام بين الأصوليين وإخوانهم الأكثر حداثة أو ليبراليـة في الدين[12]. أمـا كتابي "الإسلام تحت الحصار" فقد مثـل الاقتراح الثالث. وهـو يقدم الحجـة على أن المجتمعـات المعاصـرة تشعر جميعـا بأنها تحـت الحصار[13]. فقـد شعـر الأمريكيون بعد الحادي عشر من سبتمبر بأنهـم معرضون لهجوم متواصل: وفي الحقيقـة كانت عناوين الأخبار التـي تبثها المحطات التلفزيونية تركز على أن "أمريكا تحت الحصـار". الإسرائيليون على استعداد دائم للحـرب ويعتقدون أنهم مطوقون بالملايين من الجـيران الراغبين بمحو دولتهم عن الخريطة. المسلمون يشعـرون بأنهم محاصرون تماما ولهم العديد من الشكاوى والمظالم. وحين تشعر المجتمعات بأنها مطوقة من كل حدب وصوب، تميل إلى اتخاذ موقف الدفاع، وهنا لا توجد فسحة كافية للحكمة أو الرحمة أو التعاطف.

فضـلا على ذلـك كله، كنت حـين أقدم أعضـاء الفريق الأمريكيـين الذين رافقوني في ترحـالي، أذكر الحضور بـأن من الظلم أن يضع المسلمون جميـع الأمريكيين في قالب

مصمت واحد وكتلة صماء صلدة ويحصروهم في خانة الكراهية للإسلام والمسلمين. فعلى الرغم من كل شيء، ها هم طلاب أمريكيون مثاليون يسافرون إلى قلب العالم الإسلامي، يمدون له يد الصداقة وتدفعهم رغبة جارفة في تحسين الفهم وزيادة المعرفة. فعبر النيات الحسنة وتجسيد الدبلوماسية العامة بأفضل صورها، كان هؤلاء الطلاب سفراء حقيقيين لمجتمعهم لأنهم تجشموا مشقة السفر إلى أرض المسلمين، والتزموا بناء الجسور، وطرحوا الأسئلة الصحيحة، مثلما علق جوناثان هايدن:

في العاصمة الإندونيسية جاكرتا، وزعت الاستبيان في صف من خمسين طالبا في الجامعة الإسلامية. صممت الأسئلة لكشف مشاعرهم تجاه الغرب والعولمة والتغيرات الجارية داخل الإسلام. كانت نسبة الطالبات تبلغ 70% تقريبا وتقع أعمارهن بين 19-23 سنة. كان الحجاب إلزاميا لكن لو خلعته أي منهن لبدت مثل أي طالبة جامعية في أمريكا.

اتسم الطلاب بالود والمرح وأرادوا التقاط صور معنا وسألونا عن الولايات المتحدة. لكن لماذا اختار زهاء 75% منهم شخصيات مثل أسامة بن لادن، وصدام حسين، وآية الله الخميني، ويوسف القرضاوي وياسر عرفات، وأحمدي نجاد نماذج يحتذى مثالها في نظرهم؟ لدينا مشكلة على ما يبدو. فإذا اختار هؤلاء الطلاب الشباب أبطالهم من المعادين للولايات المتحدة، فما الذي نستطيع فعله لتغيير ذلك؟ ما الذي أدى إلى هذا الاختيار؟ من يقدر على مساعدتنا؟ وأين المسلمون المعتدلون؟ يجب أن نحاول العثور على أجوبة عن هذه الأسئلة إذا أردنا بناء جسور التواصل مع البلدان الإسلامية وتجنب "صدام الحضارات".

العثور على الأجوبة ليس أمرا سهلا كما هو واضح ويتطلب وقتا وجهدا. لكن من الأشياء التي لاحظتها في ماليزيا وإندونيسيا الدور الحيوي الذي سيؤديه المسلمون المعتدلون. وأنا أحجم عن استخدام كلمة "معتدلين" بسبب مداليلها السلبية. فهي تشير كما علمت إلى أولئك الذين يمتنعون عن الدفاع عن أي شيء.

لكن الأشخاص الذين أعنيهم بعبارة "المسلمين المعتدلين" هم المدافعون عن الهوية الحقيقية للإسلام في حين يعيشون ويمارسون نشاطا فاعلا في "عصر العولمة" هذا.

ومما تعلمته في هذه الرحلة أن المسلمين المعتدلين يطبقون تعاليم الإسلام التي تحض على التراحم والإحسان كما جاءت في القرآن، دون رفض الحداثة والغرب. وهم كما علمت ليسوا أقلية ولا تعوزهم القوة[14].

تبدت قوة وتأثيرات وسائل الإعلام العالمية بوضوح أيضا خلال رحلتنا. فقد غذت هذه الوسائل الشعور بالخطر الداهم وضرورة مواجهة الإرهاب المرتبط بالإسلام. فعندما كنا في عمان، سمعنا تقارير عن حدوث انفجار ذهب ضحيته ديبلوماسي أمريكي وعدد من الباكستانيين على بعد أمتار من فندق ماريوت المجاور للقنصلية الأمريكية في كراتشي، قبل أيام من وصولنا إلى هناك؛ ثم حدث انفجار آخر في فندق ماريوت جاكرتا حيث أقمنا؛ كما هزت الانفجارات استنبول ودلهي وإسلام أباد بعد زياراتنا لها. بدا الأمر وكأنه "روليت روسية" إلى متى سنقدر على النجاة من الضربة القاتلة؟

لم تغب رحلتنا عن انتباه وسائل الإعلام. فقد سجلت بأمانة بوصفها "محاضرة تعليمية عن الأسفار" على موقع (Beliefnet.com) الإلكتروني، حيث قدمتُ آخر المعلومات والرؤى عن البلدان التي كنا نزورها، في حين كتب فرانكي وهيلي وجوناثان وأمينة مقالاتهم فيه[15]. وأجرت معي كبريات الصحف الوطنية مقابلات مطولة، مثل صحيفة "نيشن" في باكستان، و"انديان اكسبريس" و"هندوستان تايمز" في الهند. كما ظهرت على تلفزيون الجزيرة في قطر، وقناة تلفزيونية أخرى في الهند (Doordarshan) بثت المقابلة في وقت الذروة ليشاهدها حوالي 500 مليون شخص في جنوب آسيا. وقام أعضاء فريقي بجولة في استوديوهات قناة الجزيرة وشاهدوا تصوير أخبار المساء. وجدنا المسلمين في كل مكان مطلعين تماما على أحداث العالم بسبب وسائل الإعلام. أما إمام مسجد المدرسة في دلهي فقد أبلغنا أنه يعرف بالضبط أين تسافر وزيرة الخارجية الأمريكية لأنه يتابع أخبارها بدقة.

مع اقترابي من آخر العمر، كانت هذه الرحلة مغامرة ختامية عظيمة لي. صحيح أن رحلتي السابقة في طول العالم الإسلامي وعرضه قد تحولت إلى سلسلة تلفزيونية بثتها هيئة الإذاعة البريطانية تحت عنوان "الإسلام الحي" عام 1993، لكن التطورات التي حدثت منذ ذلك الحين في السياسة والاقتصاد ووسائل الإعلام وتقنية المعلومات تقدمت

بخطى سريعة. في هذه الرحلة، بدا أن كل شخص قابلته في أي مكان قد قرأ شيئا كتبته على الإنترنت أو شاهدني على شاشة التلفزيون[16]. في استنبول، كنت أتناول الغداء مع رئيس إحدى المؤسسات الاستشارية الرائدة في بداية الرحلة، حين تقدم نحوي رجل ضخم الجثة أشعث اللحية بطريقة عدائية وقال: "ألست أنت أكبر أحمد"؟ أومأت رأسي بهدوء وابتسمت بتمهل محاولا معرفة الوجهة التي سيتخذها حديثنا. تابع قائلا: "أنا مسلم من تشيلي، شاهدتك تشرح الإسلام في برنامج اوبرا. شكرا لك على جهدك".



في جامع/مدرسة في دلهي، تجمعت جمهرة من الصبية حول الفريق (في خلفية الصورة) لسماع محاضرة يوم الجمعة. يقع المسجد/المدرسة قرب الجامع الكبير الذي بناه الإمبراطور المغولي شاه جيهان.

أدهشتني طوال الرحلة قدرة وسائل الإعلام الأمريكية على الوصول إلى أقاصي العالم والروح العالمية المميزة للمسلمين. لقد اقتربت أجزاء العالم بعضها من بعض بطريقة ما كنت لأتخيلها في رحلتي الطويلة السابقة، وتغير الكثير أيضا. أدركت بسرعة أن مشكلة فهم الإسلام العالمي والتعامل معه أكبر بكثير مما توقعت. وحتى في هذه الحالة، عدت حاملا إحساسا جديدا بالأمل بعد أن رأيت أشخاصا مهتمين ويتميزون بالطيبة واللطف من جميع الأجناس والأديان في كل مرحلة من مراحل الرحلة. وتظهر حيويتهم وحماستهم وعواطفهم وجود أرضية مشتركة للحوار. لذلك، يوثق الكتاب عدة طبقات من رحلتنا: فهو يصف رحلة ميدانية موسعة إلى العالم الإسلامي قام بها أستاذ جامعي وفريق يتميز

أعضـاؤه الشباب بالحيوية والطاقـة وحب الاستطلاع والمعرفة؛ عـالم اجتماع يسعى إلى فهـم نظري لتأثير العولمـة والتحديات التي تجبه المجتمعـات التقليدية؛ باحث مسلم عاد بعـد مدة طويلـة محاولا فهم مجتمعه ومساعدته على العثور علـى سبيله؛ باكستاني يعود إلى وطنـه بعد أن قضـى في الغرب سنوات عديدة؛ رجل متفائل يسعى إلى تشجيع الحوار والفهـم بين حضارتين يتفاقم العداء بينهمـا عبر جعل الطرفين يدركان الأخطار العالمية التي تواجه الجميع.

الإسلام في عصر العولمة

خلافـا للمناقشات الأخـرى المتعلقة بالإسلام، لن تتعامل هـذه الدراسة معه بوصفه حالة معزولة عند تشخيص العلل التي يعانيها. إذ أريد الآن أن أضيف إلى الركائز المؤسسة لكتابي السابق "الإسلام تحت الحصار"، الذي قدمت فيه الحجة على أن المجتمعات كلها تشعر اليوم بالتهديد المادي المتعين، حقيقة أنها جميعا - ربما باستثناء المجتمع الأمريكي - تشعـر بالتهديد الثقافي أيضا نتيجة الموجة الكاسحـة للعولمة. والإسلام يحظى بأهمية خاصة بسبب علاقته الوثيقة الإيجابية والسلبية بالولايات المتحدة، ولأن عدد أتباعه يبلغ الآن 1.4 مليـار نسمـة ويمتد على خمس قارات، وهذا ما يجعلـه موضوعا مثاليا لدراسة حالة لحضارة تقليدية تشهد تغييرا في عصر العولمة.

شاعت مناقشـة حجم المشكلات التي تفرضها العولمة على نطاق واسع، لكن لم تقدم سـوى اقتراحات قليلـة لطريقة حلها. توماس فريدمان الصحفـي في "نيويورك تايمز" وأحـد أشهر المعلقين علـى الموضوع، تبنى رأيـا حميدا وإيجابيا، حيث سـاوى بين العولمة و"الأمركـة" ونشر الديمقراطية والقيم الأمريكية[17]. وظل متمسكا بالتفاؤل فيما يتعلق بـروح وعصر العولمة، مع أنه مدرك لحقيقـة أن الهند والصين تعملان بهمة ونشاط على تحـدي التفوق الأمريكي. ومن المتوقع في الحالة المثالية أن توجد العولمة الظروف المناسبة التـي ستصـل أمم العالم المختلفـة بعضها ببعض وتؤسس من ثم "قريـة كونية" تتبادل المنافع والمكاسب والفوائد.

الآراء الأخـرى أشد قتامـة وتشاؤما. فالكتب التعليمية المعياريـة تشير إلى التحولات الاجتماعيـة والاقتصاديـة والتقانيـة الهائلة التي تحـدث الآن بسبب العولمـة، مع تبعات

وعواقب يصعب التنبؤ بها[18]. والتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والتقانة السريعة والواسعة النطاق في أعقابها تجبر الناس في شتى أرجاء العالم على تعديل أساليب حياتهم. وفي مواجهة مثل هذا القدر من التغيير، يشعر الكثيرون بالقلق وغياب اليقين فيما يتعلق بالمستقبل، وهي حالة يسميها العلماء والباحثون "ثقافة الهلع" أو "المجتمع المحفوف بالخطر"[19]. العولمة في نظر انتوني غيدنز، عالم الاجتماع الرائد، "توجد عالما من الرابحين والخاسرين، أقلية على سكة الازدهار السريعة، وأغلبية محكوم عليها بحياة البؤس واليأس"[20]، وبذلك، فهو يرى أن العولمة ليست سوى "نهب كوني"[21].

وباستعارة عبارة من الأنثروبولوجي ادمون ليتش، يقدم غيدنز الحجة على أن العولمة توجد "عالما هاربا"[22]. وكان ليتش قد استعمل العبارة عنوانا لسلسلة من المحاضرات ألقاها بعد إضافة علامة استفهام. لكن غيدنز يقول إن التطورات التي حدثت على مدى العقود القليلة الماضية تشير إلى أن العالم الآن أصبح "هاربا": "هذا ليس - على الأقل الآن - نظاما عالميا مدفوعا بإرادة البشر الجمعية. بل يبرز بدلا من ذلك بأسلوب فوضوي وعشوائي واعتباطي.. ليس فيه استقرار ولا أمن، لكنه يضج بالقلق فضلا على الندوب التي تحدثها الانقسامات العميقة. كثيرون منا يشعرون بأنهم في قبضة قوى لا يملكون عليها أي سلطة"[23].

لم يصل فريدمان وغيدنز كلاهما إلى حد إثارة القضايا الأخلاقية الكبرى، لا سيما حقيقة أن العولمة تفتقد الجوهر الأخلاقي، مع أنهما يدركان النجاحات والإخفاقات الاقتصادية للعولمة. وهذا بالضبط هو السبب الذي يجعل الجشع والغضب والجهل - السموم الثلاثة التي حذر منها بوذا - تزدهر دون ضابط وتحدد وتعرف العصر الراهن[24]. إذ كبحت الأفكارُ التقليدية في الدين وقواعد السلوك، التي تجسد العدل والإحسان والعلم، هذه الخصائص والسمات السلبية، مع أنها ظلت على الدوام جزءا من النسيج الإنساني. وكانت تلك المفاهيم كالترياق الذي يشفي من السموم ويمكن العثور عليها في جميع الديانات الكبرى: اليهودية والمسيحية والإسلام - حتى في الهندوسية التي خرجت البوذية من رحمها[25]. كل دين يعتقد أنه الأفضل تجهيزا وإعدادا للأفراد للتصدي لهذه السموم، مهما اختلفت طرائق معالجتها.

رفضت الديانات الهندية رفضا جذريا المقاربة الإبراهيمية، التي توازن بين العيش في الدنيا والآخرة، وهي فكرة أكثر تطورا في المسيحية والإسلام مقارنة باليهودية. ففي الهندوسية، التي تجسد قدوة الديانات الهندية، ليس الموت (الحدث النهائي والذروي لحياة المؤمن في الديانات الإبراهيمية) سوى بداية لدورة أخرى من الولادة والولادة الجديدة (التناسخ). ومن ثم، تعد مقاربة الحياة المادية أقل إلحاحا وضرورة. إذ تقسم الهندوسية التقليدية حياة الفرد إلى أربع مراحل، تمتد كل منها قرابة عقدين من السنين: الطالب، صاحب البيت، الناسك، الباحث. المرحلتان الأخيرتان مندمجتان أحيانا، وينتظر من الرجل فيهما أن يتخلى بمصاحبة زوجته - عن جميع ممتلكاته المادية وينسحب من العالم ليعيش في الغابات والجبال باحثا عن الحقيقة. ولا تعود السموم تمثل تهديدا الآن، لأن الفرد يكتشف الترياق لحظة تخليه عن العالم المادي. مقاربة الديانات الهندية ليست جذابة فلسفيا فقط، بل مؤثرة في حياة الأفراد تجريبيا أيضا كما هو معتقد. ولربما تحتاج الديانات الإبراهيمية إلى التعلم منها عبر إمعان النظر في ميراثها الروحي والصوفي الغني.

لكن، لأغراض حجتنا الراهنة نحتاج إلى توكيد أن العولمة طاغية كاسحة، ولا يمكن لأي مجتمع -إبراهيمي أو هنديالنجاة من طوفانها الجارف.

تواجه المجتمعات الهندوسية والبوذية التحديات نفسها التي تواجهها المجتمعات الأخرى، كما يثبت عنف الأكثرية الهندوسية ضد المسلمين في الهند، ومعاملة الأغلبية البوذية للهندوس في سريلانكا. فهي أيضا تصارع السموم، على الرغم من الفلسفة الهندية القائمة على الانسحاب من العالم ونبذ العنف. لقد فوجئ أتباع الديانات الهندية بحجم وحدّة أعمال الشغب، لأنهم لم يتخيلوا يوما إمكانية حدوث مثل هذا العنف. ولا شك في أن العنف المتفجر بين الجماعات الدينية تلهبه وتغذيه التقانة، وصور وسائل الإعلام العالمية، والشبكات المتاحة للجماعات المحلية، التي هي جزء من عملية العولمة. إضافة إلى ذلك كله، هنالك جوانب ومظاهر أخرى للعولمة تؤثر في المجتمعات التي تنتشر فيها الديانات الهندية، مثل إضعاف بنى الدولة المركزية والقسوة المفرطة في ردها على ما اعتبرته علامات دالة على الانشقاق لدى الأقليات؛ واتصفت مجتمعات الأكثرية

والأقليــة الآن بسرعة استخــدام الأسلحة الفتاكــة المتوفرة لديها بسهولــة ضد الأهداف المدنيــة أو العسكريــة. ولذا، تعد حمامات الدم الاثنية والدينيــة سببا وعارضا في آن معا لآفات الغضب والكره والجهل التي تصيب المجتمعات في عصر العولمة الذي نعيش فيه.

الفلسفات الحديثة نسبيا، مثل القومية والاشتراكية والفاشية، التي نزعت إلى استبعاد الديانات التقليدية ورفضها بوصفها متخلفة وعتيقة تجاوزها الزمن، لم تتمكن هي أيضا من كبح جماح السموم. بل تسارع انتشارها تحت هيمنتها بواسطة قوة واستخدام التقانة. حتــى تلك التــي رفضت الدين برمتــه كثيرا ما حملت أفــكارا متحيزة، مثــل العنصرية، وفــرت التربة الخصبــة لانتشار السموم. وهنالك ما يكفي مــن الأدلة الدامغة التي تثبت أن ما يدعى بالمعلقين الليبراليين والانسانويين في الغرب استعرضوا ما لديهم من مشاعر الغضب والكره والجهل بالإسلام في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر.

خلال نصف القرن الماضي، أفرزت العولمة عواقب مادية إضافة إلى تبعاتها الأخلاقية. وربمــا يكون أشدها خطورة تفشــي التصنيع والنزعة الاستهلاكية وما سبباه من احتباس حراري. فالأعاصــير والعواصف المدمرة المتكررة، ودرجات الحــرارة التي بلغت معدلات قياسيــة، والأمطار التي تسبب الفيضانات، وسنوات القحط والجفاف، فضلا على ذوبان الجليــد المتســارع في القطب، تمثــل جميعا متلازمــات وأعراضا للمشكلــة[26]. وحتى في هــذه الحالة، تستمر جميع بلــدان العالم في اتباع مثال الدول الغربية، حيث تبدي البلدان الصناعية العملاقة في آسيا، مثل الصين، اهتماما أكبر بالانضمام إلى الاقتصاد المعولم مقارنة بحماية البيئة.

هنالــك عاقبة أخرى للعولــة يمكن رؤيتهــا في المجال الاقتصــادي، ألا وهي التفاوت المتفاقم في الظروف المعيشية. الفقر يفتك بالآلاف كل سنة نتيجة نقص الرعاية الصحية والغــذاء؛ وهنالك زهاء مليــار شخص في العالم لا يزيد دخلهــم اليومي عن دولار واحد؛ في حــين تفوق الــثروة المالية لثلاثمئــة وثمانية وخمســين فردا ثروة نصــف سكان العالم مجتمعــ[27]. الإحصائيــات التــي تبعث على اليأس، مثــل أرقام التفاوت بــين الأغنياء والفقــراء، متوفــرة على أوسع نطــاق (انظر مثلا تقارير الأمم المتحــدة). ولمفاقمة حدة المشكلــة، قفــز عدد سكان العــالم من 2.5 مليار نسمــة قبل نصف قــرن، إلى 6.5 مليار

اليوم وسيبلغ 11 مليارا بحلول منتصف القرن الحالي[28]. لا يمكن تجاهل هذه النزعات الديمغرافيــة. إذ لــن تتمكن المــوارد الطبيعية للأرض من تلبية حاجــات الحياة البشرية دون اتخــاذ بعضــ الإجراءات القاسية للحد من زيادة عــدد السكان، إما بواسطة الجهد البشري أو بجهود أمنا الطبيعة.

سهلت العولمــة أيضا إمكانية الحصول على أدوات العنف، من القنابل المحلية الصنع إلى الأسلحة الجرثومية. ويمكن لأي شخص في أي زمان ومكان السقوط ضحية للكراهية الدينية أو العرقية. ولا بد من الاعتراف بأن المجتمعات واجهت مثل هذه الكراهية من قبل، فضــلا على المشكلات المذكورة آنفا -استغلال الموارد الطبيعية، الاهتمام المفرط في ركم الثروة المادية، ضغوط الأعداد الكبيرة من السكان - وكثيرا ما خاضت الحروب بسببها. إن حجــم ومدى العولمة اليوم، دون كوابح أو ضوابط أو توازن، هما اللذان يضعان الجنس البشري في مرحلة محفوفة بالخطر من تاريخه. فخيبة الأمل بوعد العولمة المأمول وأجراس الخطر التــي تدقها طبيعة ومدى العنف في أعقاب ذلك، جعلت المفكرين المهتمين يؤلفون كتبا حملت عناوين مثل "العالم يحترق"، و"قرن همجي: عودة إلى البربرية"[29].

تستجيــب الديانــات والمجتمعات كلها إلى المشكلات التي تبلــغ ذروتها في أزمة العولمة بطــرق شتــى، حتى إن بعضها يتجاهلهــا كلية. ومثلما يحدث في العــالم الإسلامي، يمكن رؤيــة ردود الفعل العدائية في أمريــكا اللاتينية مثلا، حيث اكتسحت الحكومات اليسارية السلطة في فنزويلا وبوليفيا والإكوادور. كذلك الصين -التي يراوح عدد السكان المسلمين فيها بين 20 مليونا (التقدير الرسمي) ومئة مليون - حيث انتشر الظلم الاقتصادي على نطــاق واسع، وأدت سياسات الخصخصة إلى انــدلاع آلاف الاحتجاجات وأعمال الشغب وغيرها من أشكال الاضطراب الاجتماعي في السنوات الأخيرة[30]. ويوفر الإسلام، بؤرة هذه الدراسة، أرضا خصبة لاستقصاء التأثير والاستجابة للقوى المعولمة في سياق تقليدي على الأغلب. فأتباعه منتشرون في مختلف أرجاء العالم وفي أوضاع اثنية مختلفة وبارزة. ويمكن لمسلكهم أن يلقي مزيدا من الضوء على المجتمعات التقليدية ويساعد على تحسين العلاقــات بينها وبين المجتمعات الصناعية. والأهم ربما، أنــه يساعد الآخرين على فهم أفضل للإسلام الذي أصبح يحظى بأهمية عالمية.

أنماط المجتمع الإسلامي القديمة والجديدة

قبل الانطلاق في رحلتنا توقعت أن أعتمد على تصنيفات ماكس فيبر الكلاسيكية للزعامة - سلطة كاريزمية (آسرة)، وتقليدية، وعقلانية/ قانونية - لتحديد أساليب الزعامة القيادية في العالم الإسلامي. الزعامة الكاريزمية متجذرة في النزعات الشخصية التي تجذب الأتباع لكنها ليست بالضرورة جزءا دائما من شخصية الفرد. وفي الحقيقة، لا تكمن الكاريزما إلا في العيون المنومة للأتباع الخاضعين المستسلمين. وبذلك فهي خصيصة غامضة وتقويمها عملية ذاتية، لأن الزعيم الكاريزمي في نظر شخص قد يكون شريرا في نظر آخر. والواضح أن هناك تعالقا بين النجاح والمستويات المرتفعة من الكاريزما، من ناحية، وبين الفشل وانحدارها من ناحية أخرى. وبالمقابل، لا تجمع الفئتان التاليتان من الزعامة سوى علاقة واهية بالصفات والسمات الشخصية. فالسلطة المرجعية التقليدية نتاج السلالة والولادة. وقد يتمتع الفرد في بعض أنواع المجتمعات بدور قيادي لأنه الولد البكر، أو وارث ملك أبيه أو تركته. أما السلطة العقلانية -القانونية فهي بنية اجتماعية ارتقت في أوروبا نتيجة حاجة المجتمع إلى فرض القواعد والأنظمة لضبط المسؤولين المنتخبين الذين يحكمون السكان. وتعد هذه أفضل أنواع السلطة نظرا لأنها بيروقراطية ومنظمة ومن ثم "منضبطة".

تعد تصنيفات فيبر ممتازة كنظرية تأسيسية. لكن ما إن وصلتُ إلى العالم الإسلامي حتى أدركت أن العلاقات بينه وبين الولايات المتحدة، والأحداث التي لم تتكشف بعد منذ الحادي عشر من سبتمبر، وعمليات العولمة، أثرت في الزعامة الإسلامية تأثيرا نافذا بحيث ثبت أن تصنيفات فيبر ليست كافية. "المتمردون" الذين يلفهم الغموض والسرية مجرد مثال لا يناسب خطة وتصنيفات فيبر. فنظرا لعدم وجود هوية ملموسة أو متعينة، فإن هؤلاء يظلون خارج الفئات الثلاث. وعلى أية حال، يمكن تصنيف العديد من الزعماء والقادة المسلمين ضمن اثنتين أو ثلاث من الفئات التي تحدث عنها فيبر، وهذا ما يجعل من الصعب شرح وتفسير الزعامة الإسلامية بواسطة هذا الإطار المفهومي. إذ يمكن تصنيف الملك الأردني الراحل، حسين، في فئة الزعيم الكاريزمي والتقليدي وحتى العقلاني – القانوني: فقد كان ملهما لشعبه، ومتحدرا من نسل النبي، ويعمل مع برلمان صدّق وأجاز الملكية.

بغض النظر عن ماكس فيبر، اعتمدت على / ووسعت حجج غيره من علماء الاجتماع البارزين، مثل ابن خلدون واميل دوركهايم. تفترض نظرية ابن خلدون أن لنهوض وسقوط الأسر المالكة علاقة بفقدان الحيوية الاجتماعية والتلاحم الاجتماعي لا بالمشيئة الإلهية. في حين يفسر دوركهايم مستويات ومعدلات حالات الانتحار في المجتمع مثلا بوصفها تعبيرا عن الانهيار الاجتماعي ولا علاقة لها بالغضب الإلهي أو الدناءة الأخلاقية. وتوضح مناقشة فيبر لأخلاقيات العمل البروتستانتية كيف يمكن للسلوك الديني أن يؤثر في روح الرأسمالية، ومن ثم يحسن النمو الاقتصادي. ولا ريب في أن الأعمال المتراكمة لهؤلاء المفكرين تؤدي إلى نتيجة ختامية واسعة تشير إلى تعذر فهم كيف يرى البشر المقدس ويتصلون به دون فهم المجتمع ذاته. إذن، يقرر علم الاجتماع نوع اللاهوت الذي يصوغه المجتمع ويمارسه.

يعد دوركهايم وفيبر من أعظم علماء الاجتماع الأوروبيين البارزين في القرنين التاسع عشر والعشرين. وتلك حقبة من الجيشان الفكري أنتجت دفعة واحدة مشهودة من المفكرين مثل ماركس وفرويد وتولستوي وهـ. ج. ويلز، واينشتاين. وبالمقابل، يعد ابن خلدون شخصية فريدة، من حيث أنه ظهر من بلدة نائية ومغمورة في شمال أفريقيا ولم يترك مدارس أو مذاهب فكرية أو جيشا من التلاميذ والأتباع. فهو حالة متفردة، قوة فكرية دافعة وحيدة ما زالت حتى اليوم تدهش وتذهل الباحثين في شتى أرجاء العالم.

درست عدة سنين - وكتبت عن - نماذج الزعامة في المجتمع الإسلامي كي أقترح كيفية تغييرها وتوجيهها نحو مستقبل أفضل. في كتابي "الإسلام تحت الحصار"، قمت باستكشاف فئتين اثنتين: الاستيعابية والاستبعادية[31]. محمد علي جناح، مؤسس باكستان، يمثل الأولى، والطالبان (الأفغان) يمثلون الثانية. وقبل ذلك، عملت على تحديد نزعتين جامعتين مستمرتين في المجتمع الإسلامي: الأولى روحانية وعالمية والثانية متزمتة وحرفية / نصية[32]. دارا شيكوه، الابن البكر لشاه جيهان، إمبراطور الهند المغولي، يجسد الأولى، ويجسد الثانية شقيقه الأصغر، اورانغزيب. وأدخلت في هذا الكتاب مزيدا من التطوير على هذه الأفكار.

الغرض الأساسي من هذه الدراسة هو تقرير كيف يبني المسلمون هوياتهم الدينيةومن ثـم، سلسلة كاملة من الأفعـال والأعمال والاستراتيجياتنتيجـة لوضعهم الراهن. اليوم، يعد كل عمل عنيف في أي جزء من العالم قادرا على تحريض واستفزاز ردة فعل عنيفة في غـيره. أما القوة المحفزة الرئيسة فهي بث الصور على شاشات التلفزيون والإنترنت التي توجد إحساسا متعاظما بالتوتر. وتضمن سرعة الاستجابات وردود الأفعال وما يصاحبها مـن دعايـة وذيوع في وسائل الإعلام أن يبقى كل مجتمع في حالة من القلق الشديد، حيث يحاصر الناس العاديـون في إسار هذه السلسلة المتسارعة من الأفعال وردود الأفعال عبر أجهـزة التلفزيـون. فظهرت أنواع معينـة من القـادة والزعماء لتمثيل الحالـة المزاجية السائدة حاليا، في حين همش غيرهم. أما أسلوب القيادة فيتصل اتصالا واضحا بسرعة تقديم الأفعال وردود الأفعال.

تسعـى ديانات العالم كلها لاكتشاف أفضل سبيل لفهـم المقدس للعيش عيشة راضية علـى الأرض. وفي هذا المسعـى، يحاول بعض النـاس البحث عن التوازنـات والتشابهات خـارج نطاق تراثهـم؛ في حين يحـاول بعضهم الآخر دمـج المبادئ المأخـوذة من الحياة المحيطـة بهم لتعزيز وتقوية معتقداتهـم؛ ويركز غيرهم بؤرة الاهتمام على الحفاظ على ميراثهـم بقدر الإمـكان. تؤدي هذه المقاربـات المختلفة إلى ظهـور تناقضات ومعضلات داخلية ضن ديانات العالم الكبرى، وتؤثر أيضا في العلاقات بالأديان الأخرى. لنأخذ على سبيـل المثال اليهودية، أقدم ديانـة إبراهيمية. إذ استطاعت حـل توتراتها الداخلية إلى حـد ما عبر تعريف وتحديد تخـوم وجهات النظر المختلفة ضمن ثلاثـة فروع: الإصلاح، والتزمت الأرثوذكسي، والمحافظـة. وهناك بالطبع تفسيرات أخرى تعرضها فروع أصغر مثـل الهاسيديم وإعادة البنـاء. ويؤمن أتبـاع المعتقدين بأنهم يفســرون اليهودية بأمانة وصدق[33].

وعلى نحو مشابه، يحاول الإسلام تمييز مختلف مقارباته أو وجهات نظره للعالم، حيث أن بعضها يتداخل وبعضها الآخر يتضارب. ويمكن تلخيص هذه المقاربات على أفضل وجه بوصفها "قبولا" و"محافظة" و"تركيبـا" توليفيا. فأولئك الذين يؤمنون بالقبول يقاربون المقدس عـبر الصوفية الروحانية الشمولية؛ والذين يؤمنـون بالمحافظة يختارون طريقة

التشدد المتزمت والتفسير الحرفي للدين؛ في حين يسعى أتباع التركيب والتجميع والتوليف إلى التفاعل مع الحداثة والقيم التي تثمنها وتقدرها، مثل الديمقراطية وحقوق المرأة وحقوق الإنسان. مرة أخرى نقول إن كل منظور يعده أتباعه أصدق وأنقى صيغة للإيمان الديني ووسيلة لمواجهة ومعالجة وتوقي السموم الثلاثة، ومتأثرا بالعولمة، ويسبب توترات داخلية ضمن المجتمع الإسلامي. من هنا، تأخذ ردة فعل الإسلام على قوى العولمة ثلاث صيغ مميزة على أقل تقدير: الروحانيون (المتصوفة) يريدون توسيع ووصل معتقداتهم الدينية مع معتقدات غيرهم، والمحافظون التقليديون يريدون الحفاظ على نقاء الإسلام، والحداثيون يحاولون موالفة المجتمع مع الأنظمة الأخرى غير الإسلامية. ولأن معظم الناس في الغرب لا يفهمون تعقيد المجتمع الإسلامي عبر نماذج كنماذجنا، فهم يختزلون علاقات الولايات المتحدة بالعالم الإسلامي في مجرد صراع الخير مع الشر، ويقسمون المسلمين بطريقة فجة إلى معتدلين إزاء متطرفين.

النماذج الإسلامية الثلاثة الفاعلة اليوم

هناك ثلاث بلدات في الهند تجسد وجهات النظر هذه من العالم: أجمر وديوباند وعليكره. ومثلما كانت واترلو أكثر من مجرد موقع مكاني في أوروبا، كذلك تمثل أسماء هذه البلدات الثلاث تفسيرات مختلفة للإسلام في عقول وأذهان الناس المحليين المرتبطين بمنظور إسلامي محدد. أما حقيقة كون البلدات الثلاث تقع في جنوب آسيا - وفي الهند تحديدا - فمجرد مصادفة تاريخية وجغرافية. والنقطة المهمة أن النماذج المسماة تبعا لها يمكن تمييزها في جميع المجتمعات الإسلامية في العالم، على الرغم من أنها تتنكر أحيانا بأسماء وأشكال مختلفة.

تقتنص كلمة "نموذج" مدلول "نظام أو منظومة" أو أسلوب تفكير، مع أنها غامضة وغير محددة المعالم نوعا ما في هذا السياق. فإن وجد نموذج روحاني باطني للفكر والممارسة في الإسلام فهو الصوفية. ومن ثم فإن أولئك الذين يحبون ويتبعون معين الدين تشيستي، مؤسس الطريقة التي حملت اسمه ويقع مقامه في بلدة أجمر، يعدون جلال الدين الرومي المدفون في قونيا بتركيا شيخا ومعلما صوفيا ملهما ومحبوبا. جميع المتصوفة يستمدون إلهامهم من النبي مباشرة ويرونه من منظور روحاني:

يقال إنه حين كان الله موجودا ولا شيء سواه تردد صدى الصمت المطبق في جنبات العتمة قبل أن يخلق النور، وانغمس الوجود كله في كل واحد متفرد وحيد، بعد حقبة من اللازمن لا يمكن وصفها ولا حسابها، حدث شيء ما، شيء تغير أو تحرك وبرز حضور مذهل براق. تأمل الله دهشا من هذا الضوء الذي يشع وعيه كإدراك، وسأله من هو، فأجاب النور إنه ضوء كان معه تعالى وأتى منه، ضوء كان تعبيرا عن فضل الله ونعمته وكليته. وأعطى الله تعالى بعد أن سره الجواب هذا الضوء اسم نور محمد وأعلن أنه سيخلق كل شيء بهذا النور، نور محمد[34].

النبي يشع نورا ويجسد النور: "نور محمد". وهذا ما يميز البشر منذ آدم: "في الختام، خلق آدم، إنسانا، أسمى مخلوقاته ووسم نور محمد على جبينه، وأعلن أن الإنسان سيعلم ما لن تعلمه حتى الملائكة"[35]. في نظر الصوفي، يمتزج النبي والإسلام والصوفية في كل واحد ويشع من الله الخير والصلاح والتراحم. هكذا يعرف أحد كبار المتصوفة المعاصرين الصوفية:

لا يمكن فصل الصوفية عن الإسلام مثلما لا يمكن فصل أعلى درجات الوعي أو اليقظة عنه. فالإسلام ليس ظاهرة تاريخية بدأت قبل 1400 سنة. إنه فن الإيقاظ والانتباه بواسطة الخضوع. الصوفية هي قلب الإسلام. قديمة العهد مثل انبثاق الوعي البشري.

والمتصوفة الصادقون متشابهون في الجوهر من أين أتوا، ويتشاركون في نور ويقظة داخلية ودماثة خارجية ورغبة في خدمة البشرية. أما الفوارق الظاهرة بين المتصوفة فتتصل بالشؤون المتعلقة بالممارسات أو الوصفات الروحية لتنقية القلوب. والثمار الطيبة للصوفية متشابهة. الأشجار وحدها تبدو متباينة وتزهر في مواسم مختلفة[36].

يتعدد أتباع هذا النموذج، بدءا بالروحانيين المتطهرين المتقشفين، وانتهاء بالمدمنين على المخدرات وحتى المسكرات، وهي محرمة في الإسلام. و"مثلما هي الحال في الحركات الروحانية والإحيائية الأخرى، نجد أيضا أمثلة على بعض المتصوفة المتطرفين وحتى الذين يشوهون الأبعاد المتعددة للإسلام. فالإفراط في الغموض والسرية أو رفض قيود السلوك الخارجي أو الطريقة النبوية المتوازنة، مجرد أمثلة على هذه الظاهرة، مع أنها تمثل الاستثناء لا القاعدة"[37].

خـلال الحرب العالمية الثانيـة، أنقذت الجماعات الصوفيـة المحلية في البلقان حياة الكثـير من اليهود من الاضطهاد النـازي. فقد قيل لنورمان غيرشمان، الكاتب الأمريكي الـذي يتناول هذه الحقبة المجهولة تقريبا من التاريخ، إن ذلك يعد "عملا دينيا إيمانيا" لطائفـة البكتاشـي المسلمة في ألبانيـا[38]. وفي مقابلـة مع غيرشمان، شـرح زعيم هذه الطائفـة قائـلا: "نحن نرى الله في كل مـكان وفي كل شخص. الله موجود في كل سم وكل خليـة. لذلك فكلنا عيال الله. لا يوجد كفـرة. ولا تمييز. فمن يرى وجها جميلا يرى وجه الله. (الله هو الجمال، والجمال هو الله. لا إله إلا الله)".

أستخـدم في فصول هذا الكتاب كلمـة "أجمر" للإشارة إلى أولئـك المسلمين الذين يستمدون إلهامهم من التراث الصوفي والروحاني داخل الإسلام. في حين أستخدم كلمة "ديوباند" لأشير إلى التيار الغالب من الحركات الإسلامية جميعا - الوهابية أو الإخوان المسلمـون وحماسـ في الشـرق الأوسط - التي ترتبـط ارتباطا عميقـا بموقعها. بكلمات أخـرى، تعد ديوبانـد تعبيرا جامعا للحركات الإسلامية الأصوليـة المؤسسة على التفسير المتشـدد للإسـلام وتتبع نظرتها إلى العالم التراث الإسلامـي والفكر الإسلامي الغالب. وهـي تعرف هويتها وتحـدد ذاتها عبر ارتباطهـا ببعض المفكرين والفقهـاء الإسلاميين البارزيـن - مثل ابـن تيميه وسيد قطب (في العـالم العربي) وأبي الأعلـى المودودي (في جنوب آسيا). ويعد الكثيرون من أتباع مدرسة ديوباند اورانغزيب، الإمبراطور المغولي في الهند، الحاكم المسلم المثالي.

عاش ابـن تيميه، أحد أهم المفكريـن الإسلاميين وأشدهم تأثـيرا ونفوذا، وكتب في القـرن الرابـع عشر، حـين كان مركـز العالم الإسلامـي يترنح تحت غـزوات المغول من الشرق، وقبـل ذلك هجمات الصليبيين من الغرب. أما عدم اليقين والعنف اللذان أعقبا هـذه الغزوات فقـد تركا أثرا في تفكير ابن تيميه، ولذلك يجب فهمه في سياق عصره. إذ غابـت آنذاك فكرة قبول غير المسلمـين، خصوصا اليهود والنصـارى، بالسهولة والانفتاح اللذيـن تحدث عنهما ابن رشـد أو حتى جلال الدين الرومي. لكن بقـي ابن تيميه، رغم ارتيابه في غير المسلمين، فقيها إسلاميا أصر بإلحاح على الحرية الدينية والأمان لليهود والنصارى وفقا لتعاليم القرآن.

تتمثل أهمية ابن تيميه اليوم في حقيقة أنه أدخل موضوعين اثنين في الخطاب الإسلامي تركا أثرا لا يمحى في المجتمعات الإسلامية. أولا، رفض رفضا قاطعا مبدأ الجبر أو الإذعان والخضوع والسلبية أمام الظلم والاعتماد على شفاعة الأولياء، وشدد بدلا من ذلك على المسؤولية الشخصية عن حياة الفرد. ثانيا، أكد الحاجة إلى إبقاء الشريعة الإسلامية على أكبر قدر من المرونة ضمن مفهوم الاجتهاد. وقدم الحجة على أن الشريعة مفتوحة أمام إعادة التفسير وتحتاج إلى أخذ السياق الذي يعمل فيه المجتمع بعين الاعتبار. وقال إن الاجتهاد يجب أن يظل ناشطا وفاعلا وإلا سوف تتحجر الشريعة نفسها وتفقد صلتها بالواقع. وعارض معارضة شديدة الفكرة الواسعة الانتشار - التي ما تزال تتردد في الأوساط المغالية في المحافظة والتزمت - القائلة إن باب الاجتهاد قد أغلق إلى الأبد بالمذاهب السنية الأربعة. وبرأي ابن تيميه، يجب على المسلمين في كل جيل العودة باستمرار إلى المصادر الأصلية في (القرن السابع الميلادي) بدلا من تطبيق تعاليم الفقهاء والعلماء دون تفكير وذلك مهما كانوا تقاة وأجلاء. أما فشل الاجتهاد كما يحاجج ابن تيميه فيعني فقدان الحيوية في المجتمع المسلم، ومن ثم فهو يمهد السبيل لسقوطه وانهياره.

تردد صدى الدعوة إلى الاجتهاد في القرن الثامن عشر على يد محمد بن عبد الوهاب، مؤسس ما بات يعرف بالحركة الوهابية. فقد فسر ابن الوهاب ابن تيميه بأسلوب أكثر نصية وحرفية مقارنة بما قد يرغب به ابن تيميه نفسه. ورفض الوهابيون على وجه الخصوص، وقد استمدوا أدلتهم من محمد بن عبد الوهاب، التفكير والممارسة الصوفية وفضلوا الارتباط الجريء بما هو نقي في الإسلام الأصيل (في القرن السابع الميلادي). ويقدم بعض الفقهاء المتشددين - على الرغم من تحريم القرآن الصريح للانتحار - الحجة والدليل على أن التفجيرات الانتحارية التي تفتك بالمدنيين الأبرياء مبررة وجائزة، لأن المسلمين يتعرضون لحرب هجومية شاملة تستهدف دينهم ويسقط فيها مدنيون أبرياء منهم أيضا. وعدّوا هذا النوع من المنطق اجتهادا.

ألهم ابن تيميه شريحة عريضة من الفقهاء والمفكرين المسلمين مثل سيد قطب وأبي الأعلى المودودي، والمذاهب الفكرية، مثل مدرسة ديوباند، والناشطين الجهاديين من

أمثال بن لادن، وقادة الإخوان المسلمين. اليوم، اختزلت رسالة ابن تيميه في ركنين اثنين: الحاجة إلى الجهاد دفاعا عن الإسلام، وفي الوقت ذاته السعي لإعادة النقاء والصفاء المميزين للمجتمع الإسلامي في صدر الإسلام. هذا هو تفسير الإسلام الذي يصفه المعلقون الغربيون بأنه "الإسلام الراديكالي" أو "الإسلام السياسي"، أو "الجهادي" أو حتى "الفاشية الإسلامية" وهي تعابير نحتت حديثا. واختزلت أفكار ابن تيميه المعقدة إلى مبدأ قديم، وشعار للحشد، وصيحة حرب غدت شرعة وميثاق عمل لملايين المسلمين في شتى أنحاء العالم.

لكن لن يوافق جميع أتباع مدرسة ديوباند أو يقبلوا أساليب بن لادن. ومعظمهم يرغبون في مجرد الاحتفاظ بمثلهم وممارساتهم سليمة دون تدخل خارجي، خصوصا من الغرب، لكنهم لا يؤيدون العنف بالضرورة. هنالك مجموعة من الآراء والأساليب المتعلقة بأفضل السبل للدفاع عن التراث في نموذج ديوباند. وفي هذه المناقشة، إذن، ينقل تعبير "نموذج ديوباند" سلسلة من استجابات وردود أفعال المسلمين المتشابهة عموما في الغرض والمضمون، على الرغم من تنويعاتها الناجمة عن الثقافة والمنطقة والقناعات الشخصية.

على شاكلة أجمر وديوباند، تنقل كلمة "عليكره" في هذا الكتاب ردة فعل حداثية عريضة لكن مميزة للمسلمين تجاه العالم. ظهر هذا الفرع في القرن التاسع عشر كعاقبة مباشرة لهجمة الإمبريالية الغربية. وشمل تشكيلة واسعة من المؤيدين بدءا بالسير سيد أحمد خان في الهند ومحمد عبده في مصر في القرن التاسع عشر، مرورا بالزعماء والقادة الاشتراكيين في الشرق الأوسط، وانتهاء بدعاة التحديث مثل شاه إيران محمد رضا بهلوي والزعماء الديمقراطيين في ماليزيا في القرن العشرين. ويضم زعماء هذا الاتجاه أيضا ديمقراطيين حقيقيين وديكتاتوريين عسكريين – جميعهم اعتنقوا الديمقراطية. ويتقاسم أتباع مدرسة عليكره، بغض النظر هل كانوا متدينين متحمسين أم أكثر ميلا إلى العلمانية، الرغبة في تبني الأفكار الحديثة مع الحفاظ على ما هو جوهري وأصيل في الإسلام.

يجب على المسلم العمل لدنياه كأنه يعيش أبدا والعمل لآخرته كأنه يموت غدا – ومن المفيد تذكر التعريف التقليدي للإسلام المثالي بوصفه تحقيقا لتوازن كامل بين العالمين،

الديـن والدنيـا، أو بين الروحانية الأخرويـة والمادية الدنيوية. ويمكن القـول إن النماذج الثلاثـة مجرد محـاولات لتحقيق هـذا التـوازن بالضبـط، رغم الاختـلاف الظاهر في الاستراتيجيـات. وفي كل حالة، يجد المسلمون للعثور على واسطة تحقق السعادة والتوازن بـين السوق والمسجد. أما المشكلة فتكمن كمـا سيتضح لنا في أن كل نموذج يركز اهتماما أكـبر على أحدهما، وهـذا ما يخل بالتـوازن الدقيق الذي جهد الإسـلام بدأب للحفاظ عليـه. إذن، في حين قـد يمضي أتباع نموذج أجمر وقتا أطول في التفكير بالآخرة وتجاهل الحيـاة الدنيا، فـإن أولئك الذين يفضلون نمـوذج عليكره يعملون العكـس. ويعتقد أتباع مدرسـة ديوباند الواثقـون بأنها حامي الدين الأصيل، أنهـا أقامت التوازن الصحيح بين الدين والدنيا.

وتوفر النماذج الموصوفة آنفا منظورا لرؤية ردود أفعال المسلمين تجاه بعضهم بعضا. وهذه إحدى مزايا تصنيف الشرائح السكانية الكبيرة والمعقدة ضمن نماذج وفئات. على سبيل المثال، يعتقد أتباع نموذج أجمر أن أتباع ديوباند يغالون في انتقاد الديانات الأخرى، والانشغال بمعارضة الروحانية، في حين يجدون أتباع عليكره مبالغين في الاهتمام بالعالم المادي. ومن جانبهم، يعد أتباع ديوباند أتباع أجمر مذنبين بالبدع والاقتراب من الهرطقة، وأتبـاع عليكره بالغلو في العلمانية وفرط التأثر بالغـرب. ولربما تعد جماعة عليكره أتباع أجمـر متخلفين وترفض أتباع ديوباند بوصفهم عصبة غوغائية من رجال الدين الجهلة، والقروييـن السذج، والمتخلفـين الظلاميين. كان الرئيـس الباكستاني أيـوب خان، الذي درس في عليكره ووصل إلى سدة السلطة بانقلاب عسكري، يشير علنا إلى أتباع ديوباند بوصفهـم "هؤلاء الملالي الملاعين". أما محمد علي جناح، فيعد طلاب عليكره (رغم أنه لم يدرس فيها)، "ترسانة" للمسلمين في حملته من أجل إقامة وطن مسلم حديث سيدعى باكستان، وتعرض هو نفسه للهجوم من قبل رجال الدين باعتباره "ملحدا".

لكـن هـذه ليست نماذج محكمة وكتيمـة إذا جاز التعبير بل "أنمـاط مثالية" تقترب مـن الواقع الحقيقي ولا تمثلـه، وتلك واحدة من نقائص وعقبـات تصنيف الناس ضمن مجموعـات خاصة. فالفئـات التصنيفيـة ليست بديلا عـن الواقع. ففي بعض الأحيان تتداخـل النماذج وتتشابك، وفي أحيان أخرى ينتقل الأفراد من أحدها إلى الآخر. فضلا

علــى ذلك كله، سعى بعض المفكريــن الإسلاميين لعقد مصالحة بين النماذج الثلاثة. في القرن الحادي عشر درس الإمام الغزالي حين كان معلما في إحدى جامعات بغداد، الفكر الصــوفي والإسلام النصي والفلسفة اليونانية - التي تحدرت منها نماذج أجمر وديوباند وعليكــره. وبعــد أن اشتهــر في الأوســاط العلميــة، انسحب الغــزالي من المجتمــع ليعالج الاتجاهات الفكرية الرئيسة في عصره وعاد بسلسلة من الأعمال المؤثرة التي تقيم توازنا بــين الروحانية الصوفيــة والإيمان والعقلانية. ورجع المفكــرون المسلمون على مر القرون إلى أعمال الغزالي ليستمدوا الإلهام ويحصلوا على العون لمواجهة تحديات الحياة. وليس مــن المفاجئ أن يرشح العديــد ممن قابلناهم طوال رحلاتنا الإمــام الغزالي قدوة لهم. لكــن، وبسبــب تعقيد فكره الطمــوح، ظل يتعرضــ باستمرار إلى سوء الفهــم والخطأ في الاقتباس.

هنالــك مفكر آخر والفت أعمالــه الآراء المختلفة والمتعارضة غالبــا التي تمثلها هذه النمــاذج الثلاثــة، هــو الشاعــر والفيلسوف محمــد إقبال، الــذي أثر في عــدد كبير من المسلمــين العاديــين. ففي معرض إعجابه غــير المحدود بالشاعر والصــوفي جلال الدين الرومــي (1207-1273م)، بــدا أنــه يؤيد نموذج أجمــر، لكن قصائــده الشهيرة مثل "شكوى" (المسلمين لله على ما يصيبهم من محن وبلايا)، و"جواب الشكوى" (من الله تعالى)، تجسد نظرة أتباع ديوباند إلى العالم. أما الرسائل التي كتبها في الأشهر الأخيرة مــن حياته إلى محمد علي جناح، الذي كان أفضل رمز لنموذج عليكره، فقد طورت فكرة إقامة دولة إسلامية حديثة تسمى باكستان التي تعني "أرض النقاء". ولا يعد شعر إقبال في نظــر المسلمين متناقضا بــل تمظهرا لصراع الأفكار في المجتمــع البشري. وتأكدت لي شهــرة إقبــال العالمية حين أشار مــن قابلناهم طوال رحلتنا إليــه بوصفه نموذجا جديرا بــأن يحتذى مثالــه. في حين توضحت قــدرة الشاعر على عبور واخــتراق الحدود اللغوية والثقافية والعالمية خلال توقفنا في دمشق، وذلك في حفل عشاء أقامه السفير الباكستاني تكريما لنــا: فقد تلا أحد السوريين، محمد حبش، نسخة بالعربية لقصيدتين من قصائد محمــد إقبال. وكانت حماسته في الإلقاء ظاهرة للعيــان مما أدخل السرور والبهجة على نفوس الحاضرين.

تستمـد النمـاذج الثلاثة، علـى تناقضهـا الظاهر، إلهامهـا من اسم يوفـر الوحدة للمجتمعـات الإسلامية المتنوعة على امتـداد العالم: النبي. فهو يحظى بقدر من الإجلال إلى حـد أن المسلمـين يتبعون اسمه كلما ذكـر بعبارة "صلى الله عليـه وسلم". في إحدى قصيدتي محمد إقبال المذكورتين آنفا، ينصح الله المسلمين بالقول:

إن كنتم مخلصين لمحمد فأنا لكم

لم تريدون هذا الكون؟

سأعطيكم مفتاح المعرفة ذاتها

يتطلع المسلمون في كل مكان، بغض النظر عن عرقهم أو عمرهم أو طبقتهم الاجتماعية أو جنسهم أو مذهبهم، إلى النبي بطريقة خاصة. فهو مصدر إلهام لهم في الحياة.

تعـبر شعبية النبي الكاسحة عن مفارقة وقوة في الإسـلام في آن: المتصوفة في أجمر ينشـدون المدائح في حب النبـي ويربطون سلالتهم الروحية بـه؛ والمتزمتون النصيون في ديوبانـد يعدونه مثلهم الأعلى المطلق، ويقلدون سنته (حتى في عف اللحى وطول الثوب)؛ والتحديثيون في عليكره يستشهدون به بكل فخر واعتزاز بوصفه الثوري الأصيل في التاريخ الـذي منح الحقـوق للمرأة والأقليـات والمحرومين. والـكل متفقون علـى أن النبي أفضل مفسر للقرآن والإسلام. وأحاديثه المعبرة توفر الوحدة التي تربط فروع الإسلام الثقافية والسياسية المتنوعة خصوصا في مواجهة أي تهديد مشترك.

يعـد الكثير من المعلقين الغربيـين أتباع نموذجي أجمر وعليكـره "معنا"، في حين أن أتبـاع نمـوذج ديوبانـد "ضدنـا". لكـن إذا كان للسؤال المتكـرر: "أين هـم المعتدلون؟" أي معنـى دلالي فهـو أن هـؤلاء برأيهـم قد غابـوا عن النظـر. وآمل، عبر إظهـار تعقيد وتنـوع وتلون العـالم الإسلامي، اقتراح طـرق وأساليب يستخدمها الغـرب لفهم المجتمع الإسلامي.

فضـلا على ذلك كله، تسلط هذه النماذج الضوء "عليهم" في الحرب على الإرهاب، وتوضـح أن البلاد الإسلامية لا تناسـب بالضبط هذا النموذج أو ذاك. أفغانستان، حيث عاود الطالبان الظهور ويقاتل المتمردونباسم قبائل البشتون - الجنود الأمريكيين وقبائل

الشمال، تجسد مثالا رئيسا على تناغم النماذج الثلاثة. فقد عرف الأفغان بحبهم للأدب الروحاني الصوفي - فهي مسقط رأس جلال الدين الرومي - لكنهم أيدوا أيضا نموذج ديوباند خلال حكم الطالبان، خصوصا أهالي قندهار وكابول. أما الشكل الرئاسي الراهن للحكم، مع جيش وطني وقوة شرطة جديدة، فيميل نحو نموذج عليكره. لكن ما يزال الوقت مبكرا لتبني نموذج عليكره، وهنالك أدلة واضحة على قوة ونفوذ نموذج ديوباند. ويمكن أيضا رؤية تداخل تفاعلي بين النماذج الثلاثة في مجتمعات إسلامية أخرى، مثل الصومال. ومن المهم عدم الاكتفاء بتحديد وتعريف هذه النماذج فقط، بل وصلها بعضها ببعض وبالمناقشات النظرية الواسعة عن الزعامة والقيادة. فصلتها الوثيقة ليست تاريخية ونظرية فحسب بل تحظى بأهمية سوسيولوجية مباشرة لأي مناقشة تتناول الإسلام المعاصر.

يمكننا بمساعدة هذه النماذج أن نقدر بدرجة أفضل كيف يرى التيار الغالب من المسلمين نفسه. يعد نموذج أجمر مناقضا بنيويا وإيديولوجيا وفلسفيا، للفلسفات المادية والاستهلاكية القوية الكامنة خلف العولمة. فالمتصوفة - من السنة والشيعة على حد سواء - يشددون على هموم الإنسانية المشتركة، والفقر، وضرورة التراحم والتعاطف والإحسان. ويحث الفكر الصوفي الناس على التأمل المستمر بالآخرة وعدم التركيز كثيرا على الثروة أو الكسب المادي في الدنيا الزائلة. لذلك، يغيب الصوفيون عن النظر تقريبا في عصر العولمة، وإن ظلوا ناشطين. فهم ليسوا مستهلكين ولا مناصرين متحمسين بطريقة جسورة لأسلوبهم في التفكير، لكنهم يعرضون حلا أصيلا وطويل الأمد لبعض من المشكلات التي تواجه حضارة البشر جميعا. وربما يعد نموذج أجمر، الذي يجسد التعددية والقبول بالآخر المختلف، النموذج الوحيد الذي يمكن أن يقود المسلمين خارج الصراعات الاثنية والدينية والسياسية التي فرضتها العولمة عليهم وما زالوا مستمرين في تجاهل أخطارها.

لا يمكن فصل الدين عن العقل في رأي أتباع نموذج ديوباند. وهم يستشهدون بالعديد من الآيات القرآنية التي تؤكد وتدعو إلى استخدام الفكر والعقل. فكلمة علم هي ثاني أكثر الكلمات تكرارا في القرآن بعد كلمة الله. فقد ذكر تعالى، كما يقولون، إنه لا يوجد سمة

أعظم من العقل. ولا يمكن للمؤمن عبادة الله إلا باستخدام قدرته الكامنة على التفكير والتعقل. ووفقا لأتباع المدرسة، كانت أيام الإسلام العظيمة نتيجة لزومية لامتزاج الدين والعقل. حين تميز علماء ومفكرو الإسلام وكان علمهم المعرفي رائد التطور الفكري. أما الانهيار العام للقوة والنفوذ السياسي خلال القرنين الماضيين فيمكن مغالبته، كما يؤكدون بالحجة، عبر إحياء الإسلام النقي الأصيل وإعادة نموذجه المبكر الذي أدى إلى انتصار المسلمين أساسا.

ولأن مدرسة ديوباند حافظت على "نقائها" عبر رسم الحدود حولها، فهي قادرة على حماية نفسها من موجات المد العارم للعولمة. ويمكنها بالمنطق والتساوق والإصرار والثبات أن تفضح وتقاوم خواء العولمة، وماديتها الفظة، وصور الانحلال الأخلاقي المعروضة على شاشات التلفزيون. لذلك، فهي تشدد على التفوق الأخلاقي للإسلام وتسعى إلى إيجاد شعور بالفخر والاعتزاز اعتمادا على الهوية الإسلامية. وفي نظرها، لا يعد الغرب مفلسا أخلاقيا فقط، بل عنيفا وساديا، خصوصا منذ الحادي عشر من سبتمبر. وفضائح أبو غريب تشهد على ذلك وتؤكد توقع حكماء المسلمين وأوليائهم بأن الإسلام سينتصر في نهاية المطاف. وبدلا من تقديم الاعتذارات، تركب مدرسة ديوباند موجة كاسحة في العالم الإسلامي، مع أنها قد تتخذ أشكالا واستجابات وردود أفعال مختلفة اختلافا بينا، بدءا بالتفجيرات الانتحارية، مرورا بالمشاركة في الانتخابات المحلية، وانتهاء بالمظاهرات والمسيرات والمواكب في الشوارع. ويبدو أن العولمة تحث وتحرض نموذج ديوباند أكثر من النموذجين الآخرين، وتدفعه إلى أداء دور أشد نشاطا وفاعلية في المجتمع الإسلامي.

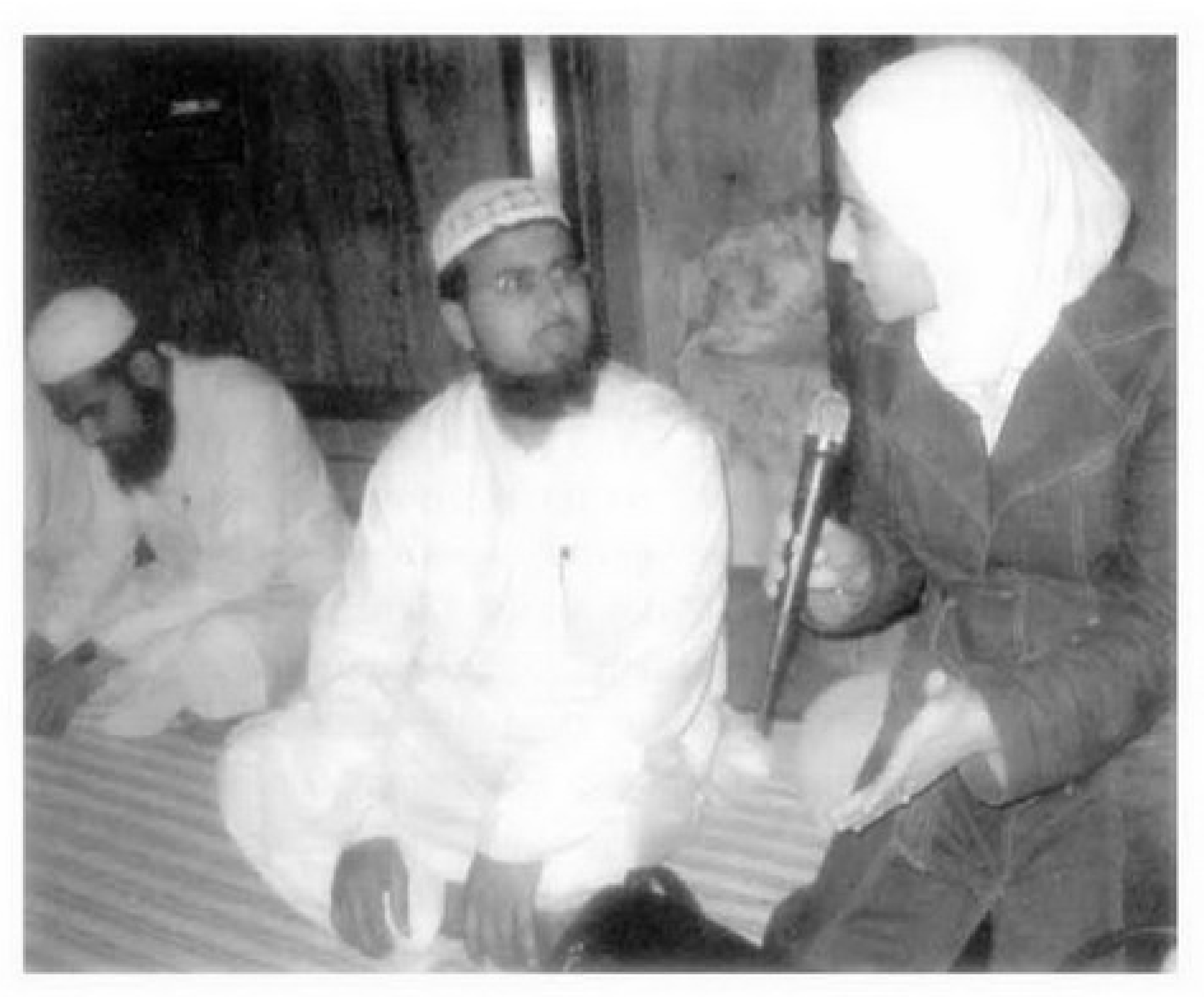
يبدو نموذج عليكره على السطح أكثر تناغما مع المفردات والمصطلحات والمفاهيم الغربية الحديثة مثل الديمقراطية والعقل والتقدم والعلم، مقارنة بالنموذجين الآخرين. ووفقا لشخصيات جوهرية بارزة في هذا النموذج، مثل السير سيد أحمد خان (في جنوب آسيا) ومحمد عبده (في الشرق الأوسط)، يعني الإسلام -بالتعريف- التوازن بين الإيمان والعقل. وأمل هؤلاء أن يحقق المجتمع الإسلامي توليفة تركيبية تجمع التراث (الإسلامي) والحداثة (الغربية). بعض المسلمين يؤيدون الفصل الكامل الناجز بين الدين والدولة، كما حدث في تركيا في حقبة كمال أتاتورك. وفي الحقيقة، بلغت تركيا

حـد البدء برفض صيغ عديدة من الإسلام. لكن وعود المنجزات القومية، والديمقراطية الحقيقية، والتقدم الاقتصادي للجميع لم تتحقق فعلا على أرض الواقع. ولم تعتنق غالبية البلـدان الإسلامية ديمقراطية حقيقية ولم تحقق تقدما اقتصاديا دائما وواسع النطاق. وبـدلا من ذلـك، تعرضت تجارب هـذا النموذج للتطويـق والحصار مـن أنظمة الحكم الديكتاتوريـة، أو غرقـت - كما حـدث في أفغانستان والعراق - في بحـر من الاضطراب الفوضـى، وعدت مجرد محاكاة رديئة وهزيلة للغـرب لم تعط أي ثمار. ويواجه المسلمون من أتباع هذا النموذج خطر خسارة الدين دون الفوز بالعقل.

أكـدت رحلاتنا في العالم الإسلامي أن المسلمين يعرفون أنفسهم وفقا لهذه النماذج. فأولئك الذين قابلناهم من أتباع نموذج أجمر يؤمنون إيمانا عميقا بموقفهم لكن يبدو أنهم يتخذون موقف الدفاع، لا بسبب تعرضهم للهجوم من المسلمين الأكثر تشددا - خصوصا بعض المجموعات منأتباع نموذج ديوباند - بل نتيجة صعوبة البقاء في عصر العولمة وجعل أصواتهم مسموعة. وبدا أن أتباع نموذج عليكره في حالة من التشوش والتشتت فضلا على استخـدام تعابير تدل على عدم اليقين بالمستقبل. في حين تسم الثقة والجرأة والإحساس بالانتصار أتباع نموذج ديوباند. فالتاريخ تحول أخيرا لمصلحتهم.

إذن، ليـس من المفاجئ أن يستخلص أعضـاء فريقي سلسلة واسعة من ردود الأفعال في المجتمعـات المحليـة التـي قمنا بزيارتهـا خلال رحلتنا. فقـد كان أفرادهـا يراقبوننا مثلمـا نراقبهـم. لقـد استخدمت بعضا من هذه المـادة في النص. إذ وفـرت ردود أفعال المسلمين على مرافقتينا هيلي وهاديا، تغايرا معبرا، وهذا ما أتاح لنا أن نراقب على أرض الواقـع مباشرة كيف اشتغلت ردود الأفعال هذه ضمن النمـاذج الإسلامية الثلاثة ونعلق علـى أصالتهـا واكتمالها. فقد مثلت هيلـي، بشعرها الأشقر وعينيهـا الزرقاوين، الأنثى الأمريكيـة النمطية المتحدرة من أسلاف أوروبيين. في حين رمزت هاديا بعينيها البنيتين وبشرتها السمـراء، نوعا جديدا من الأمريكيين العرب من آباء مسلمين، فضلا على أنها محجبة. استقبل الروحانيون والمتصوفة من أتباع نموذج أجمر هيلي بكرم الضيافة ذاته الذي امتد ليشمل الفريق برمته، في حين أن المتشددين من أتباع نموذج ديوباند تظاهروا دومابأنها غير موجودة وتجاهلوها كلية، ولم تتلق الترحيب بلباقة لا تشوبها شائبة إلا من

نسائهـم. وترك الأمر إلى الشباب المسلمين، في استنبـول أو عمان، لرؤيتها كأنثى نمطية غريبـة - يمكن إغراؤها. وموقفهم تجاه هيلي لخص بإتقان تقريبا مأزق نموذج عليكره. فقـد تخلى أتباعه عن السلـوك الإسلامي التقليدي ولم يستطيعوا عبور المرحلة الانتقالية نحـو السلـوك الاجتماعي والتعليم والثقافـة الغربية، ولذلك نزعـوا إلى قراءة العلامات والإشـارات والحـالات بطريقة خاطئة. ومن ثم انتهى بهم المطـاف في وضع لا ينتمي إلى الماضي ولا إلى الحاضر.



في إحـدى المدارس الدينية في ديوبانـد، هاديا مبارك تجيب عن أسئلـة متعلقة بتجاربها بوصفهـا مسلمة أمريكية. تكررت الأسئلة عن المسلمين الأمريكيين والصورة السلبية للإسلام في الغرب مرارا خلال الرحلة.

تحسنـت الأمور بسرعة فيما يتعلق بهيلي حين تعلمت كيف تقرأ الإشارات الدلالية في المجتمعـات الإسلامية، حتى في تحية النـاس. إذ لا تحبذ المصافحة بين الرجل والمرأة في المجتمع التقليـدي، نظرا لانتهاكها المعايير الاجتماعية الراسخة. فمصافحة شاب مسلم فتاة أمريكية يمكن أن تعني أكثر من مجرد تحية اجتماعية. الملابس لها أهميتها الدلالية أيضـا. وحين بدأت هيلي ترتدي ملابس أكثر تقليديـة، مثل التنانير الطويلة، والقمصان الفضفاضـة، وغطـاء الرأس بين الحين والآخـر، خصوصا في دور العبـادة، وجدت أنها أصبحت تلقى بعض الترحيب من الرجال. في كراتشي، رفضت دخول مبنى ضريح محمد

علـي جناح حتـى وجدت غطاء للرأس لإظهار احترامها لذكـرى الأب المؤسس لباكستان، وحـين ذكـرتُ ذلك أمام عدد كبـير من الحضور في مناسبة عامـة في إسلام أباد بعد أن تحدثـت هـي أمامهم، بدا عليهـم التأثر. في اليـوم التالي أعربت الصحافـة المحلية عن تقديرهـا للفتـة الاحترام هذه. وفي نهاية يوم طويل في جامعة ديوباند في الهند، عبر أحد كبـار أعضاء الهيئـة التدريسية الـذي كان يرافقنا عن شكره لزيارتنـا في صف محتشد بالطلاب الملتحين. وبلغ تأثـره بمسلك واحتشام هيلي حد مخاطبتها بـ"هيلي الطاهرة". وهكذا، في خضم المشاعر المعادية لأمريكا في المنطقة، استطاعت طالبة اكتساب أصدقاء للولايات المتحدة عبر إظهار بعض الحساسية الثقافية.

هاديـا أمرها مختلف. فقد قبلها المتصوفة في أجمر ورحب وأعجب بها أتباع مدرسة ديوباند. وكانت برأي هؤلاء نموذجا يدعو للفخر ويمثل الإسلام في الولايات المتحدة وعبروا عن رضاهم على ذلك. وحتى المدارس الدينية المتشددة، التي لا يدخلها إلا الذكور عادة، دعتهـا إلى التحدث أمـام تجمعات ضمت عدة مئات من الطلاب، الذين أثارهم ما قالته بالعربية. لكن في استنبول أو عليكره ذاتها، واجهتها مشكلات مع أتباع نموذج عليكره. بل حاولـوا في استنبول منعها من دخول حـرم إحدى الجامعات بسبب حجابها. وفي عليكره، هاجمهـا عدد من الطلاب الغاضبين بسيل من الأسئلـة العدائية عن السياسة الخارجية الأمريكيـة. وفي حين لم تصدر عنهـم أي تلميحات جنسية غير لائقـة، لكنهم عبروا عن غضـب شديد عنـد التعامل معها. ربما عـدوا حجابها رمزا لورطتهـم: فقد اتخذوا على الدوام موقفا دفاعيا لأن الإسلام تعرض للانتقاد بوصفه دينا متخلفا ورجعيا.

الفوارق بين الشيعة والسنة

وما يضيف إلى هذا التعقيد أن الإسلام مكون من طائفتين رئيسيتين، السنة والشيعة، تأثر كل منهما بوجهات نظر النماذج الثلاثة تجاه العالم بطرق متباينة. تقدر نسبة السنة بـ 85. 90% مـن مسلمي العالم، والنسبـة الباقية من الشيعة. علـى المستوى اللاهوتي/ العقدي، ليس ثمة فوارق فعلية بين الطائفتين - كلتاهما تؤمن بالله والنبي والقرآن، والقيم المتأصلة في الإسلام. لكن هناك اختلافات مميزة على المستويين السياسي والاجتماعي، تعود إلى وفاة النبي عام 632م.

يتأصل معتقد وهوية الشيعة في السؤال المتعلق بمن يخلف رسول الله ويحمل لقب أول خليفة أو قائد الأمة الإسلامية التي شيد أركانها صلى الله عليه وسلم. يعتقد الشيعة أن عليا، صهر الرسول وابن عمه، هو الأحق بالخلافة. لم يكن علي شخصية استثنائية وفذة فقط - فقيه حكيم ومحارب جريئ - بل أول فتى يعلن إسلامه. ولم يصبح علي خليفة إلا بعد أبي بكر وعمر وعثمان - وكلهم من الصحابة الأجلاء والشخصيات التي تحظى بالتقدير في الإسلام السني. علي أيضا هو والد الحسين، أحد أهم رموز الشيعة، الذي استشهد في كربلاء (في العراق)، وكان لاستشهاده أهمية بالغة وتبعات مؤثرة في تاريخ الشيعة، حيث يحج ملايين الشيعة إلى كربلاء كل عام.

هذا الاختلاف الأولي على الخلافة تطور إلى انقسام مذهبي في خلافة عمر، حين اعتنقت الإمبراطورية الفارسية الإسلام آنذاك. وجلب الفرس معهم - كما فعلت شعوب الأمصار الأخرى في العالم الإسلامي -العديد من عاداتهم وتقاليدهم وإحساسهم بالاعتزاز القومي. فقد تلقوا هزيمة نكراء على أيدي العرب، الذين كانوا يزدرونهم بوصفهم قبائل من المتخلفين الذين يفتقرون إلى الثقافة والفكر والذكاء. وبدا من المنطقي لهم الارتباط بعلي في دينهم الجديد لأن هذه الرابطة مكنتهم من الاحتفاظ بشعور بالتفوق، في حين يعدون أنفسهم أقلية مضطهدة ضمن عالم الإسلام الذي يهيمن عليه السنة. وبمرور الزمن، تسربت الاختلافات والفوارق الاجتماعية إلى الطاعات التي أثرت في الشعائر الدينية. الاحترام والإجلال والمكانة التي يتمتع بها رجال الدين الشيعة في المجتمع لا يتمتع بها رجال الدين في الإسلام السني، حيث يجب على علماء الدين منافسة الزعماء التقليديين وغيرهم في إسماع كلمتهم. فضلا على ذلك، يربط الشيعة أنفسهم بعلي ارتباطا وثيقا إلى حد أن السنة كثيرا ما يتهمونهم بإجلال علي أكثر من النبي ذاته. والمفارقة أن السنة والشيعة معا يجلون ويوقرون ويستمدون إلهامهم من الشخصيات التاريخية نفسها: النبي، وابنته فاطمة، وزوجها علي، وابنهما الحسين.

يمثل عمر بن الخطاب، الخليفة الراشدي الثاني، نقطة الخلاف المركزية بين أتباع المذهبين. إذ يعده السنة قدوة ومثلا أعلى، مثلما أظهرت الإجابات على الاستبيانات التي قدمناها، في حين تختلط مشاعر الشيعة تجاهه: فهو واحد من الذين اغتصبوا حق علي

في الخلافة، لكنه الحاكم الذي أرسل حملة ناجحة لفتح بلاد فارس وإدخال الفرس في الإسلام. في كثير من الأحيان، يهمس الشيوخ من أهل السنة زاعمين إن الشيعي في سالف الأيام حين كان يسدد رميته لصيد طريدة، يدعو في سره أن يصيب السهم قلب عمر.

مثل الإمام آية الله الخميني، الذي قاد الثورة الإسلامية في إيران وأسقط الشاه، كل ما يعارض الحداثة الغربية برأي الغربيين وحتى الحداثيين بين الشيعة الذين اتبعوا نسختهم الخاصة من نموذج عليكره. لكن الخميني مد يده إلى السنة، مقدما الحجة على عدم وجود خلاف لاهوتي/ عقدي بين المذهبين. أما شعاره فكان: لا شرق ولا غرب، لكن شغلته السياسة في إيران فيما بعد، ثم خاضت بلاده حربا دموية طويلة مع العراق، وفقدت الثورة زخمها.

كثيرا ما أطلق العداء بين السنة والشيعة شرارة أعمال العنف في المناطق التي يكون فيها الشيعة أقلية، مثل السعودية وباكستان. في إيران، من ناحية أخرى، تعرضت الأقليات السنية تاريخيا، خصوصا الجماعات القبلية مثل الكرد على الحدود الغربية والبلوش على الحدود الشرقية، للاضطهاد والقمع. ومثلما أشار الخميني، ليس لهذا الاحتكاك بين السنة والشيعة سوى علاقة واهية بأي اختلافات مهمة أو لاهوتية/عقدية يتعذر حلها. ولكن اللوم يقع على العوامل الاثنية والاجتماعية والنفسية.

في الوقت الراهن، تتعرض الروابط والعلاقات بين الشيعة والسنة إلى الانهيار والانحدار إلى مستوى العنف المذهبي في العراق الذي يهيمن عليه الشيعة، وباكستان التي يهيمن عليها السنة، ولبنان حيث يتعادل المذهبان في القوة. الأصدقاء والجيران يلحقون أذى جسيما بعضهم ببعض، وهم عارفون بنقاط ضعفهم وحساسياتهم المتبادلة. فالدوافع اللاعقلانية المتجذرة والظلامية التي يشجعها الحقد والغل تجد التعبير عنها في أقسى الأعمال الوحشية شرا وانتقاما. أما الطبيعة الحادة والمنتشرة للعنف الحالي داخل الإسلام فتؤكد وجود خطأ ما في الوضع الإنساني اليوم.

على الصعيد الاجتماعي، تظهر المجتمعات الشيعية العديد من النزعات والميول المميزة لنموذج أجمر، لأن المكون الصوفي في النموذج ساهم مساهمة كبيرة في إثراء الثقافة الشيعية. في الوقت ذاته، يبدو علماء الدين الشيعة الموقنون بأنهم المدافعون

عن الإسلام أكثر قربا إلى نموذج ديوباند، لكن حتى وقت قريب بدت استجابة الشيعة للحداثة أقرب إلى نموذج عليكره. لنتذكر أن بلاد فارس (إيران)، معقل الشيعة، لم تخضع للاستعمار الغربي - ولم تظهر فيها جامعة عليكره، ولا أمثال السير سيد أحمد خان أو محمد إقبال أو محمد علي جناح. وفي نظر الشيعة، تعني الحداثة رفض المعادل الشيعي لنموذجي أجمر وديوباند - بمعنى أي صيغة من صيغ الدين التقليدي - والافتتان الأعمى بالغرب في آن معا. ومنذ الخمسينيات وحتى إسقاط نظامه، جسد شاه إيران هذا الاعتناق للنموذج الغربي ورفض القيم التقليدية، ولذلك اغترب عن شعبه واستعداه. لكن ظهر في الإسلام الشيعي عدد من الحداثيين، مثل عالم الاجتماع الإيراني علي شريعتي الذي تخرج في فرنسا. لكن لم يصل أي منهم إلى السلطة. واليوم، يهيمن المعادل لنموذج ديوباند على المسرح في إيران. ويجب رؤية دافع إيران إلى بناء برنامج نووي يمكن أن يستفز أزمة عالمية جديدة في سياق شعور الشيعة بالاضطهاد وموقع شيعة إيران ضمن عقيدة الإسلام[39].

عند مفترق الطرق

ما يكمن في صميم ديانات العالم الكبرى مفقود في عالم اليوم: الإحساس بالعدل والإحسان والعلم. فقد اكتسح المد العارم للعولمة العالم بقوته الاقتصادية والمالية، ليهيج الغضب والجشع والجهل. وفي مثل هذه البيئة، أصبحت مشاعر التعاطف والتراحم وفهم الآخر غير ذات صلة - ولم يعد الإنسان والعلاقات الإنسانية أمرا مهما. تفاقمت هذه السمة المميزة للعولمة منذ الحادي عشر من سبتمبر. وبرر أساتذة القانونالذين يجب أن يعرفوا أكثر من غيرهم - استخدام التعذيب في أحط أشكاله في معسكرات الاعتقال السرية[40]. وغدت الحرب الأمريكية على الإرهاب رمزا مشوها للعولمة ومرتبطا بالتعذيب وتعليق العمل بحقوق الإنسان مع ملايين الفقراء والمحرومين والمتعاطفين معهم. وهذا يتحدى افتراض المفكرين الغربيين الساذج فكريا والمتعصب عرقيا وثقافيا بأن العولمة تروج وتشجع "التسامح العالمي"، وأن هذا التسامح سمة مميزة للثقافة الغربية التي يمكن الآن نقلها إلى بقية دول العالم[41]. فالجنس البشري بلغ حد فقدان ما يجعله بشريا وإنسانيا: التعاطف والتراحم والإحسان. وهو بحاجة إلى إعادة اكتشاف التراحم

والإحسان لـكل وحدة من وحداته الاجتماعية، بدءا بالأقارب وانتهاء بالمجتمعات الكبرى التي تتقاسم العيش على هذا الكوكب.

لذلـك هناك حاجة إلى تشجيع الحكومات على إجراء حوار جدي وبذل الجهد الكافي لفهـم حتى أولئك الذيـن يعارضونها بشدة، بدلا من عزلهـم وإقصائهم واستعدائهم. إن رفض نموذج ديوباند في الشرق الأوسط مثلا لا يؤدي إلى مزيد من تطرف أنصاره وتشدد أتباعـه فقط، بـل إلى توسيع قاعدته في المجتمع في نهاية المطـاف. لقد فشل تكتيك رفض الاعـتراف أو التحدث مع أنصار ومؤيـدي نموذج ديوباند فشلا ذريعا. وتحتاج الحكومات أيضـا إلى المساعـدة علـى إحياء نموذجـي أجمر وعليكـره المهمشين في الوقـت الراهن. والتعاطـف مع المجتمعـات الأخرى وفهمها همـا السبيل الوحيد لحـل المشكلات المحفوفة بالخطـر التي تواجه الحضارة الآن. ففي المجتمع الإسلامـي وحده تتفاقم هذه المشكلات وتتضاعف: الأمية، والافتقار إلى الرعاية الصحية، والفقر، والشكاوى والمخاوف السياسية المشروعة للكشميريين والفلسطينيـين ومسلمي البلقان والشيشان. وما يضيف تعقيدا إلى هـذا الوضع المعقد أن المسلمين يكونون مجتمعـا تقليديا لكن عالميا ملتزما دينه. ومستقبل الجنس البشري يعتمد على الحوار العالمي مع المسلمين وغيرهم من الشعوب.

هـذا يعني أداء مهمة لم تؤد من قبل في التاريخ البشري: التشارك في تطبيق القواعد الأخلاقيـة الشائعة والمتضمنـة في جميع الديانات والمنظومـات القانونية الكبرى. الوقت عامل جوهري هنا. فالسموم تنتشر بسرعة بحيث يستحيل العثور على ترياق في المستقبل إذا لم يتخذ فعل إجرائي علاجي فوري.

يمثـل هذا الكتاب خطوة أولى حاسمة في ذلك الاتجاه: فهو يشرح السبب الذي يجعل تحديـد مشكلة علاقات الإسلام بالغرب ممارسة غـير روتينية ذات طبيعة أكاديمية، بل أمـرا حاسم الأهمية لعملية الفهـم الحقيقي، لأن الافتراضات المغلوطة سوف تؤدي حتما إلى نتائج خاطئة وناقصة. إن وسم الإسلام بنعوت وصفات جديدة ومغالية مثل: الفاشية الإسلاميـة"، ربما يوجد مزيدا مـن المشكلات التي يمكن تخيلها. لذلك قمنا بعملية سبر وتمحيص عميقة في كيفية تعريف وتحديد الإسلام في عصرنا، ومن يقوم بمهمة التعريف والتحديد، ولماذا. واقترحنا طرقا وأساليب بديلة لمعاينة المشكلات ذاتها.

يقـترح الكتـاب أيضا كيفية إجراء الحـوار وتحقيق الفهم بـين المجتمعات عبر أمثلة عمليـة وميدانيـة. ولا يكتفي بإثـارة أسئلة نظريـة فقط، بل يعرض حـالات فعلية تصف أشخاصـا حقيقيين من لحم ودم. من أسواق الشرق الأوسط، إلى مساجد ومعابد جنوب آسيا، إلى جامعات وكليات الشرق الأقصى سمعنا أصواتا - لمسلمين وغير مسلمين - نادرا مـا يسمعها أحد، وأحيانـا لا تسمع على الإطلاق. والكتاب يردد صدى أصواتهم المخلصة ورسائل الأمل التي بعثوا بها.

لكن لسوء الحظ، يبدو أن المفكرين وصناع السياسة الأمريكيين على درجة من التشبث العنيـد بفكـرة الطاقة السلبيـة للإسلام تماثل فكـرة المسلمين عن الثقافـة والسياسات الأمريكية. ولا يظهر أي من الطرفين الحكمة والشجاعة والالتزام الضروري لجعل العالم مكانا أفضل - وأكثر أمانا وأمنا. فهذا يتطلب تغييرا في الفكر والذهن، والأهم تغييرا في المشاعر والنيات والمقاصد.



-2-
الصراع داخل الإسلام

كان يـوم التاسـع والعشرين من شهـر آب / أغسطس 1659 حـارا ورطبا في دلهي، عاصمـة الإمبراطورية المغولية القوية. احتشدت جماهـير غفيرة على الطرقات الرئيسة لإلقـاء نظرة ولو خاطفة على الأمير المحبوب، دارا شيكوه، الوارث الشرعي لشاه جيهان، بـاني تاج محل الشهير. لكـن المناسبة لم تكن سعيدة. فقـد كان دارا على وشك أن ينفذ فيـه حكـم الإعدام[1]. وحين لمحته الجماهـير، علت تنهداتها. نظـر الأمير دارا، بوجهه الشاحـب وثيابـه الرثة إلى الجماهير من فوق ظهر فيل مغطى بالأقذار. كان يجلس بإباء وعـزة إلى جانـب ابنه البالغ من العمر خمسة عشر عامـا، وهو عارف بأن القصد إذلاله أمام الملأ، وأن هذه هي رحلتهما الأخيرة.

ثـم ظهر نبيل أفغـاني يدعى مالك جيـوان، فعلت صيحـات الاستهجـان والازدراء. بعضهـم رماه بروث البقر احتقارا لخيانته لـدارا، الذي أنقذ حياته ذات مرة من مصير مشابـه. فردّ النبيل الفضـل بالغدر والوشاية به عند اورانغزيـب، أخيه الأصغر وجلاده، الـذي اغتصـب العرش وأصبح الآن حاكم دلهي. فحين سقـط شاه جيهان مريضا، وضع اورانغزيـب، قائد الجيش الإمبراطـوري المحنك الذي خبر المعـارك والحروب، والده في السجن وتحدى دارا في معركة هزمه فيها بسهولة.

حسم النصر مصير دارا. فقد حوكم ووجد مذنبا بتهمة الزندقة، وصدر بحقه حكم الإعـدام. وحين أحضر رأسـه إلى اورانغزيب، صاح متعجبا: "مثلما لم أنظر في وجه هذا الكافـر في حياتـه، لن أنظـر إليه الآن"[2]. وأمـر بوضع الرأس في صنـدوق وإرساله إلى شـاه جيهـان في زنزانته. تذكر الوالد المفجـوع بابنه العزيز، وقد هـده المرض والقنوط، زيارة قام بها إلى مقام الولي الصوفي الكبير في أجمر قبل ولادة دارا ودعاءه أن يشفع له ليرزق بابن يرث عرشه. وعند ولادته، كرم الولي لنجاح شفاعته له عند الله، وأمر بإقامة احتفـال ضخم شمل إطلاق ألعاب نارية أنارت السمـاء المظلمة بآلاف الألوان والأشكال،

وتوزيع الصدقات على الفقراء. ولسوف يمضي شاه جيهان بقية أيامه وهو ينظر عبر شق في زنزانته إلى تاج محل، ويندب زوجته الحبيبة المدفونة هناك، وينوح على خسارة ابنه العزيز على قلبه.

لم يكن من السهل قهر المُثل التي يجسدها دارا، على الرغم من الانتصار الذي حققه اورانغزيب في ميدان المعركة. دارا صاحب الشخصية الآسرة والفكر المتطور، اكتسب شعبية واسعة لدى أتباع جميع الديانات، فقد عقد صداقات عميقة وحقيقية مع الهندوس والسيخ، ومارس دورا فعالا في أول ترجمة للنصوص الهندوسية المقدسة (الاوبانيشاد وباغافاد غيتا) إلى اللغة الفارسية، مع أنه عالم متفقه في التراث الإسلامي. ومن هذه الترجمات التي دعيت غالبا بـ "السر الأكبر"، سوف تكتشف أوروبا النصوص الهندوسية الكلاسيكية بعد عدة قرون.

في عدد من الأعمال الكبرى، جادل دارا في صحة الرأي القائل إن الهندوسية دين عبدة الأصنام، ودعاها الديانة التوحيدية الأصلية لأن فكرتها عن براهما، رب الوجود النهائي، سبقت حتى الديانات الإبراهيمية. وربما يكون أشهر عمل له كتاب "مجمع البحرين"، الذي يحاول فيه تأسيس وحدة جامعة بين الديانات الإبراهيمية والديانات الهندية عبر روحانية التراحم والتعاطف التي تنادي بها الصوفية والهندوسية، وكلتاهما كما يحاجج دارا، ترى "العشق" بأكثر المعاني كمالا ومثالية في جوهر المقدس. إذ ولدت من العشق الروح العظمى، المعروفة بروح محمد نبي الإسلام، وولدت من العشق أيضا مهاتمان، الروح العظيمة في الهندوسية. أما الخاتم الذي لبسه دارا فقد عبر عن الوحدة النهائية للإله، حيث "برابو" (إله الهندوس) على وجه و"الله" على الوجه الآخر. كتب دارا يقول: "الروحانية هي المساواة. فإذا علمت أن كافرا غارقا في الخطيئة يرتل لحن التوحيد، أذهب إليه، وأسمعه، وأدين بالفضل له"[3].

لم يجد دارا متسعا من الوقت لرجال الدين المسلمين، على الرغم من حبه للروحانيين والباطنيين والمتصوفة في جميع الديانات: "الجنة هناك حيث لا يوجد ملالي"[4]. في النهاية، سيقرر رجال الدين هؤلاء مصيره ويتهمونه بالزندقة. لكن جذبته الرسالة الروحانية والعالمية الشاملة في الإسلام واستمد إلهامه من نبيه مباشرة. في الوقت ذاته،

وبوصفه الابن البكر لإمبراطور الهند، التي تضم أغلبية من السكان الهندوس، أدرك مأزق النخبة الإسلامية الصغيرة التي تحكم عددا ضخما من أتباع دين مختلف. ولذلك، كان من الطبيعي أن تتحول أفكاره إلى اكتشاف الرابط المشترك بين الإسلام والديانات الهندية. استمد إلهامه أيضا من مثال جده الأعلى الإمبراطور أكبر، الذي "أصر في تسعينيات القرن السادس عشر على الحاجة إلى الحوار الحر والمفتوح وحرية الاختيار، وعمل على ترتيب المناقشات المتكررة التي لا تشمل التيار الغالب من المفكرين المسلمين والهندوس فقط، بل المسيحيين واليهود والفرس واليانيين وحتى الملاحدة"(5).

من بين الذين اجتذبتهم حلقة دارا التي ضمت تشكيلة متنوعة من الأصدقاء والمعجبين، سرمد، وهو يهودي من فارس كان تاجرا ومتصوفا في آن. ومع أنه اعتنق الإسلام، لكنه أتخم شعره بالصوفية والروحانيات. وأمتعته فكرة اعتلاء دارا عرش الإمبراطورية، لأن هذا يؤذن بحكم قائم على السلام والتنوير الروحاني. وعلى شاكلة دارا، قتل سرمد في نهاية المطاف على يد اورانغزيب، الذي انتصر تفسيره للإسلام على محاولة دارا الحالمة توحيد التراثين العظيمين للإسلام والديانات الهندية.

كان اورانغزيب المتقشف يكره الموسيقى، وأقام حكمه على الشريعة الإسلامية، ورعى التعليم الإسلامي، وفرض ضريبة على رعاياه من غير المسلمين. وجهد لصنع نسخ من القرآن، ثم باعها ووزع المال على المحتاجين. وعلى عكس تاج محل، حيث دفن والداه، كان قبره بسيطا وفقا للتراث الإسلامي المتشدد. يصف ستانلي ولبرت، أحد أشهر مؤرخي الهند، اورانغزيب بأنه كان "في آن معا أكثر المغول العظام تقوى وأشدهم قسوة.. وامتدحه الإسلام السني بوصفه خليفة الهند الوحيد، في حين ذمه الهندوس حتى أكثر من الغزنويين والغرس (أسرتين مالكتين إسلاميتين) نتيجة المعاناة التي سببها إيمانه بصوابية معتقده لرعاياه من غير المسلمين في أوقات السلم والحرب معا"(6).

لم يكن من المفاجئ لي العثور على نسخة من القرآن مكتوبة بخط الإمبراطور المغولي اورانغزيب في مكتبة ديوباند. ففي نظر العديد من المسلمين في شتى أنحاء جنوب آسيا، كان اسم اورانغزيب يرمز للإسلام القوي المتشدد. وحين يشير إليه المعجبون به يستخدمون لقبه الرسمي "فاتح العالم"، في حين يضيف آخرون إلى اسمه "ولي الله". في

رواية اي. ام. فورستر "ممر إلى الهند"، يحلم البطل المسلم الدكتور عزيز، بالسير خلف اورانغزيب إلى المعركة، فهو بطل الإسلام المثالي برأيه. ويذم المسلمون المعجبون باورانغزيب دارا بصفته مسلما ضل سبيله.

بحلول وقت وفاته عام 1707، وسع اورانغزيب حدود الإمبراطورية المغولية لتشمل معظم أفغانستان وباكستان والهند وبنغلادش حاليا - وهي مناطق يمثل سكانها اليوم زهاء ربع سكان العالم. وبلغ الانطباع القوي والمؤثر الذي تركه أباطرة المغول على الأوروبيين حد دخول لفظة / مغول / اللغة الإنكليزية، في حين تشير الكلمة المشتقة منها /mogul/ إلى أباطرة السينما الأقوياء في هوليود[7].

لكن بحلول نهاية حكم اورانغزيب، بدأت حدود الإمبراطورية تتقلص أمام عدد من القوى الناشئة، خصوصا ردة فعل الهندوس والسيخ العنيفة على ميراث حكمه. إضافة إلى ذلك، كان البريطانيون، الذين وصلوا في القرن السابع عشر، يوسعون مدى نفوذهم - وسوف يستمرون في ذلك حتى استعمار الهند برمتها في القرن التاسع عشر.

في عام 1857، اجتاحت الهند انتفاضات شعبية، دعاها البريطانيون "العصيان الهندي الكب "، والهنود "حرب الاستقلال الأولى". وضع البريطانيون اللوم على المسلمين، مع أن العديد من الجماعات شاركت في القتال. زالت إمبراطورية المغول، ونفي الإمبراطور إلى رانغون، وقتل ورثة العرش، وحظرت اللغة الفارسية كلغة رسمية واستبدلت بالإنكليزية. أسست تراتبية وقيم اجتماعية جديدة معادية ومناقضة للممارسات الإسلامية. تصف الروايات المعاصرة كيف حرم نبلاء المغول من ثروتهم وماتوا جوعا، وكيف تحولت الأميرات إلى عاهرات من أجل البقاء[8]. ومع اختفاء أسلوب الحياة الذي عرفه المسلمون في الهند على مر القرون، أدركوا أن الوقت قد حان للرد على انحدار موقعهم ومكانتهم بهذه السرعة. وبحلول منتصف القرن التاسع عشر، تلاشت رؤية دارا عن الإسلام الروحاني الصوفي وأعيد فرض النهج التراثي المتشدد الذي اتبعه اورانغزيب. في البيئة المشحونة لهذه الحقبة، رجع بعض المسلمين إلى نموذج أجمر الذي جسده دارا شيكوه، لكن تبنى غيرهم الجهاد الأكثر عدائية للبريطانيين، مثلما نادى به نموذج ديوباند، في مسعى لحماية معتقداتهم وأسلوبهم في الحياة. لكن لم يخدم أي من

النموذجين حاجات المجتمع. فالعصر كان يدعو إلى استجابة إسلامية مختلفة كليا تتطلب مواجهة مباشرة مع العالم الغربي البازغ والمهيمن. لم تتأخر الاستجابة "الحداثية". فقد انطلقت من كلية جديدة أسست في بلدة عليكره الهندية.

"الصلح للكل"

مشى سميي، أكبر العظيم، حافيا أياما طويلة عبر صحراء راجستان اللاهبة ليصلي في مقام معين الدين تشستي في أجمر. تعمد أكبر إذلال لنفسه علنا ليتوسل طالبا شفاعة الولي ليرزقه الله بولد، مع أنه كان واحدا من أقوى وأغنى الحكام في آسيا - بل في العالم آنذاك. وقدم بذلك نموذجا تحتذي ذريته مثاله، وهذا ما فعله شاه جيهان. تعززت سمعة ومكانة الولي بوصفه يمتلك قوى روحانية وقدرات غامضة على غمر الفقراء بالبركة، بمولد وارث عرش أكبر. غدت قصص المعجزات والبركات نتيجة الصلاة في أجمر أساطير تناقلتها الأجيال على مر القرون. ومن ثم أدى المتضرعون الذين يطلبون بركات ونعم الله بهذه الطريقة دور "المتسولين"، بغض النظر هل كانوا أباطرة يصلون ليرزقهم الله بوارث، أم أشخاصا عاديين مثلي يسعون لترويج السلام والفهم. وفي الحقيقة، فإن التضرع هو الطريقة الفضلى والمؤثرة لكبح ما يدعوه المجتمع الحديث بالأنا. وهذه بالضبط، بمختلف أقنعة التنكر التي تضعها، خصوصا السلطة المفرطة والثروة المسرفة، هي التي يرغب الروحانيون المتصوفة في ضبطها وكبحها بواسطة "الفناء"، لأنهم يرونها عقبة تعيق التنوير الروحاني والترقي الشخصي.

عمت الروحانية حكم أكبر وساعدته على توحيد الأعراق والأديان المختلفة في إمبراطوريته الشاسعة. وأمر حكامه وولاته بقضاء أوقات فراغهم في قراءة أشعار جلال الدين الرومي الصوفية. ولا بد أن والدي قد جذبته إنسانوية أكبر، فسماني على اسم الإمبراطور.

في آذار / مارس 2006، وجدت نفسي مرة أخرى "متسولا" في أجمر. لا يوجد مكان في العالم - برأيي - يشابه أجمر. فالهواء نفسه مترع بالروحانية. وكل زيارة تحيي روحي وتعيد توكيد البركات والنعم النهائية لله الرحمن الرحيم العطوف الكريم. كان الليل يرخي سدوله وأوائل النجوم الزهر تتلألأ في السماء حين دخلت المقام، لتستقبلني مرحبة

موسيقى القداسة والولاء العذبة. كان الجميع من حولي، شيبا وشبابا، رجالا ونساء، أغنياء وفقراء، يدورون حول المقام وقد اختلط بعضهم ببعض مترعين بالرضى والقناعة. وبدا من التنوع الحاشد للجنسيات والأعراق والأديان، أن البشر كلهم مجتمعون هناك.

خلعنا أحذيتنا قبل دخول المقام وفقا للعادة المتبعة. ولاحظت أن أعضاء فريقي قد تخلصوا بحرص وكتمان من هواتفهم النقالة وجميع ما يحملونه عادة من أجهزة العولمة التي غدت جزءا من هويتهم. فهم أيضا يدخلون حرمة المقام وروحانيته ويتخلون عن أوضح علامات الأنا. حرصنا جميعا على تغطية رؤوسنا تعبيرا عن احترامنا للمكان. اعتمرت أنا وفرانكي نوعا من العمامة (مؤلفة من قطعة قماش وردية). في حين كانت هاديا محجبة أصلا ولذلك كان لباسها مناسبا، وارتدت هيلي اللباس الإسلامي التقليدي وغطت شعرها. أما تريديفيش سينغ، دليلنا في الهند، فقد كان يرتدي العمامة عادة (لأنه من طائفة السيخ).



هيلي ولدت، وفرانكي مارتن، وأكبر أحمد، يستمعون إلى الموسيقى الروحانية العذبة في ساعة متأخرة من الليل في باحة مقام الولي الصوفي في أجمر (بالهند). رسالة "الصلح للكل" للمتصوف الشهير المدفون هناك، معين الدين تشستي، تجتذب آلاف الزوار من جميع الديانات كل سنة.

رافقنا مقدس معيني خادم المقام المتحدر من نسل الولي مباشرة، وكان مضيفي خلال زيارة سابقة لتصوير فيلم "الإسلام الحي" لصالح هيئة الإذاعة البريطانية.

قدم معيني سلة مسطحة تحوي وريقات الورد الأحمر ممزوجة بزهور بيضاء ومرتبة على شكل حلقات تؤدي جميعا إلى مركز واحد وتمثل وحدانية الله. ثم طلب من هيلي تحديدا وضع السلة على رأسها بحيث تستطيع أداء شعيرة نثر الورد على ضريح الولي. عرفت من زيارتي الأخيرة أن هذا يمثل تشريفا خاصا، وأدرك جميع أعضاء الفريق الرمزية التي يمثلها: فتاة مسيحية اختيرت لتكريم ولي مسلم. ذلك هو نموذج أجمر في الممارسة العملية.

تقدمنا خلف هيلي نحو الضريح، نجر أقدامنا جرا وسط حشد الزوار. غمرت المتعبدين سحابة من البخور وهم ينثرون أوراق الورد الأحمر والأبيض على الضريح ويربطون أشرطة زاهية الألوان على البوابات الحديدية التي تحميه. وبعد أن عدنا من الضريح بقينا في المقام لنتلو صلاة صامتة خاشعة. جلس جميع أعضاء الفريق وقد استغرقوا في أفكارهم، وبلغ من شدة تأثرهم أن اغرورقت عيونهم بدموع البهجة وامتلأت نفوسهم بخشوع الرهبة والهدوء، كأنما تبخر الزمن. توسعت هوياتنا (كمسلمين ومسيحيين وسيخ)، مع أنها بقيت سليمة، واندمجت في هواء أجمر المسحور. كنا مجرد حجيج متحدين في كل واحد نتقاسم شعورا بالإله المشترك.

كانت موازنة سلة الزهر على رأس هيلي "تجربة مثيرة" : "أستطيع الشعور بنبضات قلوب وطاقات جميع زوار المقام. أحسست باتصال عبر ما لدي من طاقة مع البشر كلهم، وعبر أوراق الورد التي نثرتها على الضريح، مع نجوم السماء ورمال الشطآن. تلاشى المقام وجسدي والألوان كلها في الكون وتحولت إلى شعور بهيج بالعدم؛ هويتي لم تعد مهمة هنا. أحسست باقترابي من الله، الواحد الأحد، مثلما شعر المتعبدون بقربهم منه جل وعـ ". شعرت هيلي أن الولي "يدعوها" إلى مقامه، مشيرة إلى القول الشائع في أجمر : لن تكون الزيارة ناجحة إلا إذا دعا الولي الزائر.

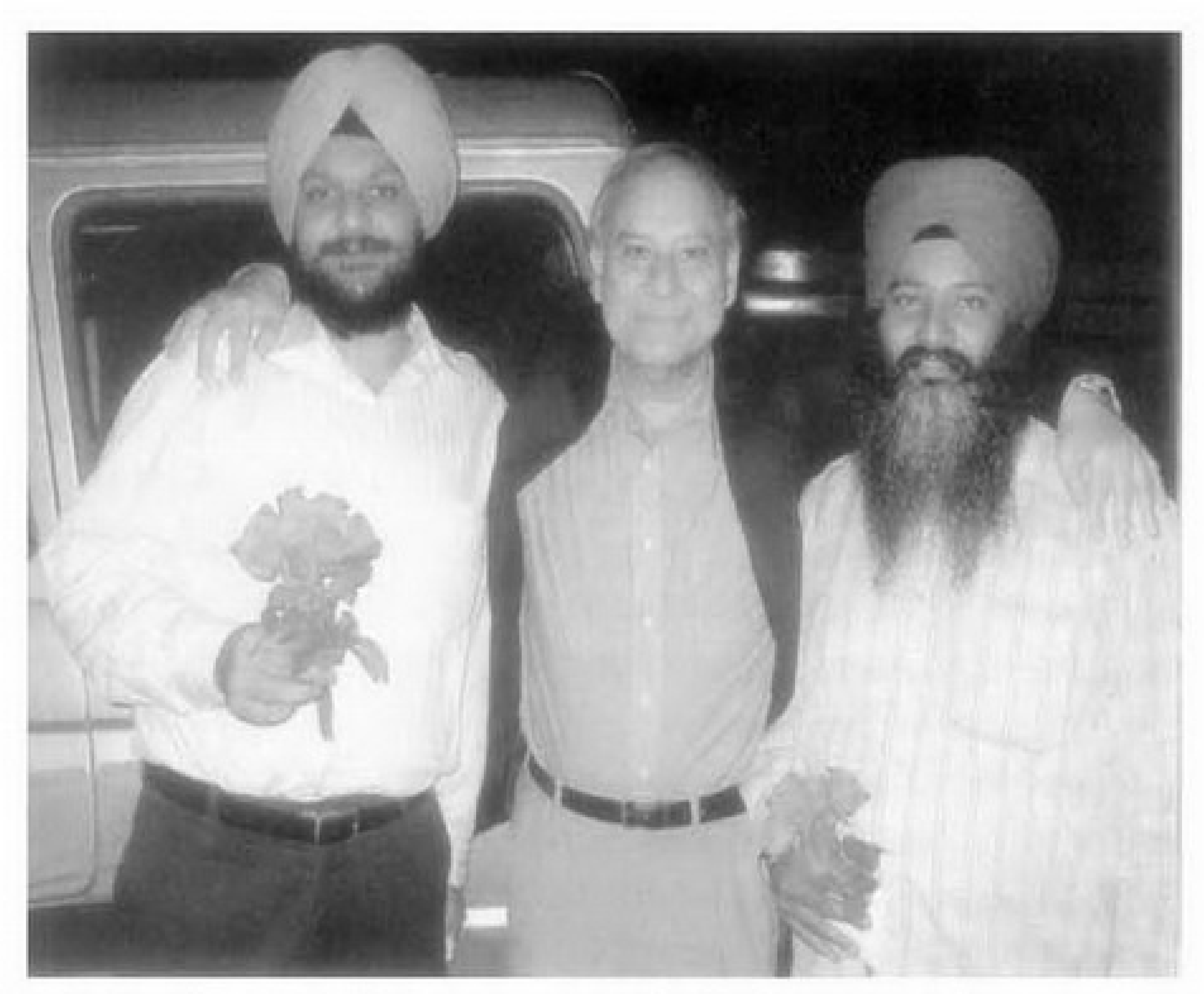
كانت الموسيقى العذبة تأتي منسابة من الباحة إلينا، خرجنا وجلسنا على سجاجيد عتيقة تحت شجرة فواحة العطر، حين بدأت الأضواء والألوان تغمرنا كأننا في حلم. الموسيقى والأصوات التي تمتدح رحمة وجلال الخالق عبرت عن تشوق البشر للاتحاد الروحي مع الله وملأت عيون من حولنا بالدمع وهم يتمايلون بأجسادهم مع الإيقاع. وصف فرانكي

التجربـة بأنها "انسحـاب من العالم الذي كنت جزءا منه قبل ثـوان معدودات. موسيقى وأصوات المسجد ربطتني بذلك الواقع الحقيقي، لكن أفكاري أخذت تنجرف بعيدا، كأنما تحملها الموسيقى إلى شعور نقي صاف، شعور بالسلام والأمان والسكينة. كنت أقف قدما في العالم "الحقيقي" وأخرى في مكان آخر. تشبثت بهذا الإحساس، مهما كان، مدة خمس عشـرة دقيقة قبل أن أفتح عيني، فوجدت باقي أعضاء الفريق يجلسون قرب العازفين في الباحـة وهلة من الزمن، يتبادلـون الحديث ويحاولون التعبير بالكلمات عما كان يستحيل نقلـه بالكلام". سألت بهدوء أعضاء فريقي هل شعروا بالقلق بين هذا الحشد الكبير من الغربـاء في ذلك الوقـت المتأخر من الليل وسـط راجستان. علقت هاديـا قائلة: "نظرت إلينـا النساء وأومأت رؤوسهن برفق وتهذيـب فرددنا التحية بمثلها". الإشارة أصدق من العبارة. لقد نقلت هذه الإيماءات "فكرة أنه بالرغم من اختلاف دينكم وثقافتكم ولغتكم ولباسكم عني، ومع أنني قد لا ألتقي بكم مرة ثانية أبدا طوال حياتي، إلا أنني أقر وأفهم العوامـل المشتركة لكينونتنا، ووحدة أصلنا، ومصيرنا المشترك. تلك الإيماءة كانت تعني لي: 'أستطيع الاتصال بك لأنك إنسان في نظري قبل كل شيء'".

في القرن الثاني عشر، حين حج معين الدين تشستي إلى قبر الرسول في المدينة للتأمل في طبيعـة الخالق في واحد مـن أقدس الأماكن في الإسلام، ظهر النبي له في الرؤيا وحثه "علـى الذهـاب إلى هندستان (الهند) لنشر كلمة الإسلام"، وسلم إليه رمانة تكشف الوجهـة المختـارة: أجمر. شرع تشستي فورا في أداء مهمتـه واشتهر بمرور الوقت بوصفه "ولي النبي في الهند". أدخل الإسلام دون إقصاء واستعداء الديانات الأخرى هناك، وهـدى الهندوس إلى الدين الحنيف بواسطـة السلام والحب لا السيف والفرض. ويمكن تلخيص فلسفته في شعاره: "الصلح للكل".

رحلتنـا إلى أجمـر واستقبالنا هناك شهادة تثبت فلسفـة تشستي، وسمعته وسلطته، خصوصا القبول بالآخر الذي يقع في صميم نموذج أجمر - الذي ألهم دارا شيكوه وأكبر. تبـدى القبـول والتسامح مرة أخـرى في اليوم التالي، حين رتب تريديفيشـ لنا زيارة إلى معابـد الهندوسـ والسيـخ الشهيرة في بوشكار المجـاورة، وهي بلدة بديعـة المنظر طليت مبانيهـا باللـون الأبيض، تقع في مركزها بحيرة "مقدسـة". في المعبد الهندوسي، راقبنا

النساء وهن يسبحن في البحيرة لتطهير أنفسهن، ورأينا الأبقار تتجول بحرية في الشوارع. في معبد السيخ، المسمى غوردوارا سينغ سابا، جلسنا على الأرض مع الزوار الآخرين وتقاسمنا وجبة طعام مشتركة قدمها الرهبان.



أكبر أحمد يتلقى الترحيب في الهند من طالبه السابق، تريفيديش سينغ (من طائفة السيخ). الصداقة تعبر عن الروابط المشتركة بين مختلف الديانات على الرغم من الصراع بين السيخ والمسلمين، وتعطي أملا بالمستقبل. ويبدو في الصورة (إلى اليمين) سائق الفريق.

بعد ذلك، سمح الرهبان لهاديا بالصلاة في الفناء، مع أنه من غير المعتاد أن يصلي مسلم في معبد السيخ. وقف تريديفيش قربها يحرسها. لقد جعلت تلك التجربة، وصداقتها مع تريديفيش وسوشا (السائق) والرحلة إلى الهند برمتها، جعلت هاديا تغير رأيها بطائفة وديانة السيخ. كتبت تقول: "حين كنت فتاة صغيرة، حسبت أن السيخ يكرهون المسلمين. لكن بعد العلاقات التفاعلية التي جمعتني مع العديد من السيخ خلال هذه الرحلة، والاستمتاع بحسن ضيافة والدة ووالد تريديفيش، تعلمت أن أعجب وأحترم التزامهم دينهم، الذي يحمل بالفعل أوجه شبه كثيرة بالإسلام". دل تعليق هاديا على فطنة ووعي، خصوصا حين نأخذ بالاعتبار أنها لم تزر هذا الجزء من العالم قبل.

كان تريديفيش يقول أمام الجميع إنه "ابن أخي"، تعبيرا عن حبه لي مذ كان طالبا أدرسه في واشنطن. وناقش الروابط التي تجمع الصوفية مع أصول ديانة السيخ

في كتاب نشره، وصدره بإهداء لي يقول: "إلى عزيزي السيد / شاشا وأسرته (شاشا تعني العم في جنوب آسيا): بفضل إلهامك / ودعمك / وتشجيعك فكرت بتأليف هذا الكتاب"[9]. لقد سمح إيجاد ما يدعوه الأنثروبولوجيون بـ"الصلة القرابية المتخيلة"، لتريديفيش أن يكتب هذه العبارة الجريئة التي تسمو على حدود العرق والدين. ففي بيئة تشابه فيها العلاقات العدائية السائدة تقليديا بين السيخ والمسلمين تلك التي تجمع الفلسطينيين والإسرائيليين، ويعد فيها السيخ (كما كان يحدث في مرحلة شبابي) أعداء الإسلام، كانت تلك عبارة بالغة الأهمية الدلالية، ويرغب فيها كل من يسعى للفهم المتبادل.

رحب بنا تريديفيش ووالداه أجمل ترحيب في الهند، ضمن روح "الصلح للكل". فدافع الصوفية وجذورها الروحانية القائمة على التسامح والقبول بالكل حاضرة بوضوح في الديانات الأخرى.

نقول مرة أخرى للتوكيد، إن نموذج أجمر شمولي كوني، لا تقيده حدود الحقب ولا الجغرافيا. وفضلا على المتصوفة المشهورين، مثل تشستي والأمير دارا شيكوه، الذين غيروا سيرورة التاريخ، يمكن العثور عليهم بسهولة في أرجاء أخرى من العالم الإسلامي. على سبيل المثال، كان العراق الحالي وطنا لمتصوفة شهيرة هي رابعة العدوية التي ولدت في أوائل القرن الثامن في البصرة. كانت رابعة البنت الرابعة لعائلة فقيرة. ووفقا للأسطورة، رأى والدها حلما يخبره فيه النبي أن رابعة سوف يحبها الناس وتصبح من الأولياء. ويبدو أنها انفصلت عن والديها حين كانت صغيرة وبيعت كجارية. وبسبب حسنها، نقلت إلى ماخور عانت فيه إذلالا عاطفيا وجنسيا، لكنها حافظت على عشقها لله وإيمانها به. وحين بلغت الخامسة عشرة، أعتقها رجل رعاها وأدرك طاقاتها الروحية، ثم كرست سنواتها الباقيات للسعي إلى الله والعشق الإلهي والحب الكوني. ورفعتها الأسطورة إلى مستوى الأولياء ونسبت معجزات إليها. وتعززت مكانتها الرفيعة بسبب زهدها بالعالم المادي، وكانت ترفض دائما هدايا الأتباع وعطايا المعجبين. وحين أعطاها أحد الأتباع كيسا مملوءا بالذهب، قيل إنها أجابت بأسلوبها البسيط الساذج: "إذا تركته سيتجمع عليه الذباب كأنه روث حصان، وقد تنزلق عليه قدمي وأنا أرقص"[10].

سيردد المتصوفة الذين اتبعوا خطى رابعة شعرها المترع بالعشق الإلهي. في قصيدتها "السماء منحتني قلبها"، تتساءل لماذا نفكر بالله كثيرا؟ ونتكلم عن العشق كثيرا؟ فترد عينها قائلة إن ثمة شيئا غائبا عن كل ما تبصره. فتبحث عن الشفاء فتجده في جماله وبهائه تعالى، وتجد العلاج الشافي في العشق[11].

بعد بضعة قرون، ولد صبي في جزيرة جاوا لعائلة أرستقراطية تتحدر من إحدى الممالك الهندوسية القديمة في إندونيسيا. ووفقا للأسطورة، ذاعت شهرة الصبي كمقامر ولص في مرحلة الشباب، وأنفق ماله على العاهرات. في أحد الأيام رأى رجلا غريبا - عربيا كما تقول الحكاية - فحاول سرقته. عنفه الرجل قائلا إن الرغبة والممتلكات الدنيوية لا قيمة لها، وإننا نعيش حياة زائلة كلمح البصر ونرحل دون أن نأخذ شيئا. أشار الغريب إلى شجرة تين (البنغال) التي بدأت تتحول فجأة إلى ذهب، وتقطر من أغصانها الأحجار الكريمة. في تلك اللحظة، نزل "الوعي" على الشاب، وهو تعبير محلي يدل على إدراك حقيقة أن العالم المادي مجرد وهم زائل، ومن ثم طلب من الغريب أن يعلمه المعرفة الروحية. أجاب هذا بسؤاله هل يملك قوة الإرادة وقدرة التحمل لأداء المهمة. رد الشاب بالإيجاب فطلب منه الغريب أن ينتظر عودته قرب النهر. بقي الشاب في تلك البقعة سنوات عديدة. نمت حوله الأشجار وفاضت المياه وغارت. توقف الناس ليحدقوا إليه، ويلمسوه، ثم يسيروا في طريقهم. لكن بدا أن الشاب في غشية. وحين عاد الغريب في نهاية المطاف، أعلن التلميذ معلما، وسماه كاليدجاغا، وأن من المقدر عليه نشر الإسلام. في الحقيقة، استطاع كاليدجاغا دون معونة أحد نشر الإسلام في جاوا، التي هي الآن جزء من أكبر أمة إسلامية في العالم.

خلافا لتشستي ورابعة العدوية، اللذين ترعرعا ضمن تراث المعرفة والثقافة والتاريخ الإسلامي، بدأ كاليدجاغا مهمته من نقطة الصفر، وبدا أسلوبه ومقاربته للدين الجديد أكثر تأملا وقربا من تراث ديانات الهند. وحتى في هذه الحالة، كان تأثير تعاليمه وشخصيته مساويا في انتشاره في الشرق الأقصى لانتشار تأثير جلال الدين الرومي في الشرق الأوسط. ويعد كاليدجاغا الرجل الذي نقل جاوا من "عصر الهندوسية" إلى "عصر الإسلام". وبغض النظر عن الواقع التاريخي، يجسد المتصوفة الثلاثة - رابعة

في الشـرق الأوسط، وتشستي في جنـوب آسيا، وكاليدجاغا في الشرق الأقصى - الصيغة التأملية والسلمية والمتقشفة والتراحمية للإسلام في الفلكلور الشعبي.

ما يزال نموذج أجمر، بزهده التقشفي ورسالته الكونية القائمة على القبول والتسامح، قـادرا على البقـاء في خضم ما يميز العصـر الحديث من نزعـة استهلاكية واضطراب وغضـب وجشع وجهل. اطلع العديد مـن الغربيين على تعاليم جلال الدين الرومي بفضل تقانة العولمة. وإذا كانت مبيعات كتبه (وأقراص الفيديو المدمجة) خلال السنوات العشر الماضيـة تعنـي شيئا فهو أنه الشاعر الأول للمسلمين وغـير المسلمين في الولايات المتحدة، ومـن بين المعجبين به أسماء شهيرة مثل مادونا وديبـورا وينغر ومارتن شين. لقد انبثقت جاذبيـة الرومي العريضـة من قبوله الحقيقـي والأصيل بالديانات الأخـرى كلها، مثلما عـبرت عنه مجموعته الشعريـة المسماة "قصائد المسيح"، وفيها يهـدي واحدة من أكثر قصائـده حماسة وتعاطفـا ووجدانية إلى المسيـح: حيث يعيش وتتجمـع القلوب العظيمة الرحيمـة. ثم يقول إننا باب لا يغلق أبـدا، فإن عانيت ألما، ابق قرب الباب، وافتحه. وبعد ذلك يؤكد أن المسيح ليس سوى سكان العالم وكل شيء فيه[12].

يؤكـد حب جلال الدين الرومي لتلك الشخصيـة الروحانية الحقيقية، يسوع المسيح، وشهرتـه الذائعـة اليوم، قـوة وتأثير نموذج أجمـر. في الوقت ذاته، مـا زال الصراع بين اورانغزيب وأخيه دارا، ونتيجته - انتصار الأول ومقتل الثاني - يلقي ظلاله على عصرنا. وفيمـا يتعلق بأولئك الهنود الباحثـين عن أسباب تدعو لكراهية المسلمين، يعد اورانغزيب هدفـا سهلا. وفي أعمال الشغـب والاضطرابات الطائفية التي تحدث مـرارا وتكرارا في الهنـد، تشير الجماعات المتطرفة بازدراء إلى المسلمين بوصفهم "أبناء اورانغزيب". أما فيمـا يتصـل بدارا، فإن العالم لن يسمح بأن يضيـع في غياهب النسيان هو أيضا. ولربما خسر المعركة على العرش، لكن رسالته ما تزال مؤثرة في معجبيه وأتباعه.

ميراث اورانغزيب

الرحلـة الطويلة مـع إعجاز قاسمـي أوصلت الفريـق إلى محطته التاليـة: ديوباند. ترجلنـا من السيـارة دون أن ندري ما الذي ينتظرنا. فوجئنـا بترحيب كبير رجال الدين هنـاك بنفسه، مولانا انظار شـاه كشميري، و"قادة أركانه"، الذيـن رافقونا بسرعة إلى

أحـد المساجد الرئيسة لحضور خطبـة. ولم يكن مولانا يحمل فقط لقب شيخ الحديث في ديوبانـد - وهـذه أعلى سلطة مرجعية فيمـا يتعلق بسنة النبي - بـل يرأس تنظيم علماء الهنـد الذي يقع مقره في نيودلهي أيضا. وهذا يعنـي أنه سلطة مرجعية للسنة النبوية في ديوباند ورئيس تنظيـم يضم علماء الدين على المستوى الوطني في الهند. دخلنا بصحبة المرافقـين إلى قاعة صلاة رحبـة في المسجد احتشد فيها الطلاب من مختلف الأعمار من الصبية وحتى الشباب في عمر إعجاز.



في المسجد الرئيس في ديوباند، يتوضأ الشبان استعدادا للصلاة.

حـين قدمنـي إعجـاز إلى الحاضريـن، وجلسـت هيلـي وفرانكـي إلى جانبي على السجادة، تحدث بنبرة حماسية ومتعاطفة عن أعمالي وأعلن مدافعا عن تراثي بوصفي مسلمـا "هنديا" "عاد" إلى الوطن من الولايـات المتحدة، وتجاهل حقيقة أنني لم أمض سـوى السنـوات الأربع الأولى من عمـري في الهند. وبسبب التوتـرات القومية بين الهند وباكستـان، أهمـل إعجاز عمدا المرحلة الوسطى من حياتي التـي أمضيتها في باكستان. وفي إشـارة منه إلى التقدير والمكانة، ذكر الضيـوف المشهورين من غير المسلمين الذين استمعـوا إلى محاضرتـي في الجامعة المليـة الإسلامية، وهي جامعة بـارزة وشهيرة في الهند، كان قد حضرها في اليوم الفائت، ربما لتقويم آرائي عن الإسلام شخصيا. وترأس

علـى المحاضرة مشير الحسـن، نائب رئيس الجامعة. كتم إعجاز في صدره أي تحفظات لديـه على أعمـالي. ورحب بنا مولانا ترحيبـا حارا وحددت المقدمـات التعريفية طبيعة وشكل باقي الزيارة.

أصغـى الحضـور بصمت لحديثـي باللغة الأورديـة، وجلسوا باحترام علـى الأرضية المغطـاة بالسجاجيـد مركزيـن انتباههم على كل كلمـة. ثم سألوني خـلال جلسة تبادل الأسئلـة والأجوبـة عن الولايـات المتحدة والعـراق. ولم يتمكن فرانكي وهيلـي، اللذان لا يفهمان الأوردية، من تبين سوى بضع كلمات مثل "أمريكا" و"العراق"، وتساءل كل منهما عن كيفية استجابة الطلاب. وفي خلال دقائق معدودات وضح أن الكلمات غير ضرورية، مثلما لاحظ فرانكي:

المساجد أماكن مقدسة، وحقيقة السماح لنا، خصوصا هيلي بوصفها امرأة، بدخولها إشارة دالة على اللطف والكياسة والانفتاح لا يمكن أن تخطئها العين. لقد حاول الناس في ديوباند التواصل معنا، على الرغم من جميع الحدود والحواجز التي أقاموها بينهم وبين عالم غير المسلمين. أدركت أهمية مثل هذه المناسبة إلى حد أنني خفت أن أتحرك، لأنني أردت أن أترك أفضل انطباع ممكن. كانت تجربة مدهشة، ومهددة أيضا، إذ لم أكن أمثل نفسـي فقط بل زهاء ثلاثمئـة مليون أمريكي وملايين غيرهم في شتـى أرجاء "الغرب". حـين كنا في الطريق إلى المسجد، أتى الصبية والشباب الذين حضروا مناقشتنا للتحدث معـي، ومصافحتي، والترحيب بي في ديوبانـد. هنالك تلميحات دالة على انتشار الغضب في كل مـكان - لكـن بدا أن هؤلاء، وجميـع من قابلناهم، متأثرون تأثـرا حقيقيا بلقائي، وعاملوني باحترام شديد.

تناولنـا بعد ذلك غـداء شهيا في منزل الشيخ. وهناك لاحظـت الفصل الصارم بين الجنسين الذي يميز هذا الشكل من الإسلام. لم أشاهد تقريبا أي امرأة طوال اليوم: لم ترحب بنا النساء، ولم نر واحدة منهن خلال زيارتنا إلى المسجد. هنا، على طعام الغداء، كان الفصـل واضحا جليـا.. لم ألحظ الأمر في البداية، لكن هيلـي اختفت تماما. علمت أنها تزور نساء البيت اللاتي لم ألتق بهن قط. جلست أتناول الطعام وأتبادل الحديث مع مضيفينا، كان بينهم صبي صغير. سألني الرجال، والشيخ أيضا، من أين أتيت ورحبوا بي

بحـرارة. وكرروا طلب العـودة إلى المائدة وتناول المزيد من الطعام. وكانوا يقولون "يجب أن تجـرب هذه الدجاجة أو تتذوق هذا اللحم" . ومثل زيارة المسجد، كانت للغداء في بيت رجل الدين أهمية دلالية. فقد دعاني أنا وهيلي لتناول الغداء في منزله ومع عائلته، ولربما تكون تلك أقوى إشارة دالة على كرم الضيافة يمكن أن يظهرها لنا.



فرانكـي مارتـن محاطا بطلاب من أعمار مختلفة في جامع ديوباند. اكتشـف فرانكي أن أي جو متوتر صادفه خلال الرحلة يتحسن دوما بعد تبادل الأفكار والتفاعل الاجتماعي.

في هـذه الأثناء، أخـذت هيلي لزيـارة مخدع النسـاء ولقاء حفيـدات الشيخ اللاتي تراوحـت أعمارهن بين السابعـة والخامسة عشرة، وارتدين اللباسـ التقليدي في جنوب آسيـا. لكن حـين سألتهن عن المدرسة والمواد المفضلة لديهـن، وحياتهن اليومية، قلن لها إنهن يشاهدن التلفزيون (الهندي غالبا) ويمضين وقتا على الإنترنت. وفيما يتعلق بمهنة بالمستقبـل، اختـارت الفتيات الصحافة والطـب والخدمة المدنية في الهنـد. وبعد العودة لتنـاول الغـداء، التقت هيلي مع نساء البيت، ومنهن والـدة الفتيات. كتبت ملاحظة فيما بعـد: "شكرتهـا على الجهد الذي بذلتـه لتحضير وجبة الغداء السخيـة، فقالت إن ذلك يشرفها، وعانقتني بحرارة. طلبت الفتيات عنوان بريدي الإلكتروني وسألن: 'متى تعودين إلى ديوبانـد؟' . طلبت مني أصغرهن عمرا أن أنحنـي كأنما لتهمس في أذني سرا؛ لكنها

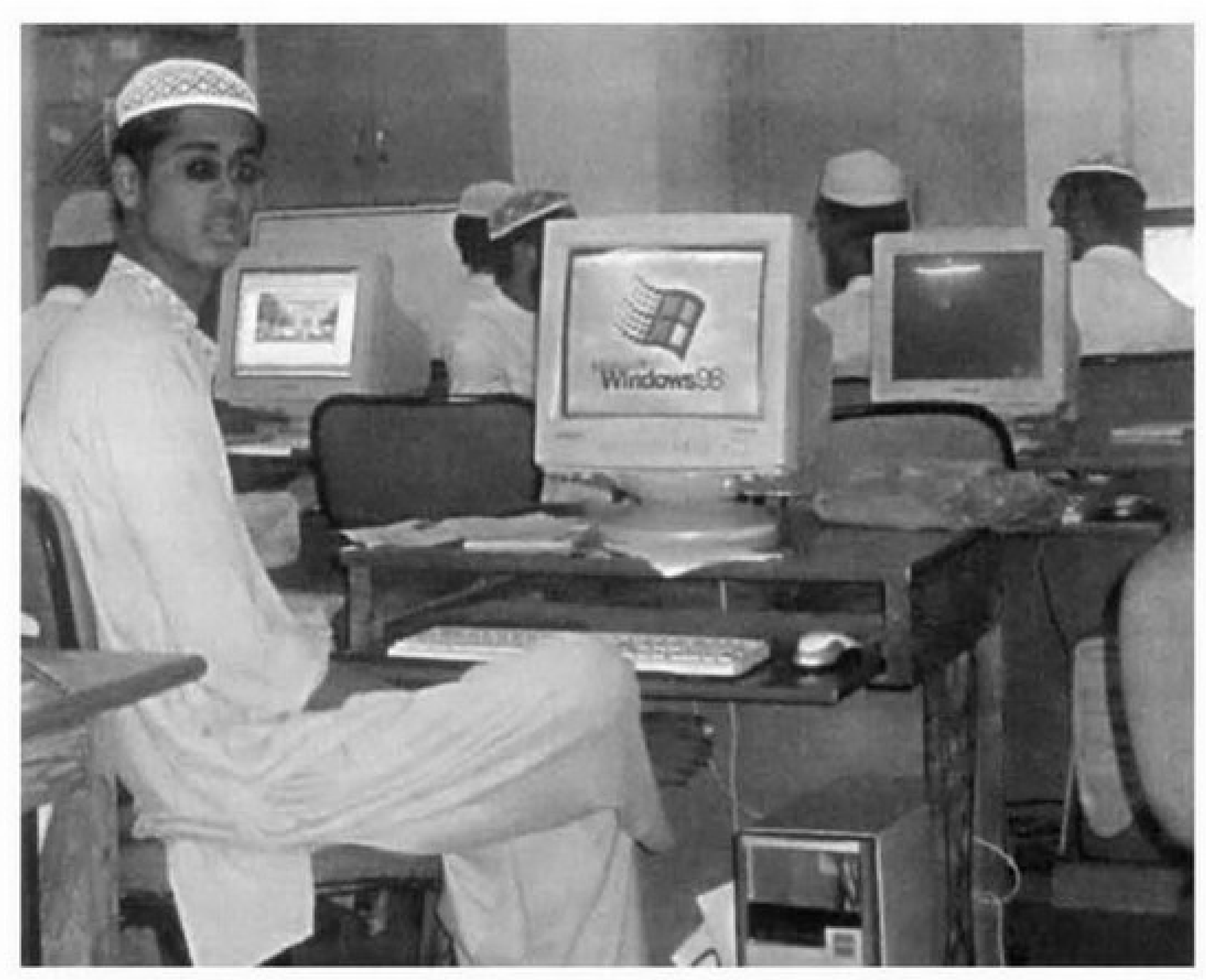
طبعت قبلة عذبة على خدي وقهقهت. ثم عدنا إلى الجامعة لاستكمال جولتنا. انطبعت ذكرى ذلك الغداء في ذهني منذئذ وأكدت لي أن المسلمين ليسوا متشابهين كلهم، ولا حتى أولئك الذين يعيشون في ديوباند ذاتها".

بعد الغداء، قمنا بجولة في جامعة ديوباند، وهي مؤسسة راسخة يبلغ عدد طلابها 3500 طالب، وتتميز بمرافقها الحديثة، ومهاجعها وصفوفها الرحبة، ومكتباتها التي تضم آلاف الكتب. فوجئت بالتنظيم والانضباط في كل مكان - لم تكن مدرسة دينية للهواة كما كنت أظن. وبدا أن الطلاب يكرسون جل وقتهم للقرآن والإسلام، وفقا لرغبة مؤسسها. ولم يجادلوا أبدا في معتقداتهم، فأعمالهم ومظهرهم وكلماتهم تشي باستغراقهم في دراساتهم. أحد الصفوف التي زرناها كان محتشدا بعدة مئات من الطلاب بأرديتهم وطاقياتهم البيضاء وقد انهمكوا كليا بقراءة القرآن. ومن الإضافات الجديدة إلى الجامعة قسم الحاسب، حيث توجد قرابة عشرة أجهزة تتصل هاتفيا بشبكة الإنترنت وهنالك مدرس متخصص بتصميم مواقع الويب وتطبيقات ميكروسوفت الأساسية.

في صف اللغة الإنكليزية، سنحت لنا فرصة التحدث مع قرابة أربعين طالبا، جميعهم من الشبان الملتحين. ثم وزعنا الاستبيانات وانخرطنا في نقاش عن الإسلام والولايات المتحدة ومستقبل العلاقات بين المسلمين وأمريكا مع الطلاب والأساتذة. وثبت أن المناقشة قد كشفت الكثير عن الآراء والممارسات السائدة في ديوباند. ومثلما أوضح إعجاز من قبل، فإن من واجب أتباع ديوباند اتخاذ "الخطوة العملية التي تدعى بالجهاد.. لضمان العدالة للمستضعفين ومساعدتهم في جهودهم المبذولة لهذا الغرض.. والهدف مقاومة المستكبرين ومنعهم من ارتكاب أعمالهم الفظيعة"(13).

وخلافا للغربيين، لا يميز أتباع ديوباند بين ما يدعى بالمستكبرين على المستضعفين الذين تعد مقاومتهم فرضا دينيا والبلدان المستقلة ذات السيادة التي تحارب لأسباب سياسية. لكن، مع تقدم مناقشتنا مع الطلاب، أمكنني رؤية أمارات اللين والاعتدال على وجوههم. وكنت واثقا من أن أعضاء فريقي، أول أمريكيين يقابلهم هؤلاء في حياتهم، يمكنهم المساعدة في التأسيس لعلاقة ودية وحوار بناء. جلسنا نتجادل، ونتبادل الأفكار، ونتفاعل مع هؤلاء الشباب مدة ثلاثين دقيقة تقريبا. وتركز معظم النقاش على

"أمريكا" و"اضطهادها واستكبارها"، وكذلك على الإنترنت واستخدام الإنكليزية في شتى أرجاء العالم. بدأت ديوباند تدرس اللغة الإنكليزية كمادة في المنهاج منذ ثلاث سنوات، كما لاحظ أستاذ الفصل، وهذا هو الصف الثالث. أما إدخال "المواد العلمانية الدنيوية، مثل دراسات الحاسب واللغة الإنكليزية، فكان يهدف فعلا إلى نشر كلمة الإسلام"، مثلما أضاف. لكن المنهاج الدراسي متمسك بشدة بالهدف الأساسي المتمثل في الحفاظ على تقاليد ديوباند التراثية، على الرغم من إضافة التقانة والمواد الغربية. والقصد من وراء ذلك جعل الطلاب أقوى وأكثر قدرة في العالم فضلا على المسلمين في الهند.



الطلاب يتلقون دروس علوم الحاسب في مختبر الحاسب في ديوباند. يعتقد الطلاب أن بإمكانهم عبر التقانة فهم الإسلام ونشر رسالته بصورة أفضل.

أكد لقاؤنا مع طلاب الصف الذين بدؤوا يتعلمون الإنكليزية منذ مدة قريبة إمكانية بناء الجسور حتى في الحالات المستبعدة، مثلما تروي هيلي:

مررنا بصف يحتشد فيه خمسمئة طالب يرتدون الأثواب والطاقيات البيضاء ويقرؤون القرآن، ثم دخلنا صف اللغة الإنكليزية حيث وزعنا الاستبيانات التي أعددناها لدراستنا. أجاب الطلاب عن الأسئلة - دون صياح أو إراقة دماء كما توقعت ذلك الصباح. وقبل أن

نغـادر، طلبوا منا أن نكتب على اللوح حكمة اليوم. كتبت عبارة تساعد على جمع الولايات المتحدة والعالم الإسلامي للعيش في سلام: "التعلم والتثقف أهم العوامل للسلام العالمي. دعونـا نتابع العمـل من أجل الســلام للجميع. الســلام عليكم". الحكمة أثـارت بصورة مفاجئـة هتافات تعـبر عن السرور والصداقـة. افترقنا كأصدقـاء - أمريكيان، وأستاذ مسلم، وطلاب أكثر المدارس الدينية تشددا ومحافظة في الهند".

أسست ديوباند لغرض معلن هو تدريب زعماء دينيين يكرسون جهدهم للتيار الغالب من الإســلام أو الإسلام المتشدد وذلك كرد على الأزمة التي عصفت بالمجتمع الإسلامي في القــرن التاسع عشر[14]. وسيصبح هؤلاء كتابا ودعاة ومدرسين ينشرون ما تعلموه في الأمة في مسعى للحفاظ على التقاليد التراثية الإسلامية. ومن شروط القبول في المدرسة، أن يكـون الطلاب قد درســوا الفارسية، وحفظوا القرآن، ونجحوا في امتحان الدخول. لم يقبـل فعلا سوى نصف الطلاب المرشحين. في السنــة الأولى، قبل ثمانية وسبعون طالبا، وازداد العدد فيما بعد ليبلغ قرابة 200 إلى 300 طالب في السنة، حتى وصل إلى المستوى الحالي (3500 طالب).

في البدايــة، كانت الدراسة تستمر عشر سنين، لكن المدة خفضت فيما بعد إلى ست. في ديوبانـد، كان - وما يزال - ينتظر من الطــلاب التخصص في ثلاثة مجالات تقليدية من الدراســات الإسلامية: الحديث والقــرآن والفقه. كانت هناك بعضـ المواد الأخرى، لكــن أضيف اليوم المنطق والفلسفــة الإسلامية. تميز المدرسون علــى الدوام بالإخلاص والتفاني في التدريس مقابل أجر زهيد. كان العديد منهم من العلماء البارزين والنافذين في مختلـف أرجاء جنوب آسيــا، تخلوا جميعا عن وظائفهم المهمــة والمرتفعة الأجر. وعد معظمهــم التدريــس مهما إلى حــد دفعهم للعــودة إلى ديوباند والعمل مقابـل أجر زهيد راوح بــين 10-15 روبيــة في الشهــر (60 روبيــة= دولارا أمريكيا واحــدا حسب الأسعار الحالية).

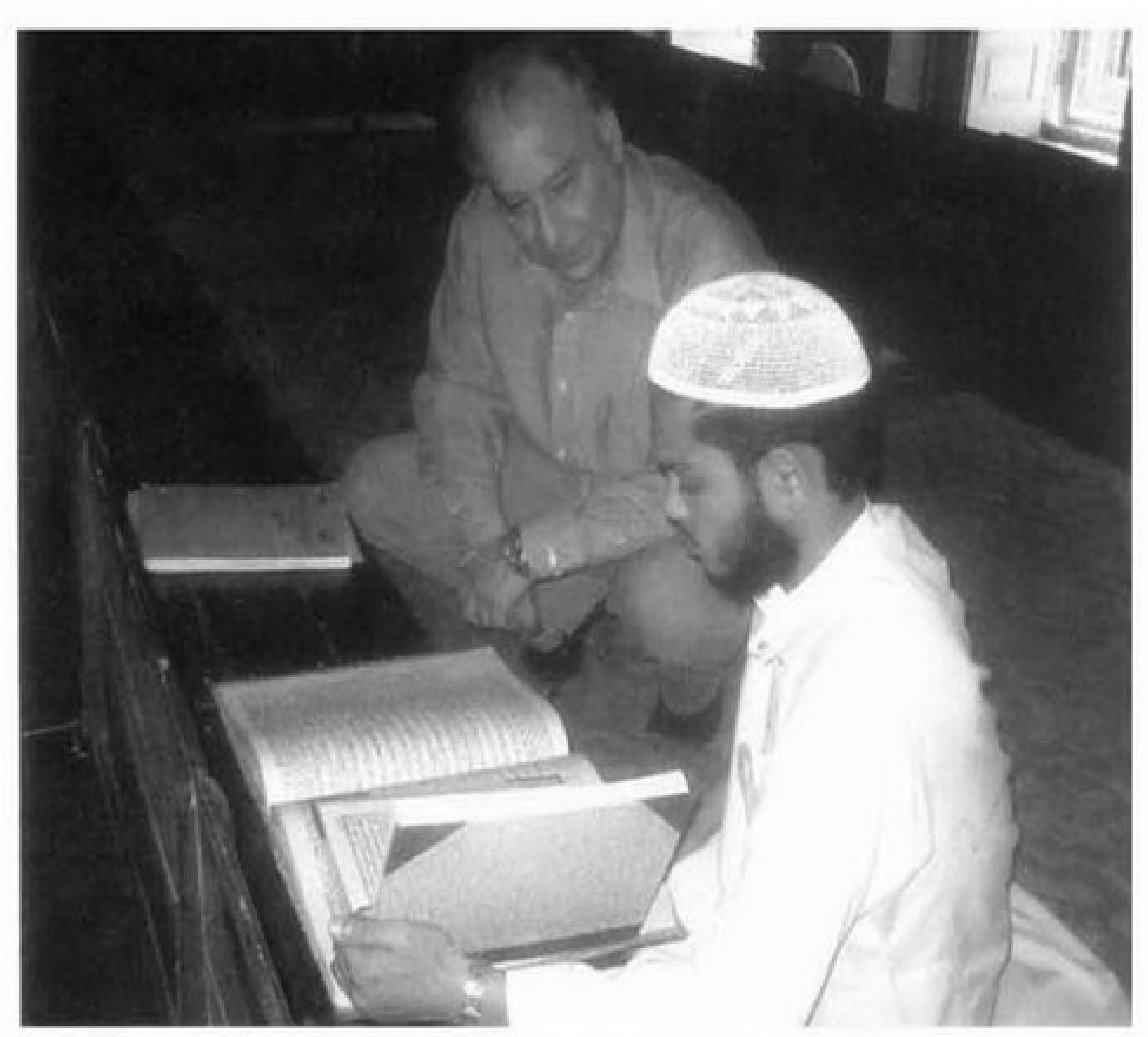
بمــرور الزمــن، لم يعــد اسم ديوبانــد يرمز إلى نشــر التعاليم الإسلاميــة فقط، بل رعاية الحياة الروحية الداخلية أيضا. وبحلول نهاية القرن التاسع عشر، انتشرت المدارس المقامــة على نموذج مدارس ديوباند الدينية في طول منطقة جنوب آسيا وعرضها. وفيما

يتعلق بالسياسة، رفضت هذه المدارس فكرة تقسيم الهند التي شاعت في أربعينيات القرن العشرين وإنشاء وطن ديمقراطي مستقل للمسلمين، مقدمة الحجة على أن الله ليس له وطن أو دولة خاصة به.

مع تقدم العولمة، ربما دخل الدين الإسلامي والثقافة الإسلامية في حقبة مأزومة ثانية، لا تختلف كثيرا عن تلك التي شهدها المسلمون عام 1857 حين كانت الهند تحت الحكم البريطاني. وجب على المسلمين آنذاك أيضا تقرير هل يسيرون على طريق الاندماج مع العالم الخارجي أم لا. فاختاروا المحافظة على تقاليدهم التراثية وهويتهم الإسلامية حتى على حساب المكسب المادي والسياسي. ويجب على ديوباند اليوم الاستجابة للعولمة حتى إذا اكتفت بالحد الأدنى من التفاعل مع العالم الخارجي، وردة فعلها تنطلق من الدوافع والمواقف نفسها التي أسست عليها.

وجدنا ديوباند واضحة بصورة لا لبس فيها فيما يتعلق بإدراكها الذاتي وهويتها. فشبابها - وإن بقيت نساؤها مستبعدات - يربطون بفخر واعتزاز نسبهم الإيديولوجي بشاه ولي الله، والإمبراطور المغولي اورانغزيب (يفخرون بصورة خاصة بعرض نسخة من القرآن مكتوبة بخط يده في خزانة خاصة في المكتبة)، وابن تيميه، ثم النبي مباشرة. وكذلك حال الطالبان، وأسامة بن لادن، وأعضاء "القاعدة" الذين يربطون أنفسهم بالنسب الروحي ذاته ويقدمون حجة مشابهة على أن التغيرات في العالم بدع مكروهة وضارة بالإسلام، الذي لا يمكن الحفاظ عليه إلا بالعودة إلى البدايات والأصول، والكتاب والسنة. ولذلك، تصف ديوباند نفسها على موقعها على الإنترنت بأنها "حاملة مشعل النهضة الإسلامية.. فهي من ناحية تمثل الدين القويم.. والصراط المستقيم والمعرفة بالإسلام، ومن ناحية ثانية تقف كـ'رمز للهداية' في وجه الطوفان الرهيب للكفر والشرك والردة الفكرية"[15]. أما الفارق بين الآن والحقبة الماضية تحت الحكم البريطاني فهو أن أتباع ديوباند آنذاك رفضوا رفضا قاطعا كل ما له علاقة بالتغريب، في حين يتضلعون اليوم من التقانة الغربية دون التخلي عن معتقداتهم التقليدية. وبوجود مبادئ وأهداف واضحة المعالم للمسلمين كأمة، يستطيعون استخدام التقانة دون خسارة إحساسهم بهويتهم. وهم يستخدمون تقانة الغرب لمحاربته بواسطة جهاد معولم جديد يستخدم

الإيديولوجيا لا السيف. لكن في البلدات البعيدة عن دلهي، تستمر حياة المسلمين في اتباع الطرق التقليدية والبسيطة اعتمادا على دراسة الإسلام.



في المكتبة في ديوباند، أكبر أحمد يتابع دارسا للقرآن. تتبع هناك الطريقة التقليدية في تدريس القرآن وعلومه، حيث يجلس الطالب على الأرض ويطلب منه حفظ القرآن عن ظهر قلب.

ومع أن معظم البلدان الغربية ترغب بما تتركه فكرة تخلف ديوباند وضعف فهمها لوسائل الإعلام العالمية من راحة وطمأنينة، إلا أن طلاب ومدرسي ديوباند لا يعرفون كيفية استخدام التقانة الحديثة فقط، بل كيف يستعملها العالم الخارجي كأداة للتأثير أيضا. فقسم علوم الحاسب الذي رأيناه كان حديثا ومسايرا لآخر التطورات؛ والموقع على الإنترنت حري وشامل، يضم صفحات للمناقشة والمعلومات عن رسالة الدين التاريخية والفلسفية والسياسية. ويفخر كبير محرري الموقع، إعجاز، بأنه أكثر مواقع اللغة الأوردية قراءة في الهند. ونظرا لأن المؤسسة برمتها تعتمد في إدارتها على هبات وتبرعات قليلة من الناس العاديين (وأعدادهم كبيرة جدا في الهند)، يخصص الموقع صفحة كاملة للتوجيهات المتعلقة بإيداع التمويلات في مصرف مركزي. يمكن أيضا طلب الحصول على نشرات ومطبوعات متنوعة من الموقع، ومنها كتب ومجلات وصور الجامعة. توزع هذه المواد على شرائح واسعة من السكان في شتى أرجاء العالم، لتنشر رسالة ديوباند

عبر هذه العملية. أما نظافة وحجم المكان، حيث يعيش ويدرس عدد ضخم من الطلاب مجانا، فأمر مؤثر فعلا. وكذلك الحال فيما يخص المسجد الذي شيد حديثا، وقيل إنه ثاني أكبر مسجد في الهند، واستمدت عمارته وحيها من تاج محل.

بعد أن عرض إعجاز الفكرة في ديوباند، صرت أقدم للمسلمين بوصفي "أكبر الله أبادي" للإشارة إلى أنني "ابن الأرض"، الذي ولد في مدينة الله أباد التاريخية على نهر الغانج. واعتاد المضيفون رواية سيرتي الذاتية مع المبالغة في جزئها المتعلق بجنوب آسيا، وبعد ذكر دراستي في بريطانيا ونشاطي الحالي في الولايات المتحدة، يقولون بحماسة عاطفية: "والآن نقدم أكبر الله أبادي الذي عاد إلينا". كنت أتأثر تأثرا بالغا، لكن يضحكني استئصال الجزء الباكستاني من حياتي. لقد شعر المسلمون الهنود بالاعتزاز والفخر بفكرة وجود باكستان ذات مرة، لكنهم في العقود الأخيرة فقدوا ما لديهم من آمال وأحلام فيما يتعلق بإمكاناتها واحتمالاتها. وتعرضوا للمعاناة بوصفهم "باكستانيين" على أيدي الطوائف الهندية، خصوصا في أوقات الاضطرابات والفوضى.

كان جواهر لال نهرو، رجل الدولة الذي حاز شهرة عالمية وأول رئيس وزراء للهند، يقول إن سر الثقافة الهندية يكمن في قدرتها على الترحيب بالغرباء. ووفقا لتعريفه للحضارة الهندية، فإن سمتها المهيمنة هي التركيب والجمع لا المواجهة والمجابهة[16]. وكان على صواب.

ومع ذلك، وبسبب خلفيتي الباكستانية - وبعد الاستقبال الحار الذي تلقيناه في باكستان - نبهت أعضاء فريقي وطلبت منهم الاستعداد لمواجهة أي احتمال. لكن لم يكن ثمة داع للخوف، فقد غمرنا سحر وكرم ضيافة الهنود. وسر المسلمون منهم على وجه الخصوص بوجودي بين ظهرانيهم.

لفهم كيف تؤثر ديوباند في أحداث العالم، نحتاج إلى تفحص مركز تعليمي آخر استمد وحيه من ديوباند لكن يقع في باكستان. ففي مكان لا يبعد كثيرا عن بيشاور - على الطريق الرئيس المؤدي إلى إسلام أباد -تقع الحقانية، وهي واحدة من أكثر المدارس الدينية تطرفا وعداء لأمريكا في هذه المنطقة المضطربة[17]. هنا، تستعاد دروس التاريخ عبر المعارك والمناوشات على طول الحدود الأفغانية - الباكستانية. من

هذا الموقع يستطيـع الطلاب عبور الحدود ليشكلوا قوة مقاتلة مع الطالبان كلما احتاجوا إلى تعزيزات. وتفاخر الحقانية بأن من أهم خريجيها الملا عمر، زعيم الطالبان، وتدرك تمامـا الحقائق السياسية الكـبرى المحيطة بالأحداث التي تجـري في المنطقة. أما مدير الحقانية، مولانا سمي الحق، فيخبر زواره أنه يغلق أبواب المدرسة ويأمر طلابه بالذهاب إلى أرضـن المعركة تلبية لدعوة الطالبان: "إذن، تمثل اكورا خاتاك (البلدة التي تقع فيها المدرسة) من جوانب عدة كل ما يخشاه ويمقته صناع السياسة الأمريكية في هذه المنطقة، معقل المقاومة الدينية والفكرية وأحيانا العسكرية - على شكل طالبان - للسلام الأمريكي وكل مـا يمثلـه"[18]. ويعتقد مولانا سمي الحق أن التدخـل الأمريكي في العالم الإسلامي قـد استفز غضب وحماسـة المسلمين، ومن ثم أجبرهم على البحث عن أجوبة لمشكلاتهم ضمـن إطار تراثهم، وهذا أمر مفيد لإحياء الإسـلام: "لقد أيقظ بوش العالم الإسلامي برمتـه. نحـن ندين بالشكر لـه"[19]. ولا يخفي مولانا غضبه على مشـرف بسبب فساده و"تلبية رغبات" أمريكا.

شاهدنا أدلة على قوة نموذج ديوباند طوال رحلتنا. الأحزاب الإسلامية تكسب مزيدا من الأصوات في كل انتخابات تجري، وتحظى بالشعبية والقوة في مختلف بلدان العالم - في فلسطـين ومصر وإندونيسيا وماليزيا مثلا. وتمكنا من لقاء بعض أعضاء هذه الأحزاب. عبـد اللطيـف عربيات، الأمين العام السابـق لجبهة العمل الإسلامي التـي فازت بقرابة 20% من مقاعد مجلس النواب الأردني، بدا وكأنه يردد صدى أفكار إعجاز في ديوباند. الإسلام بحاجة إلى إحياء، كما يؤكد عربيات، خصوصا وهو يتعرض للهجوم من الغرب، لاسيما إسرائيل الرابضة على حدود الأردن. فإسرائيل والولايات المتحدة تحاولان تدمير الإسـلام كما قال. ووصـف المؤامرة على الإسلام التي تستهـدف إبقاء المسلمين في حالة انقسـام وتشظ وتقاتل. واتهم الرئيس بوش بشن "حملـة صليبية" على المسلمين، مشيرا إلى استخـدام الرئيس تلـك الكلمة. ولاحظ أن الإسلام في حالـة ركود وانحطاط لأنه لم يعد صادقا مع ذاته؛ لذلك يحتاج المسلمون إلى العودة إلى النموذج المركزي الذي يحتذى مثاله، ألا وهو نبيهم وكتابهم الكريم.

لكـن مثلمـا أصبحنا نتوقع من أحد ممثلي نموذج ديوبانـد، لم يكن عربيات متعصبا ومنغلقـا كما تصـوره وسائل الإعلام. فبدلا من رفض الدولـة برمتها، كما فعلت ديوباند

في الماضي، وافق على ملك الأردن، عبد الله، الذي علق صورته في مكتبه في عمان. وأقر بأن الأسرة الهاشمية الحاكمة وفرت الاستمرارية والاستقرار، وهما من العوامل المهمة في هذه المنطقة المضطربة. وقال إنه منفتح على التأثيرات الفكرية القادمة من خارج العالم العربي، مشيرا إلى حماسه لمحمد إقبال الشاعر والفيلسوف في جنوب آسيا، ودولة باكستان الإسلامية، مع أن حزبه يعترف بصلاته مع الأخوان المسلمين في مصر. بل يفاخر بحياة موسوي أول امرأة "إسلامية" تدخل البرلمان في المنطقة، التي قابلتها بعد وقت قصير من انتهاء اللقاء مع عربيات. وهذا يظهر أن نموذج ديوباند التقليدي المتشدد يغير موقفه للمشاركة في الانتخابات الديمقراطية والسماح للمرأة بالمشاركة في الحياة العامة. حين جلست لأتحدث معها في أصيل اليوم نفسه، رددت الموضوعات الإسلامية الكبرى التي انبثقت في مناقشاتنا في ديوباند. فحتى ديوباند، التي سمت ذات يوم عن حضيض السياسة، تعبر الآن عن اهتمام جديد بدخول معتركها في الهند، وأقام أتباعها روابط مع عدد من الأحزاب الدينية.

مع أنني لم أتمكن من زيارة السعودية وإيران خلال هذه الرحلة لأسباب لوجستية، لكن الرحلات السابقة لهذين البلدين أكدت انتشار الوهابية - المشابهة لنموذج ديوباند - في المجتمع السعودي، في حين تبنى الإيرانيون مزيجا معقدا من النماذج الثلاثة المقدمة هنا كلها. فنموذج عليكره، الذي هيمن على إيران خلال حكم الشاه، تراجع الآن ليحل محله نموذج ديوباند. وتفاخر الثقافة الإيرانية أيضا، خلافة للسعودية، بأدب صوفي وروحاني وعالمي ثري يشمل أعمال شخصيات أدبية شهيرة، مثل جلال الدين الرومي والفردوسي وحافظ. تحظى السعودية وإيران بمكانة مهمة بين البلدان الإسلامية لأسباب عدة: ففي كلتيهما النفط، والأماكن المقدسة والأهم أنهما تمثلان المذهبين الرئيسيين في الإسلام، السني والشيعي. وبالطبع، تحظى السعودية بمكانة فريدة للمسلمين جميعا لأنها موطن أقدس مدينتين في الإسلام: مكة والمدينة.

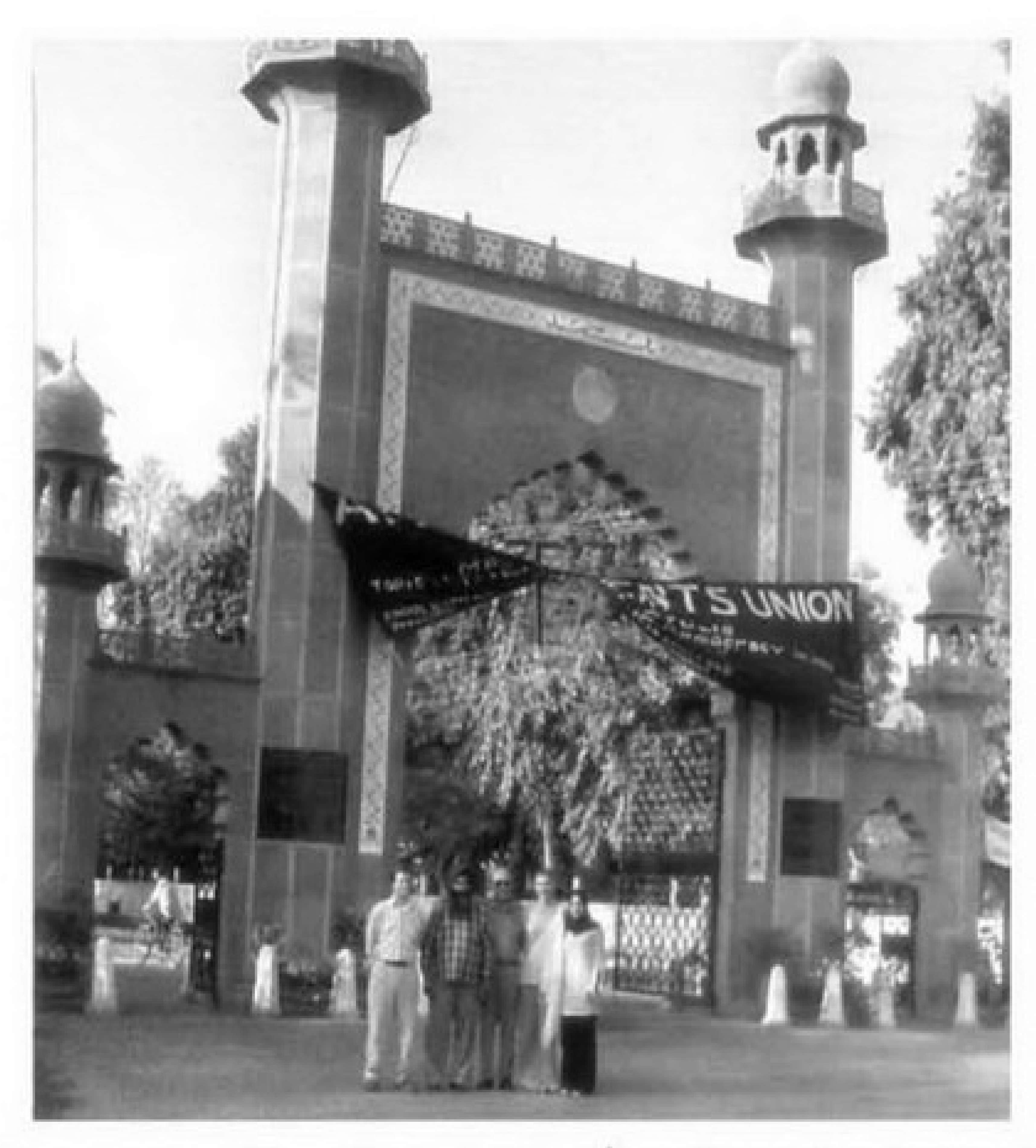
تمارس السعودية وإيران تأثيرا نافذا في سياسة الشرق الأوسط وتحاول كل منهما تكريس هيمنتها الإقليمية؛ وكلتاهما تفرض إطارا عقديا/لاهوتيا على ما هي في الأساس مجابهة سياسية، ولذلك تدعم مزاعمها بتمثيل التيار الغالب والمتشدد من الإسلام وتدين

غيره بوصفه انحرافا ضلاليا. أصبح السعوديون المدافعون عن حمى الإسلام السني وتفسيره الحرفي المعروف في العالم باسم الوهابية. وبلغ بعض أتباع المذهب حد اعتبار حتى الصوفية وغيرها من المذاهب والنحل خارجة على الملة. وفي مقابل الموقف السعودي، يعلن الإيرانيون، حملة المذهب الشيعي، أنهم أصدق من يمثل الإسلام الصحيح. ترسخت هذه الآراء المتضاربة في البلدان الأخرى أيضا، وأفرزت في بعض الحالات نتائج محفوفة بالخطر. ففي باكستان مثلا، يذبح السنة والشيعة بعضهم بعضا في الأسواق والمساجد خلال أعمال العنف التي تتفجر بين الحين والآخر.

لكن تتقاسم السعودية وإيران عاملا مشتركا واحدا: في أذهان الغربيين، أصبحت الدولتان رمزا لما هو خاطئ في الإسلام، وتخضعان لهيمنة المتطرفين والمتشددين وازدواجية المعايير. وليس من المفاجئ أن يقدم المعلقون الغربيون الحجة على أن هذه الظروف تؤدي إلى الفوضى، ملاحظين أن الإيرانيين أخذوا الديبلوماسيين الأمريكيين رهائن وحبسوهم شهورا في ظروف مروعة، وأن معظم خاطفي الطائرات في الحادي عشر من سبتمبر هم من السعوديين. لهذا السبب، كما يستنتج هؤلاء المعلقون، يتحمل الإسلام الذي يدرس في هذين البلدين المهمين مسؤولية تطرف المسلمين.

في أعقاب الحادي عشر من سبتمبر، انبعث نوع من الوطنية في الولايات المتحدة والعالم الإسلامي كليهما. ففي المجتمعات الإسلامية التي زرناها، تحدثنا مع العديد من الأشخاص الذين يمثلون ما أدعوه بموقف ديوباند. كانت لهؤلاء رسالة واضحة وإحساس بين بالهوية: فهم حماة الإسلام الجدد، الذين تعهدوا لا باستعادة الإسلام إلى العصر فقط بل بالذب عن حياضه أمام جميع الهجمات. أما فكرتهم عن الحفاظ على الإسلام فتتفاوت بين درء "غزو الثقافة الغربية" وإقامة الخلافة أو تأسيس مملكة إسلامية عالمية. وفي الحد الأقصى، يؤيد بعضهم حتى استخدام العنف دفاعا عن الإسلام. وبمعنى من المعاني، كانوا يرددون كلمات النبي فيما يتعلق بالأمة التي شبهها بجسد واحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له باقي الأعضاء بالحمى والسهر. وعززت الأحداث التي جرت منذ الحادي عشر من سبتمبر فكرة الأمة التي تتعرض للهجوم، ومن ثم زودت نموذج ديوباند بعدو مشترك ومنصة انطلاق صالحة لتوحيد أمة المسلمين. ولسوف يستمر نموذج

ديوبانـد، مثلمـا سمعنا طوال رحلتنا، في الدعاء لبوش لأن مـا يفعله يجدد ويحيي ويوحد علـى ما يبـدو عالم الإسلام. إذن، يشهد نموذج ديوباند ازدهـارا في عصر العولمة نتيجة لقوى العولمة ذاتها.



أعضاء الفريق أمام بوابة جامعة عليكره في الهند. أسست الجامعة في القرن التاسع عشر على نمط جامعة كيمبردج، كاستجابـة إسلامية للتعليم الحديـث. تخرجت في الجامعة أجيال من الزعماء السياسيين والمفكرين الأكاديميين في جنوب آسيا.

ركوب الموجة أو الغرق

في مرحلـة الشبـاب، انتسبـت إلى كليـة كريستشن فورمـان في لاهـور، وهي واحدة مـن الكليـات المرموقة في باكستان. أسـس الكلية أمريكيون، وشيـدت على نمط جامعتي اكسفـورد وكيمـبردج، بمناهجها التدريسية وعنابرها وساحاتهـا المربعة وملاعبها. كان الطـلاب يرتدون أحدث الأزياء الأوروبية، ويلعبـون التنس على ملاعب خضراء، ويمثلون في مسرحيـات شكسبير الكلاسيكية، ويتجادلـون بلغة إنكليزية كانت الملكة ذاتها ستفخر بها. شعرنا بأننا قادرون على منافسة أي شخص على أي مستوى؛ فإذا لم نكن أفضل من الغرب، فنحن بالتأكيد لسنا أدنى منه. في الوقت ذاته، كنا نعتز بتراثنا الإسلامي، ونؤدي

الصلوات الخمس، ونصوم رمضان. كنا نستمد قوتنا من جامعة عليكره، المؤسسة على فكرة أن السبيل الوحيد لتحقيق النجاح أمام المسلمين هو مقارعة البريطانيين، وتعلم لغتهم، واللعب وفقا لقواعدهم في التجارة والأعمال والسياسة. كان أستاذ التاريخ من خريجي عليكره واعتاد التحدث عن محمد علي جناح وروابطه مع جامعة عليكره بتعابير وهاجة. ملأنا شعور بالثقة بمستقبلنا ومستقبل باكستان. وفي الحقيقة، اعتلى اثنان من الطلاب الذين درسوا في الكلية خلال مدة دراستي هناك تقريبافاروق ليغاري وبرويز مشرفسدة الرئاسة في باكستان.

في آذار/ مارس 2006، حين ذهبنا للقاء بعض طلاب وأعضاء الهيئة التدريسية في جامعة عليكره، توقعت أن يشابه المكان صورته في مخيلتي في مرحلة الشباب. وما إن وصلنا حتى ذهبت هاديا وفرانكي لتوزيع الاستبيانات والتحدث مع الطلاب في الحرم الجامعي. وحين رجعا، كانا يرتجفان من شدة الغضب والاهتياج. فحين كانا يوزعان الاستبيانات خارج كلية الهندسة، أحاطت بهما جمهرة كبيرة من الطلاب الذين ازدادت عدوانيتهم باطراد. وحاول فرانكي وهو يحمي هاديا منهم، أن يشرح أهداف المشروع، مؤكدا أنهما في رحلة أكاديمية وليسا مرتبطين بأي حكومة:

صاحوا في وجهي مقاطعين: "هل صوّت لمصلحة بوش؟".

سألت محاولا إعادة السؤال إليهم:

"لماذا تفكرون ببوش؟".

صرخ أحد الطلاب في الصف الأمامي: "لا، لا. هل صوت لمصلحة بوش؟".

أجبت إن نصف الأمريكيين لم يصوتوا لبوش، وإن أمريكا بلد ديمقراطي. كانت هاديا خلفي تتحدث مع بعض الطلاب الآخرين. سألوا عنها فقلت لهم إنها أمريكية عربية ومسلمة. لم يفهموا ما عنيته تماما. إذ لم تتجاوز أعمارهم الثامنة عشرة أو العشرين، ولم تكن لغتهم الإنكليزية تساعدهم على الفهم، ولا على مستوى الخريجين الذين كنا نتحدث إليهم قبل عشر دقائق فقط. فالعديد منهم لا يتحدثون الإنكليزية وظلوا يحدقون إلينا. كان معظمهم يرتدون الثياب الغربية، باستثناء رجل وبضعة طلاب

بالملابس التقليدية.. ونظرا لأنهم على ما يبدو يريدون التحدث عن الولايات المتحدة، سألتهم عن رأيهم بها.

قال أحدهم: "بوش إرهابي، يقتل الأبرياء ويهاجم الإسلام".

كان الطلاب ما يزالون يحيطون بي من كل جانب وازداد عددهم إلى قرابة الخمسين في أقل من دقيقة. لم يظهروا نحوي عداء سافرا لكن مشاعرهم لم تكن ودية. حاولت أن أطرح عليهم أسئلة الاستبيان.

"من هم النماذج التي يحتذى مثالها برأيكم؟"

صاح أحدهم بلهجة عادية لكن كأنه أراد استفزازي أيضا: "أسامة بن لادن!".

أومأ الكثيرون رؤوسهم موافقين.

قلت بصوت مرتفع حتى يسمعه الحشد: "هل يتكلم باسمكم؟".

صاح عدد من الطلاب: "بلى!". في حين أومأ الذين لا يفهمون الإنكليزية برؤوسهم. إذ فهموا هذا الجزء من الحديث. واتفق الجميع على ذلك.

سألتهم: "لَم تختارون بن لادن؟".

قال الرجل الذي يرتدي اللباس التقليدي شيئا عن قوته ووقوفه في وجه الغرب، وإن الولايات المتحدة لم تتمكن من إثبات جميع التهم الموجهة إليه.

"هل لأحد آخر نماذج يحتذى مثالها؟".

تعددت الأسماء. اختار أحدهم الرئيس أحمدي نجاد وذكر آخر معمر القذافي. في حين ذكر الرجل ذو اللباس التقليدي عددا من الزعماء المسلمين الهنود الذين لم أتذكر أسماءهم. عندما قالوا لي إن قدوتهم هو بن لادن، بدا الرجل الذي تحدث أولا وكأنه يقول "ما رأيك بذلك؟".

سألتهم عن التقانة. كان من الصعب طرح الأسئلة لأنهم أحاطوا بي عن قرب وداوموا على مقاطعتي. أقروا بأنهم يقبلون التقانة الغربية (فهم طلاب في كلية الهندسة) لكن يرفضون الثقافة الغربية.

قال الرجل ذو اللباس التقليدي: "نحن نرفضها!".

صاح آخر: "إنها إباحية!".

كانـوا من الشباب الذيـن يفتقرون إلى اللباقة وآداب السلوك، ولم ينضجوا بعد. ومع ذلـك فاجأتني حـدة اللقاء. بدا الطلاب الآخرون في كل جامعـة زرناها تقريبا متشوقين إلى مـلء الاستبيانات، لكن هؤلاء لم يظهـروا أي اهتمام بها على ما يبدو. لربما بعضهم لم يكن يفهم الإنكليزية؛ لست واثقا من ذلك. أخيرا، تخلينا عن المهمة وعاودنا الانضمام إلى الحديث مع طلاب التخرج.

قبـل هذه الحادثة، كنا نجلـس ونتحدث مع أعضاء الهيئـة التدريسية والطلاب على مائدة غداء في جامعة عليكره، فوجدنا أنفسنا وجها لوجه مع المشكلات العميقة واليائسة علـى ما يبدو التـي يعانيها المسلمون في الهنـد[20]. لم ندرك، لا أنـا ولا المضيفون الذين استقبلـوني، التفاعـل العدائي في الحـرم الجامعي، لكنني لاحظـت مبالغتهم في اللطف والتهذيـب إلى درجـة الاحترام. قال أحـد الطلاب: "لا يريد المسلمـون الهنود العيش في غيتـو مغلق، لكنهم مجبرون على الانعزال داخله نتيجـة عوامل اجتماعية - اقتصادية". وتلك مفارقة لا شك فيها. فقد أسست جامعة عليكره لقيادة المسلمين في الهند الحديثة. وحققـت قدرا كبيرا من النجاح خلال مرحلة شبابي بحيث أصبحت نموذجا مثاليا، لكن تشـاؤم هـؤلاء الطلاب تدعمه الحقائق والأرقام. فضلا على ذلـك، ليس لديهم فعليا أي تمثيـل في وسائل الإعلام التي تؤبلس الإسلام: "دفعنـا لنشعر بالذنب في كل مرة يرتكب فيها مسلم خطأ ما".

المفارقـة الوثيقة الصلة وربمـا الكبرى أن لنموذجي عليكـره وديوباند مصادر إلهام مشتركـة، على الرغم من الهـوة التي تفصـل تقاليدهما التراثية التاريخيـة ومواقفهما السياسية. أولها النبي، القدوة الأولى في نظر الكل. وفي حين أن الطلاب في جامعة عليكره يذكرون باحترام وتقدير مؤسسها، السير سيد، بوصفه مثلا أعلى، إلا أنهم يشعرون أيضا أن زعمـاء المسلمـين بحاجة إلى أن يكونـوا أكثر جرأة وجسارة وتحديـا لتمثيل الإسلام. وحـين سألناهم ترشيح النمـاذج المعاصرة التي تحتذى، بدت اللائحـة وكأنها أعدت في ديوبانـد: أسامة بن لادن، أبو الأعلـى المودودي، ياسر عرفات، محمد أحمدي نجاد. تلك هي المفارقة التي لم أكن مستعدا لها.

في الحقيقة، أقلق افتقار العالم الإسلامي إلى القيادة الرشيدة مضيفينا في عليكره. إذ قال أحد الطلاب: "نعيش في مجتمع يعاني الركود". أضاف آخر: "ليس لدينا نماذج تحتذى. ليس بيننا نموذج واحد". ولم يكن هناك زعيم مسلم في الهند أيضا يمكن أن ينظر إليه باحترام. ورشح الطلاب ثلاثة أسماء لكتاب مسلمين بارزين على المستوى الوطني: ام. جي. أكبر، وآصف نوراني، وأصغر علي انجنير. فالزعامة الإسلامية، كما قالوا بتسليم، لا تملك الشجاعة ولا الرؤية. زيادة على ذلك، حين دخل التلفزيون الملون إلى الهند قبل عقدين ونصف من السنين، أدانه ولعنه الزعماء الدينيون بوصفه رجس من عمل الشيطان وأصدروا فتوى بتحريم مشاهدته، حسبما اشتكى الطلاب. والآن، يجلس الكل طوال اليوم أمام أجهزة التلفزيون، فالمسلمون ينتقلون من حد متطرف إلى آخر، مثلما قالوا والحزن باد عليهم.

بدا أن انسحارهم بالعولمة أخذ يتلاشى ويضمحل، مع أنهم قرؤوا "ثروة الأمم" لآدم سميث و"العالم مسطح" لتوماس فريدمان، وأثارتهم إمكانية النجاح اعتمادا على الأهلية والكفاءة في المجتمع الرأسمالي. ولا يبدو أبدا أن الشباب المسلم يدقون باب العولمة لأن من الصعب العثور على وظيفة: "أرباب العمل يشاهدون أسماءنا المسلمة على طلبات التوظيف ويرفضونها". في الهند، حيث تملك العولمة شعبية ظاهرة، يلجأ الكثير من المسلمين إلى الجريمة، كما قال مضيفونا؛ فمستويات تعليمهم هي الأدنى في الهند، ويعيشون في "غيتوات" منفصلة ومعزولة، وهم أدنى مرتبة من طبقة المنبوذين[21]. ويشير تقرير صدر منذ مدة قريبة عن لجنة برئاسة قاضي المحكمة العليا (المتقاعد) راجيندر ساكار، إلى أن هذه المخاوف مبررة[22]. فنسبة المسلمين في السجون مرتفعة ولا تناسب عددهم من إجمالي السكان، والفقر بينهم ينذر بالخطر، واحتمالات المستقبل كئيبة وآفاقه مسدودة. ومع أن المسلمين يمثلون نسبة 13% من سكان الهند (أي قرابة 150 مليونا)، إلا أنهم لم يشغلوا عام 2006 سوى 2% من وظائف الخدمة الإدارية الهندية المرموقة، ومنها مناصب قضاة المناطق، وتنحدر النسبة إلى مستوى أقل من الطلاب الذين يدرسون في معاهد التكنولوجيا الهندية النخبوية. ولا يلتحق بالمدارس الدينية التقليدية سوى 4% من المسلمين الهنود. ووفقا لأبي صالح شريف، أمين سر اللجنة التي

أصدرت التقرير، تراجع المسلمون بالمقارنة حتى مع طبقة المنبوذين الهندوس. وفي سبيل معالجة الوضع، أوصت اللجنة بالتعليم المجاني والإلزامي، إضافة إلى الدعم المالي. لكن مثل هذا العمل الإيجابي خصص لطبقة المنبوذين الهندوس وغيرها من الطبقات التي تعد رسميا "متخلفة".

في عليكره، أدى الاعتراف بأن مسلمي الهند الفخورين بماضيهم قد انحدروا إلى مرتبة أدنى حتى من طبقة المنبوذين إلى لحظة من التأمل الذاتي المدمر، لاسيما وأن الجماعة تعبر عن الشعور العام السائد بين الطائفة. وبصفتي مسلما من جنوب آسيا، عرفت الأهمية الدلالية لهذه العبارة. فهذا ما حل بطائفة افتخرت بحكم الهند طوال أكثر من خمسمئة سنة وأعطتها بعضا من أعظم أسرها الحاكمة. قبل بضعة عقود فقط، كانت عليكره تتربع على قمة العالم. أما الآن فقد انحدرت إلى قاع مجتمع مهوّس ومعرف ومحدد بالطبقة والتراتبية. وفقا للدستور بالطبع، فإن الطبقات محظورة في الهند، وهذا هو موقف الحكومة الهندية الرسمي. أما الواقع هناك - كما هو في باكستان - فيشير إلى أن الأفراد لا يحددون ويعرفون بدينهم فقط، بل بطبقتهم وقبيلتهم وطائفتهم ومذهبهم أيضاً.

حين أشرت إلى أن ثلاثة من رؤساء الهند كانوا من المسلمين، وهذا أمر جيد للأقلية المسلمة وفضل ينسب للديمقراطية والنزاهة والعدالة في الهند، رد مضيفونا على الفور بالقول إنه لم يصل ولن يصل إلى منصب رئاسة الوزراء أي مسلم. ففي الهند، تتجمع السلطة السياسية في مكتب رئيس الوزراء لا رئيس الدولة. وليس تعيين مسلمين في منصب الرئاسة سوى حيلة بارعة من حيل العلاقات العامة التي تقوم بها الحكومة، وليست ممارسة حقيقية للديمقراطية، كما لا حظوا. وعندما ذكرت أن بعضا من أشهر نجوم السينما في بومباي هم من المسلمين، رد أحد الأساتذة بالقول: "صحيح أن أبرز الموسيقيين ونجوم السينما والرياضيين هم من المسلمين، إلا أنه لا يوجد ما هو إسلامي أو مسلم في ذلك. فهم يأتون من الزيجات المختلطة الأعراق والملل. وليست لهم صلة ببقية المجتمع". وكما تؤكد جماعة عليكره بالحجة والدليل، فإن بعض الناس يرغبون بأن يصبح جميع المسلمين من أمثال نجوم "بوليود" (هوليود الهند) هؤلاء. ويقصدون

أن هؤلاء النجوم المسلمين لم يعودوا يتصرفون أو يعيشون أو يتعبدون مثل باقي المسلمين. لقد تخلوا -لأغراض عملية - عن دينهم. وما إن يتخلى المسلم عن التراث الإسلامي والممارسة الإسلامية يحكم عليه المسلمون في الهند فورا بأنه خرج على الدين وأصبح غريبا عنه ولا منتميا إليه. بكلمات أخرى، ما يزال نموذج عليكره، برغم حداثته، يعد نفسه إسلاميا.

لا يضاهي فقدان أفراد الجماعة للثقة سوى مظهرهم الخارجي. فملابسهم الغربية رثة ومهترئة. تذكرت الأشخاص الذين ارتبطوا بجامعة عليكره قبل جيل من الآن، حيث كانوا يرتدون أحدث الثياب الغربية على اعتبار أنهم يمثلون هوية إسلامية حديثة، وبدأت أجد الحديث مثيرا للكآبة. فالحاضر القاتم الذي يواجهونه سيئ بما فيه الكفاية؛ وتبين لي أن يأسهم من المستقبل هو ما يقلقهم ويربكهم. وبدا أن السفينة التي ركبوها إلى عالم الحداثة الجديد الجريء قد جنحت وارتطمت بالصخور.

في طريق العودة إلى دلهي، لاحظ أعضاء الفريق ما شعرت به من خيبة أمل وإحباط نتيجة الانحطاط الدرامي الذي أصاب التفكير التقدمي والثقة بالنفس لدى جماعة عليكره. وكان سماع اختيار الطلاب بن لادن قدوة في حرم الجامعة التي أسسها السير سيد- الذي أعجب بالإنكليز فصمم كليته على نموذج كيمبردج، أهم جامعة إنكليزية - يشابه مشاهدة انهيار وتداعي نموذج عليكره، الذي رمز ذات يوم لحداثة وتقدم المسلمين، ويعبر الآن عن الألم والغضب والتبريح.

حين واجه مؤسس كلية عليكره، السير سيد، هجمة الحداثة الغربية في زمنه وأصابه قلق شديد، مثل العديد من المتدينين المسلمين، من مسألة خدمة الحاكم الأجنبي، اختار سبيل التعديل والتكيف. فانتفاضة عام 1857 ذاتها التي أجبرت ديوباند على السير في طريق، دفعته وجهة طريق آخر. إذ شاهد العائلات المسلمة تدمر وتصادر أراضيها. ورأى مدينته المحبوبة، دلهي، تسقط تحت نير الاحتلال وتدمر مناطق واسعة منها. وأبنيته المفضلة تهدم. كانت الصدمة شديدة وعميقة إلى حد أنه فكر بالهجرة إلى الحجاز (في شبه الجزيرة العربية)، بعيدا عن تأثير ونفوذ البريطانيين. لكن عندما شاهد معاناة وآلام إخوانه في الدين، قرر عدم التخلي عنهم، وإثبات أن المسلمين جماعة

"مفيدة ونافعة" وأن رابطة لاهوتية متينة تجمعهم مع المسيحيين. ثم زار إنكلترا وبلغ تأثـره بالثقافة الإنكليزية حد اعتبارها نموذجا مثاليا يجـب أن يحاكيه المسلمون. وحمل بكل جـرأة - آنذاك - البريطانيين مسؤولية انتفاضـات عامي 1857. 1858، لكن صاغ انتقاده بلغة الصداقة. وناشدهم اتخاذ خطوات لإنهاء الشعور بالعزلة والإقصاء والظلم لدى المسلمين. وأوصى - مثلا - بتعيين المسلمين في المناصب الرفيعة. وناشد المسلمين ألا يضمـروا مشاعر الازدراء والكره للبريطانيين وأفعالهـم، ويركزوا على العوامل المشتركة بينهـم وما يمكـن تعلمه من هؤلاء المستعمرين الأجانب بحيـث يستطيعون البقاء والعيش بكرامة[23].

وبعد إدراك البريطانيين الحاكمين في الهند الحاجة إلى العون المحلي وعمل الزعماء المسلمين معهم، وجدوا إمكانات ضخمة في عليكره (في القرن التاسع عشر). فقد كانت علـى استعداد لإنهاء معارضتها لحكمهم والتخلي عـن التشدد الديني، وتوفير الرعاية بأسلوبهـا الأرستقراطي للزعماء الذين تستطيع بريطانيا التعامل معهم. وبدت عليكره ترياقا مثاليا لديوباند. إذ لم ينس البريطانيون كيف تصرف رئيسا المؤسستين في عامي 1857. 1858: فقـد عرضـ السير سيـد (عليكره) حياته للخطر لإنقـاذ البريطانيين خـلال الانتفاضات، في حين شارك أبو الأعلى المـودودي (ديوباند) في الجهاد الحربي ضدهم.

لكـن في رأي بعضـ المسلمين، تخلت عليكره عن الإسلام. علـى سبيل المثال، لاحظت قصيـدة هجائيـة كتبها أكبر الله أبـادي (1846. 1921)، أن "المعـدة" أخذت الأولوية علـى كل شـيء آخر عنـد أتباع عليكـره[24]. واتهم أكـبر السير سيد ببيع دينـه إلى قوة غربيـة مهيمنة مقابل الربح المادي - تماما كما كان سيفعل "العم توم" المألوف في الأدب الأمريكـي. لكـن الاتهام كان ظالمـا. فقد كان نسـب السير سيد (تربطـه علاقات وثيقة وعميقـة بالأرستقراطية المسلمـة والصوفية)، وأهدافه وأفـكاره لا غبار عليها من وجهة النظـر الإسلاميـة. إذ قضى حياته يترجـم الإمام الغزالي والقـرآن ويكتب المقالات عن المشـكلات التي تواجه المسلمـين في الهند - وجميعها ما تزال مهمة وتستحق القراءة. أما أشعاره بمناسبة مولد الرسول فما تزال مثيرة للمشاعر.

لم يستطـع السـير سيد إرضاء وتهدئة غضب المسلمين الذيـن اتهموه بإلحاق الضرر بالديـن على الرغم من التزامـه المخلص قضية المسلمين. ففي عام 1873، أصدر علماء الديـن في الحجاز فتـوى تكفره وتحل دمه. لكنها لم تفت في عضـده. فقد استمرت كليته في عليكـره بالازدهـار، وكانت في الحقيقة نقطـة مثاقفة واتصال بـين الإسلام والغرب. وسيتبدى ذلك مثلا في إهداء أي. ام. فوستر لروايته "ممر إلى الهند" إلى روس مسعود، حفيـد السـير سيد. وبغض النظر عمـا قاله المنتقدون عن عليكره، فقـد أوجدت مساحة وفلسفـة حيـث يمكن للناس والأفكار مـن خلفيات متنوعة "الاتصـال" – كما يقول شعار فورستر.

أوجـدت عليكره مجتمعـا لم يكتف بقيادة المسلمين في الهند فقـط، بل أمكنه التقدم بخطوة واثقة نحو العالم بعد بضعة عقود من الأحداث الصادمة في عامي 1857. 1858. وعـبر إعطـاء المسلمين في الهند شعـورا بالثقة وإحساسـا بالوجهة، أظهـرت عليكره أن الإسلام وثيق الصلة فعلا ويمكن أن يسهم في العالم الحديث. وبالمقابل، وجد الروحانيون والمتصوفـة والمتشددون المسلمـون أن من الصعب مواءمته مـع العصر الحديث. وبحلول منتصف القرن العشرين، واستقلال البلدان الإسلامية، بدا وكأن نموذج عليكره سيسود ويهيمن.

كان المسلمون الذين قادوا هذه الحركات في سبيل الاستقلال الوطني منغرسين عميقا علـى ما يبـدو في معسكـر الحداثةمن كمال أتاتـورك في تركيا إلى محمـد علي جناح في باكستـان، إلى سوكارنو في إندونيسيا. لكن قوة أتاتورك استندت إلى المؤسسة العسكرية، وبقي سوكارنو ديماغوجيا فاسدا حتى النهاية. في حين كانت رؤية محمد علي جناح أقرب مـا يمكـن إلى نموذج عليكره المثالي للدولة الإسلامية الحديثـة حقا. فقد كانت باكستان محمـد علي جنـاح أرض العدالة للجميـع والرحمة والعطف على المحرومـين. وبين رؤيته بوضـوح في خطبتين على قدر كبـير من الأهمية فيما يتعلق بالتطـورات اللاحقة ألقاهما أمـام الجمعية التشريعيـة في آب أغسطس 1947، حين كانت بـلاده في مخاض الولادة: "الآن، إذا أردنا أن نجعل دولة باكستان العظيمة هذه سعيدة ومزدهرة علينا – أفرادا وجماعـات – أن نركز علـى رفاهية الناس، خصوصا الجماهـير والفقراء.. أنتم أحرار:

أنتـم أحرار في الذهـاب إلى معابدكم، أنتم أحرار في الذهـاب إلى مساجدكم أو أي دور للعبـادة في دولـة باكستان هذه.. وسيكـون مبدأي الهـادي العدالة والنزاهـة والحيادية التامة"[25].

أيـد العديد من الطلاب المسلمين في عليكـره باكستان بل هاجروا إليها. وأصبح عدد منهـم رؤسـاء ورؤساء حكومات هناك. لكن البلدة نفسهـا بقيت في الهند وعانت من ردة الفعـل المعاديـة لباكستـان بعد الانفصال عـام 1947. مظـالم الماضـي وأذى التعصب والتحيـز مازالـت تطـارد طلاب عليكـره. وكما بدا واضحا مـن زيارتنا، ما يـزال الكره والتمييـز يجعلان من الصعب علـى خريجي عليكره العثور على وظائف. وعلى الرغم من محاولات عليكره التكيف مع الظروف الجديدة وكفاحها في سبيل النجاح، إلا أنها ستفشل في المسعى لأن العولمة لم تخفق في رفع هذا الغطاء السميك فقط بل مثلت تهديدا محفوفا بالخطر للثقافة الإسلامية.

أعتقـد أن من الممكن تفسير تجربة هاديا وفرانكـي المقيتة في عليكره بالورطة المأزقية التـي سببتهـا العولمة لجامعة ونمـوذج عليكره. ومثلما حدث في القـرن التاسع عشر، يشعر أتبـاع عليكـره اليوم بأنهـم يخسرون لغتهـم ودينهم وهويتهـم. فكيف يمكـن لي أن أتوقع تعاطـف طلابهـا بكل مشاعر العجز والضعـف التي تمتلكهم مع الغـرب، أو أن تختلف ردة فعلهـم عن أتباع ديوباند حين يصبون جام غضبهم علـى أفعال الولايات المتحدة؟ يبدو أن قلـة من مسلمي عليكره لديهم ذاك القدر من الصـبر أو التسامح الذي أظهره السير سيد في التعامـل مع الغرب. وبدلا من ذلك، فهـم يطالبون برد فوري وغريزي يعبر عن فخرهم واعتزازهـم على الهجوم على معتقداتهم وتقاليدهم وتراثهم. أبلغني فرانكي فيما بعد أنه صـدم بالتشابه الغريب بين حجج عليكـره وديوباند. أما الفارق الوحيد فتمثل في أن طلاب عليكره كانوا عدائيـين في حين اتصف طلاب ديوباند بالدماثة والتهذيب وشعر أن ديوباند تبدو أكثر أمانا فيما يتعلق بهويتها ومصيرها، في حين اتخذت عليكره موقفا دفاعيا ويائسا، وهي تكافح من أجل البقاء في ظروف تجعل من الصعب الاحتفاظ بالهوية الأصيلة.

لكن في بعض الأوساط، تسببت العولمة في إحداث تغييرات وتعديلات أخرى في نموذج عليكـره. إذ يمكن للمسلم الذي يتحدث الإنكليزيـة ويرتدي الملابس الغربية، ويتكلم بلغة

المـال وتكامـل المنظومـات الاقتصادية في العـالم، أن يبلي بـلاء حسنـا. ويجسد شوكت عزيـز رئيـس وزراء باكستان هـذه التعديلات. فقد عين هذا المديـر التنفيذي السابق في "سيتي بانك"، الذي اشتهر بكلامه المعسول وملابسه الغربية الأنيقة، ديكتاتور عسكري لاستخـدام صلاتـه في واشنطن ونيويورك لدمج اقتصاد باكستـان في الاقتصاد الغربي. وقـال لي خـلال زيارة إلى باكستـان في آذار/ مارس 2006 بأسلوبه السلس السهل إن "العولمة كالموجة.. إما أن تركبها أو تغرقك".

على مر العقود، أصبح نموذج عليكره، الذي كان ذات يوم مثاليا وعاقد العزم، مجرد ظـل متواضـع وهزيل ويفتقـد الأهمية لمكانته السابقـة. فزعماء نمـوذج عليكره الجديد متحمسـون فعـلا للنزعـة الاستهلاكيـة في الحضـارة الغربيـة. وهم ببساطـة "يركبون الموجـة". وبالمقابل، سار زعماء عليكره قبل جيل واحد فقط قدما إلى الأمام دون التخلي عـن هويتهـم أو نزاهتهـم أو كرامتهم عبر الإحيـاء الواعي للخطـاب الإسلامي والهوية الإسلاميـة. فضلا على أنهم بذلك لم يؤسسوا وطنا للمسلمين في دولة باكستان فقط، بل غيروا العالم أيضاً.



-3-

القبيلة، والمرأة، والشرف

في عصر العولمة

بعد رحلتي الطويلة عبر المحيط الأطلسي في الطريق إلى الدوحة، ركبت طائرة الخطوط الجوية البريطانية من لندن التي احتشدت بمسافرين تدل ملامحهم وأزياؤهم على أنهم من الأوروبيين. كنت أسافر على درجة رجال الأعمال، وأشاهد أحدث الأفلام الأمريكية على شاشة أمامي، وأتناول وجبة طعام بارد، وأشرب الشاي. ومع اقتراب الصورة الصغيرة لطائرتنا كما بدت على الشاشة من شبه الجزيرة العربية ببطء، تغيرت طبوغرافيا الأرض تحتنا إلى حد مثير. كانت الشمس تغرب، وأمكنني أن أشاهد من النافذة صحراء شاسعة تمتد متموجة حتى الأفق. ثم أعلن قائد الطائرة أننا سنصل إلى وجهتنا قريبا، بعد التوقف في المحطة الأخيرة قبل الدوحة.

بدأت المسافرات على الطائرة، واحدة إثر الأخرى، بالدخول إلى غرف الحمامات. ليخرجن ملتحفات بالعباءات السوداء من قمة الرأس إلى أخمص القدم فوق ملابسهن الأوروبية، بل إن بعضهن وضعن نقابا أسود. بدا الأمر وكأن تغيرا طرأ على فصول مسرحية لتلعب الممثلات أدوارا بديلة. ففي لحظة كن نساء أوروبيات الزي يتبادلن بكل ثقة الحديث مع أزواجهن، وفي الأخرى تحولن إلى حريم متحفظات يهمسن إلى مرافقيهن، ويجلسن بخجل في مقاعدهن وأمارات الاحترام بادية عليهن.

كانت هؤلاء النساء يجهزن أنفسهن للثقافة السائدة في الوطن. ويرمز تغيير الزي على الطائرة إلى واحدة من أعقد المعضلات الاجتماعية في العالم الحديث: الحفاظ على التقاليد التراثية الثقافية في مواجهة العولمة. ففي عالم اليوم، تتداخل وتتشابك المجتمعات المختلفة، وتتمازج، وتتجاور، وتتحاذى - ويجبر أفرادها على السير على حبل مشدود، وأي انزلاق عليه قد يكون كارثيا. النساء المسافرات على الطائرة ربما يتصرفن باطمئنان ويشعرن بالارتياح حين يجلسن في مقهى في ريجنت بارك في لندن، لكن يقبلن

في بلدهــن الفصل بين الجنسين والاحتشام المطلوب فيها. إذ حوصرن في مسرحية عبثية عالميــة يسجن فيها المظهر الخارجي أمام الملأ في إسار التقليد التراثي. فإن أردن تحدي عاداتهــن وتقاليدهــن المحليــة عبر كشف "هوية" أخــرى، سوف يشــوه المجتمع سمعتهن وتتناولهن الأقاويل، وهذا يحرج إلى حد بعيد عائلاتهن برمتها. أما أفضل مسار لهن فهو التــزام تقاليــد المجتمع مع تمثل ما هو مناسب من العــالم الغربي - حمل حقيبة يد ثمينة مــن تصميــم "فالنتينو" مــع العباءة الســوداء، مثــلا، واستخدام الخطــاب الغربي عن حقوق المرأة مع تجاهل الفقر وانتهاكات حقوق الإنسان الشاملة في بلادهن.

المرأة المسلمة الحديثة، كأولئك المسافرات اللاتي ركبن الطائرة من لندن، التي تجمع وتوالف الثقافتين الغربيــة والإسلامية تتبع نموذج عليكره. لكن عندما تنزل من الطائرة وتسير مذعنة خلف زوجها بثلاث خطوات، تنتقل إلى نموذج ديوباند. ليس ثمة خداع هنا، بــل مجرد قيم ثقافية. وفي هذه الأوقات المتغــيرة والصعبة، تجسد المرأة هذه القيم وهي أولى ضحاياهــا أيضــا. فضلا علــى أن هذه القيم لا علاقة لها بمبــادئ العدل والإحسان والرحمــة التي نادى بها الإســلام، لكنها تساير نزعات العادات وأفــكار الشرف القبلية. ومن أجل فهم هذه الظاهرة يجب إدراك حقيقة أنها تكمن خارج مجال اللاهوت، وضمن نطاق الأنثروبولوجيا.

العالم ليس مسطحا

في كتابــه "العالم مسطح"، يتناول توماس فريدمــان بحماس واندفاع واهتياج العالم الجديــد اليوم[1]. ولم يكن بعيــد الشبه عن "كورتيز الجسيــم" في قصيدة كيتس (On First Looking into Chapman Homer)، الذي ظن أنه أول أوروبي "يكتشف" المحيــط الهادي ويحــدق إليه "بخيال تخمينــي جامح". فهو يعتقد أنــه "اكتشف" العالم الجديد من منظار العولمة؛ عالم "مسطح"، "متصل". فمع تزايد رفع الحواجز التجارية والسياسية والتقدم التقاني المتسارع للثورة الرقمية، تتواصل الآن أعداد ضخمة من الناس عــبر الكوكب الأرضي. ويبدي فريدمان تفاؤله بهذه الاتجاهات، لكنه يشير ضمنا إلى أن المجتمــع الذي يعترضها ويقــف حجر عثرة في طريقها سوف تدوســه وسرعان ما يصبح مسطحا. فالعولمة لا يجبو في الحقيقة لا يمكنمقاومتها.

مــن وجهة نظر المجتمــع التقليدي، الأرضــ ليست مسطحــة ولا مستوية ولا ممهدة، بــل تملؤها الوديان والأغــوار والجبال. والثقافة والعادات والتقاليــد والأفكار الموروثة من الماضي علامات قيمة على الهوية، ولذلك فهي محددات للسلوك: تحدد كيف يحكم الناس بعضهــم علــى بعض، وتشمل أفكارا تتعلق بالشرف والكرامــة. وربما أفضل من يمثل هذا الرأي الجماعات التي تحافظ على التراث وتؤيده - مثل القبليين في الإسلام.

يعــد مفهوم القبيلة والقبليين محدود الأفق والمدى في أذهان معظم الأمريكيين ويعبر عنــه بنبرة ازدرائية، حيث يستحضر إليها علــى الفور صورة السكان الأصليين في أمريكا قبل قرن من الزمان، أي أولئك الذين دعوا ذات المرة بـ "الهنود الحمر" بأسلوب تحقيري وصورتهــم هوليود بهيئة متوحشين بدائيين شبه عــراة. في الحقيقة، وعلى شاكلة العديد مــن أفراد القبائل، كانوا يملكون ثقافة متطورة ومعقدة مرتبطة ارتباطا مباشرا ببيئتهم الطبيعية. ولم يكــن المستوطنون البيض، المتشوقون إلى الحصول على الأراضي، يتمتعون بالصــبر أو التعاطف معهم. وتعذر على الثقافتين التعايشــ معا، فهما نقيضان لا يحضر أحدهما إلا إذا غاب الآخر: إما أن تسود وتنتصر أساليب المستوطنين أو السكان الأصليين. مــع ظهور السكك الحديدية، والتحسن الذي طــرأ على الأسلحة النارية في القرن التاسع عشر، حسم مصيرهم - أبيدت العادات والثقافة المحلية وسحقت كليا.

وعلــى العكس من ذلك، لا تعد القبائل في العالم الإسلامي مجتمعات محلية هامشية أو معزولــة تعيشــ على حافة الانقراضــ. بل هي مجتمعات كبيرة وقويــة ومتطورة وشبيه بــالأمم - لها لغتهــا ومناطقها وتاريخها المشــترك، ومن ثم هويتها المميــزة. لكن خلافا للدولة - الأمة الحديثة، يمكن للقبيلة أن تتحدر من جد مشترك تحمل اسمه. لذلك، ليس لــدى أفرادهــا أدنى شك فيما يتعلــق بولاءاتهم. على سبيل المثال، تعــد قبيلة يوسف زاي الأرستقراطيــة البشتونيــة متحدرة من جد مشترك هو يوســف (في اللغة البشتونية تعني /زوي/ أو/ زاي/ ابــن أو أبنــاء، ولذلك فإن كل من يدعــي انتسابه إلى قبيلة يوسف زاي يمكن أن يربط نسبه بطريقة مشروعة بيوسف نفسه.

للقبائــل الإسلامية بلــدان ومناطق ومقاطعــات تحمل أسماءهــا. فالسعودية سميت كذلــك نسبة إلى سعود. ونظــرا لأن "ستان" تعني "أرض"، فــإن أفغانستان تعني حرفيا

أرض الأفغان (اسم آخر للبشتـون). واوزبكستان، هي أرض قبائل الأوزبك، وبلوشستان (في باكستان) هي مقاطعة قبائـل البلوش. وتقع مقاطعتا وزيرستان الشمالية والجنوبية (في باكستـان أيضـا) ضمن مناطـق قبائل وزير، وهذا ما يكدر صفـو قبيلة قوية أخرى، قبيلة محسود، التي تسكن جنوب وزيرستان. أما منطقة بوغتي في بلوشستان فتحمل اسم قبيلة بوغتي.

الآن، تواجـه المجتمعـات القبلية في مختلف بلـدان إفريقيا وآسيـا (الإسلامية وغير الإسلامية على حد سـواء) طغيان العولمة التي تطالب بالخضوع والإذعان لثقافة موحدة مستوردة من وراء البحار، في حين تلح القبيلة بإصرار على الحفاظ على العادات المحلية والثقافـة الأصيلة. العولمة تفترض مقدمـا إزالة الحدود، والقبيلة تحـدد نفسها اعتمادا علـى الحدود. الصـراع المتأصل بين هاتين النظرتين إلى العـالم يوضحه بأسلوب درامي مؤثر مـا يجري في العراق وأفغانستان وباكستان ونيجيريـا والصومال، وهي بلدان تضم عـددا كبيرا مـن القبائل الإسلاميـة القوية. وتحت ضغـط العولمة، لم تعد هـذه القبائل متمسكـة بأسلوب الحيـاة البدوي المترحل ذاته الذي كان سائـدا قبل بضعة أجيال، حين كانت قادرة على عبور الحدود الدولية للبقاء في عزلة عن المجتمع الغالب ومن ثم الحفاظ على تقاليدها وعاداتها.

في الوقـت ذاتـه، يبقى السلـوك القبلي والتشديد علـى الهوية الذاتيـة قوتين مؤثرتين حتـى في المجتمعات التي تعد حديثة. فالتلاحم القبلي بين مسلمي ماليزيا وإندونيسيا مثلا يتعاظـم ويشتد حين يواجه الأعداد الكبيرة والنافذة من السكان ذوي الأصول الصينية في هذين البلدين المسلمين. إذ أوجدت الاختلافات في الدين واللغة والثقافة والشعائر والطقوس والاحتفالات توترات مريرة بين المسلمين والصينيين، يمكن أن تنفجر على شكل أعمال عنف في المجتمعـين كليهما. في ماليزيا، يعد أفراد طائفة هان الصينية العرقية من الرأسماليين الناجحـين، وهم يحسدون علـى ثروتهم الماليـة. في إندونيسيا، يعـدون شيوعيين ناجحين ويحسـدون على نفوذهم السياسي. ولذلك هنالك مشاعـر متفاقمة من الغضب والاستياء بـين الأكثرية المسلمة في البلدين كليهما من النجاح المحصور - كما تعتقد - في الأقلية غير المسلمـة. ولأن المسلمين في ماليزيا وإندونيسيـا يعتقدون أن هويتهم مهددة بالمهاجرين إلى

وطنهم، كانت ردود فعلهم عنيفة أوقعت آلاف الضحايا[2]. تلك كانت ردة فعل قبلية غريبة تماما عن قيم الإسلام القائمة على العدل والإحسان والتسامح والتراحم.

أبلغ شيخ من قبيلة محسود في وزيرستان ايفلين هاول، الإداري البريطاني المسؤول عن وزيرستان في منتصف عشرينيات القرن الماضي أن "من الواجب الحكم على الحضارة وفقا لنوع الإنسان الذي تنتجه". وقال إن من الأفضل ترك قبيلته وشأنها بحيث يمكن لأفرادها "أن يكونوا كآبائهم من قبلهم - رجال متشبثون بالشرف والتراث والتقاليد"[3]. كان الاثنان يناقشان مزايا ثقافة كل منهما، وانتقد شيخ قبيلة محسود الإصلاحات البريطانية لأنها "أحدثت الفوضى والاضطراب في الهند البريطانية". ووافقه هاول الرأي بعد تفكير عميق.

من ناحية أخرى، يبدو فريدمان أكثر ثقة بمزايا الحضارة العالمية التي يمثلها، لكن من الدروس المفيدة له تذكر أن الإمبراطورية البريطانية - التي لم تغب عنها الشمس - اختفت من وزيرستان بعد عقود قليلة من حديث هاول، مخلفة وراءها بعض القلاع المهجورة وبعضا من التقاليد شبه المنسية التي حملها الضباط الباكستانيون.

وبعد ذلك، اختبر رفض وزيرستان لـ"التسطح" العولمي حين ذكرت وسائل الإعلام الأمريكية أن أسامة بن لادن يختبئ هناك. أما حمى وسائل الإعلام وتأملاتها التخمينية فقد جلبت شهرة إلى منطقة لم يرحب بها سكانها الذين يثمنون عاليا خصوصيتها. في ربيع عام 2004، أطلق الجنود الأمريكيون "عملية عاصفة الجبال" على طول الحدود الأفغانية - الباكستانية للبحث عن بن لادن وفلول الطالبان. وتحت ضغط مباشر ومكثف من الولايات المتحدة، أرسل الرئيس برويز مشرف أعدادا كبيرة من الجنود الباكستانيين إلى وزيرستان أول مرة في تاريخ البلد؛ مؤكدا لكل من لديه شك هيمنة العسكر على الحياة الباكستانية[4]. وشعر الجنرالات في راولبندي، وقد أثار حماستهم امتلاكهم لأحدث الأسلحة الأمريكية، أن إخضاع وزيرستان سيكون مهمة سهلة. وأشار مشرف في حديث إلى إحدى المحطات التلفزيونية الأمريكية، إلى "هدف ثمين". وتنبأ بعض المعلقين بأن بن لادن أو معاونه أيمن الظواهري سيقعان في الأسر قريبا. وكانت وسائل الإعلام متشوقة ومترقبة ومفعمة بالإثارة.

لم ينجح الأمريكيون ولا الباكستانيون المقيمون في المدن مثل مشرف وجنرالاته في أداء المهمة الموكولة إليهم على ما يبدو. إذ تتمتع قبائل وزيرستان في مناطقها الجبلية المرتفعة الوعرة ووديانها المنعزلة بمناعة حصينة ولا يمكن قهرها. ووفقا لأوامر الولايات المتحدة المطالبة بالعثور على الإرهابيين وقتلهم، قصف مشرف التجمعات السكانية في وزيرستان بالحوامات الحربية التي زوده بها الأمريكان. وانتهى القتال بمقتل عدة مئات من الجنود، في حين اشتكت القبائل من أعمال القتل العشوائية التي لم توفر النساء والأطفال. بعد ذلك، قلص مشرف النشاط العسكري وتفاوض مع القبائل. وحين انهارت المفاوضات، أرسل الجيش مجددا، مكررا الحلقة المفرغة. في نهاية المطاف، استدعيت مجالس القبائل واستشير زعماؤها وشيوخها. ولو فعلت الحكومة الباكستانية ذلك في البداية لأنقذت العديد من الأرواح التي أزهقت والكثير من الممتلكات التي دمرت.

أدت مغامرة مشرف في وزيرستان إلى تراجعه المخزي المذل، وإلى تأسيس إمارة طالبانية لها أرضها وعلمها عرفت باسم الإمارة الإسلامية في وزيرستان[5]. ولم تعرف واشنطن كيف تتعامل مع هذه التطورات ولم تفهم مغزاها. في هذه الأثناء، اتهمت كابول باكستان بتشجيع الطالبان سرا.

كان الأمريكيون أكثر خرقا وحماقة من مشرف، فقد استمروا في الغوص عميقا في الرمال المتحركة في العراق وأفغانستان، وما يزالون مؤمنين بقوة إقناع القنابل الفتاكة والمدمرة والذكية على المستوى الحربي، وقدرة الدولار على الإغراء والغواية على المستوى المالي. إذ لا يمكن لأي جماعة محلية أن تقاوم مدة طويلة، كما ظنوا. ومثلما أشار الكثير من المقربين إلى قبائل وزير ومحسود، فإن أفرادها "أقسى وأصلب بشر على ظهر الأرض"[6]. في عام 1920، وفي ذروة الاستعمار البريطاني، استطاعوا إبادة لواء بريطاني كامل، حيث قتل 400 جندي، بينهم 28 ضابطا بريطانيا و15 ضابطا هنديا. وفي السنوات التالية، تمركز عدد أكبر من الجنود البريطانيين والهنود في وزيرستان مقارنة بأي منطقة أخرى في شبه القارة. وإذا كان ثمة درس نتعلمه من التاريخ فهو أن هذه القبائل فرضت على الدوام ثمنا باهظا على معارضيها وأعدائها الجاهلين بالظروف الحلية. أما إذا كان الغزاة متغطرسين أيضا فلا بد أن تحل بهم الكارثة.

أخـبرني مشرف ذات مرة أنه معجب بنابليون، لكن مـن الواضح أن الدروس والعبر المستخلصة من إخفاقات نابليون قد فاتته، خصوصا أخطار القتال على جبهتين. فمع أنه منشغـل بمطاردة بن لادن على جبهة وزيرستـان، إلا أنه أرسل جيشه لتهدئة قبيلة بوغتي في بلوشستـان. وعلى شاكلة قبيلتي وزيرستان ومحسود بين البشتون، تشتهر قبيلة بوغتي بـين البلوشـ بطبيعتها الحربية والإحساس القبلي بالشرف. لقد أوقـع مشرف نفسه في معضلـة كان البريطانيون خلال حقبـة الاستعمار يحرصون أشـد الحرص على تجنبها، عارفين بأنها ستؤدي إلى كارثة. وبدلا من ذلك اندفع مشرف لمواجهة أشد وأصلب وأكثر القبائل ضراوة في جنوب آسيا في وقت واحد وعلى جبهتين اثنتين. وبذلك فهو يبدد الوقت والطاقـة ويبعدهما عن القضايا الملحة المتعلقـة بالتنمية الوطنية والتكامل والاندماج، في حين يفضل الأمريكان أن يركز جهوده على الحرب على الإرهاب.

لم تكن هذه المرة الأولى التي تجرب فيها باكستان الحل العسكري لفرض إرادتها على بلوشستـان ووزيرستان. ففي سبعينيات القرن العشريـن، أرسل رئيس الوزراء ذو الفقار علـي بوتـو الجيش إلى المنطقتين كلتيهما. أما الفارق بين أمسـ واليوم فيكمن في أن دافع بوتـو كان "داخليـا" - بهدف إيصال حزبـه السياسي إلى السلطـة - في حين أن مشرف يعمل نيابة عن الأمريكان. ومن ثم فإن التطورات في المنطقة ترتبط الآن ارتباطا مباشرا بالقضايا الدولية الواسعة.

اقتفاء أثر الطالبان

بعد وقت قصير من سقوط الطالبان في كابول نتيجة الغزو الأمريكي لأفغانستان عام 2001، دخلت قبائل وزيرستان في مواجهة مع مشرف. ووفقا لمبادئ الضيافة القبلية التي تتمسـك بها، وفرت ملاذا للطالبـان الهاربين عبر الحدود. على أية حال، هنالك تعاطف عـام مـع الإخـوان البشتون الذيـن يقاتلون الغـزاة "الأجانـب" - حتى وإن كانـوا أفراد وحـدات النخبة في الجيش الباكستاني الزاحـف إلى وزيرستان. ولا توجد سابقة لمقاومة قبلية إلى هذا الحد في تاريخ باكستان.

مـع تصاعد حدة القتال في وزيرستان وتدفق مزيد مـن الجنود الباكستانيين نتيجة الضغـط الأمريكي، عقدت القبائل العزم علـى التوحد تحت مظلة واحدة لمقاومة الجيش

الغـازي، وهـي استراتيجية قبليـة نمطية. فضـلا على أنهـا سمحت للزعمـاء الدينيين المتحالفين مـع الطالبان، الذين تحدوا السلطة المرجعيـة لشيوخهم ليكونوا رأس الحربة في المقاومـة. كانت لهذه التطورات تشعبـات وتبعات على سياسة العولمة والمرحلة اللاحقة علـى الحادي عشر من سبتمبر. هكذا بالضبط ظهر الطالبان في أفغانستان في البدايات المبكـرة مـن التسعينيات، بعد أن خرجوا من ركام الاحتـلال السوفييتي الطويل والمدمر. انهـارت الزعامـة القبلية التقليديـة، ورحب النـاس بالطالبان لوضع حـد للفوضى. ولم تصـب القبائل بخيبـة أمل من هذا التلاحـم إلا لاحقا. هنالك حالـة مشابهة لتلك التي سـادت المزاج العام وشجعـت الشبان الأفغان على دعم وتأييد الطالبان، تهيمن الآن على شبان وزيرستان.

أوضح الطالبـان على جانبي الحدود موقفهم من العولمة دون لبس وذلك عبر تحريم التلفزيون وأي عادات ترتبط بالثقافة الشعبية الغربية. فهويتهم الإسلامية وقدرتهم على التشبث بتقاليدهم وعاداتهم أشد أهمية من الانضمام إلى النظام العالمي. وحين تعرض الطالبـان للضغـوط من أجل تسليم بن لادن في أعقاب الحـادي عشر من سبتمبر، غلفوا ردهم بتعابير قبلية: مبادئ وقواعد الشرف لا تسمح بتسليم الضيف إلى أعدائه. لم يفهم هـذه المبادئ حتـى الخبراء الدوليين المختصين بالتعامل مع هـذا الجزء من العالم. على سبيل المثال، رأت فيها مادلين اولبرايت "لائحة من الذرائع التبريرية الواهية": "يقدمون الحجـة على أن ذلك (تسليم بـن لادن) ينتهك قواعد السلوك الثقـافي القاضية بإكرام الضيـف، وأن بـن لادن بطل للأفغـان بسبب دوره في محاربة السوفييـت في الثمانينيات. وقالوا: 'سوف نسقط إذا سلمناه لكم وسيظن شعبنا أننا قبضنا مالا منكم.."[7].

في حـين أن موقـف الطالبان العنيد كلفهـم غاليا وتسبب في طردهم مـن كابول، إلا أنـه جلـب التعاطف معهم من النـاس العاديين. فقد شكلت قبائـل البشتون على الطرف الباكستـاني من الحدود منظماتها الطالبانية الخاصة بها، لتهيمن في نهاية المطاف على وزيرستان. يذكر نيك شميدل، أحد طلابي السابقين الذي سافر إلى مناطق البشتون في باكستان في شباط/ فبراير 2006 (لكن لم يرتبط بمشروعنا)، أن الطالبان يوزعون على نطاق واسع أقراص فيديو مدمجة تظهر شنقهم خمسة مجرمين. "الجثث الخمس أنزلت

ثـم قطعت رؤوسها وعلقت رأسا على عقب". كان هـؤلاء من أكثر "الأشخاص بذاءة" في المنطقة، و"رأى السكان المحليون، من المتعاطفين أو غير المتعاطفين مع طالبان، في العملية تنفيـذا للعدالـة". وعلى نحو مشابه، مـا يزال العديد من رجال القبائـل في هذه المناطق يبحثـون عن العدالة لدى السلطات الباكستانية، لكن دون جدوى. وحين لا يتمكن أحدهم مـن الحصول على العون لإطلاق سراح سائق سيـارة مخطوف، يلجأ إلى الزعيم القبلي المحلـي، و"في خـلال بضعة أيام، يهاجم أحد المنـازل ويستعيد السيـارة ويحرر السائق. هؤلاء الزعماء يمتدحون بوصفهم أبطالا"[8].

في حـين فشل الطالبـان في دمج النظام الإسلامي مع العـادات والأعراف القبلية في كابول، نجحوا في وزيرستان. فالمبدأ القائل بوجوب الدفاع عن الإسلام أمام الغرب تلون الآن بالأفـكار القبليـة عن الثأر: فمقاتلـو وزيرستان، كما قال أحدهـم "هم من السكان المحليـين الذين يثـأرون لبيوتهم المدمرة وعائلاتهـم المقتولة". وقـال آخر: "سنأخذ بثأر كل قتيـل". "فالـدم ليـس رخيصا كما يظن بعضهـم. فقتيل واحد يولـد مئات المطالبين بثأره"[9].

أعلن زعيم للطالبان اسمه حجي عمر، في مقابلة مع هيئة الإذاعة البريطانية أجريت في وانا أوائـل عـام 2006: "لـن نوقف جهادنـا ضد الأمريـكان. ولن نقبـل بمناقشة أي قضيـة معهـم. نريد فقـط أن يخرجوا من بلادنا". أمـا الباكستانيون فحملـوا قدرا أقل مـن اللوم: "لأننا نفهـم أن هجماتهم علينا تشن تحت الضغـط الأمريكي". يكشف موقع المقابلـة مدى نفوذ الطالبـان في وزيرستان: وانا ليست مقرا لمدير المقاطعة الإدارية فقط (وهـو منصب شغلته ذات يوم)، بل لكشافة جنـوب وزيرستان، وهي قوات شبه عسكرية تحافـظ على القانـون والنظام في المنطقـة. وحين يعقد قائـد جماعـة أعلنتها الحكومة الباكستانيـة منظمة إرهابية، مؤتمرا صحفيا في مركز المنطقة الإدارية، فإن ذلك علامة تدل على القوة بكل وضوح.

ومثلمـا ذكرنا آنفـا، ظهر الطالبـان في أفغانستان في حقبة مـن الفوضى التي عمت البـلاد. فمـع نهاية الاحتـلال السوفييتـي في أواخـر الثمانينيـات، أقام أمـراء الحرب القبليـون مناطق نفوذ وفق هدنـة مزعزعة اعتمادا على القـوة الغاشمة. وشاعت أعمال

النهب والسلب والتخريب والاغتصاب على أوسع نطاق. وغدا الخشخاش المحصول الأول للمزارعين. لكن العلاقات القبلية تفككت تماما حين "تزوج" أحد أمراء الحرب صبيا في قندهار في مراسم علنية، في تحد سافر للعادات والتقاليد الإسلامية والمحلية كلها. ثارت ثائرة رجال وعلماء الدين، وشنوا حملة بمشاركة الشباب والفقراء وغيرهم لتنقية المجتمع من الشرور والآفات الاجتماعية. وأطلقوا على أنفسهم اسم "الطالبان" لأن العديد منهم كانوا من طلاب المدارس الدينية. كان الطالبان هم "الأخيار" الذين أتوا لاستعادة النظام والعدالة. وأول عمل قاموا به حظر المقامرة والمسكرات. وفرضوا تفسيرا متشددا ومتصلبا للشريعة الإسلامية، أثر تأثيرا مباشرا على النساء، خصوصا في المدن. إذ لم يسمح لهن بالعمل في المكاتب، مثلا، أو حتى بالظهور العلني لأداء مهماتهن اليومية مثل تسوق السلع الضرورية للأسرة من الأسواق. وركز المسؤولون بوجه خاص على العازبات، واتصفت العقوبات المفروضة على السلوك غير الأخلاقي بالقسوة والفظاعة دوما.

استطاع الطالبان في أوائل التسعينيات، انطلاقا من قاعدتهم في قندهار وبدعم من باكستان، التحرك شمالا بسرعة واحتلال معظم أفغانستان. أما المعارضة الرئيسة التي واجهتهم فأتت من التحالف الشمالي المكون من قبائل تسكن شمال البلاد، مثل الطاجيك، المدعومة من روسيا والهند. وبعد هزيمة الطالبان وطردهم من كابول، جرى الهجوم على سمعتهم وتشويهها: فقد صورتهم وسائل الإعلام الغربية كتجسيد للبربرية القروسطية. لكن بعد مرور السنين، وحتى بالرغم من تنصيب حكومة حامد كرزاي المدعومة من أمريكا، ما يزال المجتمع الأفغاني متشبثا بالمبادئ التي سادت في عهد الطالبان ولم يدخل في حقبة جديدة من الغربنة، كما توقع المعلقون الغربيون. وعلى الرغم من تحسن فرصة النساء في التعليم وحتى العمل، إلا أن العادات والتقاليد القديمة ما زالت راسخة ومتجذرة.

إن استئصال جماعة سياسية قوية في مجتمع قبلي لا يلغي قرونا طويلة من الثقافة والعادات والتقاليد. فبعد وقت قصير من استلامه السلطة، عين الرئيس كرزاي فضل الهادي شينواري رئيسا للمحكمة العليا في أفغانستان. وسرعان ما هاجم فضل الهادي إدخال التلفزيون بوصفه مؤذنا بالفساد الأخلاقي. "بصفتي مسؤولا رسميا لا يمكن أن

أسمـح بمحطات التلفزيون (الكبليـة) في أي جزء من أفغانستان. والمشتكون إلى المحكمة العليا قالوا إنها تبث صورا لمغنيات شبه عاريات ومشاهد فاحشة وبذيئة من الأفلام"[10].

وأدان تعيـين وزيـرات في الحكومة، وأيـد رجم الـزاني والزانية وقطع أيـدي اللصوص، وعارض بشـدة المسيحية. لكن يبدو الآن أن وسائل الإعـلام الغربية غير مهتمة بخطاب أو سلـوك الحكومة الجديدة. ومن الواضح أن قلـة قليلة من المعلقين يدركون الفوارق بين العادات القبلية والممارسات الإسلامية في المجتمع الإسلامي، متشبثين خطأ بفكرة العالم الإسلامي المكون من كتلة صلبة وجامدة واحدة.

القبائل والإسلام

علـى الرغم من أن التطورات في البلدان الإسلامية الحديثة قد تبدو بعيدة كل البعد عن التراث القبلي، إلا أنها في الواقع تؤكده، كما بدا واضحا خلال توقفي في عمان عاصمة الأردن، الدولـة الحديثة التي تتمتع بروابط عالمية وثيقـة. فقد دعاني أحد أمراء الأسرة المالكة إلى زيارة المسجد الكبير الذي يساعد في تشييده إحياء لذكرى عمه، الملك الراحل حسين. عكست الألوان الطبيعية للمسجد ذائقة وبساطة هندسته المعمارية. وعلى الرغم من تصميمه الجديد والتقدمي، إلا أنه ظل محافظا على الأبراج التقليدية التي تعود إلى الحقبة المملوكية قبل خمسمئة سنة. إذ ترتفع قاعدتها الكئيبة وجدرانها السميكة لتشرف علـى المدينة وكأنهـا تمسح وتسبر إمبراطورية مترامية الأطـراف. هنالك فسحة مكانية واسعـة داخل المسجد، أما ومضة اللون الوحيدة فظهرت في الكتابة المنمقة على المحراب: الله أكـبر ومحمد خاتم الرسل. كان هذا أكثر من مجرد مسجد. ففي أسفل التل، شيدت مكاتـب كاملة للملـك الحالي. ومثلما شرح الأمير، بني المسجـد تخليدا للأسرة، ودينها، وتراثهـا في الأرضـ - بكلمات أخرى، كرمـز للتوليفات المختلفة في المجتمـع العربي التي تربط الأمة معا: الإسلام، والقبيلة، والنسب، والتراث.

مـع أن النبـي رفض العصبية القبليـة - معلنا: "لا بداوة في الإسـلام" إلا أن المجتمع الإسلامـي، بجـذوره القبليـة العميقة، لا يستطيع التحـرر من إسار الصـراع بين الرؤية الإسلاميـة الشاملـة للعالم والرؤية القبلية. وبعد أن أحيا ووسـع رسالة الأنبياء السابقين (خصوصا موسى وعيسى)، ينتظر الإسلام من المجتمع أن يتأسس على العدل والإحسان

والعلم. لكن الإسلام ولد من رحم مجتمع قبلي له قواعد محددة للشرف والضيافة والثأر. وبمرور الزمن، ارتبط العديد من هذه العادات القبلية بالإسلام ذاته. وفي الحقيقة، كثيرا ما يخلط الغربيون العادات القبلية المحلية، مثل جرائم الشرف وختان الفتيان، بالتقاليد التراثية "الإسلامية". وعلى العكس من ذلك، فإن العديد من العلماء المسلمين، مثل فرحات الهاشمي، عارضوا بإلحاح دمج العادات القبلية في المجتمع الإسلامي. فحين تحدثت عن عادات قبائل البشتون مثلا عدتها فرحات "مناقضة للإسلام بطريقة ما"[11].

في المجتمع القبلي، تستمد قيمة الفرد من مكانه على شجرة النسب التي تربط أصل كل فرد في القبيلة بجد مشترك. ومن ثم، تتمايز القبائل على أساس ذلك الجد، الذي تمجد ذكراه ويربط اسمه بالقبيلة. ولا شك في أن عادات وثقافة القبيلة تبقي المجتمع المحلي مترابطا ومتلاحما ومتميزا. أما في حالة حدوث صراع بين أفراد قبيلة وأخرى، فإن الولاء يكون للقبيلة حتما. إذ يجب على أفرادها الحفاظ على شرفها، وهذا يعني القتال باسمها والثأر لقتلاها أو إذلالها. وخلافا للثقافة الحديثة في الغرب، حيث نادرا ما تعود الذكرى إلى أكثر من عقد أو عقدين من السنين، فإن للثقافة القبلية تاريخا طويلا وذكريات ممتدة أجيالا عديدة. هناك قول مأثور ومعروف بين القبائل في أفغانستان وباكستان: "سآخذ ثأري ولو بعد مئة سنة، وبأسرع وقت".

ونظرا لأن المرأة على وجه الخصوص ترمز إلى شرف القبيلة، يجب حماية حشمتها وعفتها مهما بلغ الثمن. فإذا حبلت امرأة من رجل غريب بعد أن عاشرته بالحرام، فإن ذلك يمثل ضربة أخلاقية لشرف القبيلة ولنسبها المصمم والمرسوم بعناية. في الوقت ذاته، قد يتلقى الزواج من خارج القبيلة والجماعة التشجيع لإقامة التحالفات السياسية. فالقبائل التي ظلت تعادي بعضها بعضا سنين طويلة يمكن أن تتحالف بين عشية وضحاها نتيجة المصاهرة بينها.

ما تزال العادات القبلية مستمرة في ممارسة نفوذ مهم حتى في الدول الراغبة في "التحديث". ففي الأردن مثلا، حاول الملك عبد الله الثاني، منذ أن اعتلى العرش عام 1999، إلغاء القوانين التي تبيح "القتل دفاعا عن الشرف"، التي تعد متحيزة على

النســاء المتهمات بإلحاق العار بالأسرة. فوفقا للمادة 340 من قانون الجنايات الأردني، يتمتـع الزوج الذي يقتل زوجتـه الزانية بالحصانة، في حين تخفـف العقوبة على القريب الذكـر الذي يقتل قريبته بدافـع الشرف. وفي حالة اشتهرت في صيف عام 2006، قامت أم في التاسعة والستين من العمر، بمساعدة إحدى بناتها، بذبح بنتها الأخرى لأنها ولدت سفاحا.

حاول الملك عبد الله عبثا معالجة هذا القانون. لكن تبقى القوى القبلية مؤثرة وفاعلة حتـى في مجلس النواب. وكمـا أبلغني الأمير، يعتمد الملك في سلطتـه وتأييده على هيمنة القبائـل والعشائر التي تمثل نسبة 99% من المشهـد السياسي في الأردن. ونتيجة لذلك، فـإن معظـم الجرائم المرتكبـة بحق النساء هي تلـك المتصلة بالشـرف (حوالي 55% منهـا). ومع أن الشريعـة تضع العديد من الكوابـح والموانع أمام هذا النـوع من السلوك القبلي / العشائري تحديدا، إلا أن العادات القبلية تضعف تأثيرها في الأردن.

وجد زعماء القبائل على طول مجرى التاريخ الإسلامي أن من السهل تعزيز سلطتهم عبر السعـي لإقامة تحالفات مع الزعماء الدينيين. وفي المقابل، حصل الزعماء الدينيون علـى منصة انطلاق لنشر آرائهم. ومن الأمثلة المؤثرة ما حدث في القرن الثامن عشر في مهـد الإسـلام ذاته. ففي نجد، عقـد داعية مغمور يدعى محمد بن عبـد الوهاب، الذي كان قـد بدأ حركة لإحيـاء وتنقية الإسلام، لقاء وتحالفا مع محمد بن سعود زعيم إحدى القبائـل المحليـة عام 1744. أما مصير العلاقة الرابطة بـين الرجل الذي تمثلت مهمته ورسالته في نشر كلمة الله والرجل الذي رغب في الحكم، فقد تحدد في زواج ابن سعود من إحـدى بنـات عبد الوهاب. ووافق الاثنان على قيام قبيلة سعـود بنشر أفكار عبد الوهاب الإسلاميـة إذا ما حكمت البلاد. وأفرز الحلـف بينهما تبعات هائلة على العالم في القرن العشرين حين اكتشف النفط في شبه الجزيرة العربية. وسوف يصل آل سعود إلى السلطة ويطلقون اسمه على شبه الجزيرة العربية برمتها. تبعت المملكة العربية السعودية العقيدة الوهابية وما زالت حتى اليوم تروج لها عبر المدارس الدينية والمراكز الإسلامية.

لم تكـن الوهابية الوحيـدة في اهتمامها بتنقية الإسلام مما علق به من شوائب. ففي الوقـت الذي كان فيه محمد بن عبد الوهاب ينشر أفكاره في شبه الجزيرة العربية، ظهر

في الهنـد بعد بضعة عقود من وفاة اورانغزيب آخر الأباطرة المغول العظام، شاه ولي الله الذي أقلقته سرعة انحسار وتراجع قوة المسلمين، وهذا يضع المسلمين في "خطر" داهم، كما شعر. ولذلك حض على الحفاظ على الشكل "النقي" من الإسلام. ونمت من أعماله الأفـكار التي ازدهـرت في ديوبانـد في القرن التالي. لكـن الفارق بين الحركـة الوهابية وحركـة ديوبانـد كمن في عدم وصول أتبـاع ديوباند إلى السلطـة السياسية في الهند، في حـين حكم أتبـاع محمد بن عبد الوهـاب وذريتهـم السعودية وروجوا أفـكاره تحت اسم العقيـدة "الوهابيـة". ومع أن الوهابية مشابهة لحركة ديوبانـد، إلا أنها تمتعت بما يكفي من القوة لإقصاء واستبعاد أي تفكير مرتبط بمدرستي أجمر أو عليكره. أما الطالبان في أفغانستان فقد تأثروا بديوباند والوهابية معا، وعدّوهما عينين في الوجه نفسه.

ليس من قبيل الصدفة أن يحاكي أسامة بن لادن، نجم الوهابيين والطالبان، محمد بن عبد الوهاب حين عقد حلفا سياسيا مع الملا عمر (زعيم الطالبان) وعززه بالمصاهرة بين العائلات. لقد أدى التحالف السياسي الذي عقد بين ابن عبد الوهاب مع ابن مسعود إلى ظهـور دولة سـوف تنشر رسالته بعد ثلاثة قرون من وفاتـه. لكن حلف بن لادن أفرز فوائد ومكاسب له في حياته: سيطر الطالبان على أفغانستان في التسعينيات وطبقوا رؤيته للإسلام.

ومهمـا بعدت الشريعة الإسلامية عـن العادات القبلية، فقد تمكـن العقل الإسلامي القبلـي مـن المصالحـة بينهما. فخـلال السنـوات التي قضيتهـا في المناطـق القبلية في باكستـان، كنت أشير إلى التناقضات بينهما في أحاديثـي الودية مع شيوخ القبائل، وكان هؤلاء يرددون بنوع من الدعابة إنهم مدركون تماما لتعدياتهم. فخلافا للتقاليد التراثية الإسلامية مثلا، اعتاد والد العروس أن يطلب مهرا كبيرا من والد العريس ثم ينفقه كما يشـاء. والمرأة المشتبه في خيانتهـا أو ارتكابها الزنا، يمكن أن تعاقب بعقوبة شديدة تصل حد القتل على يد الزوج أو الأخ أو الأب. وكان شيوخ القبائل يوافقون على العقوبة بذريعة العـادات والتقاليد التي يبررها الحفاظ علـى النسب[12]. يرجع نسب البشتون إلى قبيلة إسرائيـل الثالثة عشرة "التائهة"، بل يتصـل ببعض الشخصيات التاريخية الإبراهيمية، ومنهـا إبراهيم نفسه. ومن ثم، يؤكد ذلك حسـب تفكيرهم أنهم سيكونون دوما مسلمين

صالحين بغض النظر هل يتبعون حكم الشريعة بدقة وصرامة أم يلتزمون قواعد ومبادئ قبيلتهم.

حتى في العالم الإسلامي اليوم، تحتفظ معظم الدول بإحساس قوي بالهوية والممارسات القبلية بغض النظر عن المناقشات المتأثرة بالغرب عن الديمقراطية وحقوق الإنسان. والمشكلات التي تواجهها الولايات المتحدة وحلفاؤها في أفغانستان والعراق ليست سوى نتيجة مباشرة لفشلها في إدراك أو فهم القاعدة القبلية المؤسسة للمجتمع فيهما. لقد افترض الأمريكيون أن الشعب ما إن يتحرر من حكامه حتى يتشوق بلهفة إلى الاندماج في النظام العالمي ويتبنى القيم العالمية، في حين تمسك السكان المحليون بفكرة متعينة وملموسة تشير إلى سير الأمور على مدى أجيال ودوامها على هذا المنوال. ولم تتوقف الولاءات والهوية القبلية المتجذرة في العمق، التي تبز على ما يبدو أفكار الدولة، عن مفاجأة الأمريكيين الذين لم يتمكنوا من رؤية حقيقة أن المفاهيم القبلية عن الولاء والشرف قادرة على البقاء والنماء في بيئة العولمة، ومنافسة الأفكار المستمدة لا من الغرب وحده بل من مبادئ الإسلام المتعلقة بالعدل والإحسان والتراحم أيضا. ومما أضاف إلى المواقف الإسلامية المعقدة فشل الزعامة - العديمة التأثير عموما - في توفير الوجهة الواضحة (كما أثبتت ذلك إجابات المبحوثين عن الاستبيانات)، حيث عبرت عن التشوش والارتباك الناتجين عن تداخل وتشابك وتوازي الهويات الدينية والقبلية في المجتمعات الإسلامية.

المرأة وظهور الإسلام

اعتاد محمد، الذي ينتمي إلى واحدة من أكبر القبائل في مكة، الانسحاب إلى قمة جبل أجرد وكئيب على بعد بضعة أميال من البلدة. كان يجلس في غار حراء ويفكر متأملا في طبيعة البشر والمجتمع المحيط به -مجتمع وثني خاضع للحروب والغزوات المتكررة، ولذلك يشدد على الشرف والثأر. ولأنه أبوي النسب، لم يظهر سوى قدر قليل من التعاطف مع النساء وعاملهن بقسوة ودون مبالاة وعدم احترام. كان وأد البنات ممارسة شائعة. وأشارت الكتابات الإسلامية إلى ذلك العصر باسم الجاهلية (أو الجهل وغياب العقل). كان محمد شابا حساسا شعر بقلق عميق من سلوك المجتمع. وفي عام 610م، حين بلغ

الأربعين، نزل عليه جبريل يأمره "اقرأ". وبعد ذلك عاد محمد من معتزله مرتبكا وفي حالة من عدم اليقين إلى الشخص الوحيد الذي يثق به في العالم كله، زوجته خديجة.

حين سمعت خديجة ما حدث لزوجها، أدركت أنها تشهد شيئا عجبا. فقد أثارت اهتمامها على الدوام طبيعته التأملية والرقيقة وتأثرت باستقامته ونزاهته وكماله إلى حد أنها أخذت المبادرة وعرضت عليه الزواج مع أنها تكبره بخمس عشرة سنة. كانت امرأة شجاعة أصابت نجاحا في تجارتها عن طريق القوافل التي كانت تعبر أراضي القبائل فيما يعرف الآن بالشرق الأوسط. بقيت أرملة مدة من الزمن وقررت أن تجرب حظها مع شاب لكن أملت أيضا أن توفر له الملاذ والقوة والصحبة.

عندما سمعت ما حدث في غار حراء، أصرت على أخذ زوجها إلى قريب لها، الراهب بحيرى العارف بالتراث المسيحي والكتاب المقدس. أكد الراهب للزوج والزوجة أن ما شهده محمد هو في الحقيقة وحي مماثل لذلك الذي تنزل على أنبياء اليهود والنصارى قبله. وأن الإسلام - الذي يعني "التسليم" إلى اللهو"السلام"على وشك أن يولد. أعلنت خديجة إيمانها بالدين الذي أوحي إلى زوجها، فأصبحت أول امرأة في التاريخ تدخل الإسلام.

وهكذا أصبح محمد نبيا - رسول الله. ولأنه التجسيد الحي لمثال الإسلام وفقا للقرآن، غدت نساؤه، خصوصا خديجة وعائشة، وابنته فاطمة، مركزا محوريا للتاريخ والمجتمع الإسلامي. فقد شاركن في نشر ونماء الدين لا كمجرد زوجات وبنات، بل كمحاربات ومستشارات وعالمات؛ حملن كلمة الإسلام وكن نماذج يحتذى مثالها للنساء. وتجد النساء المعاصرات الكثير من الدعم الشرعي من سنة النبي والنساء القريبات منه. على سبيل المثال، حين سئل النبي من أحق بحسن المعاملة، أجاب "أمك"[13]. وكررها ثلاثا، للإشارة إلى أن المسلم الصالح لا يأمل الفوز برضى الخالق إلا بخدمة الأم ونيل رضاها. وورد عن النبي أيضا قوله "الجنة تحت أقدام الأمهات"[14].

تعد خديجة شخصية مهمة في التاريخ الإسلامي لسبب آخر. فهي أم فاطمة، التي ستنجب الحسن والحسين. وسيلقى الحسين الشهادة التي ستتردد أصداؤها في العصر الحديث. إذ إن مقتله في كربلاء عام (680م)، مثل إحدى لحظات تاريخ الإسلام المؤثرة

في التطورات اللاحقة، وقارنه بعض المسلمين بصلب المسيح في الديانة المسيحية. فقد قتل الحسين ونفر قليل من أصحابه وآل بيته في معركة تحدى فيها طغيان الخليفة الحاكم. وشكل الأئمة المتحدرون من فاطمة نسبا "مقدسا" يتصل بالنبي. وصحيح أن السنة والشيعة يجلون هذا النسب (آل البيت)، إلا أن الشيعة يبالغون في احترامه وإجلاله. وفي الحقيقة فإن جميع أئمة الشيعة البارزين متحدرون من ذرية النبي.

كانت عائشة، زوج الرسول، وابنة صاحبه المقرب أبي بكر، تصغره في العمر كثيرا، وجمعتها به علاقة حماية ورعاية وحب وعطف وحنان. عرفت عائشة بقدرتها على المزاح مع النبي بل إغاظته خلافا للجميع. ونقلت العديد من أحاديثه إلى أجيال من العلماء بعدها. من الأحاديث التي نقلتها عائشة حديث يؤكد المعاملة الرحيمة للنساء: "أحسن المؤمنين إيمانا وأكرمهم خلقا ألطفهم بأهله"[(15)]. وعدها المسلمون سلطة مرجعية وشرعية، فإذا اختلف الصحابة في مسألة، كثيرا ما كانوا يأتون إليها لتوضيحها. وهكذا أصبحت مرجعية مفتاحية لميراث النبي الروحي والسياسي بعد موته، بل قادت معركة حربية ضد علي زوج فاطمة.



الحجاج الشيعة القادمون من إيران يزورون المسجد الأموي في دمشق الذي يضم مقام الحسين، حفيد الرسول. أثر استشهاد الحسين في كربلاء تأثيرا كبيرا في التطورات التاريخية اللاحقة وفي الثقافة الشيعية.

حـين توفي الرسول، خلفه صاحبه أبو بكر، الذي انتخب أول خليفة في الإسلام. بعض الشيعـة يعتقـدون أن عليـا أحق بخلافة النبـي؛ ولا يأبهون لعائشة، بل ينشـرون الأقاويل والإشاعات عنها أحيانا. وبالمقابل يجلها السنة وتبقى في نظرهم واحدا من النماذج التي يحتذى مثالها. حوصرت النساء في صدر الإسلام بين السلوك الإسلامي المثالي والمواقف القبليـة التقليدية تجاه النساء. وبقـي التوتر شديدا بين المثـال الإسلامي والواقع القبلي منذ ذلك الحين، وكان أكثر إثارة وتأثيرا في المجتمعات الريفية.

الشرف والعار

في ظهـيرة يوم قائظ من أيام حزيران/ يونيـو 2002، قام ثلاثة رجال مسلحين من قبيلـة ماستوي في مظفر غـاره، إحدى المناطق النائية في مقاطعـة البنجاب في باكستان، بمهاجمـة شاب من قبيلة تاتلا اسمه شكور، وجروه تحت أشعة الشمس اللاهبة إلى حقل مـزروع بالقصب. لم يستطع الشاب مقاومة الرجال الأقوياء فصرخ طالبا النجدة لكنهم تمكنوا منه واغتصبوه.

كانـت مختاران ماي، شقيقة شكور الكبرى ومدرسة القـرآن لأطفال قبيلة ماستوي، قـد سمعـت أن أخاها في خطر فركضـت يائسة تطلب النجدة من شيـوخ قبيلتها. ومثلما هـي الحال غالبا في أرياف باكستان، كان مخفر الشرطة يبعد أميالا عن المكان ولا يصله بالمنطقة سوى طرق طينية رديئة.

بدأ الآن أفراد قبيلة تاتلا التي هي أصغر وأضعف يحتشدون، تماما كما فعل رجال قبيلة ماستوي القوية. اتهمت قبيلة ماستوي شكور بمقابلة إحدى نسائها علنا ومن ثم إلحاق العار بالقبيلة برمتها. واتهم أيضا بالزنا، وهي جريمة عقوبتها الموت وفقا للأعراف القبلية. ظل شكـور يصارع الرجال الثلاثة حتى المساء. وحـين وصل رجال الشرطة أخيرا ألقوا القبض عليـه لا على مهاجميه، واقتادوه إلى المخفر المحلي واتهموه بارتكاب الفعل المنافي للحشمة. ولأن لقبيلة ماستوي نفوذها المؤثر في المنطقة قبلت الشرطة نسختها عن القصة.

اقـترح شيوخ قبيلة تاتلا تسوية مع شيوخ ماستوي، قائمة على زواج شكور من الفتاة، وزواج مختـاران من أحد رجال ماستوي لمنع مزيد من أعمال العنف، وذلك وفقا للعادات

والتقاليد القبلية. بعض أفراد قبيلة ماستوي قبلوا الاقتراح على ما يبدو. واستمر النقاش حتى المساء، وعاد الناس إلى بيوتهم لمزيد من التفكير في القضية.

وحين كانت المفاوضات تجري على قدم وساق في منطقة ماستوي، قام عبد الخالق أحد شيوخ قبيلة ماستوي، بإجبار مختاران تحت تهديد السلاح الذي يحمله على الدخول إلى منزل قريب أرضيته من الطين، ثم اغتصبها بمساعدة رجلين آخرين، في حين كان والدها وعمها يحاولان يائسين الدخول ووقف الجريمة، لكن منعهما من ذلك رجال آخرون من قبيلة ماستوي. وبعد ساعة من هذه المحنة، دفع الرجال المرأة خارج المنزل، لتواجه المتفرجين المصدومين والمذهولين، بثيابها الممزقة التي كشفت عن جسمها المثخن بالكدمات والجروح. وفي علامة أخيرة على الإذلال، رمى الرجال ملابسها الداخلية أمام الباب. حاول أبوها سترها قدر المستطاع وأسرع عائدا بها إلى منطقة قبيلة تاتلا.

في يوم الجمعة ذاك، أدان إمام المسجد جريمة الاغتصاب في خطبة الصلاة، ثم دعا صحفيا إلى مقابلة والد الضحية وشجع عائلتها على التقدم بشكوى رسمية ضد المغتصبين. وبخلال بضعة أيام، احتلت القصة عناوين الأخبار في باكستان، وسرعان ما شاعت وانتشرت بنسخ مختلفة. وبعد قرابة أسبوعين تناولت هيئة الإذاعة البريطانية القصة (3/7/2002)، وبعد بضعة أيام أوردتها مجلة "تايم"، ودعا قاضي المحكمة العليا في باكستان "اغتصاب مختاران أبشع جريمة ترتكب في القرن الحادي والعشرين". وفي الخامس من تموز/ يوليو، أعلن الرئيس مشرف أن مختاران ستتلقى تعويضا بقيمة نصف مليون روبية (8 آلاف دولار).

خرجت مختاران من الحادثة رمزا لمحنة المرأة. واستخدمت مال التعويض لبناء مدرستين، واحدة للبنات وأخرى للصبيان. ولم يكن هناك مدرسة للبنات في قريتها من قبل، وعلمتهن بنفسها القراءة. وعدها المتبرعون الغربيون أيضا رمزا شجاعا لحقوق المرأة ودعموا برنامجها التعليمي.

حكمت محكمة (مختصة بقضايا "مكافحة الإرهاب" و"الترهيب الجماعي") على الرجال الذين قاموا باغتصاب مختاران وأولئك المتآمرين معهم بالإعدام. وهي نوع جديد من المحاكم أنشئت بعد الحادي عشر من سبتمبر وعدها الكثيرون أداة تسيء

الحكومة استخدامها. حكم على الرجال الستة بالإعدام، لكن محكمة أعلى سلطة نقضت الحكم. وما زالت القضية في أروقة المحاكم حتى الآن.

بعد مرور ثلاث سنوات بالضبط على الحادثة، دعيت مختاران إلى لندن كضيفة خاصة على منظمة العفو الدولية. لكن أبلغت في المطار إنها موضوعة على لائحة الممنوعين من السفر السيئة السمعة في باكستان، التي تمنع الباكستانيين من السفر إلى الخارج وتستخدمها الحكومة أداة لترهيب مواطنيها.

وفي مؤتمر صحفي خلال زيارة للرئيس مشرف إلى نيوزيلندا، لفت الصحفيون انتباهه إلى المسألة، فارتكب أولى أخطائه في مجال العلاقات العامة حين ذكر أنه مسؤول شخصيا عن منع مختاران من السفر لأن منظمي الرحلة "انتقدوا باكستان". وأضاف مهاجما مضيفيها بوصفهم "عناصر هامشية مغربنة"، "يماثلون في السوء المتطرفين الإسلاميين" حسب رأيه. وحين أدانت "نيويورك تايمز" الأمريكية و"ديلي تايمز" الباكستانية بشدة معاملة مختاران في سلسلة من المقالات، تراجع مشرف ووضع الرسالة التالية على موقعه الخاص على الويب: "مختاران حرة في الذهاب أنى شاءت، ولقاء من تريد، وقول ما تشتهي". بل منحها وساما تقديرا لشجاعتها وبسالتها.

لكن بعد أيام قليلة، خلال زيارة إلى مقر الأمم المتحدة في نيويورك، تراجع مشرف مرة أخرى عن موقفه. ففي مقابلة مطولة مع صحيفة "واشنطن بوست" (13/9/2005)، أنكر حالات الاغتصاب في باكستان بعناد مغث، مشيرا علناً إلى أن النساء يرتبن أمر اغتصابهن بأنفسهن: "أصبحت القضية مرتبطة بالنهم بالمال. فالكثيرون يقولون إذا رغبت في السفر إلى الخارج والحصول على تأشيرة دخول إلى كندا أو الجنسية فيها، أو التحول إلى مليونيرة، فعرضي نفسك للاغتصاب". لكن مشرف أنكر أنه تلفظ بمثل هذه الملاحظات، بعد أن أدرك على الأرجح بعدها عن الذوق حين أدينت بوصفها مخزية وشائنة. وهذا ما دفع "واشنطن بوست" إلى وضع تسجيل صوتي للمقابلة على موقعها على الويب، وأثبتت أن مشرف نطق بهذه الكلمات بالحرف[16]. وكأنما لتوجيه مزيد من الانتقاد والتوبيخ والتعنيف إلى مشرف، اختارت مجلة "غليمور" الأمريكية مختاران "امرأة العام". ونشرت مذكراتها بعنوان: "باسم الشرف: سيرة حياة" (2006)[17].

في الوقت الذي كانت فيه حكاية مختاران تحتل عناوين الأخبار العالمية، وقعت حادثة اغتصاب أخرى شملت القبائل والمفاهيم القبلية عن الضيافة والشرف، والصدام مع الأنظمة الحديثة، وراحت ضحيتها امرأة في الثانية والثلاثين من العمر تدعى شادية خالد. على السطح بدت شادية مختلفة اختلافا كليا عن مختاران. فقد كانت متعلمة ومثقفة تحمل شهادة في الطب وأرادت خدمة المناطق النائية من باكستان التي تعاني من قلة عدد الأطباء - خصوصا الطبيبات - وبعد المسافة التي تفصل بينهم. وعينت في مقر مصنع النفط الباكستاني في سوي في إقليم بلوشستان، معقل قبيلة بوغتي الشهيرة.

في منتصف ليلة الثاني من كانون الثاني/ يناير 2005، استيقظت شادية على كابوس. فقد وجدت أمامها رجلا يحاول خنقها: "بدأ يضغط على عنقي كي لا أتنفس.. ثم لف سلك الهاتف حول رقبتي.. وضربني على رأسي بسماعة الهاتف.. ثم أخذ غطاء الصلاة وعصب عيني وربط معصمي بسلك الهاتف، ثم ألقاني على السرير. حاولت مقاومته بكل ما لدي من قوة لكنه اغتصبني". وظل الرجل طوال الليل يشاهد التلفزيون دون مبالاة بين نوبات الاعتداء على شادية وتباهى بصلاته القوية مع الجيش. في صبيحة اليوم التالي تمكنت شادية من الوصول مترنحة إلى جناح الممرضات؛ واندفع مسؤولو المنشأة إليها عندما سمعوا الحادثة. ثم حذروها من مغبة الحديث عن المسألة أمام أحد، لأن ذلك لن يؤدي إلى تدمير سمعتها فقط بل يمكن أن تعتقل وتحاكم وفقا لقوانين الزنا السيئة السمعة في باكستان، والمنحازة انحيازا سافرا ضد النساء. وسرعان ما حقنت بمهدئ ونقلت إلى مستشفى مختص بالأمراض النفسية في كراتشي.

حين بدأت قصة شادية خالد تتسرب خارج الأوساط الرسمية، تمثل التحدي أمام مشرف في عدم ربطها مع قصة مختاران، التي أصبحت جزءا من الأخبار العالمية. ووضع مسؤولو مشرف شادية وزوجها تحت الإقامة الجبرية مدة شهرين اثنين. وأطلقت حملة لتلطيخ سمعتها، وسرت شائعات تتحدث عن أنها امرأة منحلة وربما عاهرة. وما زاد الطين بلة أن حماها (والد زوجها) جمع حشدا من الغوغاء وهددها بالقتل لأنها ألحقت العار باسم الأسرة. وحاولت شادية الانتحار من فرط اليأس والقنوط.

حين وجدت الحكومة أن قصة شادية بدأت تتسرب، شجعتها على مغادرة البلاد، وهددتها هي وزوجها بأنهما سيختفيان ولن يعثر أحد على جثتيهما إن هي تكلمت. غادر الزوجان إلى لندن، ولم يتمكنا من جلب ابنهما، الذي أمسكت به السلطات كضمان ورهينة. وجدت شادية شقة من غرفة واحدة في حي فقير في لندن وطلبت اللجوء إلى كندا، حيث يقيم بعض الأقرباء والأصدقاء. لكن كندا رفضت الطلب. لم يختتم بعد الكابوس الجاثم على صدر شادية: "أظل يقظى طوال الليل، أفكر: لماذا أنا؟ دمرت حياتي المهنية وحياة زوجي. لا أرى ابني.. لو مت كان ذلك أفضل".

في حين بقيت شادية في حالة من عدم اليقين لا تدري ما تفعل، وتتأمل خرائب حياتها، كان بعض الشرفاء في بلوشستان يتبنون قضيتها. ومع أنها لم تكن من الإقليم إلا أنها كانت في نظر شيوخ قبيلة بوغتي المهيمنة على منطقة سوي في بلوشستان ضيفة خاصة وأرادت خدمة نسائهم. لذلك كان من واجبهم حمايتها وفقا لمفهومهم عن الشرف والضيافة (وهذا يذكر بسلوك وتصرفات الفرسان والنبلاء في الحقبة الرومانسية التي صورت في الأدب وكتب التاريخ الغربي). طالب شيوخ القبيلة بالعدالة في قضية شادية ومعاقبة المجرم وفقا للقانون القبلي. ولأن المتهم في الجيش الباكستاني - وتحدثت الشائعات عن صلاته بأعلى المستويات، كما تباهى أمام شادية - ساعد المسؤولون النافذون على عرقلة القضية. وهنالك مسألة تفصيلية مهمة تربض في خلفية المشهد وتتعلق بالنزاع القديم بين قبيلة بوغتي، المطالبة بحصة أكبر من عائدات النفط والغاز اللذين يستخرجان من أرضها، وبين الحكومة الباكستانية.

وهكذا، حين بدأت القبيلة تطالب بالعدالة، تعمدت السلطات المحلية تحريف مطالبها وتصويرها على أنها ذريعة تتخذها لتحدي الحكومة. ومع تعثر المفاوضات بين السلطات المحلية والقبيلة، قرر زعيمها، نواب أكبر بوغتي، تولي الأمر بنفسه[18]. فطالب بتحقيق العدالة ومعاقبة المجرم الذي ألحق العار بتقاليد القبيلة. واتخذت الحكومة إجراءات مشددة لاحتواء تدخل نواب عبر "الاستيلاء" على منزله وإصدار مذكرات باعتقاله، فهرب إلى التلال النائية.

وحين هاجمت السلطات الباكستانية قبيلة بوغتي، وعد الرئيس مشرف بأن رجال القبائل "لن يعرفوا ما الذي يصيبهم": وخطط لاستخدام أحدث الأسلحة التي حصل

عليهـا من الولايـات المتحدة للحرب على الإرهـاب. وردا على ذلك هاجـم رجال القبيلة القطـارات وخطوط السـكك الحديدية والقواعـد العسكرية المؤقتة. لكـن مشرف التزم وعـده. إذ لم تعـرف القبيلة مـا الذي يصيبها حين قتـل نواب مع عدد مـن أفراد عائلته وقبيلتـه في غارة جوية شنهـا الجيش في آب/ أغسطس 2006. فقـد أمطرتهم طائرات اف 16 والحوامات الحربية الأمريكية الصنع بالقنابل العنقودية والفسفورية وغيرها من المـواد الكيماوية بعد أن عرفت مكانهم عـبر اعتراض هاتفه المحمول. في النهاية، وصلت تقانـة العولمة إلى رجل يقدّر في سلوكه ويمثل في مظهره فخر واعتزاز وهوية القبيلة، رجل لقب ذات مرة بـ"أسد بلوشستان"[19].

وفي الاحتجاجـات وأعمـال الشغب والخطب النارية التي أعقبـت ذلك، سارع زعماء القبيلـة إلى ربط الأسلحة الأمريكية بمحنتهم: "هـذه الأسلحة والمساعدات التي قدمتها الولايات المتحدة إلى باكستان لمحاربة القاعدة والطالبان، يستخدمها الجيش الباكستاني ضـد الوطنيين في بلوشستان"، مثلما اشتكـى مينغال، عضو جمعية إقليم بلوشستان[20]. ومـن المؤكـد تفجر المزيد من أعمال العنـف لأن رجال القبائل استعـدوا للانتقام والثأر. وأذهلت ردة الفعل حكام باكستان العسكر.

تبنـى مشرف وجميع جنرالات الجيش تقريبا العولمة لا بسبب أن معظمهم أتوا من المدن الكبيرة مثل كراتشي ولاهور فقط، بل لأنها جلبت إلى الجيش منافع ومكاسب مهمة منذ الحـادي عشر من سبتمبر، خصوصا الحوامات والدبابـات وغيرها من الأسلحة الجديـدة. وقدروا أهميـة مطاعم الوجبات السريعة الأمريكيـة، والإنترنت، والروابط مـع الغرب التي انتشرت في مدن باكستان خلال السنوات القليلة الماضية. لكنهم كانوا انتقائيـين في مظاهـر وجوانب العولمة التـي أرادوا تبنيها: فقد سرهـم الحصول على بعض المكاسـب الاقتصادية والعسكريـة والثقافية، لكن سرهم بالقـدر نفسه تجاهل الجوانب الإيجابية المهمة التي يرغب الغرب في ترويجها وتشجيعها، مثل الديمقراطية وحقـوق الإنسـان. ففي نظر هؤلاء العسكر تمثل العولمة فرصـة لمحاربة الشكل المتخلف والراكـد من الإسلام، كما تمثله القبيلة، مـن أجل مجتمع إسلامي مزدهر وحديث في المستقبل.

في أفضل الأحوال، لا يملك الرئيس مشرف سوى معرفة محدودة بالسكان القبليين الذين تعامل معهم في قضيتي مختاران وشادية. ولأنه نشأ وترعرع في مدينة كبيرة، توقع أن يعهد الطرف المتضرر إلى الشرطة المحلية أمر التعامل مع المشكلة وحلها. تلك هي الطريقة الحديثة للعمل في الدولة الحديثة. ومع أن السكان القبليين والحضريين يعيشون متجاورين في باكستان إلا أن عوالم تفصل بينهم على صعيد العادات والثقافة والتقاليد. في حالة مختاران، اعتقد رجال قبيلة ماستوي أنهم باغتصابها يستعيدون شرفهم الذي خسروه حين التقى شقيقها بإحدى فتيات القبيلة. أما في حالة شادية، فقد تبنت القبيلة قضيتها، وساوت بين شرفها وشرف أفرادها، لأنها كانت ضيفة في "مضاربهم" عندما وقع الحادث.

على عكس العلاقات القبلية، تعتمد العلاقات المدينية أساسا على التفاعلات والتعاملات المالية. الأحياء مختلطة ومتداخلة وليس ثمة طريقة لمعرفة وتحديد من يسكن في البيت المجاور. ومع الهجرة من الأرياف والمناطق القبلية، تبدأ الأصول العرقية والاثنية بالاضمحلال وتبهت الفوارق بينها. فكل مهاجر إلى المدينة يتعلم بسرعة طرقا جديدة للتعامل مع الحياة: كيف يتاجر ويتصرف ويتفاعل مع خليط الناس. بالمقابل، تستمر الحياة القبلية على طول الخطوط التقليدية المحددة ذاتها. والقرارات المهمة ما زال يتخذها الزعماء القبليون. والتعليقات التي نشرت في كراتشي ولاهور ربما تدين عاداتهم وتقاليدهم بوصفها حواجز تعرقل مسيرة التقدم، لكن رجال القبائل يقدمون الحجة على أن العولمة تهديد داهم ومحفوف بالخطر. فمع تدخلها الاقتحامي وزخمها العنيد، تهدد جوهر هويتهم التقليدية وأسلوب حياتهم. ومع أن القواعد والأعراف القبلية تشهد تغيرا في مختلف بلدان العالم الإسلامي في مواجهة قوى العولمة، إلا أنها ما تزال مؤثرة في السلوك. وفي حالتي مختاران وشادية، اعتمد مصير كل منهما على تفاعل مختلف تفسيرات المجتمع للشرف والعدالة، خصوصا ما يتعلق منها بالمرأة.

من الملاحظ غياب الدين وتأثيره عن نقاش هاتين الحالتين حتى الآن. وفي الحقيقة، أظهرت كل منهما انهيار المبادئ المركزية للإسلام: العدل والإحسان واحترام طلب العلم والمعرفة، والتعامل النبيل والرحيم مع النساء والرفق بهن. فكلتا المرأتين تجسد

مثـالا يثير الإعجاب لطلب العلم: مختاران مدرسة وشادية طبيبة، مع أن ذلك يبقى أمرا غـير عـادي فيما يتعلق بالمـرأة. لكن تسود عـادات القبيلة وتنتصـر في الحالتين، خلافا لتعاليـم الإسلام. في الوقـت ذاته، تخرق القواعد والأعراف القبليـة إلى حد ما في حالة مختـاران، لأن القبائل المعنية هنا تعيش في البنجـاب، حيث تراجع تأثير العادات القبلية ومثـل الشرف نتيجة تدفق الجماعات والمجتمعـات التي استقرت هناك، والتدخل الأوسع للعـالم الخارجي، وتأثير القيـم الأجنبية. وخلافا للقبائل التي هـي أشد عزلة "ونقاء"، مثـل قبيلة بوغتـي في بلوشستان أو قبائل وزيرستان، فإن القبائل الأخرى قبائل بالاسم لا بالممارسة.

حـين ناقشت قضيـة مختاران مع فاروق ليغـاري، وهو زعيم قبلـي يعيش في المنطقة التي وقعت فيها الحادثة ورئيس باكستان السابق، شرح قائلا: "ما رأيناه في هذه القضية معـادلا للغوغاء الذي كانوا يشنقون المتهم دون محاكمة أو المجموعات التي كان يحضرها 'العمدة' لفرض القانون في الغرب الضاري الأمريكي. لقد طبق هؤلاء القانون بأيديهم. إنه انهيار للنظام القبلي الذي لم يكن ليؤيد أبدا إلحاق العار بالنساء، وفشل ذريع لنظام العدالة على يد الشرطة". كنا نتحدث في واشنطن في صيف عام 2006. ولأنه مدرك لميل وسائل الإعلام الغربية إلى ربط مثل هذه القضايا تحديدا بالدين الإسلامي، قال مؤكدا: "القضية لا علاقة لها بالإسلام".

معضلـة مشـرف الأخرى في مواجهـة القبائل فيمـا يتعلق بهاتـين القضيتين انبعثت مـن اعتماده الاقتصادي والسياسـي على الولايات المتحدة. فالروابـط مع العولمة أعطت مشـرف مظهر اللاعب الرئيس في "تحديـث" باكستان، حيث استقبل تعاطفه في البداية مـع مختاران والتعويض المالي الذي قدمه لها بالاستحسان والقبول من العالم الخارجي. لكـن في نظر رجال القبائل، خسرت مختـاران شرفها، ولا يمكن لتعويض مادي من أعلى مراتب الدولة أو كلمات التعاطف من الصحفيين استعادته. في حالة شادية، مكنت العولمة مشـرف مـن التفوق على قبيلة بوغتي، حيث يمكن بسهولـة، في بيئة ما بعد الحادي عشر مـن سبتمبر، تصويرها كمجموعة داعمة للقاعدة الموجودة في كل مكان وزمان وللطالبان الحاضرين دوما وأبدا. وبسبب معرفة الغرب المحدودة بكيفية تمايز المجتمعات في العالم

الإسلامــي، ستبــدو ثــورة قبيلة بوغتــي - في وزيرستــان خصوصاتعبيرا آخــر عن عودة وانبعاث الطالبان.

لكن ما يحظى بأهمية استراتيجية حيوية الإبقاء على علاقة ودية مع قبائل بلوشستان وعلــى حالة مــن الهدوء السياســي. فبمساعدة الصين، استطاع مشــرف تطوير غوادار، وهــي بلدة صغيرة للصيادين على ساحل بحر العــرب، لتصبح ميناء لبلوشستان، ونقطة انطــلاق لمعبر بري إلى أفغانستان ووسط آسيا. وستكون غوادار أيضا منفذا محسنا عبر البحــر إلى العالم العربي. ويمكن للتجارة والــواردات من جميع أرجاء العالم عبر غوادار تغيــير لا الاقتصاد المحلي فقــط بل التأثير في الاقتصاد الوطني أيضــا. ومع انتشار ثورة قبيلــة بوغتي وعرقلة طرق المواصلات في بلوشستان، تتزايد شكوك المستثمرين المحتملين في هذه الإمكانات.

في الوقت ذاته، تعد الولايات المتحدة وحلفاؤها الغربيون دعم مشرف الآن أكثر أهمية مــن أي وقــت مضى. فالحرب في العراق وعلى الحدود الشرقيــة لأفغانستان لا تسير على مــا يرام، وعاود الطالبان الظهــور وأعادوا تجميع قواهم على جانبــي الحدود الأفغانية. وفضــلا على ذلك كلــه، يتفاقم التوتر فيمــا يتعلق ببرنامج إيران النــووي، حيث صممت الولايــات المتحدة على تعطيلــه. ولذلك، تحظى الأحداث في بلوشستــان، التي تشترك في حــدود طويلة مــع إيران، باهتمــام استراتيجي. وفي الحقيقة، تجمع قبيلــة بوغتي روابط قبلية قوية مع قبائل البلوش الأخرى على الحدود الإيرانية. فإذا انتشرت ثورة البلوش، لن تجد القوات التي تتحرك عبر بلوشستان - أمريكية كانت أم باكستانية - ممرا سهلا إلى الحدود، وهذا ما يجعل من مشرف حليفا عن غير قصد للإيرانيين. أما مصير الإقليم، والأزمة مع قبيلة بوغتي، وقضية شادية، والحرب على الإرهاب، فهي متداخلة ومتمازجة كلها. وستؤثر نتيجة كل منها على البقية وستكون نذيرا لما سيحدث بالمنطقة.

القبائل المسلمة في أفريقيا

للإسلام حضور قوي في أفريقيا، التي تضم اليوم ربع المسلمين في العالم. وهو الدين المهيمــن في معظــم النصف الشمالي من القــارة. وعلى مر القــرون، تداخلت الزعامات والعشائر والقبائل وامتزجت مع الدين وأوجدت هوية إسلامية محلية قوية ومؤثرة.

وحقيقـة أن النبي نفسـه شجع المسلمين الأوائل الذين اضطهدوا في مكة على الهجرة إلى مملكة الحبشة المسيحية (إثيوبيا الحالية) كانت بادرة طيبة للأفارقة والمسيحيين في المجتمع المسلم. ونظرا لنجاح الإسلام والمسيحية في تحقيق اختراقات مهمة في القارة، فإن المبـادئ اللاهوتية الإسلامية والمسيحيـة امتزجت في البنى القبلية الاجتماعية الموجودة، كمـا حـدث في الشرق الأوسـط وجنوب آسيا. أمـا التوليفة التي تجمـع الإسلام والثقافة القبليـة فتتضـح بوجه خاص في نيجيريـا والصومـال - وكلتاهما من الـدول الإفريقية المهمـة، تقـع الأولى في غـرب القارة والأخـرى في شرقها وتردد اسمها كثـيرا في الأخبار خلال السنوات القليلة الماضية.

نيجيريـا دولة إفريقية عملاقـة يبلغ عدد سكانها 130 مليونا وتعد القوة الاقتصادية المحركـة لمنطقة غـرب إفريقيا وتتفوق في عدد سكانها المسلمين علـى أي بلد عربي آخر. يمكـن مشاهدة التداخل بين النمـاذج الثلاثة التي تحدثنا عنهـا في نيجيريا أيضا، بدءا بالمتصوفـة (نموذج أجمر) الذين أدوا دورا دورا فعـالا في التجارة النيجيرية على مدى مئات مـن السنين، وانتهاء بمسلمي نمـوذج عليكره، مثل الرئيس سـاني اباتشا (وهو ديكتاتور عسكري فاسد تدرب في الغرب). قبل وقت طويل من إنشاء دولة نيجيريا الحديثة، وحتى قبـل الحقبـة الاستعمارية، شجعت شبـكات الطرق الصوفية المنتشـرة في معظم مناطق شمـال إفريقيا التنقل والتجارة التي ازدهـرت على أساس الأمانة والنيات الطيبة وحسن الجوار. وفي هذه الحالـة، تناسبت القواعد والأعراف القبلية المتعلقة بالضيافة والشرف مع مفاهيم المتصوفة عن القبول والتسامح والثقة.

لم تتمكـن نيجيريا الحديثـة من حل مشكلات مواطنيها، وانغمـس قادتها وزعماؤها في الفساد المستشري واشتهروا بسوء الإدارة. في عام 1999، سقطت ديكتاتورية اباتشا، وفتحـت البلاد أمام أشكال أخرى من الحكم للمرة الأولى منذ الاستقلال عن بريطانيا. وفي البيئـة السياسيـة الجديدة، بدا نموذج ديوباند هو الشـكل المهيمن من الإسلام حين صوت المسلمون في شمال نيجيريا على الفور لمصلحة تطبيق الشريعة، كردة فعل - جزئية - علـى الظلم الاقتصـادي وتفكك المجتمع الموبوء بالجريمة والفسـاد المتفشي على أوسع نطـاق. تمتلـك نيجيريا ثامن أكـبر احتياطي من النفـط في العالم، لكـن النيجيريين لم

يأخذوا سوى القليل من الثروة الناتجة عنه: 70% من السكان يعيشون على مبلغ يقل عن دولار في اليوم. وكثيرا ما تخطف الميليشيات في الجنوب العاملين في شركات النفط وتطالب بالفدية لإطلاقهم من أسرهم.

مع أن نيجيريا متخلفة اقتصاديا، إلا أن مناطق المسلمين في الشمال تعاني أكثر من غيرها؛ فمعدلات البطالة والافتقار إلى التعليم والفقر أعلى في الشمال مقارنة بالجنوب المسيحي غالبا، الذي تمكن من جني ثمار العولمة. ووضع تقرير التنمية البشرية الذي أصدرته الأمم المتحدة عام 2006، ولايتي ايدو ودلتا (في الجنوب) على قمة لائحتها المتعلقة بنيجيريا، حيث سجل مؤشر التنمية البشرية 0.631. وبالمقابل، سجل مؤشر التنمية البشرية في ولاية بورنو الإسلامية في الشمال 0.042[21]. فإذا كانت ايدو ودلتا ولايتين منفصلتين، كما يلاحظ التقرير، فسوف تحتلان المرتبة التاسعة في العالم، متفوقتان في ذلك على البلدان متوسطة الدخل. هذا النوع من التفاوت الاقتصادي الصارخ داخل البلدان الذي يمزق المجتمعات إربا إربا ليس سوى علامة فارقة تميز العولمة.

أصدرت المحاكم الإسلامية العديد من الأحكام الخلافية، كان لعدد كبير منها علاقة بقواعد الشرف القبلية والرد على العولمة تفوق علاقتها بالإسلام ذاته. في عام 2002، تركز انتباه العالم على الحكم في قضية أمينة لاوال، وهي امرأة في الحادية والثلاثين من قبيلة هاوسا، التي حكم عليها بالرجم حتى الموت بتهمة إنجاب مولود غير شرعي. لم يتقدم أي شاهد في قضية أمينة، مع أن الشريعة تقتضي وجود أربعة شهود عيان لإثبات فعل الزنا. لكنها وجدت نفسها مذنبة بإلحاق العار بقبيلتها التي تفاخر بتقاليدها، وسوف تعاقب لأن عادات القبيلة تتفوق على/ بل تبطل قوانين الشريعة. في هذه الأثناء، استطاع والد الطفل (الذي لم تجمعه بها رابطة زواج شرعي) النجاة من العقاب. خلي سبيل أمينة في عام 2004، بسبب حملة وسائل الإعلام الدولية الكاسحة التي شنتها شخصيات أمريكية شهيرة مثل اوبرا وينفري.

تخترق المسيحية والإسلام والأرواحية الحدود القبلية والاثنية في نيجيريا. وفي حين عاشت مختلف الجماعات معا بسلام على مر القرون، إلا أن التوتر بين المسيحيين

والمسلمين تفاقم في السنوات الأخيرة، وأدت الصدامات إلى وقوع ضحايا وتدمير دور العبادة. وهي متجذرة في العداوات القبلية كما في الخلافات الدينية ويذكي نارها الظلم الاقتصادي والإدراك بأن الإسلام يتعرض للهجوم من الغرب، مع أن من النادر أن تناقش وسائل الإعلام الغربية هذه العوامل.

العديد من الحالات التي تبدو وكأنها تقع في نطاق العنف الديني تستحثها فعلا عوامل أخرى، مثل حقوق ملكية الأراضي، كما في النزاع الطويل بين قبيلة الفولانيالمرتبطة بقبيلة الهاوسا التي تنتمي إليها أمينةوالتاروك. الفولاني قبيلة من البدو المسلمين، في حين أن التاروك قبيلة من المزارعين المسيحيين . في أيلول / سبتمبر 2001، قتل أكثر من ألف شخص في الصدامات التي وقعت بين بدو قبيلة الفولاني المسلمين ومزارعي قبيلة تاروك المسيحيين في ولاية حوس. وفي أيار / مايو 2004، شن التاروك هجوما دمويا مدمرا على الفولاني في المنطقة ذاتها خلف أكثر من ستمئة قتيل وشرد ستين ألفا[22]. النزاع يدور غالبا على استخدام الأراضي؛ إذ يريد بدو الفولاني رعي قطعانهم على الأرض ذاتها التي يريد التاروك زراعتها. وفي الحقيقة، فإن العديد من الصراعات في نيجيريا وغيرها من بلدان إفريقيا تدور بين السكان المحليين والمهاجرين من القبائل الأخرى وليست لها سوى علاقة واهية بالدين.

الهجمات التي يشنها غير المسلمين على المسلمين في نيجيريا، مع أنها ليست مدفوعة أساسا بباعث الدين، أدت إلى انتشار إدراك مفاده أن الإسلام يتعرض للهجوم داخل نيجيريا، وهذا بدوره أدى، حين يقترن بإدراك أن الأمة تتعرض لهجوم عالمي من الغرب، إلى ارتفاع مستويات الغضب وخيبة الأمل بين مسلمي نيجيريا. في شباط/ فبراير 2006، قتل أكثر من مئة ونزح خمسون ألفا نتيجة أعمال الشغب احتجاجا على نشر صحيفة دنمركية رسوما مسيئة للرسول. أدى هذا الشعور بالحصار من الغرب والغضب على الظلم الذي يتعرض له المسلمون محليا إلى تعزيز وتقوية نموذج ديوباند في نيجيريا.

ينتشر النموذج في شرق إفريقيا أيضا. ومثلما استنهضت الفوضى في أفغانستان الطالبان، الذين وعدوا بتطبيق العدالة الإسلامية وتحدي أمراء الحرب في المنطقة، كذلك أفرزت الفوضى في الصومال جماعة إسلامية أخرى[23]. فبعد وقت قصير من

استكمال عملنا الميداني، بدأ استيلاء "الإسلاميين" على العاصمة الصومالية، مقديشو، يحتل عناوين الأخبار.

خلال السنوات المئة الماضية، حدثت انقسامات كبرى في صيغ وأشكال الممارسة الإسلامية السائدة في البلاد. ظهرت الصوفية أولا حين تجول المتصوفة في مختلف أرجاء البلاد سعيا وراء إقامة علاقات وثيقة وشخصية مع المقدس. وترجم انفتاحهم بطريقة جيدة في مجتمع تأثر بالتجارة والعادات الأجنبية. وأنتج الإسلام الصوفي في الصومال العديد من الشخصيات المحبوبة وأصبحت أضرحتهم مزارات كما هي الحال في أجمر.

ما زال التراث الصوفي حيا في الصومال. وحين سافر فرانكي إلى كينيا في كانون الثاني / يناير 2006، تحدث مع الصوماليين هناك عن مشروعنا، ووجد لدى العديد منهم "روحا شمولية استيعابية تقبل الآخر ولا ترى في الغرب عدوا". لكن يبدو أن نموذج ديوباند المحافظ في حالة مد ونهوض في حين يعاني نموذج أجمر جزرا وانحسارا. وبدأ هذا الأخير يفقد شهرته في الصومال في أواخر القرن التاسع عشر، مع الاستعمار الأوروبي ووصول البعثات التبشيرية المسيحية. في عام 1897، كما تقول الحكاية، مر رجل دين شاب مسلم اسمه سيد محمد عبد الله حسن أمام بناء لم يعرفه، كان محطة لبعثة تبشيرية كاثوليكية فرنسية. وحين تحير في الأمر، سأل جماعة من الصبية ينتمون إلى البعثة عن طائفتهم، فأجابوا: "طائفة الآباء". وبعد أن صدم بهذا الرفض للهوية الصومالية، استخلص أن الأوروبيين يحاولون تدمير الإسلام في الصومال وتغيير المجتمع القبلي إلى الأبد. حاول الشيخ محمد عبد الله حسن يائسا الفوز بتأييد صيغته المتشددة من الإسلام، وخطب في المساجد والشوارع أن المجتمع الصومالي يتعرض للهجوم ودعا الناس إلى النهوض وطرد "الكفار" الأوروبيين. وانتقد أيضا عادة شرب الخمر التي جلبها الأجانب معهم. ورد البريطانيون على خطاب الشيخ عبد الله حسن المعادي للأوروبيين ولقبوه بـ "الملا المجنون".

شعر العديد من المتصوفة أن الأوروبيين يمثلون تهديدا داهما لمجتمعهم وأقلقهم وجودهم في الصومال، على الرغم من صوفيتهم الاستيعابية التي تقبل الآخر. ومع استمرارا الشيخ محمد عبد الله في التجول في أرجاء البلاد وانتقاد الأوروبيين والبعثات

التبشيرية، اكتسب أيضا سمعة صانع السلام، حيث تمكن من إخماد النزاعات بين العشائر والطوائف، واشتهر بمواهبه الشعرية المدهشة. في منتصف عام 1899 أعلن الجهاد على المستعمرين المسيحيين. واستهدف البريطانيين وحلفاءهم الإثيوبيين على وجه الخصوص بوصفهم أعداء الصومال الألداء تقليديا. استمر التمرد حتى عام 1920، حيث استطاع البريطانيـون أخيرا سحق مقاتليه، وتوفي الشيخ محمـد نفسه بسبب مرض أصابه. وبعد الحـرب، تكفل البريطانيون، في مسعى منهم لتجنب مزيد مـن المشكلات، بعدم التدخل في طريقـة ممارسـة الإسـلام في الصومال. في عـام 1960، توحدت أجـزاء الصومال الخاضعة لسيطـرة البريطانيين والفرنسيين والطليان في دولـة واحدة مرتجلة، وفي عام 1969 استولى على السلطة قادة الجيش الثوريون برئاسة الجنرال محمد سياد بري

وتحـت واجهـة الشريعة، استنـدت إيديولوجيـة سياد بـري السياسيـة إلى الفلسفة الماركسيـة، كحال العديد من الزعماء العـرب في الستينيات والسبعينيات. وفي الحقيقة، انتسـب العديـد من الصوماليـين في هذه الحقبـة إلى جامعـات مصـر الناصرية. ومع أن قـادة الحكومـة الصوماليـة الجديـدة تحدثـوا عـن إقامة دولـة إسلاميـة، إلا أنهم قصـدوا نموذج عليكره الـذي يفصل الدولة عن الديـن. ورأى الوطنيون الصوماليون في الشخصيـات الروحيـة الإسلامية ورجال القبائل البارزين الذيـن احتجوا على الحكومة تهديدا لسلطتهم. وبعد أن حصل على دعم أولي من الاتحاد السوفييتي، تحول سياد بري إلى الولايـات المتحدة وذلك حين قرر السوفييـت أن إثيوبيا المجاورة حليف أكثر جاذبية. وثبـت أن الولايات المتحدة حليف راغب في تقديم العون طوال الثمانينيات، مع أنها تخلت عـن بري قرب نهاية حكمه، بعـد سلسلة من أعمال القمع الوحشيـة، خلف إحداها 450 قتيـلا مـن المسلمين الذين احتجوا عليه بسبب سجن زعمائهـم الروحيين. وبعد أن خسر دعم الولايات المتحدة، أسقطته قوى "المتمردين" بسهولة عام 1991، وسرعان ما غرقت البلاد في مستنقع الحرب الأهلية.

في خضـم الفوضـى، انتقل أمراء الحرب إلى العاصمـة واستولوا على معظم الجزء الجنوبـي من الصومال. وظـن المسلمون المحافظون أن إطاحة بـري ستعبد الطريق إلى قيـام دولة إسلاميـة، لكن شعـروا أن الولايات المتحدة تمنع حدوث ذلـك وتستهدف في

الحقيقـة إقامة قواعد عسكرية في البلاد. وحـين أصابت المجاعة الصومال عام 1992 وأرسلت معونات الغذاء والدواء تحت مظلة الأمم المتحدة ضمن "عملية استعادة الأمل"، تفاقمت حالة الفوضى والاضطراب في البلاد: عرقل أحد زعماء الحرب القبليين وصول معونـات الغـذاء لترسيخ تفوقـه في التصارع على السلطـة وأصبح يمثل بـؤرة المعارضة للولايـات المتحـدة، على الرغم مـن انتشار المشاعـر المعادية لأمريكا علـى نطاق واسع. لكن واجـه الأمريكيون غضب الأحزاب الإسلامية وأمـراء الحرب على حد سواء، حيث احتشدوا معا - وفقا للتقاليد القبلية - ورصوا الصفوف لطرد العدو الخارجي المشترك من أرضهم.

أخطأت الولايـات المتحدة في قراءة المجتمع القبلي وطريقة عمل السياسة في سياقه، فأرسلت مشاة البحرية (المارينز) للمساعدة على استعادة النظام وتقديم العون، لتواجه بالعـداء. وفي حادثة "إسقـاط حوامة البلاك هوك" الشهيرة عـام 1993، سحلت جثث الجنود الأمريكيين الذين قتلوا في تحطم الطائرة وسحبت في الشوارع. صور المشهد وبث في مختلـف أرجـاء العالم، وهذا ما دعـا الأمريكيين إلى التساؤل عـن سبب عزم الشعب الصومـالي علـى إذلال الجنود الأمريكيـين بهذه الطريقة المهينة في حـين أنهم يحاولون تقـديم المعونات الإنسانيـة إليه. الحادث سبب غضبا عارما في الولايات المتحدة على هذا الضعف في مجابهة العنف وأثر تأثيرا بالغا في السياسة الخارجية منذ ذلك الحين.

بحلـول عـام 1995، انسحبـت قـوات الأمم المتحدة والجنـود الأمريكيـون، وانزلق الصومال إلى حقبة جهنمية من الفوضى: كان أمراء الحرب وجنودهم يفعلون ما يريدون من قتل ونهب واغتصاب. في بعض الأحيان تعاونوا، لكن في معظم الأحيان خاضوا معارك ضاريـة قتل فيها العديد من المدنيين الأبريـاء، أو جندوا للقتال رغما عنهم. كان المجتمع غارقا في الظلم. المذنبون ينجون من العقاب، وغاب التراحم والحلول المنطقية والعقلانية للمشكلات، وانعدم الأمن والأمان. وغادر المواطنون دولة يطحنها الفقر المدقع، أو عاشوا في الأبنيـة المهجـورة أو في ملاجـئ مصنوعة من أغصـان الأشجـار أو الصفيح أو قطع الكرتون. ولم تكن المياه النظيفة متوفرة. في حين أوقفت معظم المساعدات الدولية بسبب أخطار العمل في المنطقة: فكثيرا ما قتل عمال الإغاثة أو خطفوا طلبا للفدية. إضافة إلى

ذلـك كله، ازدهـرت القرصنة على سواحـل الصومال بعد عـام 1991 وأصبحت مذاك منتشرة ومتفشية دون ضابط أو رادع.

الفوضــى في الصومــال في التسعينيات دفعت البلاد إلى أداء دور مركزي في الصراع المعـولم الناشئ حول الإسلام. فحين فجرت "القاعـدة" السفارتين الأمريكيتين في كينيا وتنزانيا عام 1998، اتهمت وزارة العدل الأمريكية بن لادن وتنظيمه باستخدام الصومال قاعـدة للهجـوم علـى السفارتين والتخطيـط للهجوم علـى مشاة البحريـة في الصومال عـام 1993. ثـم اتهمت "القاعدة" مجددا باستخدام الصومـال نقطة انطلاق للتفجير الانتحـاري في منتجع إسرائيلي على شاطـئ كينيا عام 2002، والهجوم بالصواريخ على طائـرة إسرائيلية، والتخطيط لتفجير طائرة تابعة للخطوط الجوية البريطانية في مطار كينياتا الدولي في نيروبي.

تحت حكم نظام سياد بري، خلط الإسلام أولا مع المفاهيم الاشتراكية ثم مع الأفكار الغربيـة في مسعـى لتحديث البلاد. وبذلك عـبر عن نموذج عليكره، وذلـك بالرغم من فسـاد النظـام وقصوره. ومنذ ذلك الحـين، جرت عدة محاولات فاشلـة لتشكيل حكومة وطنيـة. وفي كانـون الثاني / يناير 2004، وقع أمراء الحـرب والسياسيون اتفاقا لإنشاء برلمان جديد، انتخب لاحقا زعيم المتمردين السابق عبد الحي يوسف أحمد رئيسا للبلاد. لكن انعدام الأمن منع الحكومة الانتقالية من تثبيت أركانها في العاصمة.

مع استكمـال تخريب المجتمع، وانهيار القيم الأخلاقيـة، وانعدام الأمن، برز نموذج ديوبانـد كمصدر للأمل بالسلام والتـزام المبادئ الأخلاقية، تمامـا كما حدث في بداية القرن العشرين زمـن الشيخ محمد عبد الله. وبرزت صيغة الإسلام المحافظ و"النقي"، التـي تسعـى إلى تنظيم المجتمع وفقا للمثل الأعلى الذي جسـده النبي وصحابته في صدر الإسـلام، بمساعـدة منظمة عرفت باسـم "اتحاد المحاكم الإسلاميـة". ومثلما توحدت قبائل وزيرستان في مواجهة حكومة مشرف والولايات المتحدة، تمكنت المحاكم الإسلامية مـن توحيـد القبائل الصومالية التي فشلت تقليديا في العمـل معا منذ زمن الشيخ محمد عبد الله وحروبه على البريطانيين والإثيوبيين.

تبدو مثل وقيم نموذج ديوباند جذابة للشعب الصومالي، الذي يتعلق بأي قشة يجدها لتحقيق العدالة والأمن. إذ تعتقد القبائل والميليشيات الإسلامية أن السبيل الوحيد لعودة النظام والحياة الطبيعية هو الحفاظ على الاستقلال الإقليمي عن الولايات المتحدة والبلدان الإفريقية الأخرى، لاسيما إثيوبيا، وحتى الأمم المتحدة. ولا يتوقع العديد من الصوماليين على الأرجح حكومة دستورية جديدة في هذا الوضع اليائس، ولا يستطيعون بسهولة العثور على طريق الخلاص عبر المقدس.

وبدلا من ذلك لجؤوا إلى المحاكم الإسلامية طلبا للعون، وهي مكونة من شبكة (مفككة) من إحدى عشرة محكمة أنشئت في السنوات الأخيرة في مقديشو بتمويل من رجال أعمال فضلوا أي نوع من القانون والنظام على الفوضى. ذكرت المحاكم أن هدفها تطبيق الشريعة ووضع حد للفوضى والصراع في المجتمع الصومالي. في الشهور الثلاثة الأولى من عام 2006، تنامى نفوذها وتأثيرها حين وجدت حلولا في الشريعة الإسلامية للقضايا القضائية منفذة في كثير من الحالات عقوبات قاسية على الجرائم المرتكبة للسيطرة على الفوضى. وفي سبيل التصدي لمشكلات وهموم التعليم - وجد تقرير التنمية الذي أصدرته الأمم المتحدة عام 2006 أن نسبة 16.9% فقط من أطفال الصومال يتلقون التعليم - شيدت المحاكم العديد من المدارس على مدى السنوات القليلة الماضية، وهي بادرة أيدها العديد من الصوماليين. المملكة العربية السعودية قدمت منحا أيضا لبناء المدارس والمساجد التي تروج للنسخة الوهابية من الإسلام، المشابهة لنموذج ديوباند كما ذكرنا آنفا. لكن قوبل توسع نفوذ المحاكم الإسلامية بمعارضة الولايات المتحدة.

مع نمو سلطة وشعبية المحاكم، كون بعض أمراء الحرب في مقديشو تحالفا لاستعادة السلام ومكافحة الإرهاب عام 2006، تلقى الدعم من الولايات المتحدة. أما استخدام أمراء الحرب الذين يثير السخرية لكلمة "الإرهاب" في اسم تنظيمهم فكان دلاليا في تعبيره: هدفهم حث الولايات المتحدة على دعمهم في مواجهة الجماعات الإسلامية، في حين تمثلت سياستهم المعلنة في استئصال "أعضاء القاعدة الذين تؤويهم المحاكم". ووفقا لتقرير أصدرته وكالة الصحافة الفرنسية عام 2006، التقى أمراء الحرب الصوماليون عملاء المخابرات الأمريكية في جوهار، مقر الحكومة المؤقتة، قبيل تجهيز التحالف

بالصواريخ ومدافع الهاون والمدافع المضادة للطائرات، التي استخدمت في القتال العنيف الـذي نشب في العاصمة في تموز/ يوليـو 2006. وكانت تلك الجولة الثانية من القتال في تلك السنة، بعد الصدامات في آذار/ مارس التي سقط ضحيتها أكثر من تسعين شخصا، معظمهم من المدنيين، ودفعت السكان إلى النزوح من ضواحي العاصمة. لكن المساعدات الأمريكيـة إلى أمـراء الحرب - وبعضهم قاتل الولايات المتحـدة عام 1993- كانت دون جـدوى، لأن المحاكـم هزمتهم شر هزيمة في معركة بعد أخرى. وفي تموز / يوليو 2006، ألحقت المحاكم الهزيمة بآخر أمراء الحرب في مقديشو.

عارضـت الولايات المتحدة المحاكم الإسلامية التي قادها الشيخ حسن ضاهر اويس، حيـث رفضت التعامل معه بسبب ارتباطاته المزعومة بالقاعدة. وقال اويس في مقابلة مع هيئـة الإذاعة البريطانية الإخبارية (حزيران / يونيـو 2006): "أنا لست إرهابيا، لكن إذا كان اتباعـي ديني وحبي للإسلام يجعلاني إرهابيا فأنا أقبل التسمية". ووفقا لجميع التقاريـر في وسائل الإعلام العالميـة، انخفضت أسعار المواد الغذائيـة بدرجة كبيرة بعد تولي الجماعات الإسلامية السلطة، وانخفض عدد السرقات وغيرها من الجرائم، وشعر الناس بـ"التفاؤل" أخيرا[24].

في منتصف تمـوز / يوليو 2006، بدأت ميليشيات المحاكم الإسلامية بالتحرك نحو بلـدة بيـدوا في الشمال، مقر الحكومـة الانتقالية الضعيفة المدعومة مـن الأمم المتحدة. فتدخلت إثيوبيا التي كانـت تؤيد الحكومة، وأرسلت جنودها لاحتلالها. وحين رأى الشيخ اويـس التدخل الأجنبي، أعلن الجهـاد على إثيوبيا، مثلما فعل الشيخ محمد عبد الله قبل قرن من الزمان.

أصبحـت الصومـال الآن بـؤرة تركيز أخـرى للصـراع العالمي، حيـث تتدخل بلدان إسلاميـة مختلفـة في الصومال لمساعـدة المحاكم الإسلاميـة ورد أي تهديد من الغرب. ووفقـا لتقريـر أصدرته مجموعـة المراقبـة المفوضة من مجلـس الأمـن (2006)، فإن ارتيريـا وجيبوتـي وإيران وسوريـة وليبيا ومصـر والسعودية وحـزب الله اللبناني زودت جميعـا ميليشيـات المحاكم الإسلاميـة بالسلاح وقدمت لهـا التدريب. ويقـال إن إيران أرسلـت ثلاث شحنات مـن الأسلحة عام 2006 تحوي ألف مدفع رشاش وخمسة وأربعين

من الصواريخ المضادة للطائرات التي تحمل على الكتف. ويبدو أن المحاكم أرسلت سبعمئة صومالي لقتال إسرائيل إلى جانب حزب الله خلال غزوها لبنان في صيف عام 2006. أما الأساليب التكتيكية التي تستخدمها الميليشيات الإسلامية في أجزاء أخرى من العالم فقد انتقلت أيضا إلى الصومال، حيث استهدفت عملية اغتيال انتحارية عبد الحي يوسف أحمد، رئيس الحكومة المؤقتة التي تدعمها الأمم المتحدة في أيلول/ سبتمبر 2006. واستهدفته عملية أخرى في تشرين الثاني/ نوفمبر، وكانت أول عملية انتحارية تقوم بها امرأة في الصومال. في أواخر كانون الأول/ ديسمبر 2006، اجتاحت القوات الإثيوبية وجنود الحكومة المؤقتة الصومال - بدعم من الولايات المتحدة - في مسعى لإسقاط المحاكم الإسلامية والوصول بسرعة إلى مقديشو. وبفضل القاذفات والدبابات، اكتسحت القوات الإثيوبية معاقل المحاكم بسرعة، فهرب مقاتلوها إلى المناطق الريفية أو تسللوا عبر الحدود إلى كينيا. ومثلما لجأ الطالبان إلى العمل السري وتابعوا القتال بعد أن أطاحتهم القوات الأمريكية، امتزجت عناصر المحاكم في المجتمعات المحلية وهددت بشن حرب عصابات على الحكومة المؤقتة والإثيوبيين وأية قوة أجنبية أخرى يمكن أن تتدخل في الشؤون الصومالية.

بدأت الضربات الجوية الأمريكية الموجهة إلى الجماعات الإسلامية في كانون الثاني/ يناير 2006 وسط اتهامات جديدة بوجود صلات بين المحاكم الإسلامية والقاعدة، وهذا فضح تورط القوة العظمى أمام الملأ. وسرعان ما ذكرت منظمة "اوكسفام" أن أعدادا كبيرة من البدو الأبرياء لقوا حتفهم، وهذا أدى إلى حالة من الهلع وعدم اليقين[25]. ومع الغارات الجوية الأمريكية، قامت البحرية الأمريكية بدوريات على سواحل شرق إفريقيا، وبذلك فتحت الولايات المتحدة، الغارقة في مستنقع المجتمعات القبلية في العراق وأفغانستان، جبهة حربية جديدة، مما هدد بتكرار حادثة "سقوط حوامة بلاك هوك" الكارثية (1993). ومنذ بداية عام 2007، بقي الوضع في المنطقة في حالة صعبة ومعقدة من الغموض وعدم اليقين.

تؤكد اتجاهات الأحداث في الصومال تلك الأدلة الظاهرة في المجتمعات الإسلامية الأخرى. فدعم أمريكا لأمراء الحرب و"العلمانيين" مهما بهظ الثمن في حربها على

القيـادات الإسلاميـة أدى إلى انتشار حالة مـن الاستياء والعنف وعـدم الاستقرار على أوسع نطاق. البحث الميداني الذي أجراه فرانكي دفعه لاستخلاص ما يلي:

الصومـال مثال معبر علـى جاذبية نموذج ديوباند. وأحسب أننـا لو تمكنا من توزيع الاستبيانات في الصومال، فإن العديد من المبحوثين سوف يؤكدون "العودة إلى الإسلام" بوصفها حلا لمشكلاتهم إضافة إلى استبعاد الغرب. لكن، وعلى شاكلة العديد من المسلمين الآخرين الذين قابلناهم في أجزاء أخرى من العالم، قال الصوماليون والكينيون من ذوي الأصول الصومالية الذين تحدثت معهم في نيروبي إنهم يريدون إقامة الصلات والروابط مع المسيحيين والغربيين، برغم معارضتهم للسياسة الخارجية الأمريكية.

يبـدو أن الإسلام في الصومال في الوقت الراهنعموما - يستعيد نموذج أجمر وروحه الاستيعابية القابلة بالآخر. أجريت مقابلة مع امرأة شابة صومالية الأصل ترتدي الحجاب وتلتزم مبادئ الدين الحنيف في حي ايستلي في نيروبي، وقالت إن مثلها الأعلى هو عيسى المسيـح الذي تحبه وتجله وفقا للتقاليد الإسلامية والمسيحية معا، وهي تدرس في مدرسة مسيحية. بل سألتني هل لدي صديقة حميمة وتطوعت مازحة لملء الفراغ إن لم يكن لدي واحدة، وهذا أمر لن تفعله أبدا امرأة تتبع نموذج ديوباند. لكن إن كان للأحداث الأخيرة أي دلالة، فإن نموذج ديوباند يتعزز على ما يبدو في الصومال.

يسهـل في سياق نمـاذج أجمر وعليكره وديوباند رؤية السبـب الذي يجعل الجماعات القبليـة في العالم الإسلامي - من الصومـال إلى أفغانستان - تعتمد على نموذج ديوباند للزعامة الدينية للخروج من أوضاعها الصعبة. إذ يشعر المسلمون أن الروحانية الصوفية في نمـوذج أجمـر أو الديمقراطية البرلمانيـة في نموذج عليكره غـير ذات صلة في الوقت الذي يتعرض فيه الدين للهجـوم، ويخفق زعماؤهم، وتدمر بيوتهم بالأسلحة الأمريكية، ويضطرون إلى الفرار إلى الجبال مع ما تبقى من عائلاتهم. والرجل المطارد في مثل هذه الظروف لا يفكر بالحب الروحاني والتراحم الوجداني ولا بالحداثة والتحديث ولن يكتب رسـالـة منمقة يحتـج فيها على الذبح ويبعـث بها إلى رئيس تحرير جريـدة يومية واسعة الانتشـار. بل تهجس في صـدره أفكار الانتقام والثأر واستعـادة الشرف المفقود والكرامة الجريحـة. هذه المشاعر بالضبط هي التي تتردد لدى أتبـاع نموذج ديوباند، حيث يوجد

لدى المسلم إطار مفهومي جاهز لا لاستخلاص معنى من العالم فقط بل لتغييره وإصلاحه أيضا.

نساء العالم

في دمشق، جلست هيلي وهاديا مع مجموعة من النساء السوريات لمناقشة كيف تغيرت حياتهن نتيجة للتقانة الجديدة، ووسائل الإعلام الحديثة، وترقي الثقافة في سورية. في معظم البلدان الإسلامية، هنالك فصل بين الجنسين، وعند الاختلاط نادرا ما تفصح النساء عن مشاعرهن وأفكارهن الحقيقية. لذلك وجدت من المفيد أكثر أن أرسل الفتاتين للتحدث مع النساء الأخريات.

ولأن أسرة هاديا سورية، فقد زارت فتاتين توأمين في أوائل العشرينيات من العمر (في عائلة تضم أربع شقيقات) كانت قد تعرفت بهما في الولايات المتحدة خلال الصيف. وعلى الرغم من أن شقيقتيهما لا تضعان الحجاب، إلا أن الفتاتين التوأمين قررتا لبس الحجاب وهما تدرسان في الجامعة هناك. وبدأت الفتاتان مع رفيقاتهما بحضور الدروس والمحاضرات الدينية التي تلقيها الداعيات في المساجد. القضايا المطروحة للنقاش - مثل خلود الروح ويوم الحساب - دفعت الفتاتين لمزيد من الالتزام الديني واتباع أسلوب حياتي مختلف عن معظم الفتيات الأخريات المنتميات إلى الخلفية الاجتماعية - الاقتصادية ذاتها في سورية. ومع أن الشقيقتين اللتين تكبرهما في العمر ترتديان أحدث الأزياء الغربية (خصوصا في إجازة الاستجمام في فلوريدا)، إلا أن ملابس التوأمين كانت أكثر احتشاما برغم حرارة الصيف.

حين طلبت منهما هيلي وهاديا دعوة بعض من صديقاتهن إلى البيت لإجراء مناقشة جماعية، لبست إحدى الصديقات الثماني اللاتي لبين الدعوة قميصا قصيرا أسود اللون وتنورة قصيرة، في حين بدت أخرى وكأنها خارجة للتو من متجر "غاب" الشهير بسروالها الجينز وقميصها القطني الأرجواني وسترتها القطنية (من قماش الجينز أيضا) وأقراطها الطويلة. لكن ارتدت الأخريات الحجاب والتنانير الطويلة والقمصان الفضفاضة.



أكبر أحمد مع عضو مجلس الشعب السوري محمد حبش في صلاة الجمعة بجامع الزهراء بدمشق. التقطت هذه الصورة الفريدة من الشرفة المخصصة للنساء.

بغض النظر عن الزي، رحبت جميع الفتيات بالقنوات الفضائية والإنترنت والهواتف المحمولة. وصاحت إحدى الشقيقتين التوأمين بحماس: "أحب الرئيس بشار الأسد. فقد جلب إلينا كل هذه التقانة؛ إنه مبتكر ومبدع حقا". قبل بضع سنوات فقط سمحت الحكومة السورية الاشتراكية التوجه باستخدام الإنترنت في المنازل والمدارس. وهنالك حوالي عشرين ألف مستخدم للإنترنت في البلاد عند إجراء هذا اللقاء مع الفتيات. العولمة لا يمكن إيقافها، حتى في سورية. فكل شقة سكنية - وضيعة كانت أم فخمة - لديها طبق لالتقاط المحطات الفضائية على ما يبدو، وكل عائلة - ميسورة أم فقيرة - تمتلك هاتفا نقالا. وأكدت الفتيات أنهن يشاهدن الـ"بي بي سي" و"سي ان ان" و"الجزيرة"، ويتابعن الأخبار على الإنترنت.

مع أن هؤلاء الفتيات يستخدمن أحدث التقانات، إلا أنهن يبالغن في الحذر من تأثيراتها الجانبية. علقت سوزان إحدى الفتاتين التوأمين قائلة: "مع كل هذه الثقافة الجديدة الآتية إلينا، لم يعد أحد يقرأ أو يطالع. قبل بضعة أيام أتت إحدى الزميلات في الكلية وقالت متسائلة: (ما الذي حدث لشقيقتك؟ رأيتها جالسة تقرأ كتابا!). الناس

يتصرفون وكأن هناك خطأ ما في القراءة، وكأنها شيئا خارج على المألوف والسائد. الناس ينسون الجمال الحقيقي لثقافتنا".

برأي الفتيات، لا يجني الجيل سوى أسوأ ما تقدمه التقانة وليس أفضله. وشكون من أن الشباب يتابعون الآن المواقع الإباحية على الإنترنت ويتبادلون الصور البذيئة على الهواتف النقالة. وأظهرت إحدى الفتيات لنا - وهذا أمر جديد حتى على أفراد فريقيكيف أرسل لها صبي صورة لامرأة عارية عبر وصلة لاسلكية إلى الهاتف المحمول تدعى "بلوتوث" تنقل الصور من هاتف إلى آخر.

في حين عبرت هؤلاء الفتيات عن وجهات نظر دينية مختلفة، اتفق العديد منهن على أن التقانة، مع أنها إيجابية في بعض جوانبها، تمثل تهديدا داهما لقيمهن الدينية ومجتمعهن التقليدي. ولم تساعد في نشر الإباحية بين الشباب فقط بل أغرت بـ"الكسل" وأدت إلى هدر الوقت. وسألت إحداهن هاديا غير مصدقة: "هل تعرفين أن بعض الشباب البالغين يقضون ست ساعات متواصلة على ألعاب الفيديو؟".

علقت فتاة أخرى ترتدي سروالا من الجينز وقميصا قطنيا خفيفا قائلة إن ثقافة التلفزيون الجديدة سببت ارتباكا وتشوشا لدى المراهقين بشأن "المركز الأخلاقي": "لم يعد بمقدورهم التمييز بين الصواب والخطأ. إذ يفيقون على برامج التلفزيون القادمة من الغرب وينامون عليها. أما أسلوب الحياة الذي تعرضه هذه البرامج فيتناقض تناقضا تاما مع القيم والأخلاقيات الإسلامية، لكن هؤلاء الأطفال لا يعرفون بديلا أفضل. على سبيل المثال، يشاهدون شبانا وفتيات يعيشون معا وينامون معا وكأن هذا أمر عادي".

قالت فتاة أخرى معلقة: "لم يعد للآباء سيطرة على أولادهم. من المحزن قول ذلك، لكن التلفزيون أصبح هو الوالد الجديد". أما النماذج التي يحتذى مثالها في نظر هؤلاء الشابات فتراوحت بين الشخصيات الدينية والسياسية ومقدمات البرامج الشهيرات مثل اوبرا وينفري. وحين طرحنا مزيدا من الأسئلة عن شهرة اوبرا وينفري، أجابت الفتيات إنها امرأة تتمتع بشخصية قوية ولا تتناول إلا القضايا الجديرة بالاهتمام. وعبرن عن إعجابهن ببرامجها التي دارت حول الإسلام. وقلن إنهن يتأثرن بها ويشاهدنها مرارا.

وفي الحقيقة، فإن جميع النماذج المعاصرة التي يحتذى مثالها برأيهن أتت تقريبا من مشاهدة القنوات الفضائية.

المثل الأعلى الذي ذكر مرارا وتكرارا هو داعية مصري شاب يتمتع بشخصية كاريزمية اسمه عمرو خالد. ترك عمرو خالد عمله كمحاسب ووقف نفسه للتحدث والكتابة عن الإسلام. ومن اللافت أنه المثل الأعلى الذي حاز على أكبر إجماع في البلدان التي زرناها في العالم العربي. إذ جذب هؤلاء الفتيات إليه لأنه قدم الإسلام بوصفه دين الإحسان والتراحم وأسلوبا روحيا للحياة. قالت واحدة منهن: "أسلوبه خفيف الوطأة. ولا يقدم الإسلام كمجموعة من الأوامر والنواهي مثل بعض الفقهاء والمشايخ. لقد جعلنا نحب الإسلام".

أكثر السياسيين شعبية برأيهن هما الرئيس السوري بشار الأسد، والأمين العام لحزب الله حسن نصر الله. وقلن إن بشار الأسد لم يكتف بمحاولة تحديث سورية فقط، لكنه "لم يتراجع لتخفيف حدة الضغوط الغربية". أما ما يتعلق بحسن نصر الله، فقد عبرت الفتيات عن إعجابهن ببلاغته وحماسة خطبه، التي كثيرا ما يتابعنها على شاشة تلفزيون المنار. وأعجبن على وجه الخصوص "بشجاعته في النضال في سبيل العدالة وقول الصدق دوما، حتى وإن كانت الحقيقة الصادقة تعادي الغرب". لقد عبرت هذه المجموعة من الفتيات عن الاعتزاز الوطني المعروف عن بلد عارض الولايات المتحدة طوال العقود القليلة الماضية. وفي الحقيقة، عبرن جميعا عن مشاعر مناهضة للغرب إلى حد ما.

لكن الفتاة التي ترتدي ملابس غربية (تنورة قصيرة - وإن طالت إلى ما تحت الركبة - وقميصا أسود اللون) قالت إنها لا تلتزم الإسلام كثيرا. وأضافت: "أقع في مشكلات مع الشبان"، في حين هزت زميلاتها رؤوسهن في استنكار خفي. ثم قالت: "أجد متعة في المشكلات!". فهي لا تقبل تفسيرات الإسلام المغالية في الصرامة ولا تترك فسحة لـ"الاستمتاع". لكن حتى النماذج التي يحتذى مثالها في نظرها ظلت مشابهة لتلك التي اختارتها الفتيات الأخريات: الرسول، وخديجة، وعائشة. وتساءلت هؤلاء عن المدى الذي يمكن فيه تطويع القيم الإسلامية في مواجهة هذا القدر من التغيير، وقالت غالبيتهن إن

آبائهـن يقدمن لهن النصح فيما يتعلق بالإسـلام، وإن الحجاب يساعد في الحفاظ على هويتهن.

ونظـرا لخيبة الأمل مـن تفاقم السلوك غير الأخلاقي بسبب سـوء استخدام التقانة واستـيراد الثقافة الشعبية الغربية، عملـت الفتيات بطريقة واعية ومقصودة على تنظيم تعرضهـن للتقانة. لكن لائحة النماذج المتنوعة والمتعـددة الجنسيات التي يحتذى مثالها تعكـس مدى انتشار التقانة حتى في الحياة المنضبطة في سورية. وأسفت الفتيات لأن بحر العولمـة سرعان ما يغمرهن ويفقدن قيـم وتقاليد ثقافتهن التي اعتنقها العرب منذ آلاف السنين. وعلى الرغم من انتقادهن لتدفق التقانة والثقافة من الغرب، إلا أنهن وجدن أن مـن الصعب مقاومة العولمة. ولذلك، يبحثن عن بديـل، مشابه لنموذج عليكره، يمكن أن يحافظ على القيم الإسلامية ويوالفها مع أفضل ما في الثقافة الغربية.

تمكنـا أيضـا مـن مقابلة وزيرة المغتربـين بثينة شعبـان، وهي شخصيـة معروفة في الحكومة، تتميز بأناقتها وأسلوبها المؤثر وكلامها البليغ وإشارات يديها المعبرة وضحكتها الساحرة. وحين سألناها عن المرأة في الإسلام، أجابت: "لا أظن أن النساء الغربيات أكثر تحررا وانفتاحا من النساء المسلمات". ولتوضيح فكرتها تذكرت محاضرة لها في الولايات المتحدة، توقفت خلالها في منتصفها وغطت شعرها بحجاب، ثم تابعت المحاضرة: "كنت أحـاول إثبـات أن الحجـاب لا يمثـل أي فـارق. فعقلـي يظـل علـى حالـه. وعلـى أولئك الذيـن يتحدثون باسم الإسلام التمسك بروح القرآن". وهـي أيضا تعد خديجة وعائشة نموذجين يحتذى مثالهما.

خـلال إقامتنا في إسلام أباد، عبرت النساء عن الاعتـزاز ذاته بالإسلام. في إحدى الأمسيـات حضرنا مأدبة غداء كبرى أقيمت في الهـواء الطلق مع كوكبة من نخبة المدينة كضيـوف علـى عائلة أسد ونجاة شـاه، التي تتمتع بمكانة اجتماعية بـارزة. ونظرا لكثرة المدعوين نصبت خيمة لاستيعابهم. وبعد الوجبة الباكستانية الشهية، طلب مني مضيفي التحدث عن عملي ورحلاتي والإجابة عن الأسئلة.

سألـت النسـاء الحاضرات - اللاتي مثلن قرابة نصـف الضيوف البالغ عددهم مئة - عـن دور المرأة في الإسـلام، وبدوْنَ متحـررات ومسايرات للحداثـة. كان نصفهن من

المحجبـات وبعضهن منقبات لا يظهر من وجوههن سوى العينـين. اشتكت إحداهن فيما بعد من أن أحدا لم يتعرفها. وكان من الصعب ذلك لأن الحجاب يغطيها من قمة الرأس إلى أخمص القـدم. فقد درست في كلية جيسوس ومـاري في موري، وهي بلدة تقع شمال إسـلام أباد واشتهـرت بتعليم الإنكليزية للبنات والعيش وفقـا لأسلوب الحياة الغربي مع الاحتفاظ بالهوية الإسلامية والباكستانية.

أثـار اهتمامي طوال النقاش بل صدمني نموذج ديوباند البازغ في عاصمة الأمة التي أسسها محمد علي جناح، التجسيد الحي لنموذج عليكره. وهذا يحدث تحت سمع وبصر الرئيس مشرف، ويكذب جهـوده ومساعيه لتشجيع وترويج "الاعتدال المتنور". في الوقت ذاتـه، أصـرت النساء في السـؤال - أو في إلقـاء محاضرة عليعن دور المـرأة في الإسلام وحرمانها حقوقها في المجتمع.

حـين دعـوت هاديا للتعليق علـى المسألة، فـازت بتأييد النساء لأنهـا ترتدي حجابها وتتماهـى معهن. وحين طلب من ابنتي نفيسـ (التي قدمت مع زينات إلى باكستان لتكونا معي) أن تعطي كلمتها النهائية، قالت: "أرى النساء المسلمات يرتدين الحجاب في الولايات المتحـدة وأشعر بالاعتزاز والفخر لاستعدادهـن للتماهي مع دينهن. في بعض الأحيان قد يكـون ذلك صعبا عليهن. وربما لو امتلكت أنـا الشجاعة لفعلت مثلهن". وأخبرتني بعض النساء فيما بعد أن تعليق ابنتي كان الأفضل في تلك الأمسية.

خـلال مناقشاتنـا طوال الأسبـوع، وجدنا أن أحـد محفزات التغيير عالمـة إسلامية شهيرة تدعى فرحات هاشمي، التي تتحدث عن الإسلام بأسلوب عقلاني ورقيق ومنطقي. أمـا أمينـة أحمد هوتي، التي درست دور الإسلام وتأثـيره في نساء باكستان، فتلاحظ أن أنشطـة هاشمـي تمارس تأثـيرا نافذا في نسـاء القبائل وترسخ روابـط جامعة مع حركة إحيـاء الإسلام الواسعة عبر فروع المنظمة التي أسستها تحت اسم "معهد الهدى الدولي للتعليم الإسلامي للمرأة" في إسلام أباد:

اعتمادا على التمويل الخاص والأهلي، قد تقوم مراكز "الهدى" في المنازل أو المدارس أو المدارسـ الدينيـة.. (منذ مدة قريبة، تحولـت المدرسة الدينية في مـاردان إلى مركز لأنشطـة "الهدى"، حيـث يدرس فيها سيد وسيـدة، وكلاهما طبيب تـدرب في بريطانيا

والولايات المتحدة). وحين سألت عن المذهب الإسلامي الذي تعتنقه "الهدى" جاءني الجواب دوما "الإسلام". وقالت الطالبات إنهن التحقن بالمدرسة لتعلم معاني القرآن والسنة. وحين سألت إحدى الخريجات هل تتبع حركة المرأة في منظمة "الهدى" المذهب الوهابي أم نموذج ديوباند، أجابت: "الهدى تدرس القرآن والسنة ولا تتبع أي مذهب محدد. وتدعو نفسها مدرسة إسلامية وفقا لما كانت الحال خلال عهد النبي صلى الله عليه وسلم". وتتبع مديرة المنظمة قول النبي: "الصحابة كالنجوم فبأيهم اقتدينا اهتدينا". وهي في الحقيقة تجاهد أولئك الذين يدعون الإسلام وهم أبعد ما يكونون عنه.

ترتدي خريجات "الهدى" العباءة السوداء، وهي لباس عربي الأصل لا بشتوني، كعلامة دالة على استكمال سنة من الدراسة. والأهم أن الدكتورة هاشمي تشدد على أن النساء قادرات على تغيير المجتمع، وتلقي دروسها باللغة الأوردية: "نموذج المرأة" في محيطها العائلي والاجتماعي "لا يشابه عود الثقاب بل مضخة للوقود المشتعل - ابنة وشقيقة وزوجة ووالدة، ويمكن أن تنتشر رسالتها كالنار في الهشيم"[26].

حين كان فاروق ليغاري رئيسا لباكستان، رعت زوجته فرحات هاشمي، وهذا ما أضاف إلى شهرتها. وخلافا لرجال الدين التقليديين في باكستان، الذين اعتادوا إطالة لحاهم واستخدام أسلوب الترهيب، تبدو فرحات بديلا جذابا لتعلم الإسلام. ويمكن مقارنة شهرتها في باكستان بشهرة عمرو خالد في العالم العربي. فكلاهما يمثل استجابات إسلامية صحيحة للعولمة، ويراه أتباعه أقرب تجسيد لنموذج عليكره.

عندما كنا في كوالالمبور، سمعت أنا وهيلي صدى آراء هؤلاء الفتيات خلال لقاء مع نساء مهنيات أكبر عمرا، ومنهن محاميات وناشطات اجتماعيات استخدمتهن غالبا المنظمات الأهلية (غير الحكومية) والمسؤولون الحكوميون. وفي حين أن بعضهن محجبات وبعضهن الآخر سافرات، إلا أنهن جميعا من الإسلاميات الملتزمات بالدين. وعندما طلبنا منهن تسمية النماذج التي يحتذى مثالها من الماضي، وضعن النبي على رأس القائمة، ثم خديجة وفاطمة وعائشة. وكن تقليديات من جوانب عديدة، مع أنهن أكثر مشاركة في الحياة العامة والأكاديمية من النساء اللاتي قابلناهن في باكستان. فلباسهن، وآراؤهن فيما يتعلق بالثقافة ودور المرأة في المجتمع والمسائل المتعلقة بالحشمة تتسق جميعا مع

الإسلام. وبرأي هيلي، يبدو أنهن "أكثر توكيدا وثقة بهويتهن الإسلامية وأكثر ارتياحا في دورهن في الحياة العامة. وما يجعل ماليزيا حالة خاصة هو أن.. نساءها، خلافا للنساء في البلدان الأخرى اللاتي يكافحن للعمل والتمسك بالإسلام التقليدي، أكثر قدرة على دمج حياتهن الدينية والمهنية والفوز بقبول واسع النطاق من المجتمع".

في تركيا، التي تشبه ماليزيا من حيث كونها دولة إسلامية عصرية لها اقتصاد حديث، يحظر على المحجبات المشاركة في الحياة العامة. فقد طردت ميرفي كافاسكي من البرلمان لأنها رفضت خلع حجابها خلال الجلسات وهي تعيش الآن في واشنطن. ومع أن النساء في البلدين يقبلن بحماس ونشاط التحديات الجديدة المرتبطة بالحياة المهنية في الدولة الحديثة، إلا أن نساء ماليزيا يشعرن بأنهن قادرات على استمداد القوة من دينهن التقليدي أكثر من النسوة التركيات.

جميع النساء تقريبا اللاتي التقينا بهن في العالم الإسلامي وافقن على أن حياتهن الشخصية تختلف عن حياة أمهاتهن. وشكت إحدى النساء في جاكرتا أن ذهابها إلى العمل صباحا والعودة منه مساء (وهما رحلتان تستغرقان ساعة من الزمن)، ويوم العمل الطويل، لا يتركان لها وقتا لدينها وأسرتها، لكنها تعتقد أن الإسلام ما يزال يوفر خطوطا إرشادية مهمة تهدي النساء وتبين لهن كيف يعشن حياتهن.

اختارت النساء في ماليزيا بالإجماع خديجة وفاطمة وعائشة نماذج يحتذى مثالها، وأشرن إلى تأثير النساء الثلاث في حياتهن، وكان هذا واضحا في أسلوب حياتهن المتوازن. وأكدت امرأة في التاسعة والعشرين أنها اختارت خديجة وعائشة بسبب ما تتمتعان به من "قوة وذكاء وشجاعة". واختارت امرأة تركية في منتصف العمر خديجة وعائشة لأنهما "تجسدان مثالا يعلمنا الإسلام وممارسته في الحياة اليومية وبأفضل طريقة. فقد ساهمت كل منهما مساهمة مهمة في الإسلام".

بدت النساء اللاتي التقينا بهن خلال رحلتنا مستقلات، وواعيات تماما بالعالم الذي وجدن أنفسهن فيه، بل واثقات من أنفسهن. وبعيدات كل البعد عن المرأة المنمطة البائسة والمقهورة التي صورتها وسائل الإعلام الغربية. أكد هذا الانطباع الأعضاء الذكور والإناث في فريقي. بل وجد جوناثان وفرانكي أنهن "جسورات وجريئات" مثلما يؤكد التعليق التالي الذي كتبه جوناثان:

بعض الطالبات اقترين مني بعد محاضرة في إحدى جامعات كوالالمبور.. وحاصرتني جماعة منهن أردن معرفة كل شيء عن أمريكا.. لماذا قطعنا كل هذه المسافة للقائهن، وما هو موضوع بحثنا. تحدثن عن أنفسهن وأردن تفسير وشرح الإسلام لي. كن جريئات بل عدائيات قليلا ورغبن بمعرفة وجهة نظر الأمريكيين بهن والأسباب الكامنة وراء بعض قرارات سياستنا الخارجية. لكنهن كن أيضا مهذبات جدا والتقطن الصور التذكارية في نهاية المطاف. أتذكر أنني قلت في نفسي.. ليست هذه هي الصورة التي قدت عادة في الغرب عن المرأة المسلمة. فقد تمتعن بالذكاء وحب الاطلاع والطلاقة في الحديث. ولم يكن خاضعات ومستكينات أجبرن على خدمة أزواجهن. فهن متعلمات وأمامهن مستقبل يسمح بتحقيق أي حلم راودهن. في ماليزيا العديد من عوامل نموذج عليكره، وهؤلاء النساء يجسدن صورة رائعة للمرأة المسلمة المعاصرة الملتزمة بدينها لكن دون أن تقطع صلاتها بالعالم المعولم.

لاحظت أنا وفرانكيأن النساء في كل بلد زرناه (خصوصا في الأردن) تمتعن بالجرأة والجسارة. فبعد كل لقاء عام جمعنا بهن، كانت تتقدم إلينا جماعة منهن للحديث عن السياسة الخارجية الأمريكية. كن على درجة كبيرة من الوعي والمعرفة والتهذيب والدماثة دوما.. وعلى استعداد لتقديم الحجج المقنعة، حتى لو كانت انتقادا لنا أو لأمريكا.

النساء البارزات اللاتي شغلن، أو يشغلن، مناصب عامة مهمة يمثلن مصدر إلهام لغيرهن. في قطر، رشحت غالبية النساء زوجة أمير قطر الشيخة موزه، قدوة لهن بسبب جهودها الدؤوبة لتحسين مستوى تعليم المرأة وتعزيز الحياة العائلية. فبفضل دعمها ومساعدتها، تمثل الطالبات ثلثي عدد طلاب الجامعات القطرية، وفزن بأغلبية الجوائز الأكاديمية. ورشحت طالبة في السابعة عشرة من العمر في المدينة التعليمية في قطر الشيخة موزه مثلا أعلى لأنها "تعمل على تحسين الأوضاع والحفاظ على التقاليد التراثية، حتى الحجاب. فقد جعلتنا نشعر بالاعتزاز والفخر". واختارتها موظفة في الثالثة والعشرين تعمل في وزارة الخارجية القطرية بسبب "معرفتها العميقة، وتشجيعها الإسلام، وحبها لإرشاد الآخرين لتعم الفائدة على المجتمع". وعلى الرغم من التأثير الوهابي القوي في المجتمع، توسع الشيخة موزه حدود وآفاق مساهمة المرأة في الحياة العامة، وظهرت على

شاشة تلفزيون (CBC) عبر برنامج "60 دقيقة" وسمحت بالتقاط الصور لها. ومع ذلك، ما زالت تعد نموذجا للمرأة في الإسلام.

وفرت بنظير بوتو، أول امرأة تشغل منصب رئاسة الوزراء في باكستان والعالم الإسلامي، رؤى مثيرة تبين خياراتها الشخصية وتعبر عن كيفية اختيار النساء المسلمات للمثل الأعلى. ففي رأيها، كانت نساء النبي مصدرا للإلهام، خصوصا خديجة وعائشة وفاطمة – وهي تضيف لقب السيدة إلى كل منهن تعبيرا عن الاحترام والإجلال. لكنها تشعر بصلة خاصة مع فاطمة بنت النبي المحببة إلى قلبه. أضافت بنظير بلهف وشوق: "واجهت أياما عصيبة. لقد فقدت أنا أيضا والدي ولما أتجاوز الخامسة والعشرين". لكن المأساة ليست السبب الذي جذبها إلى نساء النبي. ذكرت أيضا زينب أخت الحسين، حفيد النبي وشهيد كربلاء. قالت بنظير ملمحة ربما إلى قدرتها على مواجهة حكام باكستان الديكتاتوريين من العسكر: "دخلت (زينب) إلى بلاط يزيد وواجهت الغاصب دون وجل".

كانت بنظير بحاجة إلى القوة. وذكرتني بأنها أول امرأة مسلمة تشغل منصب رئاسة الوزراء في التاريخ، وأن مكان المرأة قبل تعيينها كان البيت أو القبر. وفي الحقيقة، ما زالت مقولة مكان المرأة في البيت أو القبر شائعة ومنتشرة في أرياف باكستان. أما النماذج الأخرى التي يحتذى مثالها في نظرها فليست إسلامية. فهي تحب المرأة القوية المؤثرة التي تتحدى المجتمع: جان دارك (الفرنسية)، واليزابيث الأولى (الإنكليزية) وانديرا غاندي (الهندية).

تجسد بنظير بوتو نموذج عليكره للمرأة. فلأنها تخرجت في كلية رادكليف وجامعة اكسفورد وكلية ماري في موري (بباكستان)، تمكنت من جمع ومؤالفة الأفكار الغربية عن الديمقراطية وحقوق المرأة وحقوق الأقليات مع مثلها الإسلامية والهوية الوطنية. ولذلك فإن نماذجها التي يحتذى مثالها يجب أن تجسد قيما تتجاوز قيم الغرب، أي مُثل مجتمعها ودينها، التي تشترك فيها النساء في شتى أرجاء العالم الإسلامي. المثل الأعلى في رأي بنظير بوتو هو "الإنسان المثالي"، محمد نبي الإسلام وهي تضيف – غريزيا – عبارة "صلى الله عليه وسلم" كلما نطقت باسمه. المسلمون في جنوب آسيا يعدون – على

شاكلة بوتو - محمدا "حبيب الله"، إضافة إلى أنه "رحمة للعالمين" كما ورد في القرآن. وهو يستحضر في عقولهم وصدورهم مشاعر جياشة من الحب والتوقير والإجلال.



يبدو في الصورة أكبر أحمد وهيلي ولدت، مع أحد مسؤولي السفارة الباكستانية، وبنظير بوتو، أول رئيسة وزراء في العالم الإسلامي، يحضرون المنتدى العالمي الأمريكي الإسلامي لتشجيع الفهم المتبادل بين الإسلام والغرب. المناسبة كانت برعاية معهد بروكينغز والحكومة القطرية.

بعد عدة شهور من العودة إلى الولايات المتحدة، تلقيت الرسالة التالية بالبريد الإلكتروني من شخص لا أعرفه. المرسل كان طالبة تكتب من كردستان في الجزء الغربي من إيران. وأكدت فيها كل شيء شاهدته في الرحلة الميدانية: تأثير العولمة في المجتمع الإسلامي، حتى في الأماكن النائية، والرغبة في التغيير والتعليم، خصوصا بين النساء.

التاريخ: 13/9/2006

الساعة: 3:45 بعد الظهر

الموضوع: إلى الأستاذ العزيز أكبر أحمد/ من طالبة كردية تدرس علم الاجتماع/ رسالة مستعجلة.

عزيزي البروفسور أكبر أحمد، مرحبا

آمل أن تكون بخير، وأرجو أن تقبل أحر التحيات، اسمي نيغار أحمدي، وأنا طالبة أحضر للحصول على شهادة الماجستير في علم الاجتماع من جامعة كردستان في مدينة سانانداج،

بايـران. أود أن أطلـب مساعدتك، وسأكون شاكرة ومدينة لـك إن ساعدتني في أطروحتي، وأنا مهتمـة كثيرا وبحاجـة ماسة لأعمالك القيمة فيما يتعلق بما بعـد الحداثة والإسلام، والإسلام، والعولمة؛

كتابـك هـذا مفضل عندي وأطمـح إلى الحصول عليـه. وسيكون لطفا منـك أن تبعث إلي بنسخـة منـه، حتى لو كانت قديمة وممزقة. هل تساعدني إن أمكـن؟ لن أنسى ما حييت لطفك ومعونتـك العظيمة. فـإن تكرمت ووافقت علـى مساعدتي سوف أرسل عنـواني. الشكر الجزيل لك.

مع التحيات

الطالبة المخلصة، نيغار

وكما شرح هذا الفصل ووضح، يجسد الإسلام نموذجا يحتذى مثاله في المجتمع، لكن العادات والتقاليد القبلية تتحدى هذا المثال، وتواجهه وتتداخل معه أحيانا. ولذلك، هنالك توتـر متواصـل في العقل الإسلامي بين المفهـوم المصوغ حسب الأسلـوب الشائع للمجتمع المثـالي وحقائق ووقائع العادات القاسية التي لا تعـرف الرحمة والتقاليد المحلية الضيقة الأفـق. أما السـؤال القابع في صميم الصـراع لتعريف وتحديد المجتمـع الإسلامي الذي يثـير اهتمام المصلحـين الإسلاميين فهو كيفية مواءمة المثـال والواقع. فقد جرى تجاهل أو إسـاءة فهم هذه النقطة في خضم الصراع الأكبر بين الحضارتين الغربية والإسلامية الذي يخيم بظلاله اليوم على كل ما عداه.



-4-

من يعرف الإسلام بعد الحادي عشر من سبتمبر ولماذا؟

بعد بضعة أيام من عودتنا من بالي في منتصف شهر نيسان / أبريل 2006، وفي أعقاب رحلة طويلة ومشوشة ومربكة عبر المحيط الهادي والولايات المتحدة قبل الوصول إلى واشنطن، سافرت في رحلة أخرى. فقد دعاني مجلس الشؤون الدولية في فيلادلفيا إلى حضور مؤتمر دولي كبير عن الإسلام والغرب - وشمل المتحدثون عينة من نخبة الشخصيات الأمريكية الرفيعة والنافذة: ديك تشيني، هنري كيسنجر، برنارد لويس، جو بيدن (الابن)، فرانسيس فوكوياما - إضافة إلى الاحتفال بالذكرى التسعين لمولد أستاذ التاريخ الشهير في جامعة برينستون برنارد لويس[1]. وبسبب مكانة وأهمية المشاركين، شددت الإجراءات الأمنية في الفندق الذي عقد فيه المؤتمر فضلا على الحي المجاور في فيلادلفيا حيث طوقه رجال الأمن المجهزون بالبنادق والكلاب البوليسية، في حين أحاطت سيارات الشرطة بالمكان، وهذا ما أوجد جوا بالغ التوتر لا يرتبط عادة مع المؤتمرات العلمية. والأمر غير الاعتيادي الآخر قلة عدد المتحدثين من المسلمين (ايان هيرسي علي التي كانت حاضرة أعلنت منذ زمن طويل ردتها).

بدا واضحا من النقاط المفتاحية في حديث تشيني ومن ملاحظات كيسنجر أن تفكير كل منهما بالعالم الإسلامي على مر السنين - ومن ثم تفكير إدارة بوش - قد تأثر تأثرا عميقا ببرنارد لويس. وحين سئل كيسنجر عن أهم خطوة مفردة سوف يتخذها لتحسين العلاقات بالعالم الإسلامي، أجاب: "سأذهب أولا إلى برنارد لويس"، ثم ركز على إيران. فتوجيه ضربة نووية إلى إيران أمر محتم كما يعتقد، وعلى الغرب محاولة منعها من تطوير أسلحة نووية والتحول إلى تهديد عالمي. وإذا كان استخدام الأسلحة النووية ضد إيران أمرا حتميا، و"علينا أن نفعل ذلك في وقت ما"، كما أضاف، فلم لا نوقف إيران عند حدها الآن؟ ولأن أعدادا كبيرة من الناس سوف يقتلون والعواقب ستستمر سنوات

طويلــة، يجب اتخاذ القــرار بترو وحرص وحــذر. لكن كيسنجر كان واثقــا من أن القوى الدوليــة سوف تتحرك بسرعة وتضمن عودة الأمور إلى طبيعتها. ومثلما هو معروف على نطاق واسع، ما تزال آراء كيسنجر تمارس بعض التأثير على البيت الأبيض[2].

تحدثــت بعد كيسنجر، وطالبــت الولايات المتحدة بالتعلم مــن التاريخ القريب وعدم تكــرار أخطائهــا، مشيرا إلى الفوضى التــي تتفاقم الآن في العــراق وأفغانستان. فنتيجة تدخــل الولايــات المتحــدة في هذين البلديــن أبعد ما تكون عــن الوضوح. فمــا بالك إذن بإيــران، وهي بلــد أكبر من العــراق وأفغانستان وأقــل فقرا، ويمتد مجــال نفوذها كأمة شيعيــة بارزة امتدادا كبيرا؟ من المهم إدراك أن الهجوم على إيران سوف يطلق ردة فعل إسلاميــة جماعية: ولــن ينحصر الغضب العارم في رد الشيعــة المنتشرين في شتى أنحاء العــالم فقط، بغض النظر عن رأيهم بمحمد أحمدي نجاد، بل سيمتد ليشمل العديد من المسلمــين غيرهم. وســوف تتعرض الأنظمة العربيــة الممالئة للغــرب لضغط كبير بحيث يهــدد وجودها. وما يثير القدر نفسه من القلق أن السكان الشيعة في باكستان - وعددهم يقدر بثلاثين مليونا - سوف يحتجون مطالبين باستخدام ترسانة باكستان النووية لدعم الجــارة المسلمة التــي يؤيدونها ويقدرونها ويقفون معها حين تشــن عليها الحرب. وأكدت أن الوقــت قــد أزف لتذكر أن الولايــات المتحدة تدافع عن قيم وممارســة حقوق الإنسان والحريــات المدنية والديمقراطيــة الحقيقية ويجب ألا تتخلى عن هــذه القيم وإن تلطخت بالفضائــح في أبو غريــب وغوانتانامو. وحــذرت الأمريكيين من أن الولايــات المتحدة إذا تابعت هذا المسار، فإنهم لن يجدوا الكثير من الأصدقاء أو الحلفاء في العالم.

وللعــودة إلى سؤالي السابق عن كيفية تحســين العلاقات بالعالم الإسلامي، اعتمدت علــى تجاربي الأخــيرة هناك، ملاحظــا أن الشابات والشبان الأمريكيــين الذين سافروا معــي جســدوا مثالا مهما لكيفية بناء الجسور عبر كسب قلــوب وعقول المسلمين، بدلا من إثــارة مقاومتهم وتحريض معارضتهم. لكــن مثل هذه الاستراتيجية لا يمكن أن تنجح إلا إذا توقف الأمريكيون عن النظر إلى العالم الإسلامي بوصفه كتلة صلدة واحدة، واتخذوا خطــوات باتجــاه بناء الجسور وإجــراء الحوار. وأشــرت إلى أن العــالم الإسلامي متخم بالغضــب والمشاعر المعاديــة لأمريكا، والعراق مثــال صارخ على فشــل أمريكا الذريع في

ترويـج قيمها المتعلقة بحقوق الإنسـان والديمقراطية. وبرأيي، تحتاج السياسة الأمريكية إلى التركيـز بجديـة أكبر على كسب القلـوب والعقول واستثمار طاقـة وموارد جديدة في العـالم الإسلامي. وهـي بحاجة إلى بعث تلك الأفـكار التي جعلت الولايـات المتحدة أمة عظيمة في المقام الأول، وإعادة اكتشافها لنفسها ولباقي العالم أيضا.

مـع أن كلماتـي أحدثـت في البداية رعدة في القاعـة خصوصا فكـرة أن مسلما من بين جميـع النـاس يقدم مثل هذه النصيحة الصادقة والمنطقيـة، إلا أن الجو بدأ يتحسن مع رد الحاضرين على ما قلته. بدا كيسنجر متيقظا ومتحفزا حين تحدثت ولم يبعد عينيه الثاقبتين عني. كان الحاضرون من الشخصيات العارفة والذكية لكنهم بحاجة إلى النظر إلى الجانب الآخر من الصورة. وبالتدريج بدؤوا يتلقون رسالتي، بل وافق العديد منهم عليها.

برأيـي، أظهر المؤتمر الذي امتد يوما واحدا الحدود والقيود والمعضلات والتناقضات في محاولـة تحديد وتعريـف الإسلام في الولايات المتحدة. من الحـدود المقيدة الخطرة، كمـا ذكـرت آنفا، أن لاعبين سياسيين مهمين، مثل تشينـي وكيسنجر، اعترفا بحقيقة أن السياسـة الأمريكيـة تجاه الإسلام تأثـرت طوال السنوات الثلاثـين الأخيرة بأفكار رجل واحـد، هو برنارد لويس. فضـلا على ذلك، لم تبذل المنتديات السياسية التي ركزت فعلا علـى العالم الإسلامي أي جهد يذكـر لأخذ المنظور الإسلامي بعـين الاعتبار أو الاعتماد علـى الأعمال الميدانية المهمة لعلماء الاجتماع للتوصـل إلى تقويماتهم. ونتيجة لذلك، لم يكتف الأمريكيـون بقراءة العالم الإسلامي قراءة خاطئة فقط، بل عجزوا عن التخطيط للأحداث التي تتكشف بسرعة كبيرة فيه. في هذا المؤتمر أيضا لم تظهر على السطح كلمات مثـل "حوار" أو "فهـم"، أو "تعاطف" أو "تراحم". أما الأشد إربـاكا فهو أن المتحدثين، رغـم تميزهم وشهرتهم، فشلـوا في فتح عيونهم لرؤية النتائـج المنطقية المستخلصة من حججهـم: الولايات المتحـدة تدفع العالم نحـو الكارثة المدمرة مباشـرة. هذا الاحتمال، المرعب لكل مهتم بالسلام، أوجد شعورا بالتشاؤم سيطر على المناقشات.

أدركـت أن مجـال تحديد وتعريـف الإسلام أصبـح واحدا من أكثر المجـالات أهمية وإثـارة للنزاع والخلاف في الحيـاة العامة. فتعريفه بطريقة معينـة، لها مضامين سلبية مثـلا، سـوف يثير استياء عامـة الناس ويولد ردة فعـل سلبية تجاه الديـن. ومن ثم، إذا

استعملت كلمة "فاشية" - المذمومة عموما لارتباطها مع هتلر والنازية - بالمدلول ذاته لكلمة إسلام، فإن الناس العاديين في الغرب سوف يُجهَّزون لاعتبار الإسلام تهديدا داهما لأسلوبهم في الحياة، ويقبلون فكرة المعركة النهائية الحاسمة، مهما تطلبت من وقت، لاستئصال الشر وإبادة الأشرار.

نحتت مثل هذه التعابير في الحقيقة لوصف الإرهابيين المسلمين - وآخرها "الفاشست المسلمون" وهي تلهب غضب المسلمين لأنها بالضبط تلطخ سمعة الدين برمته. ومثلما أشار الزعماء المسلمون، لم ينسب أحد أعمال الإرهاب التي ارتكبها المسيحيون واليهود لـ"للفاشست المسيحيـ " أو "الفاشست اليهود". وعلى الرغم من احتجاجات المسلمين، استخدمت الكلمة على نطاق واسع، واستعملها حتى الرئيس بوش. لم يعد تعريف الإسلام مسألة صراع مع قضايا تهم الخاصة من العلماء كتلك المتعلقة بطبيعة الله والآخرة، بل مسألة مسيسة على نحو يثير القلق وبطريقة تلقي ظلالها على أتباع الدين في شتى أنحاء العالم. ويمكن أن تتأثر المهنة السياسية والمسعى الفكري والمصداقية الإيديولوجية - لا للمسلمين وحسب - بأسلوب تعريف الإسلام. ومن الواضح أن من الجوهري تعريف وتحديد وتصنيف ديانة المسلمين بصورة دقيقة. وما يعادل ذلك في الأهمية تحديد أولئك الذين يعرفون ويحددون الإسلام، خصوصا الذين يقودون الحرب العالمية على الإرهاب بعد الحادي عشر من سبتمبر.

فرسان الظلام المنذرون بالعولمة

اهتم بعض الأمريكيين بالصلات الوثيقة بين المؤسسة العسكرية والشركات والسياسيين ووسائل الإعلام في أمريكا، المعروفة باسم المجمع العسكري – الصناعي، والفوائد المتبادلة بينها[3]. وهم يخشون من أن الولايات المتحدة ربما تدفع العالم باتجاه حرب لا نهاية لها من أجل مصلحة نخبة قليلة. وبعد الحادي عشر من سبتمبر لم يصلوا تماما بين النقاط في حججهم أو اقتفاء أثرها حتى الإسلام. ولسوف أحاول فعل ذلك في هذا الفصل.

منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، عملت هذه الشبكة مثل آلة "مزيّتة" بطريقة جيدة، حيث توسع تأثيرها ونفوذها وقوتها بسرعة. في الحرب الراهنة في العراق، تبدو

الصـلات جليـة لا لبس فيها: كان ديك تشيني رئيسا لشركـة "هاليبرتون اويل"، وزوجته عضوا في مجلس إدارة "لوكهيد مارتن"، أكبر شركة منتجة للمعدات والأسلحة للمؤسسة العسكريـة. في حـين ترأس دونالد رمسفيلد وبـول ولفوويتز علـى وزارة الدفاع، وكان كل منهمـا شريكا تجاريـا قديما ومستشارا وزميـلا لديك تشيني. كسبـت هاليبرتون فوائد مباشـرة من غزو العراق، وأنتجت لوكهيـد مارتن التي لا تستطيع البقاء دون عقود وزارة الدفـاع، جميع الأسلحة المتطورة التي يستخدمها الجيشـ الأمريكي تقريبا، ومنها حرب النجوم أو منظومة الصواريخ الدفاعية المصممة لشن الحرب من الفضاء. وردت الشركة الجميل بأحسن منه حين تبرعت بسخاء للحملات الانتخابية للسياسيين المفضلين لديها، مثـل ديك تشيني. وبعد الحـرب على العراق، سارعت هاليبرتون إلى إعادة إعمار العراق بأسعـار مرتفعة على دافع الضرائب الأمريكي عبر عقود فازت بها دون مناقصات. الكل ربـح في الشبكـة. لكن يتعذر على الآلـة العمل بفاعلية إلا في وجود عـدو مقنع. ومن ثم لا تصبح الحرب العالمية ضرورية فقط، بل علة وجود المشروع برمته.

حتى خلال حرب الخليج الأولى في عهد إدارة بوش الأب، أدت الصلات بين الشركات الكـبرى والمناصـب الحكومية الرفيعـة إلى منافع متبادلة. ففي ذلـك الوقت، نشط وزير الدفـاع ديك تشيني في ربط الشركات الكبرى مع أصحاب المناصب الإدارية العليا، مثلما يشير تشارلي بارتليت أحد المطلعين على ما يجري في واشنطن:

سياسـة تفويض المهمـات العسكرية إلى جهـات أخرى بدأها ديـك تشيني حين كان وزيـرا للدفاع عـام 1990. فقد منح شركة هاليبرتون (التـي رأسها لاحقا) عقدا بقيمة مليـوني دولار لدراسة تستقصـي جدوى هذه السياسة. وبعـد أن استنتجت الدراسة أنها فكـرة جيدة، أعطى تشينـي الشركة عقدا دون مناقصة، لتولي عـدد من الخدمات التي كانـت تؤديها المؤسسة العسكرية في الماضي. الرأي العام بحاجة إلى أن يعرف الكثير عن أداء هاليبرتون في العقود التي منحت لها منذ أن أصبح تشيني نائبا للرئيس. نحن بحاجة إلى معرفة المزيد عن عمل الكثير من المقاولين في العراق[4].

ظـل الاتحـاد السوفييتي العـدو المقنع طوال معظـم القرن العشريـن في نظر غالبية الأمريكيـين، فهـو "إمبراطوريـة الشـر" علـى حـد تعبـير رونالـد ريغـان. واستخدمت

الحكومة الأمريكية، مدعومة بتأييد الأمريكيين عن طيب خاطر، جميع الموارد والطاقات لمنع إمبراطورية الشر من غزو واستعباد الولايات المتحدة. ومع انحطاط وانهيار الاتحاد السوفييتي في أواخر الثمانينيات، فقدت البنى الإيديولوجية والمادية الأمريكية الضخمة والمسؤولة عن دماره، فقدت توازنها. ولذلك وجب تحديد عدو عالمي جديد.

في أعقاب الانهيار السوفييتي، لم تتحول المجتمعات في العالم إلى ديمقراطيات ليبرالية تركز على حقوق الإنسان والحريات المدنية كما أمل بعض المراقبين في الغرب. فكثيرا ما كانت مقاومة هذه القيم الغربية عنيفة وضارية، لا في البلدان الإسلامية فقط بل في شتى أنحاء العالم أيضا. وتبدت معارضة هذه القيم في الصين، التي اتهمها بعض الغربيين بقمع الحريات، وفي "الدول المارقة" مثل كوبا وكوريا الشمالية وسورية وإيران. أما أعنف مقاومة قبل الحادي عشر من سبتمبر فقد أتت من أسامة بن لان، حين هاجم السفارتين الأمريكيتين في إفريقيا عام 1998، والمدمرة "كول" عام 2000، في حين تباهت "القاعدة" منذرة بوقوع مزيد من الهجمات، حتى على التراب الأمريكي. وهنا، ظهر سبب جديد للعداء. فـ"الشر" ما زال متربصا في أركان العالم المظلمة.

قدم المحاربون الذين خاضوا الحرب الباردة وهزموا للتو الاتحاد السوفييتي الحجة على أن هذا التهديد حقيقي وداهم، وأن الولايات المتحدة بحاجة إلى الحفاظ على تفوق قواها العسكرية في سبيل الدفاع عن نفسها وعن زعامتها العالمية. أما أقوى الدعوات إلى ذلك فأتت من مجموعة من المفكرين الذين أطلق عليهم اسم "المحافظين الجدد" وبرزوا خلال ولاية ريغان، لكن همشوا في ولايتي بوش الأب وكلينتون. وعلى وجه العموم، يعتقد "المحافظون الجدد" أن على الولايات المتحدة عدم الخشية من استخدام قوتها التي لا تضاهى لترويج قيمها في العالم. وأيد بعضهم علنا إقامة إمبراطورية أمريكية. ويؤمن المحافظون الجدد أن التهديدات التي تواجه الولايات المتحدة لم يعد بالإمكان احتواؤها بطريقة موثوقة يعتمد عليها، ولذلك يجب منعها، عبر العمل العسكري الاستباقي في بعض الأحيان[5].

وفي سبيل إقناع الأمريكيين بمزاعمهم، أقام المحافظون الجدد مؤسسات استشارية وفرت الدليل على التهديدات – خصوصا من عراق صدام حسين – وروجوا لإيديولوجيتهم

عـن طريق الكتب والمقـالات وظهورهم في وسائل الإعلام. شارك كبار المسؤولين في إدارة بوش الحالية - بول ولفوويتـز، وكوندوليزا رايـس، وريتشارد بـيرل، ودونالد رمسفيلد، وجـون بولتون، وديك تشيني - في هذه المؤسسات الاستشارية بطريقة أو بأخرى. من هذه المؤسسـات والمعاهد، "مشـروع القرن الأمريكي الجديد" الـذي أسسه تشيني ورمسفيلد وولفوويتـز عام 1997، وقـدم الحجة في وثيقة تتبئ بالآتي بعنـوان "إعادة بناء دفاعات أمريكا" (2000)، على أن الولايات المتحدة بحاجة إلى "التحرك بجرأة وجسارة بدرجة أكـ " نحو تحقيق أهداف المحافظـين الجدد، لكن العملية ستكـون طويلة، "دون اعتبار بعضـ الأحداث الكارثية والمحفزة" مثل "بـيرل هاربر جديدة". تشير هذه الكلمات، كما يعتقـد منتقدو الوثيقـة، إلى أن المآسي والكوارث ستكون محـل ترحيب لأنها تعطي زخما جديـدا لنظـرة المحافظين الجدد إلى العـالم وبنياتها الداعمـة. وفي الحقيقة، بدا وكأن الحادي عشر من سبتمبر قد جسد مثل هذا الحدث المأساوي المطلوب.

في نظـر العديد من المحافظين الجـدد، ومنهم المتخصصـ في الاقتصاد السياسي، فرانسيس فوكوياما، تعد الديمقراطية الليبراليـة الأمريكية المرحلة النهائية في الارتقاء السياسـي البشري، الذي تمظهـر تفوقه في هزيمة الاتحاد السوفييتـي. فهذه كما يعتقد "نهايـة التاريخ"[6]. ويعتقد العديد من المحافظين الجـدد أيضا أن لدى كل إنسان رغبة في العيشـ في مجتمـع حر، ولو منح المضطهدون الذين يعيشـون في ظل أنظمة ديكتاتورية الفرصـة للتخلصـ من مضطهديهـم وتأسيس نظـام ديمقراطي، لما تأخـروا أو ترددوا. وبـرأي العديـد من المحافظين الجدد فـإن الديمقراطية هي "الحالـة الافتراضية" التي ستعتنقهـا المجتمعـات كلها في نهاية المطـاف. وقدم سقوط جدار برلـين وانهيار الاتحاد السوفييتـي باستمـرار كمثال لهذه الحقيقـة الواقعية والموضوعية المدركـة. فكرة التقدم هـذه بوصفها النهاية المرغوبـة للمجتمعات المتطورة على مر السنـين تعد جزءا لا يتجزأ مـن الفكر الفلسفي الغربـي ويمكن عموما رؤيتها في أعمال مفكريـن أوروبيين من أمثال هيغـل وداروين وماركسـ. وتجد التعبـير عنها أيضـا في "مهمة التحضـ " التي تولتها الإمبراطورية البريطانية[7].

حـين نظـر الأمريكيـون إلى عالم ما بعـد الحرب البـاردة في التسعينيـات وشاهدوا الشموليـة الاستبداديـة "الشريرة" تهزم مـرة أخرى، تبادلوا التهـاني والتبريكات. لقد

انتصـــرت قـوى الحرية والديمقراطيــة الأمريكية وســادت العالم كلــه، باستثناء "الدول المارقة"، التي يجب إجبارها في النهاية على فتح مجتمعاتها والانضمام إلى النظام العالمي الخاضــع للهيمنة الغربيــة. أما المؤسسات الواقعة تحت السيطرة الغربية والأمريكية، مثل منظمــة التجارة العالميــة وصندوق النقد الدولي والبنك الــدولي، فقد انتشرت في معظم أرجاء العالم، وطالبــت بلدانه بفتح أسواقها وتشجيع التجارة الحرة، وهذا سيؤدي أيضا إلى الديمقراطية. وفي الحقيقة فإن القوة التي أشار إليها فوكوياما بوصفها حركة باتجاه "نهايــة التاريــخ" هي العولمة دون شك. وسوف تتزيا أطروحة فوكوياما بلبوس جيد في كتابي توماس فريدمان "سيارة الليكزس وشجرة الزيتون" و"العالم مسطح"[8].

عندما ألح المحافظون الجدد على توكيد حجتهم لمصلحة تفوق وسيادة الديمقراطية والتحضير لغــزو العراق، عملوا بتأييد من الشخصيات السياسية والمفكرين والصحفيين من ذوي الآراء المشابهة، على مساواة المتطرفين الإسلاميين بالتهديد الذي مثله النازيون في أربعينيــات القــرن العشرين. فبرأيهم، كانــت الحرب العالمية الثانيــة مبررة أخلاقيا وأدت إلى انتصــار شامــل على قوى الشر. قال ولفوويتز، الــذي يرأس الآن البنك الدولي إن "الشــيء الــذي لم يتغير لسوء الحظ هو أن الشر مــا زال موجودا في العالم، على شكل توتاليتاريــة فاشيــة لا تختلف جوهريا عن تلــك التي ظهرت في القــرن الماضي - وليست أكثر ورعا (من النازيين والشيوعيين)"[9]. وجرت مقارنة القرآن بكتاب "كفاحي" لهتلر (وأشهــر من قام بذلك بيــل اوريلي في برنامجه التلفزيوني). حتــى الاقتراحات المعتدلة والخجولة بإجراء حوار مع المسلمين رفضت واستبعدت بوصفها وسيلة لـ"التهدئة"، تشابه ما فعله تشامبرلين رئيس وزراء بريطانيا السابق مع هتلر. وصور قادة المسلمين - ومنهم أسامة بن لادن وصدام حسين ومحمود أحمدي نجاد - بوصفهم تجسيدات تقمصت روح هتلر. ثم بدأ المحافظون الجدد في إبهام الفارق المميز بين المتطرفين الإسلاميين والدين الإسلامي عبر استخدام تعابير مثل "الفاشية الإسلامية".

بــرأي بيل كريستول، رئيــس "مشروع القرن الأمريكي الجديــد" وأحد أبرز المعبرين عــن تفكير المحافظــين الجدد، انبعث التهديــد الإسلامي الفاشي من إيــران، حيث أطل برأسه أول مرة عام 1979 وبقي خطرا داهما منذ ذلك الحين. مجلة "ويكلي ستاندارد"

التــي يرأس تحريرها، نشــرت مقالة ناقش فيها أمثلة تاريخية أخــرى على إيديولوجيات توتاليتارية شريرة سيطرت على الحكم في بلد وسعت إلى تصديرها: "أصبحت الشيوعية خطرة فعلا حين استولت على روسيا. وغدت الاشتراكية القومية خطرة حقا حين استولت على ألمانيا. وتحولت الإسلاموية إلى خطر داهم حين استولت على إيران - التي أصبحت منذ ذلك الوقت جمهورية إيران الإسلامية"[10]. في المقالة نفسها، اقترح أن تنتهز إدارة بوش فرصة هجوم إسرائيل على حزب الله في صيف عام 2006 لقصف إيران.

قــدم المحافظون الجدد الحجة علــى أن عواقب وتبعات الهزيمة على أيدي الفاشست الإسلاميــين ستكــون كارثيــة على الغرب لأنهــم لن يكتفــوا بالسعي إلى فرض الشريعة الإسلاميــة وإقامــة الخلافة فقــط، بل ربما يريــدون تدمير وإفناء المجتمــع المتحضر في الغــرب. أما ريتشارد بــيرل، أحد المحافظين الجدد البارزيــن والنافذين، فقد شارك في تأليــف كتيب عنوانــه الجانبي "كيف نربح الحرب على الإرهاب"، قدم له كما يلي: "فيما يتعلق بنا، يبقى الإرهاب أخطر الشرور في عصرنا، والحرب على هذا الشر أعظم قضية لأفراد جيلنا.. لا يوجد سبيل وسط للأمريكيين: أما النصر أو المحرقة"[11].

المعنــى الضمنــي لتشبيــه الإســلام بالنازية أقنــع الأمريكيين بأن تجربــة سنوات ما بعــد الحادي عشــر من سبتمبر تشابه حقبة الحرب الباردة التــي أعقبت الحرب العالمية الثانيــة. ولذلك، من المنتظــر أن يقدم الأمريكيون العاديون التضحيــات للسماح للإدارة بحمايــة أسلوبهم الحياتــي وحريتهم. أما نجاح هذه الحجة فيفســر ردة الفعل الصامتة على حالات التعذيب التي تعرض لها المسلمون بعيد الحادي عشر من سبتمبر بقليل وتبني "قانــون الوطنيــة"، الــذي يعتقد المسلمون أنــه يستهدفهم. وفي مواجهــة تهديد أمثال هتلــر، اعتقد الأمريكيون أن على الرئيــس فعل ما هو ضروري لحماية المواطنين. الرئيس بوشــ رجل أفعال (لا نظريات) وبحاجــة إلى إيديولوجية، في حين كان المحافظون الجدد مفكريــن ومنظريــن يبحثون عن زعيم يترجــم أفكارهم إلى سياســة. فعثر كل طرف في الآخر على ضالته المنشودة.

تختلــف حرب هذه الأيام على الإرهاب اختلافا بينا عن الحرب الباردة، على الرغم من حجج المحافظين الجدد، لكنها ترى للأسف من المنظور نفسه. في عام 1947، مثلما

حدث في عام 2001، كان على صناع السياسة الأمريكية التصدي لتهديدات جديدة تدهم الولايات المتحدة ورسم مسار جديد للسياسة الخارجية. ومع أن صناع السياسة أدركوا أن الشيوعية ستكون التهديد التالي الذي يواجه أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية، ووجب عليهم تقرير كيفية مجابهته، إلا أن هذا الرأي كان محل خلاف وناقشت وزارة الخارجية السبل التي يجب اتباعها، ملاحظة أن الشيوعية كانت تستغل ظروف الفقر واليأس الموجودة قبلا في أوروبا. وتمثل هدف الحكومة الأمريكية في "عدم الاكتفاء بمحاربة الشيوعية فقط، بل تصحيح الوضع الاقتصادي الذي يجعل المجتمع الأوروبي عرضة للاستغلال من أي حركة توتاليتارية"[12]. كان ذلك جزءا من تبرير "مشروع مارشال"، لكن سياسة معالجة جذور الأسباب الداعية للشيوعية لم تدم طويلا.

في نيسان/ أبريل 1950، قدم بول نيتز، مدير تخطيط السياسة في وزارة الخارجية، وثيقة جديدة إلى الرئيس هاري ترومان (وثيقة مجلس الأمن القومي رقم 68)، وكانت على قدر من التأثير والنفوذ بحيث ظلت تحكم السياسة الخارجية وذهنية المجتمع الأمريكي حتى سقوط الاتحاد السوفييتي بعد أربعة عقود من الزمن. في هذا التقويم للتهديد السوفييتي، لم تعد الفلسفة السابقة القائمة على تطوير وتنمية بلدان العالم لوقف انتشار الشيوعية على جدول الأعمال. وبدلا من ذلك، أصبح السوفييت معتدين، وحذرت الوثيقة من مخططهم لفرض إيديولوجية شريرة على باقي العالم، وتلك مهمة قائمة على الترهيب والتخويف بسبب قوة ترسانة أسلحتهم الذرية. التهديد غدا الآن موجها لحرية أمريكا، جوهر أسلوب الحياة الأمريكية:

خلافا للطامحين السابقين إلى الهيمنة، أنعش الاتحاد السوفييتي دينٌ متعصب جديد، مناقض لمبادئنا، ويسعى لفرض سلطته المطلقة على بقية العالم.. ومع التطوير المطرد لأسلحة دمار شامل مروعة، فإن كل فرد يواجه الاحتمال القائم دوما بالفناء والدمار إذا دخل الصراع مرحلة الحرب الشاملة.. القضايا التي تواجهنا بالغة الخطورة، لا تشمل تدمير هذه الجمهورية فقط بل الحضارة ذاتها[13].

على الأمريكيين أن يحشدوا قواهم إلى أبعد حد لهزيمة هذا "الدين المتعصب"، الذي مثل التوتاليتارية، والاستعباد، والإلحاد - أي نقيض القيم الأمريكية القائمة على الحرية والتحرر والإيمان بالله[14].

وجب على صناع السياسة الأمريكيين اختيار بديل مشابه بعد الحادي عشر من سبتمبر. فهل كان عليهم فعل ما اقترحته وزارة الخارجية عام 1947 بمعالجة جذور الأسباب الداعية للإرهاب، والسعي لتحقيق السلام في الشرق الأوسط، وإطلاق "مشروع مارشال" جديد للعالم الإسلامي؟ لو فعلوا ذلك لساعدوا - على سبيل المثال - في إصلاح حال المدارس الدينية، المهتمة بإنتاج الشباب المسلمين المتعصبين المستعدين للموت في الحرب الجهادية. إضافة إلى تغيير المناهج وتحسين برامج تدريب المدرسين لتغيير ذهنية أجيال المستقبل، وترويج الديمقراطية الحقيقية، ومن ثم تخفيف التوترات الضاغطة في البلدان الإسلامية حيث يشعر الناس بأنهم محاصرون في إسار أنظمة حكم غير منتخبة وفاسدة وعاجزة في العادة.

بدلا من ذلك كله، اختارت الولايات المتحدة العودة إلى ذهنية الحرب الباردة ومقاومة التوتاليتارية. فسياسة الولايات المتحدة التي وضعها "مبدأ بوش" تشدد على أن "استراتيجية الأمن القومي للولايات المتحدة الأمريكية" في الحرب على الإرهاب العالمي قائمة على القتال في سبيل القيم الديمقراطية وأسلوب الحياة الأساسي. فالحرية والإرهاب في حرب ضروس، ويجب أن يكون الإنفاق الحربي بلا حدود أو قيود لهزيمته[15]. فأعداؤنا، كما قال ولفوويتز، قوم "يعبدون الموت لا الحياة.. يعبدون الشيطانكما أرىلا الرحمن.. وهم أشرار يجب مجابهتهم"[16]. وحين دعا الرئيس بوش وإدارته خبراء مختصين بالإسلام لتقديم رؤية لأفضل استراتيجية لمقاربة العالم الإسلامي، اعتمدا على أشخاص مثل برنارد لويس، الذي يعتبره دارسو وعلماء الإسلام نموذجا مجسدا لـ"للمستشرق" لأنه، على شاكلة المستشرقين الآخرين، ينزع إلى تطبيق القوالب النمطية السلبية والعتيقة التي تجاوزها الزمن للمسلمين، ومن ثم يسيء تفسير العالم الإسلامي[17]. ولذلك اشتبه المسلمون بل اعتقدوا وصرحوا بوجود روابط تجمع برنارد لويس - وغيره من المستشرقين بواسطته - والسياسة الخارجية الأمريكية[18].

ينسب إلى برنارد لويس - مثلا - مفهوم "صدام الحضارات"، الذي استعاره منه صمويل هنتنغتون المتخصص في العلوم السياسية ومؤلف الكتاب الشهير عالميا "صراع الحضارات". علق أحد المراقبين بالقول: "مقدمة لويس الأساسية التي عرضها في سلسلة

من المقالات والأحاديث والكتب الرائجة، هي أن الغرب - أو ما كان يسمى بالعالم المسيحي - هـو الآن في المراحـل الأخيرة من قرون من الصراع على الهيمنـة والمكانة والاعتبار مع الحضـارة الإسلامية"[19]. ومع أن المفهوم مزعـزع ومتهافت ويسهل دحضه ونقضه، إلا أنـه أثار اهتماما كبيرا. فالفكرة التي يبرزها عن صدام إيديولوجي وتاريخي مستمر بين الغرب والعالم الإسلامي ناسبت تماما ذهنية إدارة بوش. وعلى الرغم من أن أفكار لويس عنصرية واستعلائية وعتيقة تجاوزها الزمن، إلا أنها أصبحت الآن الركيزة المقبولة التي لا يمكـن دحضها للسياسة الخارجية الأمريكية، وعرفتها صحيفة "وول ستريت جورنال" بأنها "مبدأ لويس"[20].

بلغ تأثر ديك تشيني - أقوى رجل في الإدارة الأمريكية بعد الرئيس الذي يدير جهازه وآلية عمله كما يقال - ببرنارد لويس حد الاستشهاد به على شاشة التلفزيون قبيل الحرب على العراق[21]. فقد أورد فكرة لويس القائلة إن المسلمين لا يستجيبون إلا للقوة، ومن ثم فهم بحاجة لمعاملتهم بالشدة والصرامة. كان يقول باختصار، إذا أظهرت للمسلمين من هـو السيد المطاع فسوف يحترمونك. وبالانسجام مع هذا النمط من التفكير، برر تشيني الإجراءات المتطرفة في الحرب على الإرهاب، ومنها التعذيب. الموقف المؤسس على أفكار برنارد لويس الذي استرشدت به عملية تخطيط الحرب على الإرهاب أثر أيضا في تفكير مسؤولين آخرين في واشنطن وصاغ وجهة نظرهم عن المسلمين.

أدت السياسات الخاطئـة والمفاهيم المغلوطة في واشنطن إلى سقوط عشرات الآلاف مـن القتلـى والجرحى في مختلف أرجاء العالم الإسلامي، وهذا ما عجل بدوره في حدوث مزيـد من أعمـال العنف وسفـك الدماء، فضلا علـى تفاقم غضب المسلمـين. ومن ثم، لم يجـد أولئـك المطالبون بالمجابهـة العنيفة مع الغرب صعوبة كبـيرة في تجنيد الأنصار والمؤيدين. وعلى الجانب الأمريكي، استمرت وسائل الإعلام في إظهار صور الحادي عشر مـن سبتمبر و"غضب" المسلمين بغرض التهييج والإثـارة. في حين خدم خطاب المسلمين المطالـب بالرد والانتقام، المغلف بغلـو الثقافة، هدف إقناع الأمريكيـين بأن أمنهم الذي يحرصون عليه معرض للخطر. ونجح المحافظون الجدد أيضا في إقناع الأمريكيين بأنهم مثلما حاربوا دفاعا عن "العالم المتحضر" - في الحربين العالميتين - عليهم القتال لكسب

الحــرب على الإرهاب وحدهم: "نحن نحارب نيابــة عن العالم المتحضر. ولن نتوقف عن الأمــل بدعم العالم المتحضر. لكــن إذا لم نحصل عليه، وهذا احتمــال ممكن، فعلينا أن نقــول كما قال ذلك الجندي البريطاني الباسل في الرسم الشهير لديفيد لو عام 1940: حسن إذن، سأقاتل وحدي"[22].

كان غــزو أفغانستــان عام 2002 حربا غــير متكافئة على أقل تقديــر: نظرا للفارق الهائــل في القوة العسكرية بين الطرفــين: أحدهما أعظم قوة علــى الأرض، والآخر دولة آسيويــة فقيرة وصغيرة سكانها جائعون وأصابتها أضرار جسيمة بعد سنوات من مقاومة الاتحاد السوفييتي. لكن وسائل الإعلام الأمريكية، التي كانت قوة إضافية في الحرب على الإرهــاب (باستثناء صحفيين يستحقون الاحترام مثــل سيمور هيرش)، أعطت انطباعا مفــاده أن العــالم الإسلامي كتلــة صلدة لا متمايــزة يخوض حربا جهاديــة مجنونة على الغــرب. لكن الحالة لم تكــن كذلك. فالعالم الإسلامي تقسمه القوميــة والاثنية والأفكار المتعلقــة بالإســلام، مثلمــا رأينا في النمــاذج الثلاثــة الموصوفة في هذا الكتــاب. وأولئك الأمريكيون الراغبون في تبرير الطبيعة الوحشية للحرب على الإرهاب وجدوا مادة كافية لذلــك في الغضب والخطــاب المغالي في تطرفه لبعضــ المسلمين، وفي النمــاذج المجسدة لسلوكهم العنيف، مثل قطع رأس داني بيرل.

مــن جانبها، نصبــت الإدارة الأمريكية شبكــة من المسلمين "الموالــ " لها وعينتهم في مناصــب مهمة خدمة لمصالحها: زلماي خليل زاد، الــذي عمل مستشارا لشركة النفط "يونوكال"، هو السفير الحالي للولايات المتحدة في الأمم المتحدة، وكان قد أرسل أولا إلى أفغانستــان ثــم إلى العراق: وحامد كــرزاي، الذي عمل سابقا في "يونــوكال" أيضا، هــو الرئيس الحالي لأفغانستان. فضــلا على ذلك، عين مشرف شوكت عزيز، الذي عمل سابقا في "سيتي بانك"، رئيسا لوزراء باكستان.

لم يمضــ وقــت طويل على شن الحرب علــى الإرهاب، حتى بــدأت الواجهة الشهيرة لاستعلاء واستكبار المحافظين الجدد وزهوهم الفكري تظهر علامات التشقق والتداعي. إذ رأى فوكويامــا، أحد أبــرز المفكرين المشاركين في "مشروع القــرن الأمريكي الجديد" منــذ انطلاقتــه عام 1997 وأغزرهم إنتاجــا، الأحداث المتكشفة بعــد الحادي عشر من

سبتمبر، وسرعان ما عبر عن سخطه على فكرة المحافظين الجدد برمتها[23]. وبعد أن أعلن نهاية التاريخ قبل بضع سنوات، أعلن الآن موت المحافظين الجدد[24].

لكن هذه الشكوك لم تؤثر في تفكير وسياسات الإدارة. ففي كانون الثاني / يناير 2007، أعلن بوش أنه سيرسل 21500 جندي إضافي إلى العراق لإيجاد "اندفاعة" في النشاط الحربي على حد تعبيره. ومع أن 65% من الأمريكيين عارضوا إرسال مزيد من الجنود، إلا أن بوش، بتحفيز من تشيني، لم يرتدع. وبخلال ساعات من الإعلان، هاجم الجنود الأمريكيون في العراق البعثة الدبلوماسية الإيرانية في اربيل (عاصمة المنطقة الكردية ذات الاستقلال الذاتي)، واعتقلوا خمسة دبلوماسيين. غضب الإيرانيون وأكدوا أن الأمريكيين انتهكوا الحصانة الدبلوماسية، في حين اتهمت الحكومة الأمريكية المعتقلين الإيرانيين بممارسة نشاطات معادية لكنها لم تقدم أي دليل يثبت مزاعمها. في الوقت ذاته، أرسلت الولايات المتحدة حاملات الطائرات إلى الخليج العربي، وتصاعد التوتر في المنطقة بصورة درامية. وتساءل المعلقون في وسائل الإعلام الأمريكية في ذهول، بعد أن أخذوا بعين الاعتبار الوضع المروع في العراق، هل أصبحت الحرب مع إيران أمرا محتوما ومحسوما. وهكذا، يقرع المحافظون الجدد طبول الحرب مرة أخرى بحماس وتلذذ.

عند استرجاع أحداث الماضي، تبدو خشية الباحثين والمفكرين المسلمين الأمريكيين بعد الحادي عشر من سبتمبر من أن المحافظين الجدد سيدفعون الولايات المتحدة إلى مواجهة "مصطنعة ومفبركة" مع سورية وإيران، تبدو في محلها[25]. لقد أدى سوء فهم المحافظين الجدد للإسلام، ومن ثم مقاربتهم التي تعاني شروخا وعيوبا قاتلة لمسألة العلاقات الأمريكية بالعالم الإسلامي، إلى أخطاء جسيمة ارتكبتها السياسة الخارجية الأمريكية وسببت عزلة الولايات المتحدة على المسرح العالمي. والآن، يواجه جيش مجهز بأحدث الأسلحة الحربية وأنظمة الاتصالات المتطورة تقانيا في التاريخ وضعا عسكريا مستحيلا في العراق. ويبدو أن امتناع المحافظين الجدد عن الاعتراف بأخطائهم وخطاياهم يؤكد سمعتهم القائمة على العناد والتعالي والاستكبار. ولم يفت على الناس عدم إظهارهم أي تعاطف مع القتلى والدمار (دون داع) نتيجة استراتيجياتهم. ولم

يكـن من المفاجـئ أن يعدهم المنتقدون داخل الولايات المتحـدة وخارجها فرسان الظلام المنذرين بالعولمة.

كيف تعرف وسائل الإعلام الغربية الإسلام

مثلمـا أشـارت المناقشة المذكورة آنفـا، أصبح الإسلام بحلول عـام 2006 "فزاعة" ترعـب الشعـب الأمريكي. وبغض النظر عن ارتيابهـم وتوجسهم، فشـل الأمريكيون في تحـدي حجج البيت الأبيض لمصلحة استخـدام أساليب التعذيب أو التجسس الداخلي في الحرب على الإرهاب، لأنهم أرادوا البقاء آمنين ومحصنين من الإرهابيين. قامت وسائل الإعـلام بدور مهـم في إقناعهم بتصديق نظـرة ديك تشيني إلى العـالم. في حين أثارت أعصـاب الجميـع التحذيرات مـن الأعمال الإرهابيـة التي تبث على مـدار الساعة على شاشات التلفزيون، وألـوان التهديدات: "الأحمر" للمستوى المرتفع و"الأصفر" للمعتدل. ومن اللافت أن التهديد لم يصل إلى مستوى اللون "الأخضر" أبدا.

التقارير التي تتحدث عن المخططـات المجهضة والمحاولات الإرهابية المحبطة لتسلل المسلمـين الماكرين والمفسدين إلى الغرب، غذت وسائل الإعلام وأبقت أعصاب الناس في حالـة من التوتر والتساؤل: متى وأين ستحـدث الضربة الإرهابية التالية. صحيح أن هذه التهديـدات يجب عدم تجاهلها، لكنها ضخمت لتبدو أكثر ترهيبا من الواقع. فالتفاصيل مبهمـة والحقائق يصعـب توكيدهـا لأن الإدارة غير راغبة في كشفهـا. ولذلك بدأ بعض منتقـدي الحرب على الإرهاب بوضـع مصداقيتها موضع التشكيك والمساءلة. على سبيل المثـال، شكك كريغ موراي، السفـير البريطاني السابق في اوزبكستان وأحد منتقدي توني بلـير ودعمه الأعمى لسياسـات بوش، بالمؤامرة المزعومة التي خطـط لها أربعة وعشرون بريطانيا من أصل باكستاني لتفجير عشر طائرات فوق المحيط الأطلسي في آب/ أغسطس 2006. وأشار في عدد من المقابلات مع وسائل الإعلام إلى أن العديد من المتهمين ليست لديهم جوازات سفر، ولا بطاقات سفر، ولم يحصلوا على أي تدريب لمثل هذه العملية التي تتطلب دقة بالغة. وأكد مسؤولو الاستخبارات الباكستانية أن المتهمين "هواة" ولا يمكن أن يمثلـوا تهديدا حقيقيا. وعلى الرغم من هذه الحقائق، فإن أولئك الذين وضعوا المسلمين في قالـب التهديـد المنمط تعاملوا مع القصة بوصفها محاولـة عنيدة أخرى من المسلمين لإلحاق الضرر والأذى بالغرب.

ووفقــا لتقارير انتشرت على نطاق واسع، تلقــت وسائل الإعلام أيضا الدعم والتأييد مــن الإدارة لترويــج إيديولوجية المحافظين الجدد بأسلــوب جسور وجرئ واقتحامي عبر المحطــات التلفزيونيــة، مثــل "فوكس نيــوز"، بعروضهــا الإخبارية المثــيرة، ومساهميها اليمينيــين المتطرفين المثيرين للجدل، وما تملكه مــن محطات إذاعية وصحف ومجلات. واختــارت وسائل الإعلام تقديم أخبار الإرهابيين بطريقة حماسية مثيرة للعواطف، وهي تعلــم أن العديد من الأمريكيــين يصدقون ما يرونه ويسمعونه كحقيقــة لا تقبل النقاش. وكثــيرا ما قــام المعلقون في محطــة "فوكس نيــوز" بتصويــر التهديد القــادم من العالم الإسلامي بأنه خطر داهم يمكن أن يدمر فجأة "الحضارة الغربية كما نعرفها". وأنتجت المحطــة أيضا مسلسلا باذخا وشعبيا بعنــوان "24"، أثار عواطف المشاهدين وغضبهم علــى الإرهابيين مــن جميع الجنسيــات والأعراق. وأظهــرت الحلقــات الأولى السلطات الأمريكيــة وهي تحــارب الإرهابيين المسلمــين الذين صوروا كمهاجريــن عاديين يعيشون وســط الأمريكيين وبين ظهرانيهم، وبذلك أشــارت ضمنا إلى أن التهديد حاضر دوما في كل زمــان ومــكان. في عام 2005، أظهــرت إحدى الحلقات المسلمين وهــم يستولون على منشــأة نووية في الولايات المتحدة وتسببوا في تدميرها. وقام أحد زعماء الإرهابيين بقتل زوجتــه وإطلاق النار على ابنه لأنــه خشي من أن يعيقا تنفيذ المهمة - بعد اختطاف وزير الدفــاع ومحاولة قطع رأسه في مشهد حي على الإنترنــت! عم الغضب المسلمين واحتجت جماعات تمثيلية عديدة.

لكــن الفكــرة المطلوبة قدمت علــى أية حال وعــززت المدركات السلبيــة السائدة عن المسلمين بوصفهم يمثلون تهديدا دائما وعنيفا. وتضخم حجم التهديد في وسائل الإعلام وارتفــع مستوى الخوف إلى حد قبــول الأمريكيين الضمني برفع جميــع القيود عن أفعال وتصرفات الحكومة من أجل منع هجوم وشيك آخر، وهذا ما سمح بتنفيذ سياسة التشدد وعــدم التسامح، بغض النظر هل تجسدت في التنصت على الأحاديث الهاتفية دون إذن، أو في قانــون الوطنية المثير للجدل، أو في تعذيب المشتبه في ضلوعهم في الإرهاب. تشارلز كروثامر، وهو صحفي آخر من المحافظين الجدد، اقترح أن تتبنى الولايات المتحدة أيضا سياســات استخدام التعذيب إذا ساعدت في استخلاص المعلومات من الأسرى والسجناء "الإسلاميين"(26).

إذن، صور التيار الغالب من وسائل الإعلام تهديد "الإسلاموية" وفق تفكير وآراء برنارد لويس -بوصفها إيديولوجية منتشرة في العالم الإسلامي وتهدف إلى إحياء الخلافة لكي تحدق بالعالم وتطوقه. وكان الصحافي والمؤرخ دانييل بايبس (من المحافظين الجدد) قد حذر من أخطار "الإسلاميين" مشددا على أنهم موجودون في كل مكان منذ الحادي عشر من سبتمبر: "قد يبدو الإسلاميون أشخاصا عاديين ومنطقيين وملتزمين القانون، لكنهم في الحقيقة جزء من حركة توتاليتارية، ولذلك، يجب اعتبارهم كلهم من القتلة المحتملين"[27]. وأطلق بايبس برنامجا دعاه "مراقبة الحرم الجامعي" بغرض رصد المدرسين الذين ينشرون ويبثون المشاعر المعادية لأمريكا أو المبادئ الإسلامية. وقال بايبس: "ما نحتاج إلى أن نفعله هو أن نكشر عن أنيابنا لا أن نبتسم بلطف. ما نحتاج إليه هو أن ننشر الخوف لا الحب. لا يمكنك أن تنشر الخوف والحب في آن، لذلك يجب أن تختار أحدهما"[28]. استدعت مثل هذه الملاحظات مديح كروثامر الذي دعا بايبس بـ"النبي" لأنه فهم أن "الإسلام المتطرف هو المشكلة والإسلام المعتدل هو الحل"[29]. ومع دلالات الشر الضمنية المحيطة بها الآن، بدت "الإسلاموية" وكأنها النقيض الكامل لما تمثله الولايات المتحدة وتدافع عنه. وأخذت المواجهة بينهما طبيعة الصراع الكوني بين التحرر والعدالة والديمقراطية والحرية من جهة، والتطرف والإرهاب والعنف من جهة أخرى. الحجة ساوت ضمنيا بين العالم الإسلامي برمته وهذه المفاهيم السلبية وشيدت صورة لكتلة صلدة غير متمايزة ومرعبة للإسلام في أذهان وعقول الأمريكيين، الذين ربما لم يكونوا رأيا من قبل عن التاريخ الإسلامي والثقافة الإسلامية. ولذلك بدؤوا، دون أن يدركوا كيف ظهرت هذه "البنية"، بربط كلمة "إسلام" مع الإرهاب والعدو. لقد جعلت هذه المشاعر العدائية فكرة الحوار والديبلوماسية غير ذات صلة. وكما قال بايبس: "انتهى موسم الفهم"[30].

مع نقل فكرة التهديد الدائم داخل وخارج الولايات المتحدة بطريقة مقنعة إلى عامة الأمريكيين، وجد الذين روجوها عدوا محددا ومعرفا يمكن تبرير شن حرب عالمية مفتوحة النهاية عليه. فقد عُد المسلمون، بغض النظر هل يتبعون نموذج أجمر أم ديوباند أم عليكره، مشتبها فيهم ومستعدين مقدما للعنف. لكن عرّف هذا العدو

وحـدد بوصفه "الإسلام" بأسلـوب مفكك وغير منطقي وغير دقيـق إلى حد الفضيحة، بالـترادف مـع خرافة الإسلام بوصفه عقيدة يتأصل فيها العنـف التي تعود جذورها إلى أوروبا القروسطية. اجتزأت مقاطع من القرآن من سياقها لدعم هذه الحجة وتم تجاهل الطبيعة الحقيقية للإسلام. ولم يتطرق أحد أبدا إلى حقيقة أن المسلمين يشيرون كل يوم إلى ربهم بوصفه "الرحمن" و"الرحيم"، أو إلى الآية القرآنية التي تؤكد أن: "لا إكراه في الدين" (البقرة: 256)، وأن من أهم صفات النبي - كما ذكر القرآن ذاته - أنه "رحمة للعالمـ ". وأن الحربفي الإسلاملا تشن إلا في حالـة الدفاع عن النفس والأمة، ولا يجوز أن تكون عدوانية. إن مبادئ الحرب التي عمل أبو بكر أول خليفة في الإسلام على قوننتها، تحـرم قتل رجـال الدين والنساء والأطفـال من أي ديانة وملة، وتحظـر قطع الأشجار أو تخريب المحاصيل أو النبات.

سارت في ركاب السياسة الأمريكية التي تساوي بين الإسلام والإرهاب والشر، وسائل الإعـلام التي أصبحت متشربة بالفكرة إلى درجة أن شريحة كبيرة من عامة الأمريكيين يؤمنون الآن أن الإسلام دين شرير وتتأصل فيه عيوب ونواقص خطرة بحيث يصفح عن العنـف. ولم يتوقـف سوى قلة قليلة للتأمـل واكتشاف أن أعـدادا لا تحصى من الضحايا سقطوا نتيجـة الهجمات الإرهابية التي شنها غير المسلمين مـن المسيحيين واليهود: مثل الهجمات الدموية التي نفذها الجيش الجمهوري الأيرلندي في بريطانيا، ومذبحة مسجد الخليـل عام 1994، حين قتـل باروخ غولدشتاين 29 وجرح 150 مـن المصلين الأبرياء. حتى أتباع الديانات "المسالمة" تقليديا، مثل البوذيين والهندوس، قصفوا وقتلوا الأبرياء. إذ قتـل نمـور التاميل (الهندوسـ) مثـلا الآلاف في سريلانكا، ومنهـم رؤساء حكومات ورؤسـاء. ونادرا مـا جرت مساواة هذه الأعمـال مع ديانات مرتكبيها، مـع أنها مناقضة للمبادئ المركزية للتراحم والحكمة فيها.

السـؤال الـذي طرح مرارا مع نوع مـن السخط في أغلب الأحيـان منذ الحادي عشر مـن سبتمبر هو: "من يتحدث باسم الإسلام ويمثلـه؟". خارج دائرة البيانات والعبارات الملتهبـة للمعلقين في وسائل الإعلام، بلغ الاهتمـام بمعرفة طبيعة الإسلام مستويات غير مسبوقـة، لكـن لسوء الحظ لم تتمكن سـوى قلة قليلة من دراسة الإسـلام بدرجة كافية،

ولم يطلب إلا من عدد قليل من المسلمين المشاركة في النقاشات، وهذا ما ضاعف حالة الارتباك والتشوش المحيطة بالموضوع. لا يمكن أن أتخيل مناقشة تتناول الديانة اليهودية تجريها لجنة أو هيئة مكونة من المسيحيين والمسلمين فقط، أو مناقشة الدين المسيحي من هيئة مكونة من اليهود والهندوس وحسب. لكن هكذا بالضبط يناقش الإسلام، فيلحق الضرر بالمسلمين ويثير حنقهم ويملؤهم الإحباط وخيبة الأمل.

في هذه الأثناء، غاب علماء المسلمين عن النظر، واكتفوا بمشاهدة ما يصيب دينهم وتراثهم من أذى وتشويه وتحريف بواسطة سلسلة من الآراء التي لا يملكون السيطرة عليها. العديد منهم ردوا على الهجمات على الإسلام بالكتابة في الصحف والمجلات الإسلامية ودافعوا عن قضية الإسلام بوصفه دين السلام. وبدوا في حالة من العجز واليأس واتخذوا موقفا دفاعيا ولم يتمكنوا من التحدث مباشرة أمام المنتديات الأمريكية. ومنعوا أحيانا من الحصول على تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة، ومن هؤلاء طارق رمضان الذي يحمل الجنسية السويسرية (من أحفاد حسن البنا)، ويوسف إسلام البريطاني (المعروف باسم كات ستيفنز وكان مغنيا مشهورا قبل أن يعتنق الإسلام). المعلقون الغربيون يجدون أفكار رمضان وإسلام غريبة ومثيرة للجدل، مع أنهما كانا من النماذج التي يحتذى مثالها في الاستبيان الذي وزعناه في مشروعنا البحثي. وهم يعدون رمضان من أتباع نموذج ديوباند لكن بثياب عليكره، وإسلام من أتباع أجمر في ثياب ديوباند[31].

لذلك كله، لا يشاهد أو يسمع الأمريكيون المسلمين بوصفهم مواطنين عاديين يتبادلون الأحاديث اليومية عن تشكيلة متنوعة من القضايا التي تهم الأمة. بل يدور النقاش حولهم ويعرف دينهم كلية تقريبا بواسطة غير المسلمين. ومن ثم فإن الفهم المغلوط والإدراك المشوه أمر مضمون. ولذلك ليس لدى الأمريكيين سوى فهم ناقص عن المسلمين في أفضل الأحوال. وحين نأخذ بالاعتبار مدى تدخل الأمريكيين في العالم الإسلامي والحاجة إلى اتخاذ قرارات، غالبا ما تكون بالغة الأهمية بل تعد مسألة حياة أو موت، يمكن أن يكون هذا الافتقار إلى الفهم كارثيا.

تمثلت النتيجة في أن الأغلبية الساحقة من المعلقينوفقا لملاحظاتهم على شاشات التلفزيون وعناوين كتبهم - عاينوا عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر بطريقة

مبسطــة وسطحيــة ومن منظــور الأمن والإرهــاب والحرب على الإرهــاب. ومعظمهم لم يخف عداءه للمسلمين بطريقة شمولية بل حتى طائشة تفتقد التروي والعقلانية. في حين تظاهــر غيرهم بأن المسلمين غير موجودين. علــى سبيل المثال، لم يوجد مسلم واحد بين مؤلفي كتاب "العالم الإسلامي بعد الحادي عشر من سبتمبر"، هو دراسة مستفيضة من خمسمئــة وعشرين صفحة لمؤسسة راند[32]. والأســوأ عدم وجود أنثروبولوجي واحد بين المؤلفين يمكن أن يخبرنا عن الثقافة والتقاليد والمذاهب والقيم الإسلامية.

وسعيــا وراء تهييــج وإثــارة العواطــف، تجاهلت وسائــل الإعلام العلمــاء والباحثين الغربيين الحقيقيين -وليسوا بالضرورة من المسلمين - الذين بذلوا جهدا مضنيا لدراسة الموضــوع طوال عقود مــن السنين. فالأكاديميــون المختصون من أمثــال كليفورد غيرتز، ولورنــس روزن، وجون اسبوزيتــو، وجون فول، وتامارا سون، نادرا ما وجهت إليهم الدعوة لتفكيــك مــا كان يدور حول الموضوع الذي كرسوا حياتهم له. بدلا من ذلك، لجأت وسائل الإعــلام إلى خدمــات أولئــك الذين يفهمــون الإسلام من منظــور التهديــدات الأمنية، والهجمات الإرهابية، وعنف المتطرفين والمتشددين. ولم يكن لديها ما يكفي من الوقت أو الصبر لإجــراء مناقشات موضوعية عن التاريخ والمجتمع والقبيلة والمذهب. لذلك، ألقى المعلقون علــى مسامع جمهورهم محاضرات عن "الإســلام والإرهاب" دون تفسير يمهد لفهم أساسيات الإسلام.

لم يفــت على العالم الإسلامي ملاحظة التصوير السلبي للإسلام في وسائل الإعلام الغربية. فقد عبر المسلمون طوال رحلتنا بإلحاح واستمرار عن قلقهم من الإدراك المغلوط والفهم الخاطئ للإســلام. وأظهرت الاستبيانات أن أغلبية واضحة من المبحوثين ذكروا "الأفــكار الغربية المغلوطة عن الإســلام" بوصفها التهديد الأخطر الذي يواجه العالم الإسلامــي. وعبر الرؤســاء والأمراء والشيــوخ والطلاب عن القلق بــل الخوف من الهوة الواسعــة بــين ما يعرفونه عــن الإسلام وتصورهــم لكيفية رؤية الغرب لــه. أما ردم هذه الفجوة، برأي المسلمين، فتمثل أعظم تحد يواجههم في المستقبل.

أثــارت غضب العديد مــن المسلمين الشخصيات التي يرونهــا تتحدث باسم الإسلام في وسائــل الإعــلام الغربية دون أن يكون لها الخلفية الأكاديميــة أو الاجتماعية اللازمة.

ايـان هيرسي علي في أوروبـا، وإرشاد منجي في كندا، وأسرا نوماني في الولايات المتحدة، ظهرن جميعا بـين عشية وضحاها لتحدي الزعامة التقليدية والقيم والأفكار الإسلامية. وألفـت كل منهن كتبا لقيت رواجا كبيرا، وتحدثت عن "إصلاح الإسلام" بأسلوب يحجم عنـه حتـى أكثر علماء المسلمين تفقها ورسوخا في العلـم وتضلعا من المذاهب[33]. وبرأي المسلمين العاديين، يبدو أن هؤلاء النساء يتعمدن الاستفزاز، ويتحدين بعض القيم الثقافية الجوهرية في الإسلام في كتاباتهن وسلوكهن. في حين يستقبح المحافظون المسلمون النسوة الثـلاث: ايان هيرسي لأنها عملـت في سيناريو فيلم يصور امرأة نقشت آيات قرآنية على جسدهـا العاري؛ ومنجي لأنها أعلنت مثليتها (سحاقيـة)؛ ونوماني لأنها حملت سفاحا، ودعـت المصلين إلى مسجدهـا المحلي لتؤمهم فيه، وإمامة الصـلاة لا تجوز للمرأة. وبلغ غضـب المسلمين درجة من اللاعقلانية على هـذه النساء بحيث تعرضت لانتقادات حادة حين ظهرت معهن في برامج تلفزيونية. فبحديثي معهن، حسبما قال المنتقدون، أمنحهن الشرعية.

تمثـل انطباعـي بعد مقابلـة النسوة الثلاث في أنهـن يتمتعن بالذكاء ويـردن بتشوق الإسهـام في النقاش عن الإسلام، آملات في أن العثـور على آذان متعاطفة وأيد ممدودة لهـن في وسائـل الإعـلام سوف تساعدهـن في "إصلاح" حـال الإسلام. وخـلال مقابلة اسـتمـرت سـاعـة من الـزمـن جمعتني وجها لوجه مـع أسـرا نوماني علـى شـاشـة "C - SPAN" عام 2005، أثرت مشكلات الإصلاح في الإسلام، التي كانت تطالب به. وشرحت قائلا إن الإصلاح يستدعي إثارة قضايا لاهوتية وفقهية وشرعية معقدة. فعقيدة الإسـلام متجذرة بعمق في كتاب واحد، هو القرآن، ورجل واحد، هو النبي، ومن المستبعد أن يؤيد التيار الغالب من المسلمين محاولات المساس والتلاعب بأي منهما. أما ما يتطلب الانتباه، كما افترضت، فهو حقوق المرأة التي تأخر الاعتراف بها، وتحسين معايير التربية والتعليـم، وإدخال الديمقراطية. وتمكنت من إقناع أسـرا بأن الكلمة التي هي أفضل من "الإصلاح" في الاستعمال ستكون "النهضة"، أي استنهاض الإسلام. ولم أكن أرى أسرا - ولا زميلتيهـا الأخريين - كمارتن لوثر الإسلام. فـإذا كان التغيير قادما - وهذا حتمي - فيجـب أن يأتي من داخـل إطار إسلامي وبواسطة المسلمين الذين يتمتعون بالمصداقية

داخـل مجتمعهم. وبـرأي معظم المسلمـين، يناقض سلوك هـؤلاء النسـاء الثلاث القيم الإسلاميـة، ويعارض ثقافتهم التقليدية، ولذلك يؤكدون أنهن لسن مسلمات "حقيقيات" بل غربيات ولا منتميات إلى الدين.

من نافل القول إن وسائل الإعلام، الباحثة دوما عن بعض القضايا الخلافية المحيطة بالإسـلام، رعـت هؤلاء النسـوة بكل حماسـ. في فيلادلفيا، وفي مؤتمر الشـؤون الدولية المذكـور آنفـا، سمعت مـن يصف ايان هيرسـي علي بـ"البطلـة" التي امتلكـت "الجرأة والشجاعـة للوقـوف في وجـه طغيان الإسـلام واستبـداده". أما سيرة حيـاة ايان "التي تستحـق التكريم"، كما خاطبها المؤتمر، فتوضـح العلاقة المستمرة بين الغرب والإسلام. ففـي سن الرابعة عشرة وصلت إلى هولندا لاجئة من الصومال، ثم اكتسبت سمعة سيئة حـين هاجمت بعض جوانب ومظاهر الثقافة الإسلاميـة، خصوصا ما عدته سوء معاملة المـرأة. ونالت شهرة عالمية كاسحة حـين كتبت سيناريو فيلم وثائقي تلفزيوني قصير عن العنف ضد المرأة المسلمة بعنوان "إخضاع"، من إخراج ثيو فان كوخ، أحد أحفاد الرسام الهولنـدي الشهـير. ثم قتل ثيـو في امستردام عـام 2004 على يد مسلـم مغربي الأصل تـرك ملاحظة على جسـد ضحيته تعد بأن تكون ايان هيرسي علي التالية. لذلك، تطلبت حراسة شخصية مستمرة وساد الخوف الرهابي من الإسلام في أوروبا.

دافعـت شريحـة معينة من المجتمـع الأوروبي دفاعا شرسا عن حـق ايان هيرسي في حريـة التعبير عن آرائهـا. في حين انتقدها آخـرون وعدوا محاولاتهـا تستهدف الشهرة الذاتية ومجرد طلقات رخيصة تسددها على أمة مستضعفة ومقموعة. وعلى وجه العموم، ثـار غضب المسلمـين وهياجهم، وتفاقمت الحالة حين أيدت ايـان هيرسي علي علنا نشر الرسـوم الكرتونية المسيئة للرسول. وبدا الآن أنها تؤذي مشاعر الأمة الإسلامية برمتها، التي لم تأبه كثيرا لردتها عن الإسلام. فإما أنها تتعمد الاستفزاز أو تستخدم أداة لإذلال الإسلام.

في أيـار / مايـو 2006، تفجـرت قضية دولية كبـيرة نتيجة تهديد الحكومـة الهولندية بسحب الجنسية من ايان هيرسي لأنها كذبت وزورت في وثائقها الرسمية حين تقدمت بطلب اللجـوء السياسي عام 1992. ولربما كانت ايان تتوقـع هذه الخطوة، حيث أعدت الترتيبات

اللازمـة لمغـادرة البـلاد. فقد عرض عليهـا منصب مغر في إحـدى المؤسسـات الاستشارية اليمينيـة الشهيرة في واشنطـن: "أمريكان انتربرايـز". وأكد خروجها المخـزي من هولندا وحرارة استقبالها في واشنطن شكوك المسلمين بأنها مسلمة تستخدم أداة لإذلال الإسلام.

وبالمقابل، يـرى العديد من الأمريكيين ايان هيرسي علي بطلة من طراز روزا باركس أو كوريتـا سكـوت كينغ - امرأة شجاعة وجريئة تقف في وجه قوى الطغيان والاستبداد في مجتمعهـا. ويمكن للأمريكيين التواصل والتعاطف معها لكن لا يبدو أنهم مدركون حقيقة أنهـا تستخدم معرفتهـا بالإسلام لإثـارة أسوأ مخاوفهـم واستغلال أحكامهـم المسبقة المتحيـزة تجاه الإسلام. وفي حين أنها أبـرزت نفسها كمصلحة إسلامية، إلا أنها انتهكت في الحقيقـة جميـع أنواع الحدود الثقافيـة والدينية في نظر المسلمـين، إلى درجة أنها لم تعـد تمثل أي جانب من جوانب ملتها. إضافة إلى ذلك، يعد المسلمون أمثال ايان هيرسي علـي خونـة غدروا بالأمـة، وطعنوها في الظهر وقـت الشدة. ومع أن قلة مـن الأمريكيين يدركـون استخـدام ايان المتعمد للإسلام لمآربها ومكاسبهـا الخاصة، إلا أن لمضيفيها في أمريـكا أسبابا سياسية أشد سوءا للترحيب بها، وليس لمجـرد إظهار حسن وفادتهم. إذ يمكـن استغلال وجودها لإظهار الطبيعـة المتخلفة والمتعصبة المزعومة للإسلام، ومن ثم الحاجـة إلى الاستمرار في محاربته. فلم إذن يروج المعلقون الغربيون ويشجعون مثل هذه الشخصيـات العدوانية حين يكون لـدى التيار الغالب من المسلمـين تحفظات قوية عليها - في الحقيقـة لم يعدهـا أحد قدوة في أي من المقابلات التـي أجريناها. زعم أحد هؤلاء المعلقـين، انـدرو بوستوم، أن ايان "مصلحة صادقة ومخلصـة فكريا للإسلام"، في حين هاجمني لأنني ما زلت أكتب عن النبي "باحترام ومحبة"(34). واستخدم الحجة ذاتها في حـوار مع جوديا بيرل، الذي يروج الحوار اليهـودي - الإسلامي معي. وأظن أن أشخاصا مثل بوستوم يشيرون إلى أن أولئك المسلمين الذين يرفضون التراث والتقاليد الإسلامية، مثلما فعلـت ايان، هم وحدهم المقبولون بوصفهم مسلمين "يصح إسلامهم". وهنا نجد تجربة في إصلاح الإسلام تجري من خارجه.

التصويـر السلبـي المنفر والمهمش للإسلام سوف يوسع ويعمـق الصدع بين الغرب والتيار الغالب من المسلمين. فإذا كان الغرب صادقا في فهم الإسلام، يجب عليه استشارة

العلماء الجادين واستنصاح الباحثين الراسخين في العلم، كما يعتقد المسلمون. لكن بدلا من ذلك، يعد الإسلام دين العنف والتطرف والعدو الجدي العالمي للغرب، بعد أن تحول من دين محبي السلام مثل الرومي ورابعة وتشستي (الولي في أجمر) إلى دين الإرهاب.

كيف يعرف المسلمون الإسلام؟

أدرك فريقنا، عبر الاستبيانات التي وزعها والمقابلات التي أجراها، الإحباطات وخيبات الأمل، والأفكار والآمال الكامنة لدى العديد من المسلمين - من الناس العاديين في الشوارع والمنازل والاجتماعات واللقاءات الجماهيرية - وسمع أصواتهم التي لا يسمعها أحد اليوم (انظر الملحق). تمكن المبحوثون من تعريف وتحديد أنفسهم بأنفسهم، واختيار النماذج التي يحتذى مثالها بطريقة غير مباشرة، وتلك مقاربة مفيدة نظرا لأن العديد من المسلمين يحجمون عن التحدث صراحة عن مثل هذه الأمور بسبب الجو القامع المهيمن على بعض بلدانهم. فقد تسيء السلطات فهم وتفسير حتى الأسئلة البريئة عن الإسلام وقضايا التحديث بوصفها انتقادا ضمنيا للنظام الحاكم. وفي سبيل الالتفاف على هذه العقبة المقيدة وتجنب وضع المبحوثين في وضع محرج، طلبنا منهم اختيار نماذجهم التي يحتذى مثالها من الرموز المعاصرة. وكشفت إجاباتهم عن خيبة أمل مشتركة من الافتقار إلى زعماء وقادة للمسلمين يمثلون العلم أو المعرفة أو العدل أو الإحسان أو التراحم، وهي قيم يريد المسلمون رؤيتها في مجتمعهم. لكن فكرة الماضي الإسلامي البطولي تقاسمها المبحوثون على نطاق واسع. فالنبي هو أكثر الشخصيات إلهاما للمسلمين في كل مكان، يتبعه صحابته وآل بيته، الذين يجسدون المجتمع الإسلامي المثالي. أخيرا، كانت نماذجنا الثلاثة - أجمر وديوباند وعليكره - واضحة ومرئية في كل مكان من العالم الإسلامي، ويبدو أنها تشهد تغييرات مثيرة ومتنوعة وهي تتكيف مع عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر.

المسلمون الأمريكيون القادرون على التعبير عن آرائهم بحرية يحتلون موقعا فريدا متوسطا بين الحضارتين الغربية والإسلامية، ويشعرون بأنهم زعماء المستقبل وممثلو الأمة. لكن في مواجهة الطبيعة العنيفة المنمطة والمزعومة للإسلام، عجز أحيانا حتى

أولئك الذين يعيشون في الولايات المتحدة عن نقل الطبيعة الحقيقية لدينهم إلى غير المسلمين، وكثيرا ما انتهى بهم المطاف وهم يعززون صورته السلبية. هذا ما حدث في المؤتمر السنوي للجمعية الإسلامية في أمريكا الشمالية الذي عقد في دالاس في تموز/ يوليو 2006، حيث ألقت ملاحظات أحد زعماء الجالية الإسلامية، ورئيس الجمعية التي تمثل المسلمين في القارة برمتها، ظلالا من الشك على المفهوم الإسلامي الشرعي للجهاد أمام جمهور شمل غير المسلمين. وحين كنت على وشك إلقاء خطبة توضح الأفكار الأساسية بعده فورا، رأيت من المنبر نظرة الرعب والقلق والانزعاج على وجوه ضيوفي الأمريكيينوفيهم هيلي وأسرتها المقيمة في دالاسالذين يجلسون في الصف الأمامي.

ما سمعه وشاهده المسلمون الحاضرون كان زعيما مشهورا ومحترما للجالية الإسلامية، بلحيته المشذبة ونظراته المتحمسة التي تدعوهم إلى الانضمام إليه في الجهاد - وهم يعلمون أنه يقصد النوع الروحي من الجهاد - وتطلب منهم إظهار التزامهم عبر تكرار عبارة "الله أكبر" بصوت مدو. وبدت لكنة جنوب آسيا في حديثه مألوفة ومريحة لغالبية الحاضرين حيث فاق عدد المهاجرين الشيوخ عدد الشباب المولودين في أمريكا. لكن ما شاهده الأمريكيون كان رجلا ملتحيا مصفر الوجه جامح النظرات يصرخ داعيا للجهاد عبر الميكرفون بلكنة أجنبية ليثير هياج الحاضرين ويدفعهم لتكرار صيحة "الله أكبر". ولأن الأمريكيين الحاضرين كانوا محاصرين بمئات المسلمين الذين يرتدون الزي الإسلامي التقليدي ويهتفون بكلمات مثل "الجهاد" و"الله أكبر" دون أي تفسير يشرحها، شعروا بالتهديد والترهيب. فإضافة إلى كل ما عرفوه، تأكد لهم الآن النمط المألوف: جهادي يحمل قنبلة يدوية ويصرخ: "الموت للكفار"، ويفجرهم جميعا في طريقه إلى جنة الخلد ليتمتع بحور العين اللاتي تحدثت عنهن وسائل الإعلام. عرفت أن كلمة "جهاد" تعني للأمريكيين العدوان العسكري الذي يشنه المسلمون، وأنهم سوف يسيؤون تفسيرها على الفور. لذلك، غيرت ملاحظاتي الافتتاحية لأفسر ما قصده الرجل بالجهاد، الذي لم يكن يعني العمل الحربي بل الحوار الروحي وتمكين الجالية الإسلامية فكريا وديمقراطيا داخل الولايات المتحدة.

الجهد الشاق والمخلص الذي بذله زعماء مسلمون، مثل محمد السنوسي، من الجمعية الإسلامية في أمريكا الشمالية، الذي كان حاضرا وقال فيما بعد إنه لم يشعر بالارتياح

لاستخدام كلمة "جهاد" في ذلك السياق، يتعرض للانتكاس والخروج عن الخط المرسوم بسبب ملاحظات وتعليقات يساء فهمها بكل سهولة. فإذا لم يعرف الإسلام بأسلوب حساس ثقافيا لغير المسلمين، فإن فجوة المعلومات المحيطة بالدين ستنمو وتتسع وتسمح بظهور المفاهيم الخاطئة والتصورات المغلوطة لمثلها وتشويه وتحريف التعريف الحقيقي والصحيح للدين. لكن مثل هذه الحساسية تبرز ببطء لدى الجالية الإسلامية، كانتخاب انغريد ماتسون، الأمريكية (البيضاء) التي اعتنقت الإسلام، والأستاذة البارزة في جامعة هارتفورد سيميناري، رئيسة للجمعية الإسلامية في أمريكا الشمالية منذ مدة قريبة.

بعض المسلمون يعرفون أنفسهم باعتزاز بوصفهم مسلمين أمريكيين، لا عربا، أو باكستانيين، أو من السود. وبذلك تكونت هوية جديدة. وعائلة الحسن مثال معبر في هذا السياق. فقد ولد مالك حسن في نيودلهي قبل استقلال الهند عام 1947، وهاجر إلى الولايات المتحدة في أواخر السبعينيات، ليمارس طب الأعصاب بنجاح في أرياف كولورادو. وأدى التزامه وإخلاصه لمرضاه إلى تأسيس منظمة للحفاظ على الصحة، صممت لتحدي الممارسات التقييدية والتقليدية لباقي مؤسسات ومنظمات المحافظة على الصحة. وبسبب دأبه ومثابرته، نمت المنظمة وتحولت إلى شركة "Fortune 100"، وهي إحدى الشركات القليلة التي يرأسها مسلم أمريكي. ونال جوائز على مقدرته التقانية من معهد "سميثونيان" ومن مجلة "فوربس".

وأصبحت زوجته سيمي حسن، خريجة كلية كينيرد في لاهور (بباكستان)، ناشطة لا تهدأ في بلدتهما بويبلو (بولاية كولورادو)، حيث تشارك في مختلف النشاطات المدنية وتجمع التبرعات لها، ومنها فرقة للعزف والباليه؛ وتنظم اختبارات وفحوصا للنظر لأطفال الأسر المحدودة الدخل؛ بل احتجت على التغييرات في المباني وأنواعها وترخيص بيع المسكرات في الأحياء السكنية. واشتهرت بمساعدتها للأطفال من ذوي الأصول اللاتينية، خصوصا إشراكهم في برامج الفنون التي كانت مقصورة في السابق على البيض فقط. ودعت المنظمة جائزتها السنوية الرئيسة "جائزة سيمي حسن للسلام". وعند تعيينها في مجلس كولورادو للفنون، أقر حاكم الولاية، الديمقراطي روي رومر، بجهودها المخلصة في مجال الفنون والتعليم، وبلغ مجموع ساعات العمل التطوعي الذي أدته عشرة آلاف. حماس

سيمي حسن الشخصي انتقل إلى الإشراف على "مؤسسة أسرة حسن"، التي ساهمت بما يزيد عن خمسة ملايين دولار في مختلف المجالات والقضايا في الولايات المتحدة. أما غرض المؤسسة الرئيس فكان تشجيع الفهم المتبادل بين المسلمين والأمريكيين، وهو هدف وضعته قبل الحادي عشر من سبتمبر. ركزت سيمي اهتمامها على تقديم ثقافة جنوب آسيا بطريقة إيجابية للمجتمع الأمريكي، فأسست شركة موسيقية (iSufiRock)، تنتج موسيقى جنوب آسيا، والموسيقى الصوفية المعزوفة بنغمات "الروك".

المنظمة الثقافية "سفير باكستان" والتلفزيون الباكستاني اختارا سيمي "امرأة العام". وبعد الحادي عشر من سبتمبر، ركزت جهودها الدؤوبة على إيجاد فهم أفضل بين المسلمين والأمريكيين، ومارست ضغطا خاصا على البيت الأبيض والكونغرس لإلغاء برنامج التسجيل الذي أقر بعد أحداث سبتمبر، ووقف حملات الاعتقال العشوائية للمسلمين، لاسيما الباكستانيين المقيمين في الولايات المتحدة. أدت هذه الجهود السياسية إلى تأسيس جمعيتي "المسلمون المؤيدين لأمريكا" و "المسلمون المؤيدون لبوش"[36]. وعمل الزوجان، سيمي ومالك، على ترويج وتشجيع الرعاية الصحية، والفن، والثقافة، والتعليم. وساهما بأكثر من مليوني دولار لجامعة كولورادوبويبلو، حيث تقع "كلية حسن للأعمال" و "مدرج حسن".

تابع الأبناء تراث الأبوين، حيث عملوا في مجالات الطب ووسائل الإعلام والمحاماة والفن: محمد علي مخرج أفلام يستخدم أفلامه غالبا لتسليط الضوء على قصص حياة المسلمين الأمريكيين، ويكتب باستمرار ويظهر على شاشات التلفزيون ليناقش قضايا السياسة الخارجية المتعلقة بالإسلام. علياء طبيبة وأسماء محامية، وكلتاها تدلي بأحاديث كثيرة وتجرى معها المقابلات حول الإسلام والمرأة المسلمة. أسماء ألفت كتابين عن الإسلام في أمريكا، وتصف نفسها بأنها "راعية بقر نسوية مسلمة" في كتابها: "لماذا أنا مسلمة: أوديسا أمريكية"[37]. وحين قدمتْ محاضرة أمام طلابي في الجامعة الأمريكية، استمتع الطلاب بحديثها ومقاربتها السهلة وعدم اهتمامها بشهرتها. وناقشت ظهورها في برنامج بيل ماهر "خاطئ سياسيا"، حين تناولت الزواج الإسلامي التقليدي. ولا ريب في أن عائلة حسن تمثل ما هو ممكن للأمريكي والمسلم في آن معا.

يمكـن أن يشكل المسلمون الأمريكيون مصدر قوة ونفع للولايات المتحدة. ومثلما أشار أحد الطلاب من واشنطن (في استبيان أجري قبل مدة): "(يمكن) للمسلمين في الغرب أن يوفـروا جسرا واصلا بين الجانبين. لكن الدول الغربيـة بحاجة إلى إدراك أن طريقة معاملتها للمسلمين في الداخل سوف تؤثر في سمعتها في العالم الإسلامي. أعتقد أيضا أن علـى الشباب المسلمين في الغرب التواصل مع أترابهم في العالم الإسلامي، عبر الإنترنت مثـلا، وتقاسـم تجاربهم في الغرب وما تعلموه عن الحريـة والحريات المدنية". أما الأمل الحقيقي لمستقبل المسلمين الأمريكيين فيكمن في جيل الشباب، الذي يشعر بروابط وثيقة مـع الولايات المتحدة، بعد أن نشأ وترعرع على موالفة وتركيب وجمع الثقافتين المختلفتين للآباء والوطن الجديد.

مـا زال المهاجرون المسلمون وأولادهـم في الولايات المتحدة متمسكـين بقوة بهويتهم الدينيـة، مع أنهم يعيشـون في ديمقراطية غربية. ويشابه ما اختـاروه من نماذج يحتذى مثالهـا تلـك التـي اختارها إخوانهـم في شتى أنحـاء العـالم الإسلامي. ومثلمـا كشفت الاستبيانـات الإضافية التي وزعت في / وحـول واشنطن، فإن الشخص الأكثر إلهاما من الماضـي للمسلمـين الأمريكيين هو النبـي، يتبعه أبو بكر وعلي وخديجـة. أما اختيار عمر وصلاح الدين، اللذين يعدهما المسلمون من القادة المنتصرين في تاريخ الإسلام، فيظهر الرغبـة في التطلـع نحو المثل الأعلى المطلـوب اليوم. النماذج الأخـرى شملت محمد علي (كلاي) ومالكـوم اكس، اللذين يراهما المسلمون مدافعين عن الإسلام صمدا في ظروف صعبـة وذاعت شهرتهما وانتشرت. ومـن النماذج الأخرى المثيرة للاهتمام التي اختارها المسلمـون الأمريكيون عيسى المسيح، وجلال الدين الرومـي، ومحمد علي جناح، وحمزة يوسـف (العالم الأمريكـي الذي اعتنق الإسـلام)، وعمرو خالد (الداعيـة الذي يحظى بالشعبيـة في الشـرق الأوسط)، واورانغزيـب (الإمبراطور المغـولي)، وآية الله الخميني (قائـد الثورة الإسلاميـة في إيران). ومن نافل القـول إن اورانغزيب والخميني يصنفان ضمن نموذج ديوباند. هنالك نسبة قليلة من المسلمين الأمريكيين اختارت بن لادن، وهذا خيار مفاجئ وجريء نظرا للجو السياسي المخيم على الولايات المتحدة.

ولأن المسلمـين يعيشـون في أوروبا منذ عهد أقدم بكثير مـن الولايات المتحدة، سوف يغنـي عبـور المحيـط الأطلسي النقاش حـول تعريف الإسـلام. ومن بين زعمـاء مسلمي

أوروبا، أبدى مفتي البوسنة مصطفى سيريتش إعجابه بالمفكرين المسلمين العظام - الغزالي وابن رشد وابن تيميه - واختارهم نماذج يحتذى مثالها، كما قال لي في الدوحة عام 2006 حين كنا نحضر مؤتمر بروكينغز حول العلاقات بين الولايات المتحدة والعالم الإسلامي. تحدث سيريتش (ذو البشرة البيضاء، الذي يرتدي ثوبا إسلاميا تقليديا ويعتمر طربوشا)، بأسلوب منطقي يميز المفكر الأوروبي: "أنا غاضب أشد الغضب على الغزالي"، مع علمه بأن ذلك يمثل استفزازا نظرا للتقدير الكبير الذي يكنه المسلمون للإمام الغزالي. وأضاف إنه يحب الغزالي جدا لكنه يشعر بأن مراجعة الذات التي قام بها في أواخر أيامه، أخذت الأمة إلى طريق خاطئ عبر إدانة الفلسفة والتبرؤ منها، ووضع بذلك سابقة تحمل مسؤولية كبت الفكر العقلاني في الإسلام. وقال وعلى محياه ابتسامة ساخرة: "عندما أقابل الغزالي في الدار الآخرة سوف أسأله عما فعله".

من بين المفكرين والفقهاء الذين يحظون بإعجاب سيريتش ابن تيميه الذي سادت آراؤه وانتشرت. إذ إن فلسفته المتشددة اخترقت وتخللت المدارس الدينية. ويبدو أن قراءته الحرفية للقرآن وحثه على العمل -مقابل تقرب الغزالي من الصوفية - يجتذبان مزاج المسلمين اليوم. فهو مثل أعلى للمجموعات الدينية في السعودية وباكستان. أضاف سيريتش بنوع من الأسف: "حان الوقت لنشاطية المسلمين العملية وعدم الاكتفاء بتكريس الجهود للمسائل الفكرية والمعضلات النظرية المجردة"، ملاحظا أن مسلمي هذه الأيام يعيشون في حقبة خطيرة من "عدم اليقين على الصعيد الثقافي" و"وازدراء الذات". ونتيجة لذلك، يتطلعون باستمرار إلى الماضي ليستمدوا منه إلهامهم: "تاريخنا هو تاريخ الماضي وتركنا المستقبل إلى الغرب". ويبدو أن سلسلة الكوارث لم تحدث تأثيرا. فنسبة 70% من اللاجئين في العالم هم من المسلمين، كما قال؛ وغالبية ضحايا تسونامي الذي ضرب آسيا والزلازل اللاحقة كانوا من المسلمين؛ ومعظم الحروب الراهنة تجري على أراضي المسلمين؛ ولم تحل حتى الآن مشكلات الفلسطينيين والكشميريين والشيشان. وأبلغني أن آلاف المسلمين قتلوا في بلاده (البلقان). وأنتجت كل أزمة عددا لا يحصى من اللاجئين والنازحين، وما زالت لائحة اللاجئين المسلمين تكبر واستياؤهم يتعاظم.

حين سألته بإلحاح عن الحل، بدا متفائلا إلى درجة غير عادية بعد التحليل المتشائم الـذي قدمه للتو. قال مؤكدا: "نحن بحاجة إلى فهم الغرب بصورة أفضل. وإقامة توازن في الاتجاهات والتوجهات في المجتمعات الإسلامية بين نموذج أتاتورك العلماني والنماذج الإسلاميـة الكاملة التي قدمها سيد قطب وأبو الأعلى المودودي (أي بين نموذجي عليكره وديوبانـد وفقـا لمناقشتنا في هذا الكتاب). الجواب، برأيـه، لا يتمثل في دمج المسلمين في الغرب، بل في التعاون بين مختلف الشعوب. ومع أنه غير متأثر ولا مقتنع بالقيادة الفكرية الإسلامية المعاصرة، إلا أنه يضع ثقته في المستقبل، معتمدا على التفاؤل الضمني المستمد من القرآن. وحين طلبت بإلحاح تفسيرا لندرة المفكرين المسلمين من أمثال الغزالي وابن رشـد، برغـم الموارد الهائلة التي يملكهـا المسلمون، وهي فكرة سهـل التعبير عنها ونحن جالسـان في الفنـدق الفخم المترف في الدوحة، وتحديته أن يقدم ولو اسما واحدا، ارتبك قليـلا ثم قال وقد تألق بريق في عينيه: "لكننا قدمنـا أكبر أحمد". وكانت العبارة وسيلة ذكية للتهرب من الجواب، وإن سرني سماعها من أحد أبرز المفكرين المسلمين.

بسبـب الافتقـار إلى مثل هذه القيادة، لا يعرف المسلمـون في شتى أنحاء العالم ماذا يفعلـون أمـام رياح العولمة التي تهب عليهـم وإن تمثلت ردة فعلهـم في الغضب[38]. فبعد الحـادي عشـر من سبتمـبر 2001، ربط معظـم الغربيين الإرهابيـين المسلمين الشباب بالعـرب لأن منفـذي الهجمات التسعـة عشر كانوا منهـم وأتوا من بلـدان عربية. وساد افتراض يقول إن المسلمين الذين يعيشون في الغرب اندمجـوا كليا في المجتمع ولم يمثلوا تهديدا محتملا لأمن الدول الغربية. لكن أتت الصدمة حين تبين أن العديد من المسلمين المتورطـين في المحاولة المجهضـة لتفجير طائرات ركاب مدنية فـوق المحيط الأطلسي في صيف عام 2006 هم مواطنون بريطانيون من أصل باكستاني.

لم يفاجئني الأمر تماما لأنني رأيت - وكتبت عنالتغييرات الدرامية التي كانت تحدث طوال جيل كامل في الجالية الباكستانية المقيمة في بريطانيا وفي المجتمع البريطاني. أتيت إلى بريطانيـا أول مـرة في الستينيات طالبـا جامعيا، وعدت مرة أخـرى في السبعينيات للحصـول على درجـة الدكتوراه، ثـم عدت مرة ثالثـة في أواخر الثمانينيـات للانضمام إلى جامعـة كيمـبردج كمدرس زميل، حيث بقيت حتـى تعييني مندوبـا ساميا لباكستان

في المملكة المتحدة بين عامي 1999. 2000. وبحلول نهاية القرن، شكل الباكستانيون أكبر مجموعة إثنية بين المسلمين البريطانيين، والعديد منهم عاشوا في مجتمعات محلية معزولة في البلدات الشمالية. وخلافا للجيل السابق، فقد ولد هؤلاء المسلمون في بريطانيا ولم تكن لديهم النية للعودة إلى الوطن الأم. ونظرا لأنهم حرموا السلطة السياسية والاقتصادية الحقيقية وكانوا هدفا مستباحا للعنصرية والتمييز، أغضبهم وأحنقهم تصوير وسائل الإعلام لدينهم وثقافتهم بطريقة سلبية، وهي حملة تكثفت واشتدت خلال الجدل الخلافي الذي ثار حول رواية سلمان رشدي "آيات شيطانية"، حيث صور المسلمون على هيئة مجتمع محلي غاضب يحرق الكتب ويمنع حرية التعبير. وكان تركيز وسائل الإعلام هذا - برأيهم - جزءا من هجوم صاعق ما بعد حداثي يستمد إلهامه من الغرب ويستهدف المسلمين وتقاليدهم وقيمهم التي يعتزون بها[39].

شهدت في كيمبردج (في التسعينيات) هذه الاتجاهات والنزاعات تتطور في مجتمع الجالية الإسلامية في بريطانيا، وشعرت بالقلق لذلك: في إحدى الحالات، استولى شباب متطرفون وملتحون، وقد تأثروا بالسياسة الإيرانية، على مسجد محلي ومنعوا الشيوخ الذين كانوا يديرونه ذات يوم من دخوله؛ في حالة أخرى، هددوا بمنع/ والاعتداء بالضرب على أي مسلم يشارك في مناسبة نظمتها الجمعية الباكستانية للرقص الفلكلوري الشائع في أرياف البنجاب بوصف الرقص ممارسة غير إسلامية[40]. ومع تصاعد التوتر في المجتمع الإسلامي، وبقاء أسباب مشكلاته المعقدة دون حل، خشيت من مواجهات أكثر مأساوية، وربما عنيفة في المستقبل إلا إذا تقدم الزعماء المسلمون والبريطانيون لمعالجة المشكلة المتفاقمة بحكمة وتعاطف وتراحم.

كتبت - مع كثيرين غيري - تعليقات على ما كان يحدث، وشاركت في المبادرات الهادفة إلى تعزيز التفاهم بين الأديان، وكنت عضوا في لجنة رونيميد لدراسة مشكلات المسلمين في بريطانيا واقتراح التوصيات المناسبة[41]. فضلا على ذلك، تكرر ظهوري في وسائل الإعلام لأتحدى بعض التوجهات في المجتمع المسلم[42]. وفي هذا السياق بالذات - الحاجة إلى تفسير وشرح القضايا الإسلامية أمام المسلمين وغير المسلمين - أطلقت مشروع "رباعية محمد علي جناح" لإحياء نموذج عليكره، ولسوف أناقشه في موضع لاحق من هذا الفصل.

مثلت التسعينيات علامة دالة على نضج جيل جديد من المسلمين تعرض للتهميش أساسا بل للإقصاء عن التيار الغالب في المجتمع، لا في بريطانيا وحدها بل في بقية بلدان أوروبا أيضا. ومع أن المسلمين هاجروا إلى المنطقة نتيجة تجارب ودوافع تاريخية مختلفة المهاجرون القادمون من جنوب آسيا توجهوا غالبا إلى بريطانيا، في حين قدم المهاجرون من شمال إفريقيا إلى فرنسا وإسبانيا، وتوجه الأتراك إلى ألمانيا إلا أن المبادئ التكوينية للمزاج العام الجديد السائد بين هؤلاء المسلمين متشابهة ومتماثلة. وفي سياق نماذجنا الثلاثة، يمكن رؤية نموذج أجمر يبهت ويضمحل، ونموذج عليكره يضعف ويهمش، بينما يكتسب نموذج ديوباند مزيدا من الأتباع ويزداد رسوخا وثقة. نموذج ديوباند هو الذي سيطر على عناوين الأخبار في وسائل الإعلام الغربية، وأقنع الناس بهامشية وعدم أهمية النموذجين الآخرين.

ساهم عدد من التطورات الدولية والمحلية في حالة الغضب والتحدي الجديدة بين المسلمين. فنجاح الحرب الأفغانية في إلحاق الهزيمة بالاتحاد السوفييتي، وحماسة ثورة الخميني الإسلامية في إيران، وفتواه بإهدار دم سلمان رشدي، وتزايد العنصرية ضد المهاجرين المسلمين، أقنعت المسلمين بالكف عن قبول ما يتعرضون له من ظلم باستكانة وسلبية، مثلما كان يفعل آباؤهم المهاجرون[43]. ونفد صبرهم في نهاية المطاف حين تعرض المسلمون للقتل والاغتصاب في كشمير والشيشان والبلقان - وتجسد ذلك بأوضح صورة في مذبحة سربرينتشا، حيث ذبح آلاف المسلمين - وشاهد العالم فصولا من المذبحة على شاشات التلفزيون - وهم في حماية قوات الأمم المتحدة. ودفع الغضب العارم المسلمين إلى رؤية الحاجة إلى الفاعلية واليقظة والانتباه للشؤون الدولية. وشعر الكثيرون منهم بأنهم مهما اندمجوا وتغربنوا فإن "إسلامهم" سيحرمهم القبول بهم جزءا من المجتمع الغربي. ولسوء الحظ، لم تكن ردة فعل المسلمين تتصف بالحكمة أو المعرفة أو العقلانية المتروية. وكان هذا الافتقار إلى الاستجابة المترابطة والشاملة يعني في دلالته أن آخرين يستطيعون بسهولة تعريف الإسلام. هذه البيئة الثقافية هي التي أنتجت تفجيرات لندن عام 2005، ومحاولة تفجير الطائرات المدنية عام 2006.

لكن برز اتجاه غير متطرف من هذه البيئة أيضاً عرف الإسلام بوصفه دينا مسالما ويقبل الآخر. توضح هذه النقطة الخيارات المختلفة التي اتخذها طالبان من أصل

باكستـاني في كلية لندن للاقتصاد في أوائـل التسعينيات. إذ عاصر كل منهما الآخر دون أن يلتقـي به، ووقـف نفسه لما عده قضايـا إسلامية. أحدهما، عمر شيـخ، قرر المشاركة في القتـال في سبيل حقوق الكشميريين، فأسرته السلطـات الهندية، واشتهر بكونه طالبا درس في إنكلترا وتهيأ (وفي ذلك مفارقة ظاهرة) لارتكاب أعمال إرهابية، ثم نال سمعة سيئـة بوصفـه المتورط الرئيس في عمليـة القتل الوحشية التـي راح ضحيتها دانييل بيرل في كراتشـي عـام 2002. الطالبة الأخرى، أمينة أحمد، ابنتـي، اتبعت أساليب إسلامية أكثر تقليدية لبناء الجسور عبر المعرفة والصداقة. فبعد تخرجها، نالت شهادة الدكتوراه في الأنثروبولوجيـا من جامعة كيمـبردج واتجهت نحو ميدان الحوار بـين الأديان والفهم المتبـادل بمساعـدة ودعم زوجهـا إرسال الله خـان هوتي. ثم عـادت إلى باكستان للعمل الميـداني، لتنقل بعد ذلك تجاربهـا وخبراتها مع المجتمع الإسلامـي إلى بريطانيا، حيث تركزت بؤرة اهتمامها على الجيل الشاب من المسلمين. في عام 2006، عينت مديرا لأول مركـز يهوديإسلامي في كيمـبردج، الذي افتتحه السير جوناثـان ساكس، كبير حاخامي بريطانيا في الأول من شباط/ فبراير 2007.

اختلفـت استجابتـي أمينة أحمد وعمر شيـخ لتحديات الحيـاة والعيش كمسلمين في عصر العولمة. ويبقى على أوروبا أن تقرر هل ترغب برعاية جيل مستقبلي من أمثال عمر شيخ أو أمينة أحمد، وتطوير استراتيجية مناسبة للتعامل مع الجالية الإسلامية.

لـن تكون المهمة يسـيرة، فحتى البلـدان الإسلاميـة الحديثة، مثل تركيـا، التي تعد نفسها أوروبية لا آسيوية، تواجه مشكلات في إيجاد توازن مناسب بين الإسلام والحداثة. وتركيا، التي يستشهد بها الغرب كنموذج للعلمانية والتقدم يجب أن تحتذي مثاله البلدان الإسلاميـة الأخرى، في وضع غير مستقر تتأرجح فيه بين الشرق والغرب. فقد جهدت في ظـل تراث مؤسسها، كمال أتاتورك، للتشبث العنيد بالعلمانية، والنظر بثبات جهة الغرب طلبـا لدعمه السياسي والعسكري والاقتصـادي، في حين أبعدت نفسها عمدا عن تاريخها الإسلامي وهويتها الإسلامية طوال معظم سنوات القرن الماضي. وعلى الرغم من الزعم بأنهـا ديمقراطيـة إلا أنها قمعت بشدة أي علامات خارجيـة تدل على الدين - خصوصا نمـوذج ديوباند المتشدد - عبر حظر الحجاب مثـلا، ومنع إطالة اللحى. وتتمسك الدولة بعناد بالعلمانية الصارمة.

لكـن الديـن الإسلامي بقي قويـا في تركيا، وهو يتحرك في اتجاهـات تثير الاهتمام. فقد هيمن على آخر انتخابات أجريت في تركيا حزب العدالة والتنمية وهو حزب سياسي حديـث متمسك بالهوية الإسلامية. ومنذ نهوضه، ظهـرت المحجبات في الأماكن العامة، رغـم استمرار حظر الحجاب في الدوائر الرسميـة، حيث وجد فريقنا أن هذا النظام ما زال يطبـق بأسلوب صـارم. ولم يسمح لمساعدتي، هاديا، بالدخـول إلى بعض الجامعات لأنهـا محجبة. في الوقت ذاته، فإن موجة التدين والعـودة إلى الإسلام تقلق بعض الذين ترعرعـوا في ظـل الـروح العلمانية التي سـادت في القـرن الماضي. غونسيـل رندا، وهي شخصيـة عامة بـارزة ومختصة بتاريخ الفن، رفضت مستنكـرة الظاهرة الجديدة ذات التعبيـرات الإسلاميـة. وبصفتها مؤيدة متحمسة وعنيدة لكمـال أتاتورك، دعت النزعة نحو الحجاب "سخيفـة" و"مروعة" و"مشوشة"، وانتقدت العـرب انتقادا مريرا محملة إياهـم مسؤولية إدخال هذا النوع الجديد، والغريب في نظرها، من الإسلام، عبر وسائل الإعلام ربما أو مختلف البيئات والأوضاع الروحية.

وفي حـين يسبب الحجاب بعض التوتر بوصفه رمـزا للماضي المتخلف والشكل الأكثر تشددا وتزمتا مـن الإسلام، ظهرت نزعة أخرى تطور جاذبية واسعة النطاق: الصوفية، أو مـا أدعوه نموذج أجمـر. ونظرا لقدرتها على امتصاص أي موقف روحي مع الحفاظ علـى نوع من التوازن الداخلي، تمكنـت الصوفية حتى من دمج أتاتورك نفسه، وهو الذي حظـر أي رمـز يعبر عـن الإسلام. وحـين حضرت حفلـة للرقص الصـوفي التقليدي في استنبـول، نظمتهـا "جمعية محبي مولانا المعاصرة" (تأسسـت عام 1989)، كان المكان مملـوءا عن آخره. أتى الـزوار (بمظهرهم الرقيق الطيب) من شتى أنحاء العالم، ومنها الولايات المتحدة. أما الكتيب الرسمي للجمعية فقد احتفى بـ"محمد المعظم وعلي المعظم ومولانـا المعظم (جلال الديـن الرمي)، والبطل والمعلم مصطفـى كمال أتاتورك". فعبر تجميـع أعظم الأسماء الإسلامية مع أشهر منتقدي الإسلام، أتاتورك، أظهر الصوفيون أن بمقدورهـم عكس مد العلمانية بفلسفتهـم القائمة على القبول بالجميع. وبعد أقل من قرن على وفاة أتاتورك، عاد الدين بحيوية جديدة.

الصوفيـة تظهـر حتى في صـالات المعارض التي يعرض فيهـا أحدث فنـاني تركيا أعمالهم. فسلسلة الإسراء والمعراج - التي حملت اسم رحلة النبي الليلية الشهيرة الواردة

في القرآن - مجموعة مدهشة في جمالها للفنان ايرول اكيافاس تصور الزمن والكون والنجوم والكواكب كرموز للرحلة المعجزة، وتعرض في صالة "نيوغاليري" في استنبول. ووفقا لمدير الصالة، أصبحت الصوفية الآن شكلا شائعا للتعبير يحظى بالشعبية لكن يقع خارج مجال الإسلام التقليدي الذي ينادي به رجال الدين المتشددون. وبطريقتها المسالمة، تحمل الصوفية الحجة على القبول والتسامح قدما إلى الأمام. هنالك مجموعة لوحات أخرى تجمع الموضوعات المثلية مع فن الخط الصوفي، لكن اتفقنا أنا والمدير على أن العديد من المسلمين، حتى أتباع نموذج أجمر، سيجدون مثل هذه الموضوعات مثيرة للجدل والخلاف.

في محاولة لاستخلاص معنى منطقي من هذه الاتجاهات في تركيا، قضينا أمسية في حديث مع واحد من أبرز المفكرين الأتراك، ميم كمال اوك. وكنت قد التقيت اوك في الثمانينيات حين كان شابا يعيد اكتشاف هويته الإسلامية في بيئة صعبة بل معادية تقريبا للهوية الدينية. وأصبحنا صديقين، ثم قام بترجمة كتبي إلى التركية. في هذه المرة وجدته في حالة سلم ووئام غريبة مع مجتمعه، لكنه انسحب منه إلى حد ما.

الصدام الحالي في العالم الإسلامي، برأيه، يدور بين شكلين من أشكال الإسلام. أحدهما يشدد على العنف والحرفية / النصية، كما يجسده بن لادن، والآخر يؤكد الحب والسلام. وهذا الشكل الأخير، الصوفية، هو "الإسلام الحقيقي". وفي مجتمع يفتقر إلى الحب والعدل كليهما، يستطيع رجال مثل بن لادن التلاعب بعواطف المسلمين بسهولة أكبر، خصوصا حين تهمش سمة الصوفية المميزة القائمة على التأمل الذاتي والمتعمق والانسحاب من العالم المادي في الجدل الخلافي داخل الإسلام. في العادة، تفوز أكثر الحجج تأكيدا وإقناعا بانتباه الناس. والمتصوفة لا يؤمنون بالاشتباك أو الانخراط الفاعل في الشؤون الدنيوية بل يفضلون الهدوء والسكينة والتأمل بالمقدس والإحسان والتعاطف مع الإنسانية دون رغبة شخصية في السلطة.

مع أن ظهور الشكل الجديد من الإسلام في تركيا مغلف بلغة وروح العشق الصوفي والتعاطف والتراحم، إلا أن من المتعذر رؤيته بمعزل عن سياقه السياسي والثقافي. فإلى جانب الرغبة في إعادة الاتصال بالماضي، نجد نزعة قوية إلى توكيد الهوية التركية

وحراستهـا من شرور وآفات العولمة، كما تعبر عنها المشاعـر المعادية بشدة لأمريكا. لقد فوجئنا حين تبين لنا أن المشاعر المناهضة لأمريكا أقوى وأوضح في تركيا من أي بلد آخر زرنـاه في رحلتنا[44]. لا ريب في أن رفض الاتحـاد الأوروبي باستمرار قبول عضوية تركيا قـد أضـاف إلى هذه الموجة الكاسحة مـن المشاعر القومية التركية. وأكـدت لقاءاتنا مع الأحزاب العلمانية والإسلامية انطباعنا بأن الإسلام يعاود ظهوره واكتساحه الساحة. وفي حين يتطلع الأتراك إلى الغرب لتحقيق بعض التقدم التقاني والمجتمعي، إلا أنهم يفخرون بالصوفية التقليدية التي تحظى باحترام واسع النطاق. هذه الثورة الهادئة - البعيدة عن الصخب أو العنف أو حتى الظهور المباشر - لم يلحظها الغرب، رغم أنها تؤشر بقوة على العودة إلى الإسلام والتوكيد على الهوية، عبر الاحتجاج والاعتراض على التيارات المقلقة للعولمة، حتى إن تزيت بلبوس الحب والرحمة والإحسان والعشق الصوفي.

عـبرت الاستبيانات المتعلقة بالمثل الأعلى توجهات لافتة. فنظرا لأن أشهر المتصوفة، جـلال الديـن الرومـي، مدفون في قونيـة (بتركيـا)، لم تفاجئنا شهرتـه وشعبيته. ومن بين النمـاذج المعاصرة التي يحتذى مثالها اختارت أغلبيـة ساحقة من المبحوثين الكاتب والناشـط الصـوفي فتـح الله كولـن. وقالت طالبـة في التاسعـة عشرة (تقيـم في سكن الطالبات) إنها تشعر بأن كولن "يذكرنا بالإسلام الذي نسيناه".

يحظى كولن بمتابعة كبيرة وأتباعا كثيرين في الولايات المتحدة حيث يعيش، وذلك كما اكتشفنا حين دعيت لإلقاء خطبة افتتاحية أمام مؤتمر عقد لتكريمه في جامعة اوكلاهوما (تشريـن الثاني /نوفمبر 2006). كنت قبل ذلك قـد زرت محمد سيتين، وهو شخصية بـارزة ومهمة فيما يسمى حركة كولين في الولايات المتحـدة، وطلبت منه أن يذكر شاهده المفضـل من أقوال كولين. تلا الرجل الملتـزم دينه الذي يرتدي الثياب الغربية دون تردد: "كن متسامحا إلى حد أن يصبح صدرك وسع المحيط ويترعه الإيمان والحب للبشر. لا تترك نفسا معذبة لا تمد لها يد العون أو لا تهتم بها"[45]. رسالة كولن هي أن الإسلام لا يقتصر على الأقوال فقط بل الأفعال أيضا، وطريقة ذلك اكتشاف الحب: "لا يمكن بدون حـب أن تسمو نفس إلى أفق الكمال الإنساني.. وأولئـك المحرومون من الحب، والعالقون في شبـاك الأنانيـة، عاجزون عن حب أحد ويموتون غـير مدركين للحب المنغرس في عمق كينونة الوجود"[46].

حفظ كولن القرآن، كما يقول محمد سيتين، حين كان في الرابعة، وعندما بلغ التاسعة أصبح شيخا صوفيا استمد إلهامه من الشيخ الصوفي الشهير نفسه، جلال الدين الرومي. وبعد بضع سنوات قال له مدرسوه إنه لم يعد بحاجة للمزيد ليتعلمه وطلبوا منه أن يخرج إلى العالم ليصبح داعية. هنالك أكثر من ألف مدرسة وكلية متأثرة تأثرا مباشرا بتعاليم كولن، كما يقول سيتين، تؤكد اللاعنف والحب وتنفر من السياسة الحزبية. في استنبول، كان يجتمع في ذروة شهرته أربعون ألفا لسماع محاضراته، معظمهم من الطلاب.

في عام 1999، اتهمت الحكومة التركية كولن، كما أضاف سيتين، بالإرهاب والخيانة، مع أنه ظل يهاجم في محاضراته الإرهاب والفوضى طوال ربع قرن. فضلا على ذلك، أدان بشدة في الثاني عشر من سبتمبر 2001 الإرهابيين الذين سددوا ضربتهم إلى الولايات المتحدة. ولحسن الحظ، ساد المنطق والعقل، وأسقطت التهمة الموجهة إلى كولن، لكن غادر تركيا واستقر في الولايات المتحدة. كانت البيئة السائدة في تركيا معادية للتعاليم والرموز الإسلامية العلنية. وخلال السنوات القليلة الماضية طردت أكثر من 44 ألف طالبة محجبة من الكليات والجامعات التركية.

عندما قابلت باربرا بويد، مديرة دراسات الحوار بين الأديان بجامعة اوكلاهوما، كولن، شعرت بأنه "يشبه المسيح". وحين سألتها لماذا قارنت مسلما بالمسيح، قالت: لأن "ألق الحب يشع منه". هذه الكلمات مهمة في دلالتها لا لأنها أتت من مسيحية فقط بل لأن اوكلاهوما جزء من "الحزام الديني" في الولايات المتحدة. وكانت بروحها الكريمة تعبر عن جوهر المسيحية. استمالها كولن إلى جانبه عندما قال إن عليها ريادة تغيير المواقف في العلاقة بين المسلمين وغير المسلمين. ولا يمكن لي أن أتصور طلبا مشابها يأتي من أتباع نموذج ديوباند أو حتى عليكره.

كنت أحاول فهم كولن من خلال سيتين، لكنني أخفقت في تعرف جوهر شخصيته إلى أن سألت سيتين عن استجابة كولن لذكر النبي. قال إنه يبكي كلما ذكر اسم النبي ويقف إجلال واحتراما. وكما شرحت في خطبتي في اولاهوما، يفسر هذا الحب العميق الذي يكنه المسلمون للنبي سبب الغضب الشديد الذي يتملك بعضهم حين يتعرض للإهانة. طلبت من وهاب اوسال، وهو أستاذ جامعي تركي يجلس بين الحضور، أن يشرح ما يعنيه

الرسول له. وحين وقف اغرورقت عيناه بالدموع وبدأ يرتجف ويرتعد من فرط التأثر، ثم انتحب بطريقة خارجة عن السيطرة. دموعه عبرت عن كل شيء كما قال هامسا قبل أن يجلس. قالت باربرا أنها رأت الدموع في عيون الكثيرين من الحضور. وحتى الصحفيين في منطقة "الحزام الديني" اعترفوا بهذا الاستعراض العلني للعواطف الجياشة والحب للنبي. وذكرت الصحيفة المحلية أنه:

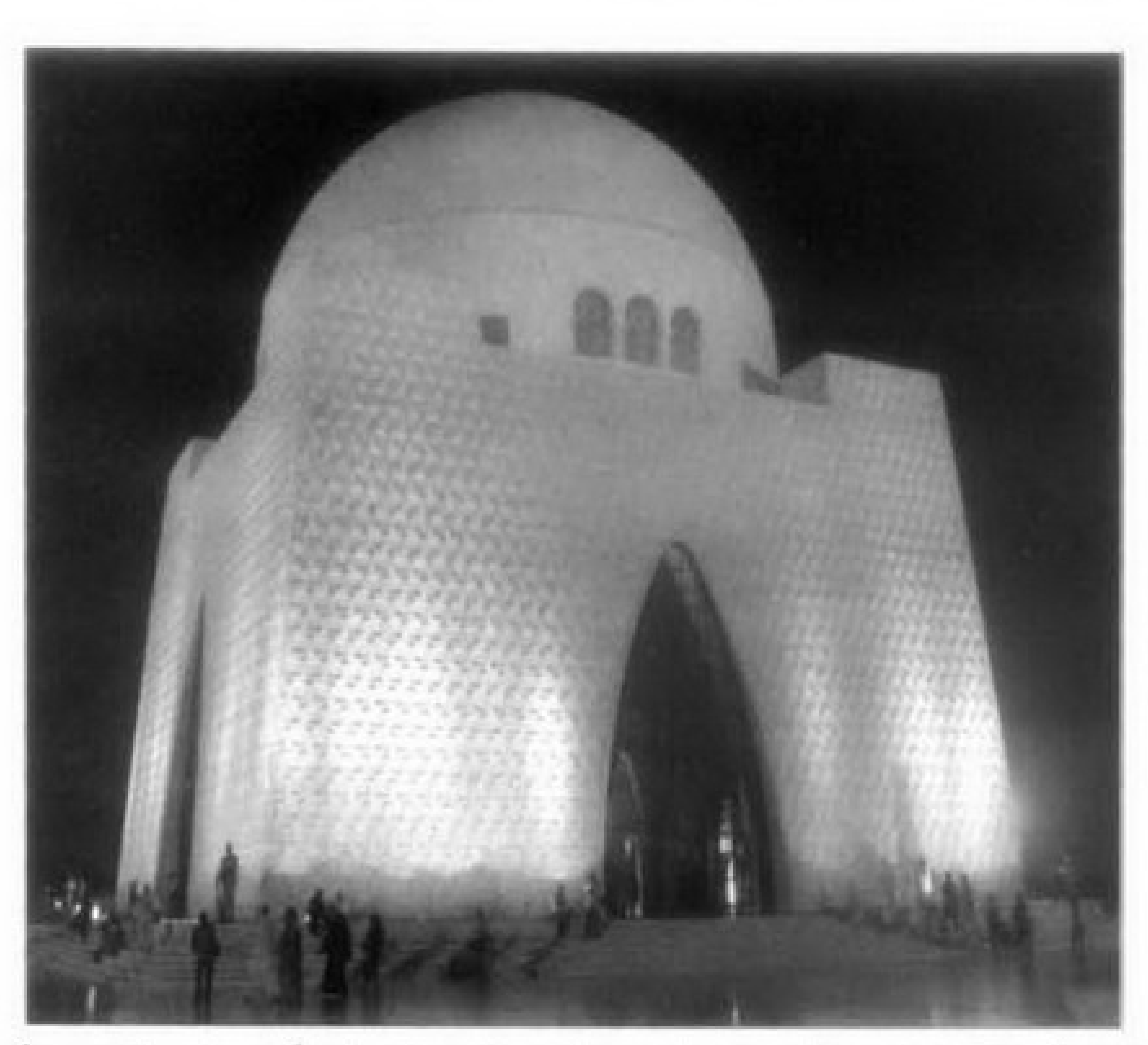
بحلول الوقت الذي وصل فيه "الميكرفون" إلى يد الرجل، فقد أو كاد السيطرة على صوته المرتجف النائح. وقال: "لا أستطيع أن أعبر إلا بالدموع". وقال أكبر أحمد إن هذا الحب للنبي يملك نفوس المسلمين جميعا ولا يمكن مقارنته إلا بحب المسيحيين للمسيح. "ويمكن للحب الجارف أن يتحول بسهولة إلى عنف كاسح"، كما قال أكبر أحمد.. وأضاف إن المسيحية والإسلام سفينتان تبحران على مسار تصادمي في عرض المحيط. والجهود التي تبذلها حركة كولن مثلا سوف "تغير اتجاه إحدى السفينتين وتمنع تصادمهما"(47).

النتائج الميدانية

اختار كثير ممن تحدثنا معهم في العالم العربي، خصوصا في قطر، يوسف القرضاوي قدوة لهم. ساءت سمعة القرضاوي في الغرب حين اكتشف المعلقون الغربيون، الذين راجعوا بدقة بعد الحادي عشر من سبتمبر الكتب التي ألفها العلماء والدعاة المسلمون، كتابا للقرضاوي يحمل عنوان "الحلال والحرام في الإسلام"، قدم فيه الحجة على أن العمليات الانتحارية التي يقوم بها المسلمون جائزة ومبررة شرعا حين تتعرض الأمة للهجوم، مثلما هي الحال في فلسطين. القرضاوي يتناول أيضا السلوك اليومي، بدءا بالنظافة مرورا بالجنسانية وانتهاء بالصلاة، وهو يناقش حاليا موضوعات مشابهة على شاشة التلفزيون. ومع أنه يقدم إرشادات مفيدة تعين مستمعيه على المستوى الشخصي، إلا أن مناقشاته تدعو المسلمين إلى العمل الاجتماعي أيضاً.

عملنا - بغرض المقارنة - على تجميع الإجابات عن أسئلة الاستبيان المتعلقة بالنماذج التي يحتذى مثالها في العالم الإسلامي حسب المنطقة. وهكذا وجدنا أن علي بن أبي طالب، الخليفة الرابع، يحظى بشعبية أكبر في جنوب آسيا مقارنة بالدول العربية، والسبب يعود

أساسا إلى حقيقة وجود عدد أكبر من الشيعة هناك. ثانيا، اختار الباكستانيون محمد علي جناح مؤسس جمهورية باكستان الإسلامية نموذجا تاريخيا يحتذى مثاله بعد النبي والخلفاء الراشدين. ثالثا، حظي الرسول وعمر بن الخطاب بأكبر قدر من الشعبية بوصف كل منهما مثلا أعلى في الهند (مثلما هي الحال في معظم البلدان الأخرى). الشخصيات التاريخية الأخرى التي حظيت بالشعبية شملت حسن البنا، ومحمد بن عبد الوهاب، وابن تيميه، الذين مثلوا التراث الإسلامي التقليدي لنموذج ديوباند وكانوا استبعاديين في مقاربتهم. حسن البنا أسس جمعية الأخوان المسلمين في مصر، ومحمد بن عبد الوهاب أسس الحركة الوهابية في السعودية، في حين ألهم ابن تيميه الذي عاش قبل قرون، الاثنين معا. من النماذج الأخرى التي يحتذى مثالها في جنوب آسيا محمد إقبال، الشاعر والفيلسوف الباكستاني، والسير سيد أحمد خان. وبرز ممثلو النماذج الثلاثة - أجمر وديوباند وعليكرة بصورة واضحة في جنوب آسيا.



ضريح محمد علي جناح في كراتشي، الذي يستقطب عددا كبيرا من السياح، أقيم تخليدا لمؤسس أكبر أمة إسلامية في العالم، عام 1947. أدى موت جناح المبكر إلى إيجاد الظروف الملائمة للحكم العسكري، لكن رؤيته للنظام السياسي الإسلامي الحديث ما تزال تمثل تحديا لم يتحقق.

في ماليزيا وإندونيسيا، اختارت غالبية المسلمين الرسول والخلفاء الراشدين نماذج يحتذى مثالها. إضافة إلى ذلك، ظهرت إشارة واضحة إلى الشخصيات الفكرية في

التاريخ الإسلامي، من ابن خلدون وابن سينا والخوارزمي إلى الإمام الغزالي والإمام الشافعي. ولم يكن من المفاجئ أن نكتشف تراثا فكريا قويا في ماليزيا، لأن المسلمين هناك اعتمدوا بدرجة أكبر على النصوص والكتابات كمصادر رئيسة، مقارنة بالبلدان الأخرى.

في مصر أكدت البيانات والمعطيات التي جمعت خلال رحلة سابقة بمساعدة كريستيل كول، وهي طالبة في الجامعة الأمريكية أيضا، ما وجدناه في رحلتنا الطويلة في العالم الإسلامي. اختار بعض المبحوثين أسامة بن لادن وياسر عرفات نموذجين معاصرين يحتذى مثالهما. ومع أن كثيرا منهم ربما لا يؤيدون آراء بن لادن عن الإسلام، إلا أنهم يشعرون بأنه "يمثل قوة في وجه التأثير الذي قد يفسد الدين". ولم يكن من المفاجئ رؤية جمال عبد الناصر على لائحة النماذج التي يحتذى مثالها في مصر. فقد استطاع بشخصيته الكاريزمية الآسرة أن يسحر العالم العربي في الخمسينيات والستينيات، وما زالت ذكراه تملأ بعض محبيه بالحنين إلى الماضي. هنالك شخصية أخرى استحضرت مشاعر الاعتزاز الوطني هي أم كلثوم، المطربة المصرية الشهيرة. في حين بقي النبي أعظم مثل أعلى ملهم من الماضي. وبدا الحجاب أكثر انتشارا من قبل وكان ظاهرا في كل مكان.

الموضوع المشترك الذي تكرر في الاستبيانات والمقابلات هو سوء تمثيل وتقديم المسلمين في وسائل الإعلام، بل عد "مؤامرة". فمن بين مئات الصور، كما يشتكي المسلمون، لا تختار وسائل الإعلام الغربية لعرضها باستمرار سوى تلك التي تظهر رجالا ملتحين غاضبين أو مشاهد العنف. فضلا على أن الكثيرين في الغرب قبلوا تماما هذا التمثيل المغلوط والمشوه بوصفه حقيقة واقعية.

تحظى وسائل الإعلام الآن بحضور قوي في شتى أنحاء العالم الإسلامي. ففي كل مدينة، تنتصب الأطباق اللاقطة حتى على بيوت الفقراء - وتلك حالة محفوفة بالخطر وتفاقم حرب الأفكار. فما يختار الناس مشاهدته يكوّن نظرتهم إلى العالم وأفعالهم وتصرفاتهم، في العالم الإسلامي وفي الولايات المتحدة. وبذلك تمارس وسائل الإعلام تأثيرا نافذا فيما يحدث فعلا في العالم وفي وجهة الشؤون الدولية. وإلى جانب التقانة

ووسائــل النقل عبر العالم، عززت وسائــل الإعلام الروابط الجامعة بين المسلمين، وذلك عــبر بث الآلام التي تعانيها الأمة - حيث يظهر التلفزيــون نساء وأطفال المسلمين يقتلون كل يــوم ويمكن أفــراد "عائلة" المسلمين من تقاسم قصصهــم وحكاياتهم. وما كانت في الماضــي حوادث ومشكلات معزولة أصبحت الآن عديدة ومتلاحقة لها تفرعات وتشعبات محفوفــة بالخطر. إضافة إلى ذلــك، تراجع مستوى التفكير المسؤول فيما يتعلق بما يجب ومــا لا يجب عرضه على شاشــات التلفزيون، في خضم ثقافة سائــدة تقوم على الاندفاع والتهور والعواطف الملتهبة التي تثيرها وتهيجها العولمة.

من قطر إلى إندونيسيا، تنتشر المحطات الفضائية والإنترنت لدى الأغلبية الساحقة من المسلمين، وأبلغنا الكثيرون أن الـ "بي بي سي" و"سي ان ان" تمثلان المصدر الرئيس للأخبــار، إضافــة إلى الإنترنت. بكلمات أخرى، يستطيع المسلمــون في شتى أنحاء العالم رؤية كيــف يوصفون بأنهم "إرهابيون" و"متطرفون". وما فاقــم إحباطهم وخيبة أملهم، ندرة الإحصائيات المتعلقة بقتلاهم من المدنيين العزل في العراق وأفغانستان، وهذا يشير في دلالته إلى غياب التعاطف مع معاناة المسلمين وآلامهم. وبدلا من أن تكون نزيهة وغير منحازة بقدر المستطاع، تعد تقارير وسائل الإعلام الغربية مصابة بالخوف الرهابي من الإسلام دون داع ولا تبدي أي حساسية أو تعاطف مع المسلمين. نتيجة لذلك، ترتاب حتى الغالبية الساحقة من المسلمين "المعتدلين" الذين لا يعدون إرهابيين ولا يرغبون في إطالة الحرب على الإرهاب، في الولايات المتحدة، وتقلقهم وتزعجهم سياساتها.

ذكــرت طالبة جامعية في الأردن وقــد ملأها الغضب أن البرامــج التي قدمتها اوبرا وينفري وتناولت ثقافات العالم، أظهرت أفضل ما في كل ثقافة، باستثناء تلك السائدة في الشرق الأوسط، حيث صورت الثقافة العربية عبر مقابلة مع ضحية للعنف في الأسرة. وما فاقــم المشكلة غياب الأصوات الإسلامية التي تتحــدث عن مجتمعاتها في وسائل الإعلام الغربيــة. وهكذا تــرك المسلمون ليعجبوا بأمثال صدام حســين ومحمود أحمدي نجاد، أو أي زعيم ينفس عــن غضبهم وحنقهم ويعبر عن إحباطهم وخيبة أملهم. فانحصر تأثير القنــوات الإخبارية دون قصد في مفاقمــة المشكلات المستعصية بين الحضارتين بدلا من ترويج الفهم المشترك والحقيقة.

ولم تجعل وسائل الإعلام في البلدان الإسلامية الأمور أفضل حالا[49]. فقناة الجزيرة، التـي تعد "ردا" إسلاميا على "فوكس" و"سي ان ان" وتشاهد على أوسع نطاق في العالم العربـي، تعرض صور المذابح وأعمال القتل والدمار التـي يتعرض لها المسلمونكما حدث في لبنـان في صيـف عام 2006. وهي صور لا تبث عادة في القنـوات الغربية. هنالك قناة إخباريـة أخرى، "العربية"، بدت أكثر اعتدالا. واللافت أن "الجزيرة" و"العربية" تبثان أخبـارا متناقضة للأحداث ذاتها. ولاحظت مجلـة "الايكونوميست" عام 2005 "أن من يشاهـد متابعـة القناتين المتباينة للهجوم الذي شنه مشـاة البحرية الأمريكية في تشرين الثـاني / نوفمبر على الفلوجة مثلا يظن أنهما تتابعان حدثين مختلفين: ففي حين ركزت 'الجزيرة' على الضحايا المدنيين والمقاومة البطولية، صورت 'العربية' الهجوم بوصفه اقتحام وتدمير ملاذ آمن للإرهاب"[50].

ومع أن وسائل الإعلام منحت زعماء المسلمين فرصة لشرح الإسلام للأمريكيين منذ الحـادي عشر من سبتمبر، لكن تلك كانت استراتيجية قائمـة على مبدأ "إما أن تصيب أو تخيـب". بعضهم ظهروا على الشاشـة واستخدموا لغة القوالـب المنمطة والكليشهات المبتذلة، مؤكدين أن الإسلام دين السلام لكنهم فشلوا في تفسير ما يحدث فعلا في العالم الإسلامـي. بل إن بعضهم أخفقوا في فهم السياق الثقافي في الغرب، ومن ثم أضافوا إلى إحباط وإذلال المسلمين.

في الوقـت ذاته، تتواصل وسائل الإعلام مع الشباب المسلمين الممثلين لنموذج عليكره ويعيشـون في الغرب، أو نخب الطبقة الوسطـى في بلدانها، حيث يبدي أفرادها إعجابهم بالزعمـاء المتغربنين "التقدميين" للثقافة الشعبيـة الإسلامية الناشئة حديثا. ويستخدم هـؤلاء، ومنهـم حتى بعض النساء، التقانـة للاتصـال والتواصل وترويـج نسخة حديثة للإسـلام حسـب "الموضة" الدارجـة. بعض هذه النمـاذج يمثلها سامـي يوسف، المغنـي البريطـاني من أصل إيـراني؛ وفرحات هاشمـي، الداعية الباكستانيـة الشهيرة (انظر الفصـل الثالث)؛ وأحمد داني، المغني الإندونيسي؛ وأولئك الذين ذكرناهم آنفا- يوسف إسلام، وحمزة يوسف، وعمرو خالد. وفي حين أن ممثلي الثقافة الشعبية هؤلاء معروفون في شتـى أنحـاء العالم بفضل العولمـة، فإنهم يحظون بشعبية كاسحـة في مناطقهم حيث

تــزداد الهوية الإسلامية قوة وبروزا. هنالك إحساس لــدى المبحوثين بأن صورة الإسلام والمسلمين تحددهــا الأحداث السياسية الجارية حاليا لا اللاهوت أو العقيدة، وأن نموذج ديوبانــد يبــدو مغاليا في تقييــده للشباب المسلمــين الذين يحاولون الاندمــاج في المجتمع العالمي، مع أنه يلبي حاجة المسلمين إلى الإحساس بالهوية الدينية.

يستحق أحمد داني انتباها خاصا لأن "ألبومه" باع أكثر من مليوني نسخة في منطقته، واحتلــت أغنيته "محاربــو الحب" قمة لوائح مسابقات الأغاني في شــرق آسيا، لكنه غير معــروف في الغرب. موسيقاه تستخدم أحاديث النبي وآيات القرآن لتوكيد قصص الحب والقبول بالآخر والاحترام المتبادل. أما أفلام الفيديو الموسيقية التي تصور سامي يوسف، وهــو مغن مشهور آخــر، فتعرض في المقاهي في الشرق الأوســط، وقدم عرضا حيا خلال المؤتمر الــذي حضرناه في الدوحة. وموسيقاه تمزج الأصــوات الإلكترونية والإيقاع الممتع ومدائــح النبي. ومقاطع الفيديو التي يظهر فيها تصــوره على هيئة رجل أعمال، أو لاعب كرة قدم، أو رب عائلة في بلد عصري أو غربي.

من ناحية أخرى، لا يحتاج عمرو خالد إلى تعريف في الغرب نظرا لأن وسائل الإعلام الرئيســة تابعته كثــيرا[51]. شعبيته في العالم العربي لا تضاهــى. إذ اختاره زهاء نصف المبحوثين في كل بلد عربي زرناه، ويبدو أن شعبيته تنبثق من تقديم الإسلام بطريقة عدت دقيقــة وصحيحــة وصادقة ومعتدلة ومتصلــة بالقضايا المعاصرة بــرأي الشباب. وتمكن أيضــا من غرس مشاعــر الفخر والاعتزاز والسعــادة في الناس لأنهــم مسلمون، وساعد في تعزيــز الإيمان بالإسلام في وقت عد معرضا للهجــوم من التغريب والعلمنة والقومية. فضلا على مساعدته في استعادة كرامة الإسلام في الأمة.

الرمــوز المعاصرة، مثل عمرو خالد، تعبر عن نقلة خفيــة ومراوغة لكن مهمة الدلالة في نموذج عليكره. فهــذه النماذج العصرية التي يحتذى مثالها والقائمة على بث مشاعر "التفــاؤل والارتيــاح" تساعد المسلمين الشباب على العيش في مجتمع عالمي مغربن مع التمســك بالإســلام. وتشجع المهنيــين المسلمين الشبــاب على النجاح والتمتــع بالمسرات في أوقــات الفراغ، مثل الذهــاب إلى الشاطئ والمشاركة في تحســين أحوال المجتمع. وهي تمثــل "الصيغــة المقبولة" مــن الإسلام المصممــة خصيصى لأفــراد الطبقتين الوسطى

والعليا، الذين يتمتعون بما يكفي من الوقت لمشاهدة التلفزيون والموارد لتحسين حياتهم اليومية. إحدى الطالبات التي ترتدي الملابس الغربية وتدرس في جامعة جورج تاون في قطر شعرت بأن هؤلاء الدعاة "لا يقدمون الإسلام كدين للأوامر والنواهي، بل كأفضل طريقة للحياة. فقد وفروا توليفة حقيقية تجمع الجسد والروح. وفوق كل شيء، عمق التأثير الروحي الذي يمارسونه". أحد المعجبين بعمرو خالد تلقى رسالة منه ذيلها بعبارة "أخوك الأكبر"، وقال بحماس: "إنه لطيف ومحبب إلى النفس!".

تزامنت مثل هذه الرؤى للإسلام مع السمات المميزة للجيل الشاب والطبقة الوسطى الموسرة حديثا في العالم الإسلامي، التي استمدت مؤثراتها الثقافية من العولمة ممثلة بالإنترنت ووسائل الإعلام. في الاستبيانات التي وزعناها، اشتكى كثير من المسلمين من صعوبة التواصل مع رجال الدين وسواهم من الزعماء الدينيين التقليديين، وجميعهم على ما يبدو فقدوا الاتصال بالواقع الحالي. وخلافا لأسلوب الترهيب والتعالي الذي استخدمه رجال الدين، يستخدم هؤلاء الدعاة الشباب أسلوبا سهلا بعيدا عن التشنج على المنابر العامة أو أمام شاشات التلفزيون، ويرتدون الثياب الغربية (عوضا عن الجبة واللحى الطويلة) ويتناولون القضايا "الدنيوية" في الحياة المعاصرة.

ربما تكون هذه النسخة من الإسلام حميدة لا تضر بل تفيد المجتمع، لكنها تخفق في التصدي للمخاوف والهموم المركزية التي تشغل ملايين المسلمين وهم يواجهون الطغيان والاستبداد السياسي، والفقر، والظلم. قدم عمرو خالد سلسلة من خمسين حلقة بعنوان "صناع الحياة"، مقترحا فيها الطرق الكفيلة بتحسين أحوال العالم العربي، وأشار إلى الأعمال الصالحة المفيدة "تعليم الأميين القراءة.. ردم الحفر في الشوارع.. شراء سجاجيد صلاة جديدة للجوامع.. المشي مسافة طويلة قبل الحلقة التالية". لكن يصعب اعتبار هذه الاقتراحات موائمة للوقائع الحياتية التي تواجه كثيرا من المسلمين الذين يكافحون لتحسين ظروفهم المعيشية، وزيادة مستوى تعليمهم، والعثور على عمل، والعيش بسلام. وسوف يجد أتباع نموذج ديوباند على وجه الخصوص اقتراحات مثل رياضة المشي مسافة طويلة مجرد حيلة لإدخال الثقافة الغربية في المجتمع الإسلامي وإلهائه عن المشكلات التي هي أكثر إلحاحا.

وعلى الرغم من ذلك، يتعلم أتباع نموذج ديوباند تكييف ومواءمة التراث مع عصر العولمة. ثمة نمط آخر توضح طوال رحلتنا وتمثل في اختيار المسلمين شخصيات تجسد المقاربة السياسية البراغماتية ضمن نموذج ديوباند. شملت هذه الشخصيات زعماء وقادة اعترفوا بشرعية نظام الدولةالأمة الحديث وأرادوا المشاركة فيه لتأمين وترويج الإسلام. حسن البنا وسيد قطب (في الشرق الأوسط) وأبو علي المودودي (في جنوب آسيا)، نماذج تجسد هذه الشخصيات وهي معروفة في جميع البلدان تقريبا.

من بين قادة المسلمين، وفيهم رؤساء دول وشخصيات سياسية، كانت أشهر النماذج التي يحتذى مثالها وأكثرها شعبية أولئك الذين "وقفوا في وجه الغرب" أو إسرائيل. ومن هؤلاء محمود أحمدي نجاد، ومهاتير محمد، وياسر عرفات، وحسن نصر الله، وآية الله الخميني. وقد اشتهروا على نطاق واسع بسبب متابعتهم من وسائل الإعلام في البلدان الإسلامية بوصفهم أبطالا، مع أن وسائل الإعلام العالمية تصورهم كزعماء "متطرفين" وحتى "إرهابيين".

لكن فاجأتنا حقيقة أن العديد من السوريين يعدون الرئيس بشار الأسد مثلا أعلى، تماما كما فعل العديد من الباكستانيين حين اختاروا برويز مشرف. هذان الخياران يمثلان مفارقة لافتة في عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر. فقد شعر السوريون بالفخر والاعتزاز لأن رئيسهم تحدى مرارا إسرائيل والولايات المتحدة، مع أن نظامه لا يعد ديمقراطيا ليبراليا، بل يتبع النهج الاشتراكي أو العلماني. وحين دعا مجلس الأمن لإجراء تحقيق في تورط سورية في اغتيال رئيس وزراء لبنان السابق رفيق الحريري، مثلا، قاومت الحكومة السورية الضغوط وأنكرت صلتها بالجريمة. وعندما اتهمت الولايات المتحدة ومجلس الأمن سورية بمساعدة التمرد في العراق ورعاية الإرهاب، تحدى بشار الأسد مرة أخرى على الرغم من عدم وجود حلفاء من العرب يندفعون لمساندته ومواجهة التهديد بفرض عقوبات دولية. ويعد السوريون هذا التحدي رمزا للكرامة والفخر والشرف. تبدت هذه المشاعر في اللافتات التي شاهدها أفراد فريقنا في سوق الحميدية في دمشق، حيث كتب على إحداها باللغتين العربية والإنكليزية:

من سورية بلد السلام والمحبة إلى إسرائيل المعتدية وحليفتها أمريكا.. نحن في سورية بلد العزة والكرامة.. نرفض ديمقراطيتكم بعدما رأيناه في العراق وفلسطين وكيف تشيد

ديمقراطيتكـم على أجساد المدنيين الأبرياء الذين تقصفونهـم بالقنابل، وشاهدنا ماذا يحصل حين يصل الأمر إلى مجلس الأمن في الأمم المتحدة، وكيف تستخدمون حق النقض لإنقـاذ إسرائيـل.. وكيف تدفع أمريكا المجلس إلى إصدار قرار ضـد سورية يتبعه قرار آخر مع أنها طبقت الأول.. لكن الشعب السوري لن يخاف مهما بلغت الصعوبات، وسوف يقاوم بقيادة رئيسه المحبوب بشار الأسد.

حين قالت صبية في دمشق "أحب رئيسنا حقا"، شعرنا بأننا نرى المثال البطولي ذاته المؤسس على مفاهيم الشـرف والكرامة التي تتعرض للهجوم وهو يكتسب موطئ قدم في طول العالم الإسلامي وعرضه، وتحرض عليه وتثيره مواقف الولايات المتحدة.

هنالـك اسـم آخر برز فجأة كمثل أعلى خلال رحلاتنـا - وتكرر مرارا للأسف - هو صـدام حسين. ولأنني كتبت عن صدام حسين كنموذج للطغيان والاستبداد، فقد صدمت حين اختـاره المبحوثون قدوة لهم. ويبدو أن المسلمين نسـوا التجاوزات والأفعال الشريرة لديكتاتوريـة صـدام حسين المشيدة علـى الطراز السوفييتـي، التي غالبا مـا استهدفت المواطنـين الأبرياء الطيبين الذيـن عارضوا نظامه. وربما تفسر حالة اليأس التي تسيطر علـى العراقيين الآن، بالاقتران مع الدافع الملح للتعبير عن الغضب على الولايات المتحدة، السبـب الـذي يدعـو الناس إلى النظـر إلى عهد صـدام بشيء من الحنـين. أو ربما ولد التعاطـف معـه مشهد المحاكمة، حيث تعرضـ رئيس دولة مسلمة سابـق للإذلال على يد حكومـة نصبها الأمريكيـون. وعلى الرغم من الفظائـع التي نسبت إليـه، فإن الكثيرين شعـروا بأنـه يستحق بعض الاحـترام والعدالة بوصفه رئيس دولة بلـغ أرذل العمر. فكرة العدالة مركزية ومهمة في الإسلام، لكن أساسها الرحمة.

تحول التلفزيون وقاعة المحكمة إلى سيف ذي حدين للأمريكيين. فحجج صدام أمام المحكمـة، والدفاع عن أفعاله وانتقاد أفعال الرئيس بوش، سمعها الناس وأحدثت تأثيرا. وحقيقة اغتيال ثلاثة من هيئة الدفاع عن صدام أثارت أيضا الشكوك في أي أمل بمحاكمة صـدام محاكمة حرة ونزيهة وعادلة، ومن ثـم التشكيك بالمثل ذاتها التي رغبت الولايات المتحـدة بترويجها في العراق. ومع أن الحكم بإعدام صدام لم يفاجئ أحدا نظرا للقائمة الطويلة من جرائمه، إلا أن الشكوك حامت حول مصداقية المحكمة التي مثل أمامها.

أمـا صور إعدام صدام، الذي نفذ خلال الساعات الأخيرة من عام 2006 والتقطها شاهد عيـان بهاتفه النقال، فقد أكدت الشكوك المحيطة بمحاكمته. وأظهر فيلم الفيديو معاملتـه الوحشية واستفـزازه الدنيء، في حين كان الجلادون يلفون الحبل حول عنقه ثم يرقصـون حول جثته. بثت الصور على شاشـات التلفزيون وعبر الإنترنت في شتى أرجاء العـالم على الفـور تقريبا، وهذا مـا ألهب الشعور بالغضـب لدى الأغلبيـة الساحقة من المسلمـين - خصوصـا السنة - الذين اعتقـدوا أن إعدام صـدام كان مسرحية عرضتها عمـدا الحكومة العراقيـة وشجعها الأمريكيون لإذلالهم. ورأى العديـد من السنة معاملة صدام مجرد استمرار لنمط الثأر والانتقام المذهبي. أما المفارقة فلم تفت على ملاحظة المعلقـين الذين سارعـوا إلى الإشارة إلى أن صدام حسين، الشريـر والطاغية في حياته، كان عزيزا وأبيا ومتعاطفا لحظة مماته. لقد حدث المستحيل. إذ حسن أسلوب محاكمته وإعدامه الأخرق صورة واحد من أسوأ الطغاة والمستبدين في القرن العشرين. حتى الرئيس المصـري حسني مبارك، وهو واحد من أشد الحلفاء الموالين لأمريكا إخلاصا، أعلن على الملأ أن صدام حسين مات "شهيدا".

ومثلمـا ذكرنا آنفـا، فإن الشكوى المشتركة التي جأر بهـا المبحوثون هي ندرة القيادة الرشيـدة في العالم الإسلامي (سوف نناقش جذور المشكلة في الفصل الخامس). وبرأي هـؤلاء، تغيـب الشخصيـات القيادية في نموذج عليكـره على صعيد العدالـة الاجتماعية والعمـل لمصلحة الجماهـير، في حين يعاني زعماء نمـوذج ديوباند ضيـق الأفق وانغلاق الذهن. وعلـى الرغم من مزايا الصوفية العديدة، إلا أن أصوات التعصب والجهل طغت عليهـا للأسـف وهي تبدو غـير ذات صلة بمشكلات عالمنا. ما يريـده معظم المسلمين هو حقوق الإنسان والعدالة والحريات المدنية في سياق إسلامي؛ لكن التبصر والتدبر والرؤية والنزاهـة والاستقامـة الضرورية لتأمين وضمان هذه الحقـوق غير متوفرة بدرجة كافية حاليا.

علمـاء الدين والزعماء الإسلاميون على وجه الخصوص عاجزون على ما يبدو عن تقـديم وجهة هادفـة للأمة أو تطبيـق مبادئ الاجتهـاد التي تتيح للمسلمـين التكيف مع ظـروف العصر المتغيرة مـع المحافظة على سلامة الدين وأصولـه. لا توجد زعامة دينية

تتميـز بروح الإبداع والإلهام التي تمكنها من التصدي لتحديات العولمة، ومساعدة الناس العاديين على مواجهة هذه التحديات. أبلغنا أحد الأساتذة في جامعة آغا خان في كراتشي أن الفجوة في القيادة الفكرية واضحة وملموسة في باكستان: "الناس يتطلعون إلى القيادة الراديكاليـة لأنهم يظنون أنها القادرة علـى إحداث التغيير. خذ على سبيل المثال تحالف الأحـزاب الدينية. صحيح أنه لا يحظـى بالشعبية وليست له قاعدة متجذرة لكنه يكتسب القوة هنا". تحالف الأحزاب الدينية في باكستان يعد بالتغيير وبالتصدي لمشكلات الأمة عـبر العودة إلى تراث وسنة النبي. هنا، وكما هي الحال في شتى أنحاء العالم الإسلامي، يتغير الموقف باتجاه نموذج ديوباند.

احتشـد المسلمون تحت ظروف الحصار والاضطهـاد في جميع المجتمعات وراء هؤلاء الزعماء الذين يجسدون المشاعر المنتشرة حاليا ويعدونهم بمستقبل يسوده العدل والأمل. ومـن نافل القول إن الزعماء الذين يتماهون بالإسلام وينادون بقراءة النصوص لتطبيق المفاهيـم الأساسيـة للدين على الأوضـاع الراهنة ينتمون إلى نمـوذج ديوباند. في الوقت ذاتـه، يعملون بطريقة فعالة وناشطـة ومثيرة للجدل على إعادة تعريـف الجهاد. اليوم، سوف يقدم العديد من المسلمين الحجة - مثلما فعل إعجاز في ديوباند - على أن المدنيين، ومنهـم النساء والأطفـال، أهداف مقبولة ومشروعة في الحـرب المفروضة على المسلمين فرضـا. وتستخدم بعض المجموعات هذه الرخصـة المستخلصة بالاجتهاد لإعادة تعريف بعضـ جوانب وملامح الإسلام المركزية نتيجة الشعـور بالظلم والغضب لكنها تفتقر إلى الحكمة وضبط النفس المطلوبين لتطبيق المفهوم وفقا لتعريفه الصحيح.

من بـين الجماعات التي تتبنـى الإسلام الجهادي وتمثل المسلمـين العاديين وتنطق باسمهـم، "القاعدة" التي اكتسبت سمعة سيئة مدوية في الغرب، و"حزب الله"، وحركة المقاومـة الإسلامية "حماس". ومع أن المعلقـين الغربيين يعدون هـذه التنظيمات كتلة واحـدة مندمجة، ويرونها مجرد "منظمات إرهابية قائمـة على الاختطاف والقتل"، إلا أنهـا في الحقيقـة استجابات مختلفة لأوضـاع متباينة. فـ"القاعدة" مثـلا انتقدت علنا "حماس" بسبب رغبتها في الانضمام إلى الحكومة الشرعية أو الدخول في مفاوضات للسلام.

انطلقت "القاعدة" في حقبة الاحتلال السوفييتي لأفغانستان حيث أسسها بن لادن عام 1988. وبمساعدة الولايات المتحدة، حارب بن لادن وأتباعه في سبيل تحرير أفغانستان من الاحتلال السوفييتي ونفوذه. واتخذوا هيئة داود الذي يقاتل غوليات السوفييتي العملاق دفاعا عن قضية الإسلام وآمنوا بأنهم مسؤولون مسؤولية مباشرة عن هزيمة السوفييت الذين لحقت بهم خسائر فادحة، وإجبارهم على الانسحاب من أفغانستان. وحين اتخموا بالثقة بالنفس وجدوا في الولايات المتحدة ماردا جديدا يتحدونه.

ظهر "حزب الله" وجناحه العسكري المقاتل في أواخر السبعينيات، واكتسب قدرة وحيوية ونشاطا بسقوط شاه إيران وتفجر ثورة الخميني. أما جذوره فتتأصل في الجنوب اللبناني، ومعظم سكانه من الشيعة الذين دفعهم الاجتياح الإسرائيلي للبنان عام 1982 إلى وضع أجندة واضحة تتمثل في طرد الجيش الإسرائيلي. واكتسب الحزب سمعة دولية سيئة عام 1983 بعد تفجير ثكنة مشاة البحرية الأمريكية في بيروت، وأدى إلى مقتل ثلاثمئة جندي منهم. وما يزال الحزب يتمتع برعاية وتأييد سورية. حسن نصر الله، الأمين العام للحزب، اختاره بعض المبحوثين في الاستبيانات التي وزعها فريقنا مثلا أعلى يحتذى. واعتمادا على الروايات وأخبار الصحف في العالم العربي والإسلامي التي تناولت "حزب الله" وحسن نصر الله بعد العدوان الإسرائيلي على لبنان في صيف عام 2006، أحسب أن نسبة أكبر من المبحوثين ستختار نصر الله قدوة في أي استفتاء يجرى في العالم العربي على وجه الخصوص.

وخلافا لـ"القاعدة"، المنظمة التي تكتفي بالجهاد والقتال فقط، ينظم "حزب الله" أيضا مشاريع خيرية وتجارية تفيد المجتمع، مثل المستشفيات والمدارس ودور الأيتام، بل يملك محطة تلفزيونية فضائية. وفي غياب إدارة لبنانية فاعلة ومؤثرة، نظرا لأن لبنان يعاني انقساما عميقا في الولاءات الإثنية والمناطقية والطائفية والمذهبية، يقوم "حزب الله" عادة بتوفير الخدمات المطلوبة للشعب اللبناني، بغض النظر عن الدين أو المذهب. والأهم أن السكان الشيعة يرون في "حزب الله" تجسيدا لتنظيم بطولي دافع عن قضيتهم في أصعب الظروف والتغيرات. وحين بدا أن بيروت تتخلى عن "حزب الله" لمصلحة مبادرة سلام برعاية الغرب، شملت إخراج الجيش السوري، ملأت الآمال نفوس

اللبنانيين بتحقيق السلام، لكن آمالهم تحطمت حين قصفت إسرائيل بلدهم وحاولت اجتياحه عام 2006. أخذ "حزب الله" زمام القيادة في الدفاع عن السكان الشيعة خلال الحرب، وساعدهم على إعادة بناء بيوتهم (وحياتهم) المدمرة فيما بعد، فأعاد التوكيد على أهميته بوصفه المنظمة الأكثر إبداعا ورعاية واهتماما وكفاءة في لبنان.

تقليديا، كان التمايز بين السنة والشيعة أمرا مهما في نظر المسلمين، لكن لأن "حماس" (السنية) و"حزب الله" (الشيعي) يواجهان عدوا مشتركا (إسرائيل)، يتعاطف كل منهما مع الآخر تعاطفا كبيرا. أسس "حماس" عام 1987 الشيخ أحمد ياسين، مرشد جماعة الأخوان المسلمين في غزة، ثم اغتاله الإسرائيليون عام 2004. واكتسبت حماس المصداقية في نظر الفلسطينيين بسبب مبادراتها الاجتماعية والسياسية، إضافة إلى نشاطاتها الجهادية. في عام 2006، فازت "حماس" بأربعة وسبعين مقعدا من أصل 132 في المجلس التشريعي الفلسطيني، فأصبحت حزب الأغلبية وردمت الهوة التي خلفتها منظمة التحرير الفلسطينية، بعد أن فشلت في الوفاء بوعودها، وتشبثت بأساليبها الفاسدة والعاجزة، ولم تتمكن من حل مشكلات الفلسطينيين. ولأن إسرائيل والولايات المتحدة ومعظم الدول الغربية تعد "حماس" جماعة إرهابية، فقد رفضت قبول النتائج الواضحة للانتخابات الديمقراطية. وبدأ العديد من المسلمين يشكون في مصداقية التزام أمريكا الديمقراطية الحقيقية في العالم الإسلامي. وسأل المعلقون في المنطقة: هل تعد نتائج الانتخابات الديمقراطية مقبولة حين يوافق الغرب على المرشحين فقط؟

جمعت "حماس" علاقة عداء مرير بإسرائيل منذ البداية (ربما زادها عداء اسم المنظمة ذاته، الذي يعني في العبرية "الظلم" أو"العنف"). ويشير الإسرائيليون إلى التفجيرات وأعمال القتل والاختطاف التي ارتكبتها حماس كتوكيد على معاداتها السافرة للسامية كما عبرت عنها أدبيات المنظمة. إذ لم تكتف بالاستشهاد بكتاب "بروتوكولات حكماء صهيون" في ميثاقها التأسيسي عام 1988، بل هددت بـ"إزالة" دولة إسرائيل، محذرة من أن الصهاينة "بعد فلسطين يطمحون إلى توسيع حدود دولتهم من الفرات إلى النيل" (المادة 32 من الميثاق). وحين شنت إسرائيل هجوما عسكريا على غزة في صيف عام 2006، واختطفت عشرات من كبار أعضاء المجلس التشريعي التابعين لـ"حماس"، ذهبت الآمال بالحوار أدراج الرياح.

وبغض النظر عن الصورة المظلمة والمنفرة التي تبدو عليها شخصيات "حماس" و"حزب الله" في وسائل الإعلام العالمية، فإن المسلمين الباحثين عن مدافعين يذودون عن حياض الأمة يجدون كلا منهما منظمة بطولية مقارنة بالزعماء المسلمين "الشرعيين" العاجزين. الفتيات اللاتي تحدثنا معهن في سورية في آذار / مارس 2006، قلن إن حسن نصر الله يتحدث باسم العرب كلهم (مع أن هؤلاء الفتيات من السنة). شابة أردنية في الثانية والعشرين اختارت خالد مشعل، زعيم "حماس" الذي يعيش في المنفى، كمثل أعلى لأنه "ذكي ومنفتح الذهن وعصري في فكره وعمله". وعدت أحمد ياسين الزعيم الروحي لحماس (الذي اغتالته إسرائيل) "شخصية تاريخية، مع أنه لم يولد في عصر سالف. فقد سار على درب الإصلاح على الرغم من الصعوبات، وحافظ على الإسلام موردا حقيقيا له". واختارت فتاة (سنية) في سورية حسن نصر الله مثلا أعلى لأنه "منفتح الذهن ومرجعية بحد ذاته". وأضافت أخرى: "نصر الله يجب أن يمثل الإسلام وهو يمثله فعلا".

من اللافت أن المسلمين ليسوا الوحيدين في العالم العربي الذين يتطلعون إلى مثل هذه الشخصيات. إذ قالت لنا فتاة مسيحية أردنية إن نصر الله هو مثلها الأعلى بسبب "عدله وشجاعته وحمايته حقوق الأفراد". وبذلك يرتفع صوت أعضاء "حزب الله" و"حماس"، المشروع والقوي، في العالم العربي بوصفهم سياسيين أكفاء ومؤهلين، لا مجرد "جهاديين" مرتدين وخارجين على الملة. في صيف عام 2006، تعاظمت سمعة "حزب الله" في العالم الإسلامي بسبب قتاله "العادل والبطولي" أمام جيش إسرائيل الذي كان ذات مرة جيشا لا يقهر.

وبالمقابل، أثارت أفعال إسرائيل انتقادات واسعة، على الرغم من الاهتمام الحقيقي بأمنها وسلامتها -وبمستقبلها، حين نأخذ بالاعتبار عدد الذين يتحدثون عن "القضاء عليها" في الشرق الأوسط. صحيح أن أسر اثنين من جنودها قد أشعل الأزمة، إلا أن "مغامرتها الصيفية" أدت إلى سقوط العديد من الضحايا المدنيين وساهمت في رفع مكانة حسن نصر الله وأحمدي نجاد ليصبحا نجمين لامعين في العالم الإسلامي. وتقاسمت الولايات المتحدة اللوم، بسبب دعمها العلني والسافر واللامحدود لإسرائيل.

وهكذا، يبدو أن تعريف "الإرهابي" في الحرب على الإرهاب يعتمد على الطرف الذي تدعمه. فالأمر كله يتعلق بالمنظور. هذه النقطة شرحها بأسلوب فعال ومؤثر القديس أوغسطين، أحد أعظم اللاهوتيين المسيحيين، حين علق على المواجهة بين الاسكندر المقدوني وأحد القراصنة الأسرى: "حين سأل ذاك الملك الرجل عما يقصده باحتلال البحر وامتلاكه، أجابه القرصان بجرأة واعتزاز: 'ماذا تقصد أنت باحتلال البر وامتلاكه؛ لأنني أفعل ذلك بسفينة صغيرة أدعى لصا، في حين تفعل أنت ذلك بأسطول عظيم فتدعى إمبراطورا"(52).

كيف يعرف الزعماء المسلمون الإسلام

بعد اجتيازنا نقاط التفتيش والحواجز الأمنية المشددة، جلسنا ننتظر في غرفة الاستقبال الرسمية للرئيس برويز مشرف في راولبندي، في قاعدة عسكرية تبعد زهاء ساعة عن إسلام أباد، لإجراء مقابلة معه (في آذار / مارس 2006). لاحظت وجود لوحتين معلقتين على جدران الغرفة، لمحمد علي جناح ومحمد إقبال، وتساءلت هل لاحظ فريقي المفارقة الكامنة في ديكتاتور عسكري يستمد إلهامه من ميراثهما الديمقراطي. انشغل الطالبان الأمريكيان بدفاتر الملاحظات والأقلام في انتظار الرئيس. قبل أسبوع فقط، شاهدا الرئيس مشرف على شاشة "سي ان ان" يدرب الرئيس بوش على لعب الكريكيت في الملعب الرئاسي بإسلام أباد.

دخل الرئيس مشرف مرتديا حلة رمادية وربطة عنق حريرية ووراءه ضباطه ببزاتهم الرسمية. جلسنا معا على أريكتين من المخمل، قال بود: "أرجوك، اشرب قدحا من الشاي، يا صديقي أكبر". بدأت اللقاء بسؤاله عن مثله الأعلى. قال إنه معجب بالنبي أولا، ثم محمد علي جناح، ثم نابليون بونابرت، بهذا الترتيب. كان من الصعب معرفة السبب الذي دعاه إلى اختيار الثالث. فنابليون الذي عد نفسه قيصرا رومانيا، أراد أن يكون أكثر من قائد عسكري يأتي لإنقاذ وضع سياسي يائس، وتمثلت رسالته الكبرى في إجراء إصلاحات اجتماعية واسعة النطاق. مشرف ربما يشعر أيضا بأن قدرهما متشابه، بوصفه رئيسا لواحدة من أهم الدول الإسلامية على المسرح العالمي (والوحيدة النووية بينها). لكنه ليس متفقها في الدين ولا يتمتع بتفويض شعبي عبر عملية ديمقراطية ليتحدث باسم

الأغلبية الساحقة من المسلمين. لكن بوصفه القائد العام للجيش، يمتلك القوة العسكرية لدعم استيلائه على الرئاسة والرسالة السياسية.

حين أجاب عن سؤالي المتعلق بمقاربة الإسلام للحداثة الغربية، أشار مشرف إلى ثلاث نقاط أساسية. أولا، أكد هويته الإسلامية: "قد لا أكون مسلما نصيا متشددا، لكنني مسلم. وأعتقد أن الإسلام منسجم مع الحداثة".

ثانيا، يجب على المسلمين ألا يكونوا متغربنين ليصبحوا حداثيين. أي يجب عليهم ألا يتصرفوا مثل الغربيين - يتبنون القيم الغربية، ويرتدون الملابس الغربية، أو يتحولون إلى علمانيين كالغربيين: "لدينا ثقافتنا؛ لدينا تاريخنا. ونحن نعتز بهما. يجب أن نساير الحداثة ونكون حداثيين، وهذا يعني الحكم المدني، والنظام الإداري السديد، والعدالة، ورفع مستوى التعليم، والديمقراطية. هذه الجوانب والمقومات كلها سمات مميزة للتحديث، وبمقدورنا أن نتبناها ونبقى مسلمين". وأعاد التوكيد على أن "الإسلام لا يتناقض مع الحداثة". ثم فسر كيف يتصل ذلك بدوره، حتى في الحرب على الإرهاب: "لقد وضعت روحي على كفي. تعرضت لمحاولات اغتيال، لكنني أؤمن بما أفعله لأنه في مصلحة باكستان. وهو مفيد أيضا لأمريكا والغرب، لأن من مصلحتهما السيطرة على الإرهاب". لكنه شدد على أن مصالح باكستان لها الأولوية في تفكيره.

ثالثا، يمكن لباكستان أن تؤدي دورا حيويا ومركزيا في النهضة الإسلامية: "نحن زعماء العالم الإسلامي. نحن القوة النووية الإسلامية الوحيدة. عدد سكان باكستان يبلغ مائة وستين مليونا. وضعنا الجيوسياسي يجعلنا على قدر حاسم من الأهمية لفهم العالم الإسلامي. لدينا تاريخ كنا فيه قادة العالم الإسلامي على صعيد الأفكار (الجديدة). لذلك كله، لا يمكن تجاهل باكستان".

اكتشفت في هذه الرحلة أيضا أن باكستان تحركت بأسلوب لافت نحو التعبير العلني عن هويتها الإسلامية، حتى من أولئك الذين يتحدثون عادة، مثل مشرف، عن الإسلام الليبرالي والعلماني. روى لي مشرف حكاية مثيرة لتوضيح وإثبات حماسته وحميته الدينية. فحين زار مكة، خص بشرف التسلق إلى أعلى الكعبة، فنظر من هناك إلى الحجيج وهم يطوفون حولها، وهتف بأعلى صوته: "الله أكبر". فرد عليه الحجيج بالهتاف: "الله

أكبر". أدى فريضة الحج ست مرات لترسخ أوراقه الثبوتية الإسلامية كما أخبرني. ومع أن نقاده يلقبونه ازدراء بـ"بوشرف" - مستنسخا من الرئيس بوش! - إلا أنه يقدم الحجة على أن التحديث لا يعني التخلي عن القيم الدينية والمعايير الثقافية؛ وفي الحقيقة، بقيت جذوره الدينية متينة ولم يصبح متغربنا وعلمانيا كما يزعم بعض منتقديه. وبدا مشرف المعتدل، إيديولوجيا وثقافيا، متشبثا بنموذج عليكره، ويحاول جاهدا التواصل مع نموذج ديوباند الذي يبرز ويهيمن على الساحة.



أكبر أحمد في مقابلة أجراها مع الرئيس الباكستاني برويز مشرف عام 1999. أصبح مشرف حليفا رئيسا في الحرب على الإرهاب بعد الحادي عشر من سبتمبر.

وفيما يتعلق بالرأي السلبي في الغرب عن المدارس الدينية، لاحظ مشرف أن الإصلاحات التعليمية تجري على قدم وساق: "نحن ندخل الموضوعات والمواد غير الدينية، وبذلك ندرّس الدين ومقررات مثل الجغرافيا والتاريخ والأديان الأخرى. حتى الكمبيوتر ندرب عليه - في المدارس الدينية!". وحين سألته لماذا يختار عدم إغلاقها، كما طالب العديد من الغربيين، أجاب: "يظنون في الغرب أن المدارس الدينية تعني معسكرات الإرهابيين. لكن لا تضم جميع المدارس الدينية متطرفين أو متشددين يتبنون العنف. صحيح أن بعضها يضم أمثال هؤلاء لكن ليس كلها. لدي مليون طالب في المدارس الدينية. فإن أغلقتها سيكون لدينا مليون شاب في الشوارع. لذلك، ألجأ إلى سبيل الإقناع والنقاش

لجلبهم إلى التيار الغالب، ومساعدتهم على رفع مستوى المعايير والاندماج مع أغلبية المسلمين".

يبدو مشرف ملتزما التزاما حقيقيا أفكار التغيير ومعالجة مشكلات باكستان، لا مجرد محاولة إرضاء الغرب. قال مؤكدا: " اسمع، لدي العديد من المنتقدين في باكستان يقولون إني ممالئ للغرب. لكنني ببساطة أحاول أن أقرب أمتي من رؤية مؤسس باكستان محمد علي جناح، الذي آمن بالمجتمع الحديث الديمقراطي القائم على حقوق الإنسان وحقوق المرأة. الأمريكان أصدقائي مدة قصيرة. ونحن نتبادل العون والمساعدة، لكن ليست لدينا ترتيبات أخرى فيما وراء ذلك".

يبدو أن تحقيق تسوية تصالحية بين نموذجي ديوباند وعليكره مع عدم الظهور بمظهر "الخاضع" للغرب، حسب فهم مشرف، مهمة شاقة إن لم تكن مستحيلة. إلا أنه تدبر أمر هذا التوازن بقدر من النجاح منذ الحادي عشر من سبتمبر. لقد اختاره العديد من المبحوثين المسلمين داخل وخارج باكستان قدوة أو رئيسا جيدا في العالم الإسلامي. وأبدوا إعجابهم بقدراته التفاوضية تحت الضغوط، خصوصا مع وزير خارجية الولايات المتحدة آنذاك كولن باول، الذي اتصل بمشرف عشية غزو أفغانستان وعرض عليه خيارا واضحا: إما أن تكون معنا أو علينا. أما معاون باول، ريتشارد ارميتاج، فأوضح دون لبس لرئيس استخبارات مشرف أن الولايات المتحدة ستقصف باكستان وتعيدها إلى "العصر الحجري" إن لم تدعم الحرب على الإرهاب، وفقا لمذكرات مشرف[53].

حوصر مشرف في إسار معضلة موجعة. فقد كانت باكستان تدعم الطالبان وتساعدهم على النمو كحركة. إذ تطلبت سياسة باكستان الخارجية "عمقا استراتيجيا" يمكن لأفغانستان أن توفره في حالة نشوب حرب مع الهند. ولذلك سيتطلب التخلي عن طالبان الآن انعطافة بزاوية 180 درجة، قد لا تستطيع الدولة خصوصا الجيش - القيام بها بطريقة سلسة. لكن دوافع مشرف الغريزية للحفاظ على الذات ربما أنقذت باكستان في تلك اللحظة من مجابهة مباشرة مع الولايات المتحدة، التي كانت بعد الحادي عشر من سبتمبر كثور هائج مستعد للهجوم على أي شيء يقف عثرة في طريقه. تعامل مشرف

مع الوضع بهدوء، واستخدم موقعه ليبرز كحليف رئيس في الحرب على الإرهاب. ولذلك، اختاره عدد من المبحوثين حتى خارج حدود باكستان مثلا أعلى.

ومع ذلك، يفتقد مشرف الشعبية لدى أتباع نموذج ديوباند، الذين انتقدوه مرارا وتكرارا وحاولوا اغتياله مرتين. وخلال زيارتنا إلى إسلام أباد، كان خطباء المساجد ينتقدون مشرف علنا، وبعضهم على بعد ميلين فقط من القصر الرئاسي. والمظاهرات المناهضة له متكررة وتزداد باطراد. برأي مشرف، تعد هذه النشاطات نتاجا لأتباع نموذج ديوباند المتشددين، وهم تقليديا المفسرون الأوسع نطاقا للإسلام في باكستان، ولا يفعلون سوى التوكيد على الطقوس الفارغة. وكما قال: "المتعصبون هم من يفسر الإسلام حتى الآن". وتفسيراتهم المتزمتة تفجر خلافات ونزاعات تؤدي إلى العنف داخل باكستان. وأعمال الشغب الأخيرة بين الشيعة والسنة في المناطق الشمالية، كما لاحظ، بدأت لأن جماعة اعترضت على طريقة جماعة أخرى في الصلاة، حيث وضع أفرادها أيديهم على صدورهم. قال لي مشرف: "علينا تجنب هذا النوع من الإسلام. ما يدافع عن الإسلام هو التقدم والتراحم والإحسان، وفي سبيل ذلك يجب على علماء الدين المشاركة بحيث يبدأ الناس العاديون في الشوارع تقدير ماهية الإسلام الحقيقية". وهو يتفهم الحاجة إلى إعادة تفسير الإسلام من داخل التراث والتقاليد، ومعالجة مشكلة الجهاد واستخدامه، مع أنه لم يذكر ذلك صراحة[54].

في الحقيقة، تعد مبادئ العديد من الكتب التعليمية في المدارس الدينية أبعد ما تكون عن روح التراحم والتعاطف والتسامح كما بشر بها الفلاسفة والمفكرون المسلمون. وتشير تقارير أصدرتها مجموعة "فريدوم هاوس"، وهي هيئة مراقبة مستقلة في الولايات المتحدة، إلى أن الكتب المدرسية التي تستخدم في بعض بلدان الشرق الأوسط وتوزع في شتى أرجاء العالم الإسلامي، وتصل إلى المدارس الدينية في باكستان وغيرها، تحتوي على عبارات مثل "اليهود قردة؛ والخنازير هم النصارى الكفار"[55]. ويتلقى الطلاب التشجيع أيضا على أبلسة المسلمين الآخرين، كالشيعة والمتصوفة، الذين أطلق عليهم اسم "المشركين" بهدف إدانتهم بوصفهم منحرفين ضلوا سواء السبيل. إن هذه الكراهية المتضمنة في تدريس ومناهج بعض المدارس الدينية تترجم بسهولة إلى دعوة للتعصب الديني وحتى العنف ضد من يعدون مسلمين منحرفين أو ضالين.

النسخة الاستبعادية من الإسلام التي تقصي الآخر وتستبعده تلقى استجابة سلبية من المسلمين خارج العالم العربي، وهذا ما أوجد ظاهرة "العداء للعرب" المتناغمة مع المشاعر المناهضة لأمريكا والمعادية للسامية. ويعبر المسلمون من غير العرب - على اختلاف طبقتهم، وجنسهم، وعمرهم - عن استيائهم وسخطهم على ما يعدونه غطرسة العرب حين يرغبون في فرض نسختهم الخاصة من الإسلام على الآخرين والادعاء بأنهم يملكون الإجابات كافة. أما الاحترام الواسع النطاق للعرب لأن القرآن نزل بلغتهم والنبي منهم، فقد ضعف وتراجع. بعد خطبتي في جامعة جاكرتا، شن ترميزي طاهر، وزير الأوقاف الإندونيسي السابق ونموذج الدماثة والتهذيب، هجوما كاسحا على "إسلام العرب" المنبت الصلة عن كل ما قلته. قال غاضبا: "صحيح أن النبي عربي، لكن عاصره عرب أشرار مثل أبي لهب وأبي جهل. نحن نرفض إسلام صدام حسين". وفي ثورة غضبه العارمة كان يردد صدى ما قاله أمامنا وزير في لاهور على مأدبة غداء: "الباكستانيون أفضل إسلاما من العرب من كل ناحية - لا بل أفضل إنسانية من كل جهة". المسلمون الهنود المتعلمون ينظرون أيضا إلى الشرق الأوسط فلا يجدون فيه سوى "العرب المهزومين والضعفاء"(56).

في الوقت ذاته، وجدنا مؤيدين لـ"إسلام العرب". في باكستان، يعبر الكثيرون عن إعجابهم بالملك فيصل بسبب ارتباطه وتعاطفه العلني مع الأمة الإسلامية. ومع أن الحجاب غريب عن التراث الثقافي الباكستاني، إلا أن نهوض الهوية الإسلامي يحث مزيدا من الفتيات على تقليد السعوديات في الزي، لأن السعودية "الزعيمة الحقيقية" للعالم الإسلامي. وهذا بدوره يستدعي مزيدا من التوكيد على الوهابية السعودية. فوفقا لتفسيرها الحرفي/ النصي للقرآن، يمكن لكل مسلم أن يعبد الله مباشرة دون حاجة إلى وسطاء، مثل الأولياء أو الصالحين؛ وهي تفرض قيودا صارمة على النساء في بعض المواقع، بل تنتقد حتى الغلو في احترام وإجلال النبي كما يفعل بعض المسلمين. في هذه البيئة بالذات ترعرع بن لادن.

حياة بن لادن في سن الرشد تمنحه المصداقية في نظر العديد من المسلمين. فهو ابن مليونير سعودي، وظل يعيش حياة تبطل وترف إلى أن دخل الجامعة في جدة.

هناك، تعرف بمحمد قطب، شقيق سيد قطب، مؤلف كتاب "معالم في الطريق"، النص المعياري الذي استخدمه لاحقا بعض المتطرفين لترويج تفسيرهم للإسلام، وسرعان ما أصبح بن لادن شخصية تسعى لأداء دور على المسرح العالمي. وبعد إدراكه أن المعركة في سبيل حرية أفغانستان في الثمانينيات تمثل معلما لأزمة عالمية مهمة للمسلمين، شد الرحال إلى جبالها. سنوات بن لادن في أفغانستان - مع إقامة مؤقتة في السودان - زودته بالمعرفة المتعمقة بالسياسة القبلية وبمنصة انطلاق لشن حربه على الولايات المتحدة. واستطاع اعتمادا على فهمه الذكي لآليات عمل المجتمع القبليفهو متحدر من عائلة يمنية تنتمي إلى مجتمع قبلي وألف منذ الطفولة السياسة القبلية السعودية - تعزيز وتقوية صداقته السياسية مع الملا عمر، الزعيم المنعزل لحركة الطالبان الناشئة في قندهار، عبر المصاهرة. وهكذا تمكن من الحصول على إذن مباشر للدخول إلى صميم السياسة القبلية الأفغانية، والتمتع بولاء الأفغان. وحتى بعد أن طرد من تورا بورا، وجد الدعم والتأييد من القبائل على طول الحدود الباكستانية - الأفغانية. لربما كان بن لادن "عربيا" لا ينتمي إلى الأفغان، لكنه عبر المصاهرة أصبح جزءا من شبكتهم القبلية.

يمثل بن لادن نقطة التقاء عدد من التيارات في بحر العولمة. فقد جعلته وسائل الإعلام الغربية أشهر رجل على الكوكب الأرضي، مضيفة بذلك إلى مكانته بين المسلمين. فتسجيلاته الصوتية التي تبث على مختلف المحطات التلفزيونية العالمية، أظهرت قوة وسطوة التقانة والتأثير الذي يمكن أن تمارسه على المجتمع الدولي. والأهم أن زعامة بن لادن أظهرت تغيرا ملحوظا في قواعد اللعبة التي خضعت ذات يوم لسيطرة زعماء الدول - الأمم. فضلا على ذلك، حول عجز القوة العظمى، بكل ما تملكه من تقانة وموارد، عن القبض على "الإرهابي رقم واحد في العالم" بعد مرور عدة سنوات على الحادي عشر من سبتمبر، بن لادن إلى أسطورة خرافية حية.

لكن هناك العديد من المنتقدين لبن لادن في العالم الإسلامي أيضا. ويعود جزء كبير من السبب إلى أن الغرب، كما يقول الكثيرون، ينفر من الإسلام ويكره قبول المسلمين. والمسلمون الذين قابلناهم، خصوصا في العالم العربي، نأووابأنفسهم عنه أمام الملأ.

ومثلمـا عـبر طالـب أردني في التاسعة عشـرة يدرس في كليـة الشريعـة: "الإسلام دين التسامـح، ولا يشبـه المسلمون كلهـم بن لادن أو غـيره من المتطرفين. لدينـا مفاهيم في ديننـا وروابط متينة مع نبينا الذي يجسد الإسلام الصحيح. المسلمون بحاجة إلى إثبات أنفسهم في هذا العالم وعليهم أن يحكموا بدين العدل والمساواة".

في نظـر آخريـن، لا يخشى بن لادن مـن التعبير عن مشاعـر المسلمين "الحقيقيين" أو "العاديـ "، التـي تحول مراوغة أو جـبن العديد من الحـكام دون التعبير عنها. لكن يجـب الإسـراع إلى إضافة حقيقـة أن العديد من المسلمين الذيـن يتعاطفون مع بن لادن بالمعنى الواسع والعام للكلمة لا يؤيدون نشاطه الأكثر دموية وعنفا. ووفقا لاستفتاء أجراه معهـد غالوب منذ مدة، عبر 70% من المستفتـين عن غضبهم على أمريكا، لكن لم يبرر سـوى 7% هجمات الحادي عشر من سبتمبر. في الوقت ذاته، تجتذب انتقادات بن لادن الرئيسة للغرب المسلمين في شتى أنحاء العالم(57). فقد عارض وجود الجنود الأمريكيين في البـلاد الإسلاميـة، وأيد باستمـرار القضية الفلسطينية، وانتقـد الدمار الذي ألحقه الأمريـكان بأفغانستان والعـراق. واتهمهم أيضـا بتدمير وتخريب "الطبيعـة بنفاياتكم الصناعيـة وغازاتكم، مقارنـة بأي أمة أخرى في التاريخ. وعلى الرغم من ذلك ترفضون توقيـع اتفاقية كيوتو لكي تضمنوا أربـاح شركاتكم وصناعاتكم الجشعة". وبعد أن تطرق إلى الوضع السياسي في الدول الإسلامية، حذر الولايات المتحدة طالبا منها "وقف دعمكم للزعمـاء الفاسدين في بلادنا. وعدم التدخل في سياستنا وأساليبنا ومناهجنا التعليمية. اتركونا وشأننا وإلا انتظرونا في نيويورك وواشنطن"(58).

يستحضر بـن لادن مرارا خسارة "كرامة وشرف" المسلمين، وهذا ما يردد المسلمون صـداه في كل مـكان. ولم يكن مـن المفاجئ أن يطلق إعجاز في ديوبانـد لقب "شيخ" على أسامة بن لادن، بل إن بعض طلاب جامعة عليكره أشاروا إليه بالقدر نفسه من الحماس والإجـلال. والعديد من الذيـن قابلناهم ذكروا إخلاصه وتفانيـه في خدمة أمة الإسلام لأنـه تخلى عن أسلوب حياته المترف ليقاتل دفاعا عن الإسلام في تلال وجبال أفغانستان المقفـرة ووهـب ثروته وماله في سبيل القضيـة. وشاهدنا طوال رحلتنـا أدلة تثبت شعبية شخصيته الآسرة. فهو يعد الآن بطلا عالميا إن لم يكن أسطوريا للمسلمين المستضعفين في

كل مكان. أخبرني راندولف بيرسود، الأستاذ في الجامعة الأمريكية (الغوياني الأصل) أن 45% من سكان غويانا أتوا من جزر الهند الشرقية - 10% منهم مسلمون - ويواجهون توترات وأعمال شغب عرقية. وبعد عدد من الاغتيالات التي استهدفت غالبا القادمين من جنــوب آسيــا، رأى بعض الناس في غويانا يعلقون صورة بــن لادن تطوقها أكاليل الغار في بيوتهم. وهكذا أصبح بن لادن شخصية طلسمية حتى في أقصى أصقاع الأرض وبين غير المسلمــين أيضــا. وخلال مباراة في كرة القدم جرت بين المكسيــك والولايات المتحدة عام 2004، هتــف ستون ألفا مــن المشجعين المكسيكيين بصوت واحــد "أسامة!" فثار غضب كثير من الأمريكيين.

لكــن يجب الحذر من التعميم. ومثلما كررت سابقــا، لا تعد نماذجنا الثلاثة سكونية جامدة ولا كتيمة صامدة. هنالك شخصية ماليزية بارزة تجسد مثالا يوضح مدى وتعقيد نماذجنا، وهي تنتمي في هذه الحالة بالذات إلى نموذج ديوباند.

أنــور إبراهيــم، نائب رئيس وزراء ماليزيا بين عامــي 1993. 1998، كان من المتوقع أن يخلــف مهاتير محمــد في رئاسة الوزارة. لكن ساءت العلاقــة بينهما، وحكم على أنور بالسجــن خمســة عشر عاما بتهــم ملفقة. في الوقت ذاتــه، شنت حملــة مغرضة لتلطيخ سمعته وإطلاق تهم عليه تراوحت بين الفساد السياسي والمثلية. لكن أطلق من سجنه بعد ســت سنوات، وضع خلالها في الحبس الانفرادي وتعرضــ للضرب مرارا. ومنذ أن خرج مــن السجن أصبح خطيبا مفوهــا يحظى بالشعبية في الأوســاط الأكاديمية الدولية، من اكسفورد إلى واشنطن، حيث يعمل الآن أستاذا زائرا في جامعة جورج تاون.

اتبــع أنور إبراهيم ومهاتير محمد جيــل الزعماء الماليزيين الذين وصلوا إلى السلطة بعد الاستقلال وذلك بتحدي ما جرى قبلهم. فقد حاولوا تغيير جوهر وشكل السياسة عبر إضافــة هوية إسلامية مركزة إليها. وهذا ما يجعلهم زعماء يتمتعون بمحبة الجماهير لا في بلادهــم فقط بل في العالم الإسلامي الأوسع أيضا. وأظهرت استبياناتنا أن كثيرا من المبحوثين خارج ماليزيا اختاروا مهاتير محمد نموذجا يحتذى مثاله.

سمعــت الكثير عن أنــور إبراهيم ودفعني الفضول إلى لقائه لأنه يمثل نموذج ديوباند مــع انعطافة سوسيولوجية لافتــة[59]. فهو الواجهة الحديثة للتراث ذاته. ولم يخب ظني.

أنـور إبراهيم شخص ودود ومتيقظ ومطلع ويشع منـه السحر الماليزي ويتكلم الإنكليزية بطلاقـة. عندمـا التقيته أول مرة على مائدة غـداء في واشنطن، قال إنـه قضى سنوات سجنـه في الحبس الانفـرادي يقـرأ كتبي عـن قبائـل البشتون علـى الحـدود الأفغانية - الباكستانيـة، وذكر على وجـه الخصوص كتاب "الاقتصاد والمجتمـع البشتوني"[60]. دفعتنـي ملاحظاته إلى التفكير العميق. فقـد تأثرت بها الزعيم المسلم الذي يختار كتابا مغمورا عن الأنثروبولوجيا ليقرأه في محنته، ويبدي إعجابا واضحا به.

لربمـا يبـدو أنور إبراهيم أول وهلـة مناسبا لنموذج عليكره كمـا نفهمه، لكن كلماته وأفـكاره توحـي بتفسير آخر[61]. فهـو مفكر متمكن واضح الذهـن ومتضلع من الإسلام الأصيـل. وفي الحقيقة، يعد واحدا من أبرز ممثليه، حيـث لم يكتف بالحديث عن أفكاره بـل حـاول تطبيقها حين كان مسؤولا عـن وزارتي المالية والتعليـم في ماليزيا. وتمكن من أن يظهـر بطريقة عمليـة كيف يقدر مجتمع إسلامي تقليدي لا علـى التكيف مع الحداثة - بـكل فنادقها وبنيتها التحتية وصناعتها السياحيـة وتقانتها.. الخ - بنجاح وحسب، بل في مقاومـة الموجة الكاسحة للعولمة والغربنـة أيضا. ولأنه كان يعد واحدا من مهندسي ما دعـي في العقود الأخيرة من القرن العشرين بالنهضة الآسيوية، فقد حظي بمصداقية لا كمفكر إسلامي فقط، بل كزعيم عملي قادر على إقامة توازن بين الماضي والحاضر[62]. وأصبح يجسد نموذج ديوباند الناجح والعصري في السلطة.

نجـاح أنـور إبراهيم وأسلوبـه الاستعراضي إلى حـد ما جعلاه عرضـة للهجوم من الطرفين: وجده المسلمون التقليديون، خصوصا أتباع نموذج ديوباند، مبالغا في الاقتراب من الغرب والتكيف معه، في حين عده المنتقدون الغربيون مغاليا فيموقفه الإسلامي (أحد المستشاريـن في واحدة من أبرز المؤسسات الاستشارية في واشنطن مال نحوي على مائدة الغـداء وهمس ملاحظا بعد أن سمع أنور إبراهيم يمتدح فضائل الديمقراطية والحريات المدنية ضمن الإطار الإسلامي: "للأسف لم يدافع عن هذه الفضائل حين كان في السلطة وفي موقع يؤهله لذلك، ولم يكتشفها إلا الآن في واشنطن").

خـلال زيارة أنـور إبراهيم قبيـل عودته إلى كوالامبـور في تشرين الثـاني / نوفمبر 2006، تحـول حديثنا إلى النماذج المعاصرة التـي يحتذى مثالها. لكن خياراته فاجأتني

وأبهجتني في آن. اختار محمد علي جناح، "القائد العظيم" كما أضاف مستخدما اللقب الذي يستخدمه المعجبون به. ثم قال إن جده كان يحتفظ بصورة ملونة لجناح في غرفة الجلوس في منزله بإحدى قرى بينانغ في الخمسينيات. ومن اللافت أن أنور إبراهيم كان معجبا بمحمد إقبال ومحمد علي جناح كليهما، وكثيرا ما ذكرهما في محاضراته العامة كنموذجين يحتذى مثالهما. أفكار إقبال كما ذكرنا آنفا، تنتمي إلى النماذج الثلاثة كلها، لكن أفكار جناح تعبر عن نموذج عليكره.

مع نضج تفكيره، يتجه أنور إبراهيم بصورة واضحة نحو تفسير استيعابي أوسع وأكثر شمولية للإسلام. وبوصفه غير عربي، يسارع إلى الإشارة إلى أن المسلمين، خصوصا في العالم العربي، بحاجة إلى تقدير قيمة الزعماء غير العرب مثل محمد علي جناح، ومن ثم يستفيدون من المدى الكامل للثقافة الإسلامية. وحين طلبت منه اختيار أعظم مثل أعلى في التاريخ، أجاب دون تردد: النبي الذي "لم يكن معلما روحيا عظيما وحسب بل جسد الإحسان وطلب العلم".

ما وجدته مؤثرا فيما يتعلق بأنور إبراهيم رحلته الشخصية. فقد كان زعيما ناجحا جدا في الحياة العامة واجه نائبة صادمة ومهينة، لكنه تمكن من السمو على ذكريات ماضيه برمته، والوصول إلى مرحلة الهدوء الداخلي، الذي وجد التعبير عنه في مسلكه، وتفكيره، واستجاباته. الآن، وهو يعيش حالة السلام مع النفس، بلغ أنور إبراهيم كما شعرت عتبة اكتشاف نموذج أجمر.

تحديد مواقع وأماكن الشخصيات الروحانية والصوفية أشد صعوبة من الشخصيات الإسلامية المرئية والمسموعة التي تتبع نموذجي ديوباند وعليكره. ثمة سؤال طرحه بعضهم: هل يوجد المتصوفة - الذين يمثلون نموذج أجمر - في عصرنا خارج تركيا وتأثيراتها الثقافية؟ الجواب، بلى، وحالفني الحظ في مقابلة أحدهم في عمان. الشيخ نوح كيلر شيخ صوفي أتى من الولايات المتحدة قبل ثلاثة عقود، حيث اكتشف الإسلام وهو في القاهرة لكن أتباعه كثر في العالم العربي[63]. تركز حديثه معي على الروح، التي لها بداية لكن ليس لها نهاية. النبي، برأيه، هو المعيار النهائي للسلوك الإنساني، الذي يرفع مكانة المسلمين إلى درجة أعلى من غيرهم ويجعل الإسلام دينا متفوقا على ما عداه.

أمـا أفضل طريقة لحـث الناس على اتباع المعيار فهي المثل الصالـح، لا الضغط والإكراه أو النشـرات الإعلامية. ازدرى الشيخ علماء الديـن التقليديين من أتباع نموذج ديوباند، الذين دعاهـم بالسلفيين. ووصفهم بأنهم "ملالي اللحى الشعثاء"، في إشارة إلى اللحى التـي يبالـغ في إطالتها بعض رجـال الدين (للشيخ لحية صغيرة مشذبـة). وما أقلقه هو أذهانهـم المغلقة وميولهم المزاجية السيئة: "لا بد أن شيئا ما أصابهم. فهم يركزون على الجسد والخطب الدينية البلاغية وينسون الروح". إنه "انهيار سلفي".

المثـل الأعلى في نظـر الشيخ نوح هو الإمام الغزالي. لقد أشرق نور الله على الغزالي، واستطاع "التحديق إلى ما وراء الأفق ليرى الله ويعبده". وقال إن الإمام تخلى عن مهنته الأكاديميـة الناجحة طـوال عقد من السنين ليقـدم أفكارا متعمقـة وأجوبة مفحمة عن الأسئلة الروحيـة، وعند عودته بدأ تأليف الكتب التي غيرت مسار الفكر الإسلامي. يظل الغزالي، كما قال الشيخ، وثيق الصلة بالحاضر ويعلم المسلمين الكثير.

مـع أن الشيخ نوح يستخدم الكمبيوتر ويتلقى العديد مـن الاستفسارات عن الإسلام عـبر الإنترنت، إلا أنه ينتقد التقانة لأنها تسبب تشوشـ العقول "وتحجر القلوب". وهذا تشعب نظري تجريدي. ما يعرفه الأمريكيون لا يتجاوز "كيف"، لكن "ليس لديهم أي دليل علـى ماذا". الناس هـذه الأيام لا يدرسون موضوعـات الآداب الإنسانية ولا يكتسبون أي معرفـة بالحضارات الإنسانية. لذلك يمكنهم ركـوب الطائرات وصدمها بالمباني دون أن يتأثـروا، مثلما أكد. هنالك عطش للوعي الروحي لـدى البشر، ومعظم الناس لا يدركون هذه الحقيقة.

وعلـى المنوال نفسه، انتقد بعنـف الثقافة الأمريكية. لقد قتـل نصف مليون عراقي، لكن في نظر الأمريكيين ليس هذا سوى رقم إحصائي آخر على شاشة التلفزيون. الأطفال يكـبرون ويتربون على ألعـاب الفيديو، ثم يفترضون أن كل شيء هو لعبة، فلا تنمو لديهم أي مشاعر إنسانية. وعلى الرغم من التأثير الرهيب للمسكرات والمخدرات، يبدو أن الناس عاجـزون عن التخلص من إدمانهـم واتكالهم أو العثور على إجابات عـن أسئلة الحياة. ويعتقـد أن المجتمع العلمـاني لا يستطيع رفض هذه الملذات والأهـواء: "ما ليس له جوهر سـوف ينهـار ويتداعى بحكم طبيعته ذاتهـا. البشر بحاجة إلى أسلـوب حياتي مستدام.

العلمانيــة لا تقدم شيئا. أمريــكا خاضعة لهيمنة حكومة وصناعة متحالفتين تحالفا وثيقا في المصلحــة: الشيــخ دعا ذلك "جوهــر الفاشية. ثقافتي ترغب ببيــع الحروب". ولاحظ أن الجانــب الآخر من العولمة هو المادية تحديدا: "لمــاذا العولمة؟ إنها لبيع السلع والأشياء للناس، السيجار الضخم الذي تدخنه لا يفيد حين تحاول النجاة بجلدك. سوف تدرك أن مــا تأكلــه أو تلبسه أو تبتاعه لن يجعلك سعيدا. الشــيء ذاته يصح على الشغاف الروحي المحيط بالقلب. القليل يكفي". لكن الشيخ لا يبدو أنه مهتم كثيرا بالهجمات على الإسلام. لقــد وعدنــا الله بحماية الدين وحفظه. فعلى الرغم من كل شــيء، كان اجتياح المغول في القرن الثالث عشر أسوأ بكثير. وذكرني بأن الأمر انتهى باعتناق المغول الإسلام.

كان الشيــخ نــوح إنســان متواضــع وروحاني في إجاباته عــن أسئلتــي. في البداية بدا متحفظــا - مثــل جميع الأمريكيين أو الأوروبيين، وذلك علــى العكس من طريقة المسلمين في استقبــالي - لكنه بــدأ في نهاية المطاف بإظهار الود نحوي. وحــين سألت هل نستطيع تصويــر المقابلة لعرضها في سلسلة تلفزيونية، قال إنه لم يجر أي لقاء مع وسائل الإعلام لكنــه وافــق على تغيــير سياسته لأنه يظن أن مــن المفيد نقل رسالتــه إلى الآخرين. وبعد المقابلــة بدا حيويــا ومفعما بالنشاط ورغب بأن يأخذني لزيــارة الزاوية الجديدة (مكان الذكــر) التي يجلــس فيها هو وطلابه. وجدتها مكانا بسيطا، زاويــة صوفية تقليدية تتيح لمريديه فرصة التجمع وترتيل الأناشيد في مدح الله ونبيه. وحين ودعني، ترك لدي انطباع بأنــه رجل ثاقب البصيرة اكتسب درجة عالية مــن الوعي الروحي عبر الطريق الصوفي. فهــو، إذن، تجسيد حي لنموذج أجمر، حيث يجب علــى المتصوفة الروحانيين المنتمين له خوض المعركة ذاتها التي خسرها دارا.

السؤال المنطقي التالي الذي يجب طرحه هو: كيف تسير الأمور مع زعيم مسلم يمثل نمــوذج عليكره في عــالم ما بعد الحادي عشر من سبتمبر؟ سيــافي أنور، المدير التنفيذي للمركــز الدولي للإسلام والتعددية في جاكرتا، يجد نفسه يخوض معركة خاسرة لترويج وتشجيع الحوار والفهم في بيئة تزداد عداء باطراد[64]. واشتكى لفريقنا أن الأمريكيين لا يقدرون أهمية الإسلام المعتدل في هذه البلاد. إذ لم يتلق أي دعم من الغرب. قال ساخطا: "كل مسلم إرهابي محتمل. إذ لا يأبه أحد لنا على ما يبدو". وأضاف إن الأمريكان حين لا

يدعمون شخصا مثله لا يدركون أنهم يساعدون الراديكاليين والمتطرفين في حقيقة الأمر. وهؤلاء يقلدون ما يدعوه أنور "إسلام العرب". حتى أسماء مثل "حماس" و"الإخوان" و"حزب التحرير" تتبناها بعض الجماعات الإندونيسية من العالم العربي وتستخدمها، وهذه هي النسخ المحلية من نموذج ديوباند.



أعضاء الفريق، جوناثان هايدن، وأكبر أحمد، وأمينة أحمد، يلتقون بسيافي أنور، رئيس المركز الدولي للإسلام والتعددية في أحد فنادق جاكرتا بإندونيسيا. عبر أنور عن تعاسته نتيجة الافتقار إلى دعم جهوده لتشجيع الحوار بين الأديان والتعددية في المجتمع. وكان الفندق قد تعرض للتفجير تعبيرا عن الاحتجاج على الغرب.

ووفقا لأنور، عجز المسلمون عن الاستجابة للعالم بطريقة نقدية وفكرية، ولذلك لجؤوا إلى العدوان واللاعقلانية. أما استجابته فتعتمد على المنطق والفكر - إضافة إلى أنها إسلامية، كما يعتقد. ومع أنه كان عضوا في عدة لجان للعناية بالمساجد، إلا أن علماء الدين يهاجمونه الآن لأنه يروج الليبرالية ويمنعونه حتى من زيارة المساجد. بل أصدروا فتاوى ضد التعددية والحوار بين الأديان، على أساس أن "التعددية معارضة للإسلام"، وبذلك أصبح هدفا رئيسا للإرهابيين لأنه يرأس المركز الذي يمثل التعددية.

لكن أنور أوضح بأسلوب لا لبس فيه أنه ليس تابعا أعمى للغرب. وهو يرى العولمة بوصفها أمركة وعبر عن اشمئزازه من محطات التلفزة الغربية خصوصا الإباحية فيها. ويعتقد أن هذا الفجور يغذي المشاعر القوية المعادية لأمريكا في مجتمعه. وعلى الرغم

مـن حديثه كله عـن الليبرالية، رجف من شـدة الغضب على بعض الموضوعات المتلفزة التـي تجرح مشاعره الإسلامية. فالمسلمـون كما لاحظ، يعتقدون أن الغرب صنع "نظرية المؤامرة" التـي تساوي بين الإسلام والإرهاب والعنف. هذا الإحباط الناجم عن التشويه الخطـير وسوء التمثيـل الفاحش، دفع حتى المسلمين المعتدلـين والمنطقيين إلى استخدام خطـاب التطرف. وتفاقم الغضب على الغرب ليتحـول إلى عاطفة جياشة تدفع المسلمين إلى العمليـات الانتحارية. فلأول مرة، كما أشار، تنفذ في بالي وجاكرتا (في الفندق ذاته الذي كنا نلتقي فيه) عمليات انتحارية.

أيـدت هـذه الملاحظـات نتائج توصلـت إليهـا دراسة أجريـت منذ مـدة قريبة على السلوكيـات والمواقف الدينيـة المتطرفة في إندونيسيا[65]. اعتمـد التحقيق الاستقصائي علـى مقابـلات مع رجال ونساء في المناطـق الريفية والحضرية أجريـت وجها لوجه على المستـوى الوطني. النتيجة لا يمكـن تجاهلها. 50% من المبحوثين رغبوا بتطبيق الشريعة وأيـدوا تفجيرات بـالي بوصفها أعمـالا جهادية حقيقيـة، سوف تقوي وتثبـت الإسلام. والأصـوات ذاتها عارضـت وصول المرأة إلى منصب الرئاسـة، وأصرت على وجوب قطع يـد السارق، ورجم الزاني والزانية حتى المـوت، والسماح بتعدد الزوجات، وأن يكون حظ الذكر من الورث مثل حظ الأنثيين.

تكلـم أنـور منذرا مـن "الأسلمة الزاحفـة" في كل مكان حوله، ومحـذرا من اختراق تفكـير أتباع ديوبانـد بالتدريج النظام القانـوني العلماني في إندونيسيـا والمجتمع الأكثر تسامحـا وتعددية وقبولا بالآخر. فعلى الرغم مـن كل شيء، هذه هي جزيرة كاليدجاكا، الـولي الصوفي. غمره اليأس والغضب وحتى العجـز أمام هذا الاحتمال، حيث تحول إلى زعيـم يعبر، وإن دون قوة تسنده، عن نموذج عليكره. والنموذ جانعليكره وأجمريتعرضان للهجوم في إندونيسيا ويواجهان خطر التراجع والانحسار.

لسوء الحظ، لا يعد أنور المثال الوحيد على نموذج عليكره المعزول والمحاصر. فنظيره في كوالالمبور، إسماعيل نور، رئيس "مركز الزعامة الغيرية"، اشتكى الوضع ذاته والورطة الشخصية نفسها. كلا الرجلين في منتصف العمر، ويلبس الحلة الأوروبية ويضع النظارة، ويتمتع بالذكاء والقدرة على التعبير والشعور الوطني، إضافة إلى التمسك بأهداب الدين.

ومـع إيمانه الصادق بالإسـلام، يؤمن بالاجتهـاد، وإحداث تغيـير في التقاليد والعادات والـتراث الإسلامي. ويتحدث عـن المستويات المرتفعة من العـداء لأمريكا نتيجة أحداث السنوات القليلة الماضية. ويعتقد أن وسائل الإعلام الغربية المعادية للإسلام توجد الدعم والتأييـد للمتطرفين. وكلاهما اختار النبي مثلا أعلى، تبعه عمر بن الخطاب. وأشار إلى أخطار التشدد والتطرف والتزمت في المجتمعات، حيث "لا توجد رحمة ولا تراحم في هذه الرؤية للإسلام، التي تقوم على الغضب واليأس والعنف".

يـدرك الزعماء المسلمون علـى كل مستوى من مستويات المجتمـع حجم الأزمة. عبد الرحمـن وحيـد، أول رئيس منتخب في إندونيسيا، دعـا في صيف عام 2006 إلى "عملية إحيـاء روحية داخل الإسلام ذاته". ونتيجة قلقـه وخشيته من نفوذ وتأثير "المتطرفين"، اعتقد أن "أشد الطرق فاعلية لمغالبة التطرف الإسلامي هي شرح معنى الإسلام وحقيقته الأصيلـة". وشعـر هـؤلاء الزعماء بالمـرارة نتيجة مـا يعدونه لا مبالاة الغـرب بمحنتهم وبلواهـم. فمن المحزن أن الغـرب فشل في فهم الأهمية الاستراتيجيـة لأشخاص مثلهم، لذلـك لم يظهر أي اهتمام بمساعدتهم. أما ما أخفق هؤلاء الزعماء المسلمون في تقديره ومعرفتـه فهو أن السياسيين وراسمـي السياسة والمعلقين الغربيـين، لأسباب أيديولوجية واستراتيجيـة خاصة بهـم (أوضحها هـذا الكتاب) يسلطـون بقعة الضـوء على نموذج ديوبانـد وكأنه الممثـل الوحيد للإسلام. تعتقـد أمينة هوتي، الناشطـة في ترويج الحوار والفهـم المتبادل بين الإسلام والغـرب، أن النزعة إلى التركيز على "المتطرفين" وتجاهل "المعتدلين" لا يساعد قضية الفهم المتبادل:

يمثـل تراجـع وانحسار تأثير المعتدلـين وتنامي دور ونفوذ المتطرفـين تطورا محفوفا بالخطـر وتحديا قويا لا يقتصـران على جانب المسلمين وحدهم. فالناس العاديون الذين تحدثت معهم في الغرب يتبنون العديد من المدركات السلبية والخاطئة غالبا عن الإسلام والمسلمين والمرأة المسلمة. فالعربي يعني المسلم والمسلم يعني العربي. لكن أسقف القدس الحـالي أشار في خطبة مثيرة في كيمبردج إلى أنه عربي وفلسطيني وإسرائيلي ومسيحي في آن معا، وأن المسيح لم يكن رجلا وسيما أشقر الشعر أزرق العينين كنجوم هوليود، لكنه ينتمي في أصله إلى الشرق الأوسط.

على نحو مشابه، أشار الدكتور أنور في إندونيسيا إلى أن المسلمين الإندونيسيين مجتمع متنـوع. وفي الحقيقة، اتفق معه في الرأي: الإسلام ديـن استيعابي يقبل الآخر، ويتقاسم العديد من المعتقدات المشتركة مع المسيحية واليهودية، وغيرهما من الديانات التوحيدية؛ الإسلام منح الرجال والنساء حقوق الإنسان منذ القرن السابع الميلادي؛ الحياة مقدسة في الإسـلام والانتحار حرام وكذلك القتل؛ المسلمون ليسوا عرقا واحدا بل تتعدد ألوانهم ووجوههم وسلوكهم؛ الإسلام منح المرأة حقوقا عديدة، بل أكثر من الرجل أحيانا[66].

لكـن النتائج الميدانية التـي توصلنا إليها تؤكد المبالغة في تقديـر أهمية الشخصيات التـي تمثل نموذج ديوبانـد بسبب الأحداث الراهنـة ومغالاة وسائل الإعـلام الغربية في هـذا السياق، وذلك على الرغـم من التعاطف الواسع معها في العالم الإسلامي. جوناثان هايدن، الذي رتب لي اللقاءين مع أنور ونور، يؤكد هذا الرأي أيضا:

خلال اللقاء مع الدكتور أنور في فندق بجاكرتا، بدا توتره واضحا للعيان. فهو يخاطر بحياته في سبيل الإسلام المعتدل العصري. لقد صدرت الفتاوى بتحليل دم أمثاله. ولذلك كان يلتفـت بقلق يمنـة ويسرة وعرقه صبيـب، ويتكلم بصوت منخفـض. الفندق تعرض لعمليـة تفجـير إرهابية عام 2003، ومـع أن إجراءات الأمن مشـددة، إلا أن التوتر ظهر حتـى في الجو. اضطهد أنـور وانتقد بحدة بسبب دفاعه عن التعدديـة، التي تمثل واحدا مـن أهم مقومات وملامح الديمقراطية الحديثة. إندونيسيا أكبر بلد إسلامي في العالم، وسمعنـا الكثيريـن يصفونها أمامنـا بـ"المارد النائم". وحين نأخـذ بالاعتبار حجم المال الـذي تصرفـه الولايات المتحـدة على "غرس الديمقراطية"، فإن مـن المحبط لي رؤية أشخاص مثـل الدكتور أنـور يكافحون ويعانون لترويـج المبادئ الأساسيـة للديمقراطية في بلـد يحظى بمثل هـذه الأهمية ويتعرض لهذا القدر مـن التجاهل. وهو، مثل الكثيرين المسلمـين في إندونيسيـا الذين يدافعون عن المسـاواة في الحقوق والتعدديـة والليبرالية، صديـق للولايات المتحدة ويفعـل الكثير لمحاربة الإرهاب كالجنـود في العراق تماما، لكنه ترك وحيدا في الخندق ليواجه تهديدات رجال الدين المحافظين.

إندونيسيـا بالفعل مارد إسلامي نائم (عـدد سكانها يناهز 250 مليونا) وما يحدث هناك سوف يؤثر في المنطقة برمتها. لذلك فإن النضال الذي يخوضه نور وأنور أمر مهم.

وفي حين أنهما يقاتلان باسم نموذج عليكره وإرادته وجوهره في المجتمع، إلا أن الكثيرين يرون في نسختهما عن الإسلام تشويهات وتنازلات وتسويات. وسوف يقاوم المسلمون على الدوام فرض إطار إيديولوجي ملون بالأفكار والمفاهيم الغربية، مثل "التعددية"، التي يروجها الغرب برأي العديد منهم. وبعد أن فوجئت بالاستقبال الحار الذي تلقيته في العالم الإسلامي، أدركت لماذا كانت استجابة المسلمين على هذه الدرجة من الإيجابية، لكن اتخذوا مواقف عدائية تجاه نور وأنور رغم ما يتمتع به كل منهما من صفات وخصال تدفع المرء للتعاطف معه. ففي حين اعترفت بوجود أزمة في الإسلام، إلا أنني لم أستخدم أبدا تعابير جديدة أو مستلهمة من الغرب، مثل "إصلاح الإسلام" أو "الإسلام التقدمي" عند التصدي للقضايا الأساسية. وأعتقد أن من المهم للثقافة أن تعمل ضمن إطار معتقداتها وتقاليدها بقدر الإمكان. ولأن هذين الزعيمين متهمان بالهجوم على أسس وأركان الإسلام ذاتها في سعيهما لإحياء الدين، فقد تعرضا للإدانة والتجريم على الرغم من أوراقهما الثبوتية كمسلمين صالحين. وتلك عبرة يجب أن يتعلمها كل مسلم وغير مسلم يريد إحداث تغيير إيجابي وإجراء حوار حقيقي في المجتمع.

معركتي في سبيل تعريف الإسلام

ألهمني محمد علي جناح التزام نموذج عليكره، ثم تعزز خلال سنوات عملي فيما كان يسمى الخدمة المدنية في باكستان، التي تضم نخبة كادر الخدمات العليا المركزية. كان محمد علي جناح يجسد في القول والفعل نظاما ديمقراطيا حقيقيا، واحتراما للقانون، وحقوق الآخرين، وحماية المستضعفين والمضطهدين[67]. آمن جناح بالعمل الجاد الدؤوب والكفاءة وأدان المحسوبية والفساد. وجدت في رؤيته مجتمعا مسلما مثاليا مؤسسا على المقومات المركزية للإسلام: العدل والإحسان والعلم. الناس العاديون الذين يعيشون في المناطق الريفية والقبلية في باكستان ألهموني بإيمانهم واستقامتهم وحسن وفادتهم. عرفت أنني أستطيع مساعدتهم بالطريقة التي كان محمد علي جناح سيرغبها: بتوفير سلطة حكومية مسؤولة، وعدالة تعطي الحق للمظلوم بسرعة، وحرية وسهولة الوصول إلى المسؤولين.

الخدمة المدنية في باكستان، التي امتدحها الآباء المؤسسون بوصفها "إطارا فولاذيا"، تحدرت مباشرة من الخدمة المدنية الهندية، التي أسستها الإمبراطورية

البريطانية وصممتها خصيصى للهند. والمعجبون بها يتطلعون إليها برهبة، والكتب التي ألفت عنها قارنتها بـ"أوصياء" أفلاطون والطبقة العليا من البراهما "المولودة في السماء"[68]. واستطاع موظفوها، الذين يختارون بواسطة امتحانات تنافسية، ويكونون غالبا من خريجي اكسفورد وكيمبردج، ضمان الاستقرار في الأوقات المتغيرة والحيادية والنزاهة في السياسة المحلية. كانت خدمة مدنية ممركزة وقوية تجند موظفيها على أساس امتحانات مفتوحة، وتمثل واجبها الأساسي في ضمان القانون والنظام، فكانت نعمة مباركة في مجتمعات خضعت للأفكار والولاءات القبلية والدينية. ما زالت قصة مدير المنطقة المسؤول تفتن الكتاب[69]. لكن في نظر منتقدي الخدمة المدنية الهندية، لم تكن هندية فعلا ونادرا ما كانت مدنية، ويصعب اعتبارها خدمة.

كانت الخدمة المدنية في باكستان نظاما ميداني المرتكز، رغم مكانتها الاجتماعية الرفيعة. فحين يعين الموظف كمساعد للمأمور أولا، ويكون في الخامسة والعشرين من العمر عادة، توكل إليه مسؤولية إدارة منطقة فرعية تضم عددا يراوح بين عدة مئات من الآلاف وعدة ملايين من السكان. وبمقدوره تنفيذ برامج وخطط تنموية وبناء مدارس جديدة، لكن واجبه الأساسي يقتصر على حماية القانون والمحافظة على النظام والعمل كمسؤول عن عائدات الحكومة. وحين لا يكون رئيسه المباشر في زيارة لمنطقته، يصبح السيد المطاع من جميع سكانها. رجال القبائل، وهم أكثر فطنة من أهل الحضر، يلقبون رئيس الإدارة بـ"الباشا" (على وجه العموم، يسمى المفوض السياسي في منطقة جنوب وزيرستان "باشا وزيرستان")[70].

ثمة درس مبكر تعلمته هو أن القول السائد عن فساد وإفساد السلطة المطلقة يصح تماما على النخبة الحاكمة في باكستان. وحين أصبحت مدير ناحية في الستينيات (وكنت شابا آنذاك)، حملت معي رؤية محمد علي جناح المثالية، آملا أن أحدث فرقا في حياة الناس المسؤول عنهم. لكنني أدركت أيضا أن الفساد ينخر ببطء رؤيته عن باكستان، وأن نموذج عليكره ذاته يواجه خطر التشويه والتحريف. أدركت سلسلة من الأنظمة المتعاقبة أن بنية الخدمة المدنية في باكستان تشكل عقبة كأداء أمام ضمان السلطة المطلقة التي ترغب فيها، لأنها مثلت مفهوما محددا عن القانون والنظام، ونجحت في تفكيكها في نهاية

المطاف. ولم تظهر صرخات احتجاج علنية لأن الخدمة بدأت تكتسب على مر السنين سمعة الإدارة المتغطرسة بل حتى الفاسدة. لكن البديل الذي حل محلها لم يكن أفضل. واليوم، تتنافس العواطف والأهواء والولاءات الطائفية والمذهبية والإثنية والإيديولوجية على ملء الفراغ الذي خلفه إلغاؤها في المجتمع، وتتحول بسهولة إلى العنف. ومن الواضح أن بديل الإدارة العسكرية الذي حل محل الخدمة المدنية قد فشل في باكستان. وهذه عبرة يحتاج إلى أن يتذكرها كل من يهتم بتصميم مستقبل المجتمعات الإسلامية، في باكستان أو العراق أو أفغانستان.

واجهت أول أزمة كبرى بعد بضعة شهور من تعييني مديرا في اوكارا ضمن منطقة ساهيوال الإدارية إلى الجنوب من لاهور. إذ عين زميل لي تدرب في الأكاديمية في المنطقة ذاتها، وكان رئيسنا، معاون المدير المفوض، وأحد أقوى الموظفين المسؤولين في الخدمة المدنية، قد رتب أمر إقامة حفل استقبال في منزله. حضر أفراد النخبة في المقاطعة كلهم - أعضاء البرلمان، ورؤساء الأقسام، وضباط الشرطة، والأثرياء والأعيان والشخصيات المهمة والنافذة. فصل الرجال عن النساء، وبدؤوا بتناول الشراب. جلست أنا وزميلي، وكنا أصغر الضيوف سنا، في ركن قصي وحاولنا بقدر المستطاع عدم لفت الأنظار، حين اقترب منا نائب المفوض، وعليه أمارات السكر، وسألنا لماذا لا نشرب. ثم ألقى علينا محاضرة عن مزايا الشراب، الذي يعد برأيه ضرورة لا غنى عنها للموظفين الميدانيين الناجحين وطلب من النادل أن يحضر لنا كأسين وتركنا وذهب. ونظرا لأننا لم نذق طعم الخمر من قبل، قررنا عدم التخلي عن مبادئنا. فقد تعلمت من والدي أن أرفض بأسلوب مهذب في مثل هذه الحالات، لكن دون أن أنتقد الآخرين الذين يختارون سبيلا آخر.

عاد نائب المدير المفوض بعد بضع دقائق ومعه عدد من كبار الموظفين وبدؤوا يضغطون علينا لتناول الشراب. صحيح أن أسلوبهم كان دمثا ولطيفا لكن فيه نوعا من التهديد والترهيب أيضا. بعضهم كان يتمايل متأرجحا من شدة السكر. فجأة أذعن صديقي للضغوط ورشف من كأسه. والآن تحول الانتباه إلي، في حين انضم آخرون لحثي على الشرب. تشبثت بالرفض وأعددت نفسي للنقل المهين من المنطقة في صبيحة اليوم التالي، وتلك بداية غير موفقة لمهنتي كمدير ناحية. عند هذه النقطة، أعلن أحدهم أن

العشاء جاهز، وبدأ المدعون بالانتقال إلى غرفة الطعام. ولأنه المضيف، تريث نائب المدير المفوض منتظرا دخول جميع الضيوف. وتبعناهم أنا وزميلي، ملتزمين آداب التراتبية. استغل نائب المفوض فرصة ابتعاد آخر ضيف وهمس إلي وقد صحا من سكره تماما: "كنت أختبرك. حسنا فعلت، يا أكبر. أنا فخور بك. لسوف تحظى بدعمي الكامل لأداء مهمتك". ثم وجه نظرة مذلة ومعبرة إلى زميلي قبل أن ندخل معا غرفة الطعام.

لم أكن حينذاك أتجاوز الخامسة والعشرين، ومع ذلك تعرفت الصدام المحير بين النماذج المختلفة في المجتمع المسلم، ووجب علي تلمس الطريق عبرها للحفاظ على مواقفي ووجهتي الأخلاقية. في حفل العشاء ذاك، سيحافظ أتباع نموذج أجمر على استقامتهم الإسلامية بعدم تناول المسكرات لكن مع تبني سياسة "عش ودع الآخرين يعيشون" تجاه الذين يعدون أنفسهم مسلمين "عصرانيين" من نموذج عليكره المشوه والمحرف. أما أولئك الذين يؤمنون بنموذج ديوباند فلن يدعوا أصلا إلى حفل كهذا - لنتذكر أن الحادثة تعود إلى ستينيات القرن العشرين، حين كان نموذج عليكره يهيمن على باكستان، ونموذج ديوباند مهمشا وعلى أية حال كانوا سيدينون الحفل بوصفه انتهاكا لمبادئ الإسلام.

الأيام الذهبية الخوالي للخدمة المدنية ونموذج عليكره ولت الآن وأصبحت جزءا من الماضي. لكن حتى أنا، الذي عشت في مجتمع إسلامي، لم أستطع التنبؤ بسرعة وطبيعة التغيير الذي بدأ آنذاك. فانطلاقا من أواخر الثمانينيات، كان علي أن أرى، من منظوري كزميل في جامعة كيمبردج، التأثيرات الكبرى للعولمة على العالم الإسلامي والتهديدات التي تفرضها على مجتمعي. عرفت أن نموذج عليكره معرض للخطر، لكن لم أدرك حجم التغيير الآتي. قررت آنذاك الانضمام إلى المعمعة ودعم وترويج نموذج عليكره بقدر ما أستطيع. وعقدت العزم على إطلاق مشروع طموح لإحياء النموذج عبر صنع أفلام وتأليف كتب عن محمد علي جناح، تجسيده المنصور والمثالي. ودعوت المشروع المؤلف من أربعة أجزاء "رباعية جناح". استكملته في نهاية المطاف مع أنه تطلب زهاء عقد من الزمن. وخلال العملية تعرضت للدمار تقريبا - جسديا ووجدانيا وماليا. وكان أشد ما أحبطتني خيبة الأمل في السلوك، ومنه انتهاك الالتزامات والعقود المكتوبة من أولئك الذين عبروا بثقافتهم الغربية ومظهرهم وكلامهم عن نموذج عليكره وحسبت أنهم سيفهمون مدى وعمق ما كنت أحاول فعله[71].

مــن الواضح أن المشروع عُد محاولة لإحياء روح محمد علي جناح التي أصابها الفتور والتراخــي وأخلاق نمــوذج عليكره. وحين كنت أصور الفيلــم في باكستان، تلقيت تحذيرا من مغبة تقديم جناح كـ"ليبرالي"، أو حتى التلميح إلى أنه رزق بابنة، لأنه ارتكب خطيئة في نظــر المتشدديــن والمتزمتين بزواجه من امــرأة غير مسلمة. وطُلب منــي تغيير الممثل كريستوفــر لي الذي يقوم بدور محمد علي جناح لأنه لعــب من قبل دور دراكولا، وشاشي كابــور لأنه هندوسي وهندي. وحــين رفضت، أثرت عاصفة من الغضب من عدد كبير من الأشخاصــ لم يكن يخطــر ببالي. صحيح أنني توقعت بعضــ المعارضة لكن لم أتصور أن تشــن علي حملة تشويه شاملــة عبر الصحف، والمظاهرات، والدعــاوى القضائية، وحتى التهديــدات بالقتل. تقارير الصحف أشارت بأسلــوب هستيري إلى الكشف عن "مؤامرة يهودية" و"مؤامرة هندوسية" تستهدفان الإسلام عبر الفيلم. وعند عودتي إلى كيمبردج، شعــرت بتشوش وارتبــاك ولم أفهم ما حدث وكيف أفسره. لكنني أدركت أنني في مواجهة تيارات عميقة في المجتمع.

وفي حــين تلقيت تأييدا قويــا ودعما هائلا من أولئك الذين آمنــوا أنني أكافح لإحياء ذكرى محمد علي جناح، كنت أيضا رمزا في نظرهم لهذا الإحياء. عمر بكري، الذي حاز شهــرة عالمية بعد الحادي عشر من سبتمبر حين زعم أنه الناطق الرسمي باسم بن لادن في أوروبا، هاجمني بوصفي "العم توم"، واتهمني بالانسحار والافتتان بالحضارة الغربية والحرصــ الشديــد على محــاورة اليهود والنصــارى[72]. في الوقت ذاتــه تقريبا، هاجم بأسلــوب عنيف ولاذع محمد علي جناح في مجلته "الخلافة"، واتهمه بالذنوب ذاتها (في عــدد كانــون الأول / ديسمبر 1996). أما عنوان المقــال فلخص نبرته: "افتضاح محمد علــي جناح! جناح يتحــدى الله". وردد هجوم بكري منتقدو جنــاح المتدينون الذين دعوه بـ"الكافر العظيــم". أنكرت اتهامات بكري، فهو يمثل ما يعده الكثير من المسلمين "الفئة المتطرفة" وحتــى "الضالة" في الإسلام. وكان ذلك فشلا من جانبي في قراءة التغييرات العميقة والجوهرية التي تحدث في مجتمعي.

كان بمقــدوري تفهم حقــد أولئك الذين لم يريدوا رؤيتي أنجح بسبب الغيرة المعروفة في المجتمــع المسلم، لكنني لم أتمكن من تفسير العداء المتأصل أو حتى تناقض وازدواجية

العديـد غيرهم إلى أن قمت برحلاتي الأخـيرة في العالم الإسلامي. وما شهدته فعلا هو انحطـاط درامي أصاب نموذج عليكره. لقد نشأت وأنا أسمع أبوي وأصدقائهما يتحدثون عـن محمد علـي جناح كأنما هـو موسى، زعيم سـوف يخوضون البحر خلفـه لو أمرهم بذلـك. فعلى الرغم من كل شـيء، استطاع وحده تقريبا إقامة دولـة للمسلمين. ولم أكن أتخيـل ألا يتبـع باكسـتـاني الرجل الذي منحه الحريـة وأعطاه دولة. لذلـك حين سمعت الطـلاب الباكستانيين في إحدى مدارس النخبة العصرية في كراتشـي، المدرسة الأولى التـي التحقت بهـا، يمجدون فضائل بن لادن خلال رحلتنا عـام 2006، واجهت مباشرة حقيقة الانهيار الدرامي المؤثر لرؤية محمد علي جناح التحديثية لباكستان.

كان نمـوذج عليكـره الذي جسـده محمد علي جنـاح يعني التصـدي لقضايا تطلبت إصلاحـات اجتماعية تشمل الاقتصاد والسياسة، وتمثيـل المسلمين في البرلمان، والكفاح للحفاظ على أمن وسلامة وأمان المسلمين في أوضاع حياتية حقيقية. هذا الكفاح النضالي يتطلـب تضحيات صعبة وتفكيرا نقديا على صعيد حياتنا الشخصية. إذ لا نستطيع قبول أن يشتـت انتباهنـا الغضب أو الطمع أو الكسل أو الجهـل عن مسعى تحقيق هذا الهداف الأكـبر. في الإسلام الذي يفسره عمرو خالد وشوكت عزيز - أقرب التفسيرات المعاصرة إلى نمـوذج عليكـره - رأيت هذه القضايـا المهمة تهمش لتخلي السبيـل لتوكيد أكبر على الكسـب الشخصـي. وأشعر أن هذا التفسير لا يتحدى أحدا علـى المستوى الروحي، لكنه يوفر إحساسا زائفا بالأمان وشعورا مؤقتا وزائلا بالسعادة والرخاء.

منذ استكمال "رباعية جناح" في عامي 1997. 1998، تفاقم الاستقطاب والعنف في العـالم، وحثت العولمة الخطى. في رحلة عام 2006، توضح لي أن العداء لمشروعي المتعلق بمحمـد علي جناح ناجم عن التغييرات الاجتماعية. فقـد أصبح نموذج عليكره التقدمي والفاعـل ضعيفا ويواجـه خطر اكتساح نمـوذج ديوباند الذي لم يبد قـط أي تعاطف مع محمـد علي جناح. شعرت كأنني محارب في خضـم معركة يعرف أن فرص كسبها قليلة، لكنه لم يدرك قط أن معسكره خسر الحرب.





-5-
صراع حضارات؟

"وضع المسلمين يائس إلى أبعد حد. وأنا على استعداد للتضحية بحياتي في سبيل قضيتهم". هذه الكلمات المرعبة سمعتها من صاحبي على مائدة العشاء، في أمسية ربيعية لطيفة في عمان. هذا الديبلوماسي المحنك، بحلته الأنيقة وربطة عنقه الحريرية الوردية ومنديله الذي زين صدره، كان سفيرا سابقا للعراق، ويرأس الآن مؤسسة استشارية عربية كبرى، تحدث بنبرة محسوبة وهادئة، صاغتها سنوات خدمته الطويلة، وهذا ما أضفى على رسالته مزيدا من البؤس واليأس: "ليس لدي شيء أعيش من أجله. فقدت ثقافتي، ووطني، وشرفي. خسرت ديني".

كنا في "تنورين"، المطعم الراقي المشهور بطعامه اللبناني، نجلس إلى مائدة عشاء أقامها سفير باكستان في الأردن، عارف كمال. كان الضيوف من نخبة المدينة، يعيشون حياة مريحة على الطراز الغربي، ويستطيعون السفر إلى الخارج متى أرادوا، ويتناولون طعامهم في أفخم المطاعم، ويجسدون أمثلة ناجحة على نموذج عليكره في عمان.

رتب كمال، وهو صديق قديم لي، دعوة العشاء بعد أن تحدثت أمام المعهد الملكي للدراسات الدينية، وهو من بنات أفكار الأمير الحسن، عم الملك الحالي وأحد أبرز المفكرين في العالم العربي. كانت مناسبة رفيعة المستوى، ترأس عليها السفير السابق حسن أبو نعمة، مدير المعهد، واجتذبت علماء وباحثين وصحفيين وسفراء وأعضاء مجلس الأعيان. ومع أن الجو المخيم اتسم بالود واللطف والتهذيب، إلا أنني واجهت بعض الأسئلة العدائية عن الولايات المتحدة وإسرائيل، من النوع الذي كنت سأتوقعه من حضور أقل دماثة وتهذيبا. سأل شاب يرتدي حلة دكناء ويضع نظارة لماذا كنت متعاطفا إلى هذا الحد مع صبي يهوديمشيرا إلى داني بيرلومتجاهلا مئات الآلاف من قتلى المسلمين. ومع ذلك بدا العشاء فيما بعد أمسية ممتعة جمعت ديبلوماسيين يكررون كليشهات مبتذلة وغير هجومية - إلى أن عبر السفير العراقي السابق عن يأسه.

قبـل بضعة أيام فقط، في الثاني والعشرين مـن شباط/ فبراير 2006، دمر انفجار أحد أقدم المساجد في العراق، المسجد الذهبي في سامراء، الذي يضم مرقدي إمامين من أقدس أئمة الشيعة (في القرن التاسع)، أحدهما الحسن العسكري، والد الإمام الغائب. وكمـا يعرف كل شيعـي، سوف تؤذن رجعة الإمـام الغائب بنهاية العـالم. ووفقا للاهوت الشيعـي، سيقاتـل الإمام الغائـب جنبا إلى جنب عيسـى المسيح ليهزمـا الأعور الدجال (النسخـة الإسلامية مـن المسيح الدجال). أطلـق تدمير المسجد سلسلـة من الهجمات الدمويـة المتبادلـة بين السنـة والشيعة في العـراق والأعمـال الانتقامية التـي استهدفت مساجد المذهبين.

لكـن السفـير العراقي لم يحمـل المسلمين مسؤولية مـا حدث. فعلى شاكلـة الرئيس الإيـراني محمـود أحمدي نجـاد، اتهـم الأمريـكان والإسرائيليين بوضـع المتفجرات في المسجـد. قـال غاضبا "لا يمكن لمسلم، شيعي أو سني، أن يفكـر بتدمير مثل هذا المسجد المقدس، الذي صمد أمام أسوأ الفاتحين وأشدهم دموية في العالم - المغول". أخذت الآن ملاحظـات السفير الهادئة، وكأنما هي صادرة منـه إليه، انعطافة تنذر بالشؤم: حوادث مثل تلك التي وقعت في سامراء، ليست سوى تمهيد للدمار النهائي للحرم القدسي ذاته، الـذي يخطط له الأمريـكان والإسرائيليون بالتفصيل. المسلمـون وصلوا فعلا إلى "نقطة الغليان"، وتدمير ما يدعوه المسلمون بالحرم القدسي، الذي يضم مسجد الصخرة بقبته الذهبية، ثالث الحرمين (مكة والمدينة)، سيمثل نقطة اللاعودة التي ستطلق أعمال عنف لا سابقة لها. لم تكن تلك المرة الأولى التي أسمع فيها هذه الفكرة، إذ سمعتها قبل بضعة أيام في دمشق من وزيرة المغتربين. لا بد أن شعورا بخروج العالم عن السيطرة قد اكتسح السفـير العراقـي ودفعه للتكلم عن العمليـات الانتحارية أمام شخـص غريب. فهو ليس إرهابيا في "القاعدة"، ولا شابا متعصبا متزمتا، ولا شخصـا يعاني الحرمان الاقتصادي مثل بعضـ أنماط الانتحاريين المسلمين. بل كان رجلا ذكيا مثقفا من عالم الديبلوماسية تجتاحه موجة يأس وغضب.

قطـع حديثنا عند هذه النقطـة وزير خارجية الأردن السابق، الذي أعلن أنه مسيحي، وهاجم بعنف الرسوم الكرتونية المسيئة للرسول. قال: "كيف يجرؤ الغرب على إهانة النبي؟

إنه أعظم بطل في نظري". فالغرب، كما قال غاضبا، لا يعلم شيئا عن المسيحية الحقيقية، دين المحبة وقبول الآخر، الذي لن يوجه مثل الإهانة الوحشية للديانات الأخرى.

فكرة المسيحي الذي يمجد فضائل وخصال نبي الإسلام قد تبدو مستبعدة للغربيين. لكن في السياق الثقافي للشرق الأوسط لا يعد النبي شخصية دينية وحسب، بل قائدا تاريخيا ملهما جلب السلام والأمان إلى العرب. والعرب المسيحيون الذين يعيشون في الشرق الأوسط قبل مجيء الإسلام وفي بيئته الثقافية، تعلموا النظر إلى الشخصيات الدينية في التراث الإسلامي باحترام وتبجيل.

حين تحول الحديث إلى عمليات الإذلال، خصوصا ما حدث في أبو غريب، رسم صحبي رابطة مباشرة بين السياسات الأمريكية وما يشعر به المسلمون في هذا الجزء من العالم من غضب ويأس. فقد أدت أعمال وأفعال أمريكا بطريقة مباشرة إلى مزيد من العنف وإشاعة الحديث عن الانتقام والثأر بين المسلمين، وهذا قد ينحدر إلى مستوى مزيد من "المؤامرات الإرهابية" التي تحاك وتحبط، ومزيد من العائلات الثكلى على جانبي المحيط، ومزيد من المجندين المسلمين والأمريكيين للحرب على الإرهاب. حتى أكثر المراقبين تفاؤلا يسارعون إلى السؤال: "هل نحن أخيرا في خضم صراع حضارات؟".

من الصعب الاعتقاد أن صمويل هنتنغتون، المتخصص في العلوم السياسية، كان على خطأ: فربما هناك "صراع حضارات" يجري على قدم وساق بين الغرب والإسلام، صراع حتمي لا مفر منه[1]. فالجراح عميقة، وسيتطلب جمع الطرفين المختلفين معا عملا شاقا وجهدا متواصلا وتعاطفا وتراحما. في العراق وأفغانستان، يبدو أن الحضارتين محاصرتان في الرمال المتحركة وفي بحر من الدماء والإرهاب. ومع كل قصة رعب وترويع جديدة، تتحول أسوأ كوابيس الناس إلى حقيقة واقعية. حين سمعت عن العدوان الإسرائيلي على لبنان في تموز/ يوليو 2006، تذكرت بكل وضوح الحديث الذي دار في تلك الأمسية في عمان. وتساءلت، ما هي ردة فعل السفير العراقي على خبر العدوان. ليس من الصعب تخيل استيائه الجارف وغضبه العارم على الولايات المتحدة، التي زعمت أنها تحارب في سبيل العدالة والسلام، لكنها اعترضت على قرار في الأمم المتحدة يطالب بوقف إطلاق النار ووقف تدمير لبنان.

الأمركة

لا يمكن فهم هذا الاضطراب إلا في سياق العولمة والأمركة، المتزامنتين المترادفتين، وفقا لمعلقين من أمثال توماس فريدمان[2]. وفي حين تسعى العولمة إلى نشر مثل أمريكية عزيزة كالديمقراطية وحقوق الإنسان، فهي تضعف وتبلي أيضا قيما تحظى بإعجاب الكثيرين وتسم المجتمع الأمريكي، كالفردانية. لكن التشديد الأمريكي على الفردانية دون ضوابط يمكن أن يبطل الواجب والمسؤولية تجاه الأسرة والمجتمع، وهما من القيم التقليدية التي يجلها ويقدرها المسلمون. وفي الحقيقة، فإن الرسالة الشاملة للعولمة والروح الأمريكية، وفقا لأخلاقيات العمل البروتستانتية التي تحدث عنها عالم الاجتماع ماكس فيبر، هي الاستقلالية في جميع صيغها، ونتائجها السريعة، والانغماس في المتع المادية – ويمكن أن تفرز تأثيرات وبيلة على الفرد والمجتمع برمته.

يضم تعبير "العولمة"، مع أنه جديد نسبيا، ظواهر تسربت إلى الذهنية والثقافة الأمريكية على مر السنين، خصوصا تأثيرات التقانة المتقدمة بقصص نجاحها الذي يتحقق بين عشية وضحاها. ومع أن الأمريكيين قدروا على الدوام قيمة العمل الجاد والدؤوب، إلا أن الكثيرين منهم اليوم يبحثون عن "السبيل السريع" المفضي إلى النجاح. والتشديد على تطوير الخبرة المناسبة أو المهارات الضرورية، التي تتطلب وقتا ومثابرة ودأبا، خلى مكانه للرغبة في "الصورة الصحيحة". المؤهلات تعتمد على الموهبة "المصنعة" بدلا من المزايا والسمات المكتسبة بالتجربة والخبرة والتعليم. فصورة السياسيين من الحزبين كليهما تخضع لعملية تلميع وتشذيب وصقل بواسطة مؤسسات العلاقات العامة والمستشارين السياسيين، وتستند الخطب التي يلقونها إلى صيغ "الملاحظات اللاذعة واللافتة" المقتبسة من الأخبار، وهي أبعد ما تكون عن بلاغة كلمات لينكولن أو جيفرسون أو واشنطن. ويقر الجمهوريون والديمقراطيون على حد سواء بـ "نبوغ" كارل روف، مثلا، وينسبون إليه فضل "خلق" الانتصار الانتخابي الذي حققه جورج بوش الابن مرتين متواليتين.

يقود عالم الترفيه بثقافته المرتكزة على المشاهير عملية توكيد قيمة الصورة. فنجاح رموز الثقافة الشعبية مثل ويتني سبيرز أو باريس هيلتون يعزى إلى المظهر الخارجي،

والشعبيــة، والعلاقــات العامة: فهي مــن منتجات عالم البعدين علــى شاشة التلفزيون لا العالم الحقيقي. لكــن يخفق العديد من الأمريكيين في التمييز، بل يأخذون النماذج التي يحتــذى مثالهــا من نسخة الشاشــة المسطحة[3]. وحين دعيت إلى التحــدث أمام جمهور مميــز والإقامة في أحد أفضل فنادق الولايات المتحدة، وجدت في غرفتي قطع الشوكولاته وطاقات الورود، إلى جانب بطاقات تحوي لآلئ الحكمة، لا من الكتاب المقدس أو شكسبير، بــل من دونالد ترامب. الغــرف في طابق رجال الأعمال في فنــدق هيلتون اناهيم في لوس أنجلوســ قدمت الحكمة التالية لدونالد ترامــب في شهر تشرين الأول/أكتوبر: "ما دمت ستفكر في كل الأحوال، ففكر بشيء مهم".

في المجتمــع الأمريكي، تحمــل صورة ومظهر النجاح الدرجة ذاتهــا من تأثير النجاح والسلطــة الحقيقيين. إذ يشيد الأفراد في مختلف أرجــاء الولايات المتحدة بيوتا بملايين الدولارات وينفقون مبالغ كبــيرة على الثياب والسيارات والمجوهرات لاكتساب الاعتراف الاجتماعــي. ويتلقى هــذا الانهمام والتبذير التمجيد والمديح مــن عروض وبرامج وسائل الإعــلام العالميــة مثل برنامج "أساليب حياة الأثريــاء والمشهورين" قبل عقد من الزمن، وبرنامج "ام تي في" الحالي والمتبجح "بيوت"، الذي يعرض بعضا من أفخم وأغلى البيوت في العالم. الرغبة الجامحة في الثراء والنزعة الاستهلاكية المفرطة تمثلان أيضا ركيزتين من ركائز العولمة، التي تحتاج إلى أسواق متوسعة للمصفوفة الهائلة من منتجاتها الكمالية والباهظة الثمن.

وفي حــين أن ثقافــة "الأنــا" تشغــل محــرك العولمــة وتبقيه دائــرا، فهي تنتــج أيضا بعضــ "الملوثــات" الخطرة. وعبر تشجيــع التمركز على الذات في السعــي وراء الأهداف الاقتصادية والمتعية، تدمر القدرة علــى التعاطف مع الآخرين. أما المجتمعات التقليدية، المرتكزة غالبا على الجماعة، فترى العالم تحت ضوء مختلف، وتعد الإفراط في الاهتمام بالــذات انحرافــا ضلاليــا ومؤشــرا دلاليا علــى الانهيــار الاجتماعي. في العــادة، يشعر الأغنيــاء والأقوياء في المجتمعات التقليدية بالتزام أخلاقي بمساعدة الفقراء والمحتاجين لأن المجتمع معرف بتعابير جمعية لا بوصفه مجموعة من الأفراد المستقلين. وتشير بعض الدراســات الأكاديميــة التــي أجريت منــذ مدة قريبــة إلى أن أخلاقيات الجــد والمثابرة

والاجتهـاد والاستقلال الشخصي تدفع الكثير مـن الأمريكيين إلى تقديم الحجة على أن المحرومين يجـب أن يلوموا أنفسهم، لأن بمقدورهم تحسـين حياتهم إذا غيروا مواقفهم وتفكيرهم. قد يصح ذلك في بعض الحالات لكن ليس كلها بالتأكيد، ويجب عدم السماح بانحياز المجتمع ضد الفقراء أو كبت التعاطف مع المحتاجين.

مـن التأثيرات السلبية الأخرى للعولمة اتساع الفجوات الفاصلة بين الأغنياء والفقراء داخـل / وبـين بلدان العـالم، دون ظهور أي علامـة دالة على تضييقهـا. هنالك مليارات مـن البشـر يعيشون في فقر مدقـع يقترب من حافة الجوع، في حين تزيـد ثروة ثلاثة من أغنـى أغنيـاء العالم على ثـروة نصف سكان الأرض معا[4]. وفي كثير مـن الحالات، لا تساعد سياسات العولمة والسوق الحر التي ينتهجها البنك الدولي وصندوق النقد الدولي، وتستهـدف تخفيف حدة الفقر في العالم، المحرومين في المجتمعات التقليدية. ومع ذلك لا يـرى كثير من المعلقين بديلا آخر سوى القبـول بالعولمة والمنافسة وفقا لشروطها: المسألة مسألة بقاء، لا خيار. فإذا كانت بعض الدول أبطأ من غيرها في اللحاق بالركب، وتقاسم المنافـع، يجـب أن يقع اللوم علـى قوانينها وبطء حركتها لا على النظـام. وفي حين يذكي شعور أمريكا القوي بالفردانية نار العولمة، إلا أن السمة ذاتها كما ذكرنا آنفا تعرقل تحمل المسؤوليـة عن الأفعال الشخصية، وهو موقف ينتشر الآن في شتى أنحاء المعمورة. ويخفق الأمريكيـون في إدراك حقيقـة أن خطابهـم وأفعالهم، خصوصا مسلكهـم الاستهلاكي، يؤثـران تأثـيرا مباشرا في العالم الخارجـي، الذي يزداد انتقادا لهـم. ويتفق العديد من المراقبـين على تخلـي الأمريكيين عن المسؤولية والوعي نتيجـة العولمة، لا سيما من جانب الزعماء السياسيين.

يعيشـ العديـد من الأمريكيين في شرنقـة مكونة من المكتب والمتجـر المتعدد الأقسام (السوبـر ماركـت) ومنطقتهم من المدينـة، حيث لا يجبرون بالضـرورة على التعامل مع أشخاصـ آخريـن مختلفين عنهم – عرقيـا أو إثنيـا أو دينيا أو اقتصاديـا. وضمن هذه الشرنقـة، يمكـن للحياة أن تكون ممتعـة إلى أقصى حد وبعيـدة كل البعد عن حقيقة أن أمتهـم في حالة حرب، أو جرائم القتل المتعلقة بالمخدرات في الأحياء الفقيرة من المدينة، أو الفقـر المدقـع في أحيـاء أخرى. بيثيسـدا، حيث أعيشـ، ضاحية جميلـة من ضواحي

واشنطــن دي. ســي، تضم سكانا ينتمــون إلى الشريحة العليا مــن الطبقة الوسطى ومن البيض على الأغلب، لكنها تتناقض تناقضا صارخا على الصعيد الديمغرافي والاجتماعي مــع جنوب شرق واشنطن دي سي، حيث معظم السكان من السود. معدل وفيات الأطفال في واشنطــن بين الأمريكيــين الأفارقة أعلى منه في ولاية كيرالا الهندية، وفي جميع أرجاء الولايات المتحدة، تبلغ نسبة الوفيات بين الأطفال السود في السنة الأولى من العمر ضعف نسبتهــا لدى الأطفــال البيض[5]. اوبرا وينفــري عرضت على محطة "ســي ان ان" عام 2006 برنامجــا تلفزيونيا مــن جزأين ("تقرير خاص: المدارس الأمريكية في أزمة")، فضحــت فيه الظــروف المروعة في مدارس الأحيــاء الداخلية في المــدن الأمريكية، ومنها واشنطن. لا يعرف الكثيرون ممن خالطتهم في واشنطن شيئا عن هذه الأرقام أو أهميتها الدلالية الاجتماعية لأنهم منشغلون بحياتهم اليومية الخاصة.

وعلــى نحو مشابه، لا يسافر سوى عدد قليل مــن الأمريكيين، على الرغم من ثرائهم عمومــا، خارج الولايــات المتحدة أو ربما أوروبا، ولذلك لا يعرفــون سوى القليل عن بلدان العــالم الأخرى. والتوجهات الإخباريــة الأمريكية التي تركز على الأحداث الوطنية تطغى علــى قصص الحرب في العــراق وأفغانستــان. ولا يسمع سوى القليل عــن أحداث العالم الخارجي إلا إذا كان لها تأثير مباشر على الولايات المتحدة[6]. فضلا على ذلك، لا توجد محاولات تذكر لنقض وتغيير القوالب المنمطة للبلدان والشعوب الأخرى. ولذلك، لا يملك الأمريكيــون سوى رؤيــة ضيقة للعالم مقارنة بما يمكن توقعه مــن مواطني القوة العظمى الوحيدة.

مــع أن الأفــراد يعيشون علــى ما يبدو في خضــم الصخب واللون والحركــة، إلا أنهم يظلــون معزولين عــن المجتمع بل متوحديــن في حياتهــم اليومية الروتينيــة، في منازلهم أو سياراتهــم أو عنــد الذهاب إلى العمــل والعودة منه. فهذا عصــر يتضاءل فيه باطراد التواصــل الإنســاني أو التفكــير بوضــع البشر الآخرين. عــبرت عن هــذه العزلة وغياب الحساسية الوجدانية كتابات توم بيروتا مثلا، أو أفلام مثل "صور مدة ساعة" و"الجميلة الأمريكيــة" و"اصطدام"، الذي ابتدأ بمشهد اصطــدام سيارة وصوت يقول: "إنه شعور بالملامســة. في أي مدينــة حقيقية، أنت تسير في الشارع، أليــس كذلك؟ تلامس السابلة.

يصطدم الناس بك. لكن في لوس أنجلوس لا يلمسك أحد. تظل دوما خلف حاجز الحديد والزجاج. أعتقد أننا فقدنا تلك اللمسة إلى حد أننا نصدم سيارتنا بعضها ببعض لكي نشعر بشيء ما".

ولربما أسوأ من ذلك كله وحدة وعزلة الأطفال الذين يترعرعون تحت مظلة العولمة، التي تجبر الآباء في بعض الحالات على العمل طول النهار، وفي أخرى تسبب انهيار وحدة العائلةالنووية والممتدة على حد سواء. حالات الطلاق مرتفعة إلى درجة أن من بين كل طفلين في الولايات المتحدة هنالك طفل يأتي من عائلة مقسمة. ووفقا لمكتب الإحصاء الأمريكي، سوف يمضي 61% من جميع الأطفال سنوات حياتهم التكوينية كلها أو جزءا منها في أسر انفصل فيها الأبوان[7]. هذه اتجاهات ونزعات معروفة على نطاق واسع وتفرز تأثيرات مقلقة: تراجع تدخل الآباء وتزايد استقلالية الأطفال يعنيان مزيدا من الوصول إلى المواد المخصصة للراشدين ومن الاعتماد على التلفزيون أو ألعاب الفيديو للحصول على الصحبة في بيئتهم الانعزالية. المدارس أيضا تخفق في تشجيع الصداقة وحسن النيات. وفي العديد منها صفوف كبيرة كثيرا ما تكون ميدانا للاستئساد والتنمر على الضعفاء. وبدءا من المدرسة الثانوية يتعرض الشبان والشابات لثقافة الإباحة والملذات والانهمامبشؤون الذات[8].

ما يراه الطفل، وحتى البالغ، على شاشة التلفزيون يصبح على قدر حاسم من الأهمية في فهم كيف يفكر الأمريكيون العاديون في سلسلة كاملة من القضايا، تشمل العرق والدين والمجتمع. ولسوف يكتسب الكثير من الأطفال معارفهم عن سياسة الكراهية أو الجنس من هذا المصدر لأن هذه الموضوعات تناقش على الشاشة بوتيرة أكبر منها مع الآباء. أما مدركات أولئك الذين لا يعرفون سوى القليل عن الجماعات الإثنية الأخرى فيمكن أن تتأثر تأثرا شديدا بألعاب الفيديو والمسلسلات التلفزيونية العنيفة والمتخمة بالسموم العنصرية. فمثل هذه المؤثرات تعزز الأنماط الموجودة عبر استخدام التقانة المتقدمة. وتأثيرها العميق في الشباب يمكن أن نجده في العنف العشوائي والخالي من الهدف والمعنى لدى طلاب المدارس الثانوية، كما وثقه مايكل مور في أحد أفلامه الشهيرة(*). وفي حين يجب أن يوجه الدين المجتمعات نحو مزيد من الفهم الاستيعابي للعالم، إلا أنه يفاقم هنا

(*) Bowling For Clombine

الأحكام المسبقة والمتحيزة. وفي تفسير عصري للكتاب المقدس بعنوان: "المتخلفون عن الركب"، بيع منه 63 مليون نسخة، يصف المؤلفان تيم لاهاي وجيري جينكنز القيامة في بيئة تشبه أحد أفلام الحركة الاستعراضية، وهذا ما استحث العديد من القراء على الاعتقاد أن النهاية وشيكة ومن ثم تأييد ودعم بعض الممارسات والخطوات السياسية المعينة داخل وخارج الولايات المتحدة. الأحكام المسبقة والمتحيزة تحفزها وتشجعها أيضا ألعاب الفيديو الجديدة مثل "القوى الأبدية"، حيث يقاتل اللاعبون باسم جيش المسيح جيش المسيح الدجال في ساحات مثل مدينة نيويورك. نورد فيما يلي الكتابة التي ترافق اللعبة:

هل استخدم المسيحيون المدافع ضد غير المسيحيين؟ ولماذا؟:

> القصة في اللعبة تبدأ بعد اللقاء مع المسيح في منتصف الطريق وهو عائد من السماء - حين يرفع الرب البالغين والرضع والعديد من الأطفال المسيحيين إلى السماء. أما من بقي سكان الأرض - الذين تركوا وحدهم وتخلفوا عن الركب - فعليهم أن يتخذوا قرارهم في مرحلة ما. إذ لا يستطيعون البقاء على الحياد. عليهم إما الانضمام إلى المسيح الدجال - أي حكومة عالمية احتيالية تسعى لتحقيق السلام لجميع البشر. أو الانضمام إلى "قوة المحنة" - التي تسعى إلى كشف الحقيقة ومقاومة قوى المسيح الدجال[9].

الجمهور المستهدف هو "ملايين الآباء - والعديد من اللاعبين العابرين - الذين يبحثون عن التسلية والترفيه مع مضمون إيجابي وإلهامي". المشكلة الوحيدة أن لعبة الفيديو تعرف غير المسيحيين كلهم بوصفهم العدو، وهذا يقتضي ضمنا أن جميع غير المسيحيين أشرار ومن الواجب إما هدايتهم أو قتلهم. ولا ريب في أن ألعابا وكتبا كهذه تحظى بشعبية هائلة وتمنع اللاعبين / القراء من القبول بمن يكون خارج الدين المسيحي. وفي حين أعتقد أن على الجميع اتباع معتقداتهم الدينية الخاصة بهم، إلا أن هذا الخط الاستبعادي/الإقصائي من التفكير، على شاكلة بعض العناصر المتطرفة في نموذج ديوباند الإسلامي، يجعل من الأصعب التواصل مع الحضارات الأخرى عبر الصداقة والسلام.

ألعاب الفيديو الحربية حيث يقتل اللاعبون، غالبا على هيئة جنود أمريكيين، مسلمين متعصبين وموتورين دون داع أو سياق، أصبحت تحظى أيضا بشعبية كاسحة. وهي تشمل "الضربة المعاكسة" و"القتال القريب"، ولعبة الفيديو المجانية على الإنترنت "جيش أمريكا" (يلعبها أكثر من 7.5 مليون مستخدم) التي أطلقها الجيش الأمريكي عام 2002 للمساعدة في تجنيد المواطنين. ومع أن المسلمين ليسوا الأشرار الوحيدين، إلا أن الألعاب تعزز القوالب المنمطة وتغذي المدركات السائدة في العالم الإسلامي التي تؤكد أن الولايات المتحدة تشن حربا على الإسلام. وردا على ذلك، أطلقت بعض الشركات في البلدان الإسلامية ألعابها الخاصة بها، حيث يقتل اللاعبون الأمريكيين والإسرائيليين[10].

الافتقار إلى المسؤولية الشخصية المعزز بالفردانية الدينامية يؤثر في مستقبل الكوكب الأرضي. ونظرا لعدم إدراك الأمريكيين لهذه العواقب الواسعة النطاق والبعيدة المدى، فإنهم يخفقون في فهم حقيقة أن ثقافتهم تجتذب انتقادات من بلدان العالم الأخرى، أو أن غطرسة قادتهم وزعمائهم تزيد الطين بلة. إن تجاهل الحجج الدامغة على تأثيرات غازات ثاني أكسيد الكربون في الاحتباس الحراري، والإنفاق العسكري المفرط، والنزعة إلى القبول بزيادة المديونية من أجل المكاسب الآنية، والمغامرات العسكرية الخارجية المخططة بتسرع وطيش والمنفذة بغباء وخرق، قد تثبت جميعها أنها ستكون نقطة تحول مفصلية في مصائر أمريكا والأمركة ذاتها.

"أمة سافاج"(*)

من الأسهل بكثير التعامل مع قصة متفجرة مثل فضيحة أبو غريب عبر القول إن أفعال ليندي انغلند وزملائها هي مجرد ضلال انحرافي عن الأسلوب الأمريكي المعتاد، أو أن ستيفن غرين وأصدقاءه الذين اغتصبوا فتاة في المحمودية ارتكبوا فعلتهم لأنهم كانوا "تحت الضغط" في العراق. حتى المجازر في بلدة الحديثة أنكرت بوصفها "خطأ"، على افتراض أن الأمريكي لن يرتكب جرائم فظيعة كهذه. لكن مهما تردد الأمريكيون في الاعتراف بها، فإن هذه الأعمال البربرية تتصل بمناخ الشعور بالكراهية والعنف تجاه المسلمين الذي تطور وتفاقم في الولايات المتحدة في السنوات القليلة الماضية. وبسبب هذا التردد والإحجام، تعرضت هذه الصلة الرابطة إما إلى الرفض أو التجاهل.

(*) اسم برنامج إذاعي وتلفزيوني شهير يقدمه مايكل سافاج (Michael Savage). الجدير بالذكر أن معنى لفظة / savage/

خــرج مقدمــو برامج الحــوار في الإذاعة والتلفزيون مــن هذه البيئــة الثقافية ذاتها ليعملـوا على تعريفها وقيادتها، وكثيرا ما ثرثروا هاذرين عن موضوعات زعموا معرفتهم بهــا. وكوّن وغذى ما يعانونه من رهاب الأجانــب واستغلالهم السافر لأكثر صيغ الوطنية الشوفينية فظاظة وفجاجة وبدائية الشعور العام بانعدام الأمن. الخوف والقلق يخترقان الأرض. المطارات ومحطات القطارات، محور العولمة وبؤرتها لأنها ترمز للسفر والتجارة والاتصالات، غدت الآن معسكرات حربية صغيرة، حيث يتأخر المسافرون ويعانون الإحباط وخيبة الأمل في كل رحلة تقريبا. في حين أجبر المسلمون على مواجهة خزي وعار الحادي عشر من سبتمبر في كل محطة من رحلتهم بسبب الانتباه الخاص المركز عليهم والإذلال الموجــه إليهم. وأصبحوا ضحايا الشعور بالمسؤوليــة الجمعية عن أعمال المختطفين الذي فرضته عليهم وسائل الإعلام.

مسلســل الجاسوسيــة الشهــير، "24"، الــذي عرضته محطة "فوكــس"، ووصفته مجلــة "تــايم" بأنه واحد مــن "أفضل المسلســلات التلفزيونية في العقــد الأخير"، يدين بمعظــم شعبيته إلى تعبــيره الدقيق عن الحالة المزاجية الأمريكيــة السائدة بعد الحادي عشر من سبتمبر [11]. فهو يقتفي الأحداث في يوم واحد من حياة عميل مكافحة الإرهاب جــاك بوير، ويظهر سباقه المستمر مع الزمن لمنع محــاولات الاغتيال، وإحباط الهجمات بالأسلحــة الجرثوميــة، وإفشال المخططــات الإرهابية، ومن ثم العثــور على حل "لتجنب الكارثــة". يعرض المسلسل أحداثا شديدة التوتر، كما تتكشف خلال اليوم عبر استخدام تقنيــات عرض عدة صــور على الشاشة و"الزمــن الحقيقي"، ومن ثــم توجيه التلفزيون وجهة جديدة. لكن للمسلسل جانبا مثيرا للجدل أيضا: فهو يستغل الشعور بانعدام اليقين والشــك والارتياب الــذي يسود المجتمــع. الأشرار المسلمــون ليسوا بعيدين عــن العقدة، والتعذيب يقدم كوسيلة ضرورية لهزيمة الإرهاب في سيناريوهات "القنبلة الموقوتة". ومع ذلــك، حظي العرضــ بجمهور كبير من المشاهدين الأمريكيــين. وحتى مايكل تشيرتوف، وزيــر الأمن الوطني علق علــى صلة العرض بحرب الولايات المتحــدة على الإرهاب وعلى الحاجــة إلى الحفاظ علــى عملاء مثل جاك بويــر لمساعدة أمريكا علــى إلحاق الهزيمة به [12].

العيش في عصر العولمة يعني أن برامج محطة "فوكس" التي تصور المسلمين كإرهابيين أشرار تناقش في صحافة البلاد الإسلامية فور بثها تقريبا، وذلك كما تشرح واحدة من الصحف الباكستانية الواسعة الانتشار: "ثمة دراما تلفزيونية شعبية بدأت موسمها السادس هذا الأسبوع، تسبب قلقا للجالية المسلمة في أمريكا نتيجة تصويرها المسلمين كإرهابيين يدسون القنابل في المدن الأمريكية الكبرى. الموسم الحالي لمسلسل فوكس 24، افتتح بحلقة مدتها ساعتين نقلت المشاهد سنتين إلى المستقبل، حيث تتعرض أمريكا لإرهاب الانتحاريين المسلمين. فيقيم رئيس موظفي البيت الأبيض (الأمريكي الإفريقي) معسكرات احتجاز للمسلمين شبيهة بمعسكرات الاحتجاز التي أقيمت للأمريكيين اليابانيين في الحرب العالمية الثانية"[13].

بكلمات أخرى، كشف الخوف الرهابي من المسلمين القناع عن وجهه وبدا صارخا وسافرا في وسائل الإعلام. هنالك حالة أخرى في هذا السياق يمثلها مايكل سافاج، مقدم البرنامج التلفزيوني والإذاعي "أمة سافاج". يعتنق سافاج، الذي يعد شخصية إذاعية شهيرة تحظى بمتابعة عشرة ملايين مستمع، موقفا سافرا شديد الكراهية للعرب والمسلمين، حيث دعا الولايات المتحدة مرة إلى "قتل آلاف الأسرى العراقيين وقصف إحدى العواصم العربية بالقنابل النووية"[14]. ولم يكن سافاج الوحيد في التعبير عن مثل هذه المشاعر العدائية، ولا كان مدركا لحقيقة أن ما يفعله يجعل العالم مكانا أشد خطرا. في إحدى المناسبات العامة في سان فرانسيسكو (أيار / مايو 2004)، قال سافاج: "لا آبه إذا ما اختبؤوا (المسلمون / العرب) تحت تنانير نسائهم - ولا يهمني قتل أعداد كبيرة منهن معهم! لأن نساءنا هن من قتل في الحادي عشر من سبتمبر! وهن من سيقتل غدا إذا لم نتخلص من حشرات البق التي تدمرنا!". نجح سافاج في إيجاد جو من الوطنية الشوفينية الفجة والعواطف الهوجاء العمياء لدى مستمعيه وجمهوره. وحين سأل: "هل يأبه أحد بينكم لحياة العراقيين؟" صاح الحشد بصوت هادر: "لا!".

يرفض سافاج محاولة جورج بوش كسب "قلوب وعقول" المسلمين. ففي نظره، لا علاقة للطف والرقة في التعامل مع العالم الإسلامي بكسب العقول والقلوب؛ فهذا أسلوب مفرط في "لينه". وحين تفجرت فضيحة أبو غريب، قال سافاج مازحا: "أهذه تحقيقات

واستجوابات قاسية؟ لقد تعرضت لأقسى منها من والدي حين كنت في السادسة عشرة!".
ومـن ثم انتقل لتقديم الحجة على أن ليندي انغلند كانت رمزا للحرب على الإرهاب، وأن "ركل المسلم على قفاه" يمكن أن يكون "متعة مسلية".

ووفقا لهذه الذهنية، يجب أن تكون علاقة أمريكا بالعالم الإسلامي تعبيرا عن القوة. ولا يهم رأي البلدان الأخرى أو "الليبراليين المدعين الذين يزعمون التعاطف مع الآخرين". العديد من معتنقي هذا المعتقد -ومنهم روش ليمبو- يصرون بإلحاح على أن ما حدث في أبو غريب كان مجرد مزحة أخوية لا تؤذي ولا تضر. على سبيل المثال، ألح السيناتور جيمس انهوف (من اوكلاهوما) على أن السجناء نالوا ما كانوا يستحقون. وخلال جلسات الاستماع المتعلقة بفضيحة إساءة معاملة السجناء عام 2004، قال انهوف: "لست على الأرجح الوحيد على هذه الطاولة الذي أغضبه الغضب لا المعاملة. هؤلاء السجناء قتلة ومجرمون وإرهابيون ومتمردون، والعديد منهم تلطخت أيديهم بالدماء. وها نحن هنا ننشغل بمعاملة هؤلاء الأفراد"[15]. ومضى السيناتور ليقول إن الجنود الأمريكيين هم الذين يستحقون التعاطف: "أغضبني أيضا أن لدينا الكثيرين من السذج ذوي النيات الإنسانية الطيبة الذين يزحفون الآن في تلك السجون بحثا عن انتهاكات حقوق الإنسان، في حين يقاتل جنودنا، أبطالنا، ويموتون". أتت هذه الملاحظة بعد أن أعلن الصليب الأحمر أن 70. 90% من السجناء العراقيين "اعتقلوا خطأ"[16]. الصحفية المحافظة آن كولتر قللت أيضا من شأن مثل هذه الحوادث بوصفها أخطاء ثانوية لا أهمية لها عند مقارنتها بالوحشية الساحقة للمسلمين. ورسمت أيضا "سياستها" الحكيمة للمسلمين، التي "استحثت عاصفة مدوية من التصفيق" في شباط / فبراير 2006: "أعتقد أن شعارنا بعد الحادي عشر من سبتمبر يجب أن يكون: (حين يتصرف المسلمون بقسوة يواجهون العواقب)"[17].

في الرابع عشر من تشرين الثاني / نوفمبر 2006، تحدى غلين بيك، المعلق الإخباري في محطة "سي ان ان"، كيث اليسون (الديمقراطي)، أول عضو مسلم في الكونغرس بالقول: "أريدك أن تثبت لي أنك لا تعمل مع أعدائنا"[18]. في كل عرض تلفزيوني تصيب بيك نوبة محمومة من الخوف الرهابي من الإسلام. وكل من يبدي تعاطفا مع قضية

إسلاميــة هدف محتمــل لهذه النوبات المسعــورة - بدءا من محمــود أحمدي نجاد الذي يدعــوه بيــك دون سبب واضــح "الرئيس توم"، وانتهــاء بالرئيس كارتر الــذي تجرأ على تناول محنة الفلسطينيين في أحدث كتبه "فلسطين: سلام لا نظام عنصري"[19]. وعمل بيــك أيضا على ترويج وتشجيع منتقدي الإسلام، مثــل ايان هيرسي علي وإرشاد منجي، ومنحهم وقتا كافيا للتحدث على الهواء.

بوصفــي أستاذا جامعيا أدرس الإسلام وتستضيفنــي وسائل الإعلام مرارا وتكرارا، أتلقــى الــردود، السلبيــة والإيجابية، على ملاحظاتــي وتعليقاتي. ولحســن الحظ، تفوق الإيجابيــة السلبيــة عددا. إحدى الرسائل التي كتبت في أيلــول/ سبتمبر تقول: "الإسلام نظــام اعتقــادي شرير يسعــى لإفساد الغــرب والهيمنة عليــه وتدميره. لــن نخضع أبدا لبربريتكــم وخرافاتكم. لن تتمكنــوا أبدا من هزيمتنا. لن ننسى أبــدا الحادي عشر من سبتمبر.. وسوف ندمر هذا الشر الأسود الذي أتى به إلى العالم رسول الشيطان.. أوقف ترويج هذا الشر في الولايات المتحدة الأمريكية". رسالة أخرى بعثت بها صديقة مشهورة في الإعــلام، ردا على طلب مشورتها ونصحها فيما يتعلــق بالكراهية، قالت: "بصراحة، يبــدو لي أن هــذا الشخص على شاكلــة بعض العنصريين الموتوريــن الذين قابلتهم بضع مــرات طــوال حياتي. وتبدو آراؤه متجــذرة في الهوى لا في المنطق، والعديــد من أمثاله لا يقبلون التغيير. وما يجعل الأمر أشد سوءا وسائل الإعلام اليمينية مثل فوكس. ولا بد أنه يسمــع ويشاهد هذه الشبكات". وهــي أيضا رأت الصلة الجامعة بين الشخص الذي بعث برسالة الكراهية ومناخ الخوف والكره الذي ترعاه وتغذيه وسائل الإعلام[20].

حتــى قبل أحداث عــام 2001، كان مناخ العــداء والترهيب والتخويــف يتشكل إزاء المسلمين في الولايات المتحدة. فقد صورت أفلام هوليود ومعلقو وسائل الإعلام المسلمين، خصوصا العرب، كمتطرفين أو مؤيدين للعنف، يتأصل فيهم - غريزيا - العداء للولايات المتحــدة. وبعد الحادي عشــر من سبتمبر، ارتفع مستوى الكــره والعنف إلى درجة لافتة. ومنــذ الحــرب على العــراق، ازداد الوضع سوءا. بعضــ الأمريكيين يشــيرون إلى العرب بوصفهــم أولئك الذين يضعون "بقعة على الجبين"، وبذلك يخلطون نتيجة الجهل الدين والجندر، حيث لا تضع هذه العلامة سوى النساء الهندوسيات فقط.

وفي الحقيقة، ومثلما أشرنا آنفا في المناقشة السابقة عن المستشرقين والمحافظين الجدد، هنالك قالب منمط للخطاب المعادي للمسلمين في التاريخ الأمريكي القريب تسرب إلى الجيش ويترجم الآن إلى فعل إجرائي. إذ أبلغ قائد سرية أمريكي صحيفة "نيويورك تايمز"، مستعرضا كل ما قاله دوغلاس ماك آرثر في خطابه الواثق عن الشرقيين عام 1945، إن "من الضروري فهم العقل العربي. الشيء الوحيد الذي يفهمونه هو القوة - القوة، والخيلاء، وإنقاذ ماء الوجه". وبغض النظر عن كون هذه الآراء تمثل قلة من المرؤوسين الأغرار، إلا أنها اخترقت أعلى المراتب الهرمية في القيادة الأمريكية. ففي كتاب "كوبرا 2"، يعرض المؤلفان مايكل غوردون وبرنارد ترنر هذا التعليق البشع الذي أدلي به أحد كبار الضباط: "الشيء الوحيد الذي يفهمه زنوج الرمال هؤلاء هو القوة، ولسوف أعرفهم بها"[21]. على نحو مشابه، لم يرتق الزعماء المسيحيون المشهورون إلى مستوى كلامهم عن الحب والعدل للجميع. القس فرانكلين غراهام، الذي استهل بصلاته مراسم تنصيب جورج بوش رئيسا، دعا الإسلام "دينا خبيثا وشريرا"[22]. فإله الإسلام ليس رب المسيحية على حد زعمه. أما القس جيري فاينز فقد أدان نبي الإسلام بوصفه "..."(*)[23]. وبرأي جيري فالويل كان النبي "إرهابيا"[24]. وفيما بعد، أعلن الجنرال وليام بويكين، نائب معاون وزير الدفاع لشؤون الاستخبارات والشخصية الأساسية في الحرب على الإرهاب، أن الإسلام دين شيطاني لعبدة الأصنام[25]، وأثار اتهامه جدلا خلافيا واسعا.

وبالانسجام مع المزاج العام المحيط بهذه العبارات، فتحت السلطة التشريعية الأمريكية الباب أمام الحط من مكانة المسلمين وحرمانهم من الحقوق الممنوحة لكل مواطن أمريكي آخر. تعرض قانون الوطنية للانتقاد بسبب تعديه على الحقوق المدنية للمسلمين والعرب المهاجرين. وكثيرا ما استخدم القانون الذي قصد به محاربة الإرهاب لمضايقة المسلمين دون داع واضطهادهم في حالات عديدة دون مبرر فعلي. في إحدى الحالات، استقصى المحققون ما دعوه بزعم معقول عن حارس في مركز احتجاز للمهاجرين سدد مسدسا مذخرا إلى رأس أحد المحتجزين. وفي حالة أخرى، قدم سجناء مسلمون دليلا مقنعا على تعرضهم للسخرية والاستهزاء بسبب دينهم وإجبارهم على

(*) لم أجرؤ، على الرغم من تشبثي العنيد بمبدأ الترجمة العلمية/الموضوعية، ونفوري الشديد من الترجمة الإيديولوجية/الذاتانية، على نقل عبارة القس الوقحة إلى القارئ العربي. ويمكن لمن يريد الاطلاع على مدى خستها مراجعة النص الأصلي. ص205 (مترجم).

أكل طعام يحرمه الإسلام. معسكر الاعتقال في غوانتانامو أيضا، راوغ القوانين الأمريكية والتف عليها لتطبيق سياسات غير قانونية يشعر البنتاغون والبيت الأبيض أنها ضرورية. ووفقا لمجلس العلاقات الأمريكية - الإسلامية، ارتفع عدد الاعتداءات على المسلمات المحجبات والمساجد والمسلمين ارتفاعا كبيرا منذ الحادي عشر من سبتمبر [26].

في هذا المناخ الذي يسوده الخوف الرهابي من الإسلام، لم يكن من المفاجئ كليا ظهور صليب مشتعل خارج المسجد في برينس جورج كاونتي وأمام المدرسة الإسلامية في مريلاند في تموز / يوليو 2003. فالتذكير برموز منظمة "كوكلوكس كلان" العنصرية المعبرة عن الكراهية تجاه الأمريكيين الأفارقة في بدايات القرن العشرين، وحرق صليب خشبي بارتفاع ثلاثة أقدام، لم يكن حدثا استثنائيا بمعايير المنظمة، لكن أهميته بالغة الدلالة. وأظهر شريط فيديو من كاميرة مراقبة في المكان أن عددا من البيض شاركوا في أول عملية حرق لصليب تعلم بها السلطات في مريلاند في السنوات الثلاث الماضية. وقبل بضعة أيام، قتل طالبان مسلمان في المقاطعة ذاتها. وبعيد الحادي عشر من سبتمبر بقليل، قتل رجل من السيخ ظن قاتله خطأ أنه عربي (بسبب اللحية والعمامة) في فينيكس (بولاية اريزونا). وفي الينوي، دمرت متفجرة شاحنة مغلقة تملكها إحدى العائلات المسلمة.

في الولايات المتحدة، يستحضر حرق الصلبان وخطاب الكراهية أيضا الجدل والصراع على الهوية الأمريكية والشعور بالذات، في تعبير عن معركة مستمرة خاضها زعماء حالمون مثل جون كنيدي ومارتن لوثر كينغ في سبيل مجتمع أكثر عدالة وتسامحا وديمقراطية. والمفارقة المركزية في حرق الصلبان تكمن في أنه يرمز إلى الكراهية، في حين يعد الصليب ذاته رمزا لا شك فيه للمسيحية، الديانة التي تحمل - بالتعريف - رسالة نبيها المسيح. ومثلما يعرف المسلمون من تقديرهم وحبهم وإجلالهم للمسيح، فهو يجسد الحب والإحسان والتراحم والتواضع. ومن نافل القول إن ممارسة أعمال القتل أو العنف باسمه تشوه تعاليمه تشويها عميقا. فضلا على ذلك، فإن مثل هذه الأعمال تضعف مبادرات ومصداقية الزعماء الأمريكيين الذين يحاولون يائسين كسب قلوب وعقول المسلمين. إن رمز حرق الصليب أمام مسجد سوف يستغله أولئك الذين يقدمون

الحجــة في العالم الإسلامي على أن أمريكا تخوض حربــا على الإسلام ذاته. ولا ريب في أن هذه الأفعال لا تساعد الأمريكيين لا في الداخل ولا في الخارج.

منــاخ العداء المهيمن قبل وبعد الحادي عشر من سبتمبر في الولايات المتحدة وصفته هاديا مبارك، عضو فريقنا، المحجبة منذ مطلع الصبا:

قبـل مدة وجيزة، حين كنا عائديــن أنا وزوجي إلى الفندق في هيرشي (بولاية بنسلفانيــا)، بعــد أن احتفلنــا بمرور عام علــى زواجنا في مطعم هــادئ، فوجئت بشاحنــة حمراء تقترب منا بسرعة ليصيح سائقها: "أيتها الحمقاء". كان الوقت ليلا ولا توجد في الشارع سيارات ولا مشاة، سوانا نحن والشاحنة. تسارعت دقات قلبــي من شــدة الفزع حين زعقــت إطارات السيــارة وهي تنعطــف بسرعة وتعبر أمامنا.

التعصــب الديني ليس أمرا جديدا علــي. كنت في الرابعة من عمري حين كان جارنا يدعو أمي "صاحبة الخرقة على رأسها" وهي تضعنا أنا وشقيقتي في سيارتها البيضاء لتأخذنا إلى الحضانة النهارية في نيو برنزويك (بولاية نيوجرسي).

وكنت في الثانية عشرة حــين صاح مراهقان يصيدان السمك قرب منزلنا في بنمــا سيتي (بولاية فلوريدا): "هل تمارسين الجنس بهذا" في إشارة إلى الحجاب الذي أرتديه.

وكنــت آخــر من خرج من المركــز الإسلامي في تالاهاسي حــين صدم تشارلز فرانكلــين بشاحنة المدخل الأمامي "ليجعل المسلمين يعرفون أنهم لن يكونوا آمنين في هــذه البــلاد"، كما اعــترف أمام السلطــات المختصــة قبل أن يــدان ويسجن فيما بعد.

إن النشــأة في بلــد يظل فيــه الإسلام دينــا غامضا يتعرض لســوء فهم واسع النطاق وتضعه صور المرأة الخاضعة والمقهورة والمحجبة وفكرة "الحرب المقدسة" السخيفــة، في قوالب منمطة، جعلتني أعتاد النظــرة الثانية المفاجئة إلى حجابي، والطعــن العنصري في دينــي، وتشويه سمعــة عرقي، والأحــكام المسبقة المتحيزة

الناجمة عن الجهل. ومع ذلك، وفر الحادي عشر من سبتمبر سياقا جديدا لمعظم التوتر المتنامي الذي يستهدف الإسلام في هذا البلد.

الصـور التي لا يسبر غورها التي شهدتها صبيحـة الحادي عشر من سبتمبر وسـط عـدد كبير من طلاب جامعـة فلوريدا حين صدمت الطائرتـان أحد أعظم الرمـوز الاقتصادية لأمتنا، ما تزال تخترق قلبي كأنمـا حدثت البارحة. أستطيع استحضـار ذكرى كل دقيقة من ذلك اليـوم الرهيب، وكل إحساس اخترق كياني، وكل فكـرة حامت في وعيي، كأنني في حالة من الشلل وكأن المنطق والعقل من نتاج خيالنا وحده.

لكـن كانـت تلـك أيضـا المـرة الأولى التـي أدركت فيهـا الانزيـاح في موقعي كأمريكيـة مسلمة في الوعي العام الأمريكي. فقبل أن يسمح لي بالبكاء، أو الحزن علـى آلاف الضحايا الأبرياء، أو فهم المنطـق الكامن وراء العنف العبثي الذي هز أركان حياتنا، وضعت في موقف الدفاع. لقد أصبح المسلمون بسرعة هدفا لجرائم الكراهيـة والتمييز والتحيز بسبب التعميـم الجارف والشامل الذي ربط المسلمين كلهم بالإرهابيين.

تلك الأيام، حين كنت طالبة في سنة ما قبل التخرج في جامعة فلوريدا ومديرة العلاقـات العامـة لجمعية الطلاب المسلمـين، كانت أقسى اختبـار لي في الحياة، حيث تعرضـت معتقداتي للتساؤل، وديني لسوء الفهـم، وهويتي كمسلمة أمريكية للارتيـاب والشـك. وحددت اللحظات التـي مرت بعد الحادي عشـر من سبتمبر حياتـي عندما بدأت أستكشـف الأسئلة المتعلقة بالولاء والهويـة والانتماء: أين هو وطنـي؟ إلى أي جهة أنتمـي؟ الألم المزدوج الذي عانيتـه كأمريكية تعرض وطنها للهجوم، وكمسلمة يتعرض دينها الآن للأبلسة والذم والطعن والتشويه، أكد هويتي المختلطة كمسلمة أمريكية.

في حين غاص المسلمون في الولايات المتحدة في تفكير تأملي ذاتي عميق، هاجم المسؤولون البارزون في الإدارة الإسلام علنا، ومع العداء السافر للإسلام في وسائل الإعلام، سادت بيئة سلبية اكتنفت فهمه. فالأمريكيون الشباب، مثل ليندي انغلند وستيفن غرين، غادروا

الولايات المتحدة حاملين في أذهانهم فكرة عن المسلمين تصورهم كمجتمع شيطاني شرير لا يرتقي حتى إلى مستوى البشر. وعملت البيئة الاجتماعية والثقافية العدائية والمعادية للمسلمين في الولايات المتحدة على تشجيع المسؤولين الأمريكيين في السلطة على التصرف بأسلوب بعيد كل البعد عن مثل الآباء المؤسسين، والتسامح والتساهل مع الأفعال والأعمال الوحشية مثل التعذيب. وفي مناخ الغضب والجهل بـ "الآخر"، سمح الأمريكيون بتشويه أعمق وأخطر للمثل الأمريكية القائمة على القبول بالآخر وحرية الدين - حتى وإن احتفظ بها الأفراد - التي كانت تحظى بتقدير كبير واحترام من المجتمع وزعمائه.

حين اقترح المذيع جيري كلاين في برنامجه وشم أجساد جميع المسلمين في الولايات المتحدة بعلامة الهلال، أو إجبارهم على حمل رباط على الذراع يدل عليهم، اتصل عدد كبير من المستمعين به مقدمين أفكارا أكثر جموحا. بعضهم اقترح معسكرات احتجاز كتلك التي خصصت للأمريكيين من أصول يابانية وألمانية خلال الحرب العالمية الثانية. ووجد غيرهم حلا أسهل: "يجب ألا نكتفي بوشم جباههم بل نقلهم (في حاويات الشحن) إلى خارج هذه البلاد.. لأنهم موجودون هنا لقتلنا". لكن تبين أن كلاين يمازح المتصلين، فقد كان يتعمد العبث والخداع: "لا أصدق أن أحدا منكم يبلغ حد الموافقة على أي شيء قلته"، كما قال لمستمعيه (في 22/11/2006) عبر المحطة التي يغطي بثها واشنطن وشمال فرجينيا ومريلاند. لكن إجابات المتصلين وضحت حقيقة أشد عمقا: سنوات الكراهية والجهل فعلت فعلها. فالأحكام المتحيزة والمتعصبة على المسلمين بلغت مستويات خطرة من التشدد والتزمت.

عمل غير مسؤول

خلال مأدبة عشاء أقيمت في عمان جرت فيها مناقشة فضيحة أبو غريب، ذكرني المضيفون بالمعايير الأخلاقية الرفيعة التي يتوقعها الإسلام من المسؤولين في السلطة. وكانوا على حق. فالنماذج الإسلامية التي يحتذى مثالها، كالنبي وأبي بكر وعمر وعلي، تصرفوا جميعا بنبل وشهامة مع الأسرى. وضع أبو بكر أسس التصرف في الحرب للمسلمين، التي تمنعهمكما ذكرنا آنفامن إلحاق الأذى بالنساء والأطفال وغير المحاربين، وحتى الرهبان والقساوسة والأحبار. ومن المحظور تماما اقتلاع الأشجار وتخريب الزرع. المذبحة التي

وقعت في القدس عام 1099م - حين قتل الصليبيون، وفقا للروايات المسيحية، الآلاف وبلغ نهر الدم في الشوارع ركاب الخيل - أثارت غضب العالم الإسلامي وهيجت التشوق إلى الانتقام والثأر. لكن صلاح الدين، بعد الاستيلاء على القدس وهزيمة الصليبيين عام 1187، أثبت شهامته ونبله ورحمته حين سمح للأغنياء بدفع الفدية ودفع فدية فقراء الصليبيين الأسرى من ماله الخاص.

في المحاضرة التي ألقيتها في عمان، أشرت إلى أن عاطفة الغضب ليست معيارية على الرغم من سيطرتها على الأمريكيين بعد الحادي عشر من سبتمبر. فقد حذر بنجامين فرانكلين، أحد الآباء المؤسسين، أمته من أن "كل ما يبدأ بالغضب ينتهي بالعار"[28]. أما ما يتعلق بالفضائح في السجون الأمريكية، فقد رويت قصة جورج واشنطن خلال الثورة على البريطانيين. فحين أسر البريطانيون الجنود الأمريكيين، الذين كانوا "متمردين" في نظرهم، ألقوا بهم، وبينهم مرضى وجرحى، في سجون باردة ورطبة دون أي أمل بفك أسرهم أو معاملتهم بعدل. وبالمقابل، فعل القائد العام للقوات الأمريكية، الذي كان يحارب في سبيل الاستقلال ومعرضا للهزيمة، ما بوسعه لضمان أن يعامل الجنود البريطانيون الأسرى بكرامة وعدالة على الرغم من الرغبة بالثأر والانتقام. فقد أمر ضباطه قائلا: "عاملوهم بإنسانية، ولا تدعوهم يشتكون من أننا نسخنا المثال الوحشي للجيش البريطاني"[29]. فهم واشنطن أن إساءة معاملة الجنود البريطانيين لن تؤدي إلا إلى الحط من المستوى الأخلاقي لقضيته، وسوف تلطخ شخصية وسمعة أمته الجديدة. وستؤدي أيضا إلى تبعات وعواقب تزيد بعشر مرات عن سوء المعاملة ذاته. ومن ثم، وجب على الحكومة وأركان السلطة - برأي واشنطن - التشبث بمعيار أخلاقي رفيع، كما عبرت عنه الكلمات التالية المنسوبة إليه: "الحكم ليس المنطق والعقل، ولا البلاغة والفصاحة، إنه القوة؛ وعلى شاكلة النار، فهو خادم يزعج وسيد يخشى جانبه. ويجب ألا يترك لحظة للعمل الطائش وغير المسؤول"[30].

وفر غزو العراق والتطورات اللاحقة دراسة حالة جيدة لكيفية إدارة الحرب في عصر العولمة. ففي نظر معظم الأمريكيين، كانت إزاحة صدام حسين تعني إحداث تغيير فوري عن أسلوب إدارة العراق في الماضي. وسوف تزدهر الانتخابات الحرة

والديمقراطيــة وحرية الــكلام والتعبير، ويســود الأمن والأمان والعدالــة للجميع. وأعلن الرئيس بوش بأسلوب استعراضي صداح: "أنجزت المهمة". وفي ثقافة المعلومات الفورية، والتوقعات الطموحة، والطرائق التبسيطية التسطيحية في النظر إلى العالم، صدق معظم الأمريكيين هذا الإعلان حرفيا.

لكــن في تلك الثقافة يفتقر الفكر والسبب والنتيجة إلى الترابط، وهذا يفسر الأفعال المتهــورة والطائشة خــارج الولايات المتحدة، كتلــك التي تورط فيها الجنــود الأمريكيون دون تفكــير كاف بالتبعــات والعواقب. وفي حــين أن معظمهم تصرفــوا بشجاعة ونزاهة، لكــن بضع "تفاحات فاســدة" لطخت سمعة الجيش وعرضت مُثــل أمريكا كلها للشبهات والخطر. ولربما لخص إنكار دونالد رمسفيلد لنهب آثار وكنوز متحف بغداد موقف قادة البنتاغــون والبيت الأبيض. فعندما قيل لــه إن آثارا قديمة لا تقدر بثمن كانت تنهب علنا علــى مرأى ومسمع الجنــود الأمريكيين في بغــداد، هز كتفيه استخفافا وقــال: "لا بد أن تحدث أشياء كهذه"(31).

وربمــا حدد موقف الرئيس بوش نبرة إدارته وأسلــوب عملها. ففي كتاب بوب ودوارد الثالث عن ولاية بوش الرئاسية، "حالة إنكار"، بعض الحالات الكاشفة المذهلة، أوضحها التعليمات التي أصدرها إلى كبير جنرالاته الذي أرسله إلى العراق كرئيس للإدارة. فحين نظــر الجــنرال جاي غارنر إلى لائحة الأهداف، أجاب بأنه لا يمكن أن يأمل بتحقيق أكثر مــن أربعة منهــا. لكن التوضيح الرئاسي جاء بصيغة إجابة لا لبس فيها: "استخدم القوة وتصرف بطريقة عدوانية"(*)(32).

بدأت الكارثة المحتومة في العراق في اللحظة ذاتها التي أشار فيها الأمريكيون إلى تحقيق أول انتصــار. فالقــادة في التاريخ، من الاسكنــدر إلى يوليوس قيصــر إلى نابليون بونابرت إلى دوايــت ايزنهــاور، أصدروا التعليمات إلى مرؤوسيهم فيمــا يتعلق بكيفية إدارة الأراضي (المحتلــة) بعــد فتحها، لكــن لم يحدث في التاريــخ أن اختزلت تعقيدات الهويــات القبلية / العشائريــة، والطائفيــة/ المذهبية، والدينيــة والسياسية في واحدة من أكــثر مناطق العالم فوضــى واضطرابــا، في عبــارة واحدة. ويبدو أن عبــارة بوش المختصرة تعــبر عن مفرداته اللغوية وفلسفته كما تعبر عن عصر العولمة، الذي يتطلب تقليص واختزال حتى أشد القضايا

(*) العبارة التي قالها رئيس الولايات المتحدة الأمريكية هي: "Kick ass. Jay"، وتعني حرفيا: "اركل المؤخرة يا جاي!". (م)

تعقيـدا إلى عبـارات وجمل مسطحة وبسيطة وواضحـة. إذ إن الأمركة والعولمة، اللتين تعبر إحداهما عن الأخرى بالعديد من الطرق المعقدة، تشجعان هذا الاختزال المعيب.

وحتى إذا تعذر على الأمريكيين رؤية ما خسروه في هذه الكوارث، فإن البلدان الأخرى أعلنتـه، ملاحظة أن الولايات المتحـدة فقدت مصداقيتها. على سبيـل المثال، حين طلب الرئيـس بوش من الرئيس فلاديمير بوتين في قمة الثماني الكبـار (موسكو، تموز/ يوليو 2006) تنفيذ مزيد من الإجراءات الديمقراطية، أجاب الرئيس الروسي: "نحن بالتأكيد لا نريـد.. النـوع ذاته مـن الديمقراطية التـي يطبقونها في العراق"[33]. فمـا إن تعرض مبـادئ مثل حقوق الإنسان وحكم القانون للشبهة والخطر، حتى يصعب أن تتحدث عنها مـرة أخـرى بوصفك مرجعية وأهلا للثقة. لقد فهم جورج واشنطن هذا فهما جيدا، لكن لسوء الحظ خسرت الولايات المتحدة الآن سمعتها وفضيلتها في نظر المجتمع الدولي.

من الحـوادث التي ساهمت مساهمـة مهمة في تلك الخسارة، حادثـة ستيفن غرين، الجنـدي في الفرقـة 101 المحمولـة جـوا، المتهـم الآن - وفقـا لتوكيد مكتـب التحقيقات الفيدرالي - باغتصاب فتاة عراقية في الرابعة عشرة، ثم حرق جثتها لطمس معالم جريمته في قرية المحمودية جنوب بغداد (آذار/ مارس 2006). واتهم أيضا بقتل ثلاثة من أفراد عائلتها، وفيهم طفلة في الخامسة. وخلافا لمذبحة ماي لاي خلال حرب فيتنام، التي عدت حادثة محصورة في إطار جنون اللحظة، قضى غرين وثلاثة من رفاقه عدة أيام يخططون لاصطيـاد الفتاة ودفعها إلى الفـخ المنصوب كما يفعل الصيـادون في الغابة عند مطاردة حيوان يريدونه. وفي الثاني عشر من آذار/ مارس، سكر غرينرئيس العصابةحتى الثمالة، وتـرك مع أفرادها نقطة التفتيش، وغيروا ملابسهم حتى لا يتعرفهم أحد، ثم توجهوا إلى منـزل الضحية. في نهاية المطاف، حـين وقف المجرمون أمام محكمة عسكرية في الولايات المتحـدة، بـدوا غير نادمـين على فعلتهـم. وحين سئلوا عـن سبب ارتكاب هـذه الجريمة الشنيعة، أجاب أحدهم: "لأنني كرهت هؤلاء العراقيين يا سيادة القاضـي"[34].

ليســت التصرفـات اللامسؤولة التي قـام بها ستيفن غرين وليـنـدي انغلند الحالات الوحيدة من هذا النوع. بل تكشفت قضايا مشابهة أخرى، مؤكدة تغير شيء ما في المجتمع الأمريكي وانحطاط معاييره الرفيعة إلى ما دون تلك التي رسخها الآباء المؤسسون.

الوجه الآخر من العملة نفسها

بعد ثلاثة أشهر من الحادثة الفظيعة في المحمودية، كان ثلاثة جنود أمريكيين تابعين لوحدة غرين يسيرون بلباس الميدان الكامل في دورية على طريق ترابية جنوب غرب بغداد في قرية اليوسفية. فجأة سمع الجنود طلقات الرصاص فاحتموا منها فانفصلوا عن باقي أفراد كتيبتهم. وخلال المناوشة التي أعقبت ذلك، أسر جنديان وقتل الثالث. ثم ظهر شريط فيديو لمجلس شورى المجاهدين، وهو فصيل تابع للقاعدة كما يقال، عرض جثتين داميتين ممددتين على حافة أحد الجسور. وصف تقرير لوكالة اسوشييتدبرس الفيلم الذي بلغ طوله 4:39 دقيقة بتفصيل مروع: "كانت إحداهما عارية جزئيا ومقطوعة الرأس ومفتوحة الصدر. في حين ملأت الكدمات والخدوش وجه الأخرى، وكسر على ما يبدو الفك وظهرت على الساقين جروح بليغة. وظهر المقاتلون وهم يقلبون الجثتين ويحملون الرأس المقطوع"(35). ووفقا لبيان مجلس شورى المجاهدين، صور شريط الفيديو "انتقاما لأختنا التي اعتدى على شرفها جندي من اللواء ذاته". لقد قرر المجاهدون القيام بهذا العمل الوحشي حالما سمعوا بجريمة الاغتصاب / الذبح، لكنهم "كظموا الغيظ ولم يذيعوا الخبر. وبيتوا نية الثأر لشرف أختهم".

في حين أن الغضب متجذر في صميم أفكار الشرف والثأر، إلا أن مثل هذا العنف يمثل خروجا على القيم الجوهرية في الإسلام. لقد واجه علي بعد أبي طالب، الخليفة الراشدي الرابع وصهر النبي وابن عمه، معضلة مشابهة في صراعه مع أحد مقاتلي العدو، حين طرحه أرضا ورفع سيفه ليقضي عليه. عند هذه النقطة بصق خصم علي، فما كان منه إلا أن نهض وابتعد عنه، وهذا ما أدهش جنود الجيشين المتقاتلين. وفيما بعد فسر علي الحادثة بالقول إنه لو قتل عدوه، لفعل ذلك نتيجة فورة غضب، لا بسبب معارضة قوى البغي والظلم التي كان يقاتلها. ولا شك في أن حقبة ما بعد الحادي عشر من سبتمبر – بكل ما يسودها من انتقام وثأر وعار وعنف لا مبرر لهاأبعد ما تكون عن مثل علي بن أبي طالب وجورج واشنطن.

لا يقتصر تخلي الناس عن المُثل على ساحة المعركة فقط. فقد لاحظت الاختلافات الواهية في "الصدام" بين الإسلام والغرب من زاوية أخرى في القاهرة في كانون الأول/

ديسمبر 2005. فمع أن بعضا من أبرز المفكرين الذين قابلتهم في مصر - إسماعيل سراج الدين في مكتبة الإسكندرية، وسعد الدين إبراهيم في مركز ابن خلدون، وسلامة شاكر في وزارة الخارجية في القاهرة - أنكروا فكرة الصدام الحضاري، إلا أنني شاهدتها متمظهرة في سيارة الأجرة التي ركبتها.

في القاهرة، أوقف صديقي المصري سيارة أجرة من أجلي وأخبر السائق بالعربية اسم وعنوان الفندق. وفي الطريق رفع السائق صوت القرآن الذي كان يستمع إليه. ثم بدأ يرتل بنفسه بصوت مسموع ويسبح بإحدى يديه. في حين كانت تتدلى من المرآة أمامه آيات من القرآن. سيارات الأجرة في مصر صغيرة الحجم منخفضة السقف، ويمكن لضيقها أن يسبب رهاب الاحتجاز ويفاقمه الصوت المرتفع.

وبوصفي مسلما، لا أجد كثيرا من الأشياء أمتع لأذني من سماع القرآن مرتلا. لكن حسبني السائق، بسبب ملابسي الإفرنجية ولغتي الإنكليزية أجنبيا وربما غير مسلم. فلمَ إذن رفع صوت القرآن بهذه الطريقة العدائية تقريبا أمام شخص عده غير مسلم؟ هل كانت محاولة لترهيبه؟ أم للتعبير عن اعتزازه بهويته الإسلامية؟ هل هو الغضب المتراكم على الفقر واليأس من الحياة، والهوة الواسعة بين حياة النخبة الحاكمة الفاسدة وحياة الفقراء؟

حين بلغ صوت التلاوة حدا يصم الأذن، حاولت تلطيف الجو المتوتر بتكرار بعض الآيات القرآنية التي أحفظها. وحين رأيت السائق يحدق إلي في المرآة، أعلنت له أنني مسلم من باكستان. فتغير موقفه مني على الفور. وقال مبتسما ومرحبا إن الباكستانيين مسلمون متمسكون بدينهم، ومد يده ليخفض الصوت.

إحدى طالباتي الأمريكيات التي درست في القاهرة - وكانت فتاة ذكية شقراء زرقاء العينين - اشتكت أن معظم سائقي التاكسي يلمحون إليها تلميحات جنسية عندما تكون وحيدة في السيارة. في القرآن والمجتمع العربي على حد سواء، تعامل النساء باحترام، ويتجنب الرجل النظر مباشرة إلى وجه المرأة خشية على حشمتها. لكن في رأي طالبتي، كان الرجال الذين يتحرشون بها جنسيا يمثلون خطرا. وكانت تذكرهم بأن الله أمر الرجال والنساء بالحشمة وغض البصر، وأن الله سيعاقبهم. لكن ذلك ألهب على ما يبدو

العواطف والأهواء في قلوب الرجال العاشقين. فقد حسبوها متيمة بالجنس مثل اللاتي يشاهدونهن في الأفلام السينمائية والمسلسلات التلفزيونية. طالبة أخرى أمريكية هندية الأصل، سوداء الشعر والعينين، لم تواجه مشكلات مشابهة، نظرا لأن الناس وجدوها "محلية" ولم يضعوها في القوالب المنمطة المحفوظة عادة للأمريكيات الشقراوات.

فيما يتعلق بي، كشف سائق الأجرة - ومررت بعدة تجارب مشابهة في سيارات الأجرة - جانبا آخر من المواجهة المعقدة بين الغرب والإسلام. شعرت أن هنا واحدة من نقاط الاتصال القليلة في منطقة محايدة بين المسلمين والأجانب حيث يمكن للمسلم أن يعبر عن مشاعره بعيدا عن أجهزة الأمن والشرطة. ولو كنت غير مسلم، لجعلني اللقاء أشعر بالقلق بل حتى بالتعرض للترهيب. وبذلك أصبحت سيارة الأجرة خط الجبهة في المواجهة بين الإسلام والغرب. أي حالة ليندي انغلند في أبو غريب معكوسة. فعلى شاكلة انغلند وجماعتها، كان سائق سيارة الأجرة يشوه ويحرف مُثل ثقافته ويلهب المواجهات المشحونة والقاسية والعنيفة غالبا بين الحضارتين. وفي سبيل فهم التطورات الجارية في العالم الإسلامي، يجب أن نعاين المجتمع الراهن فيه والعوامل التي تساهم في تكوينه.

على الجبهة السياسية، مثلا، يستخدم المسلمون الانتخابات المحلية للرد على ما يعدونه هجوما من الغرب، حيث يصوتون لمصلحة الأحزاب الإسلامية، التي هي أشد انتقادا للغرب من الأحزاب الأخرى. ويمكن ملاحظة هذه النزعة حتى في المقاطعة الحدودية الشمالية - الغربية في باكستان، التي حافظت طوال القرن الماضي على توازن دقيق بين عدد من القوى السياسية. ولم تحرز الأحزاب الدينية - التي دعتها الأحزاب الأخرى جماعيا وبأسلوب ازدرائي إلى حد ما بـ"الملالي" - أكثر من نسبة تراوحت بين 15. 20% من المقاعد في البرلمان الإقليمي. وبعد الحادي عشر من سبتمبر 2001 - مع بدء تصاعد الهجمات على الإسلام في الولايات المتحدة، بقيادة شخصيات دينية بارزة، مثل فرانكلين غراهام وبات روبرتسون وجيري فاينز وجيري فالويل - وجد "الملالي" فرصتهم السانحة. ففي الانتخابات التالية اقتحمت الأحزاب الدينية المعترك السياسي عبر إعلان أنها ستحارب في سبيل شرف وعزة الإسلام، في حين تراجع الآخرون وقبلوا التسويات. كانت المشاعر المناهضة لأمريكا على درجة من القوة بحيث فازت الأحزاب الدينية هذه المرة

بكل مقعد تقريبا في البرلمان، مكتسحة زعماء القبائل والأعيان الذين لم يكن بمقدور أحد هزيمتهم من قبل. ونتيجة لذلك، بدأت المناطق القبلية في المقاطعة، الممتدة على طول الحدود الأفغانية، بمخالطة الطالبان، ويشاع بأن أعدادهم تتزايد في المنطقة إلى جانب أسامة بن لادن والقاعدة. وقبل مرور وقت طويل، خضعت أجزاء من الإقليم بصورة مباشرة إلى سيطرة المتعاطفين مع الطالبان. واعتمادا على هذه الميزة الاستراتيجية، أصبح الطالبان يمثلون تهديدا جديا للقوات الغربية المتحالفة في أفغانستان. ولا ريب في أن أسباب هذه الأحداث تعود إلى الهجمات المتهورة والطائشة التي تشن على الإسلام ونبيه، ومن ثم تعريض حياة ومصالح الأمريكيين للخطر الداهم.

سرعان ما امتدت المواجهة بين الإسلام والغرب إلى مجالات أخرى أيضا. فقد أصبحت السياحة العالمية في بالي (بإندونيسيا) هدفا للهجوم، وهذا ما فاقم حدة التوترات في مجتمع يعاني التوتر أصلا حيث يعيش المسلمون كأقلية في جزيرة غالبية سكانها من الهندوس. وكان غزو السياحة العالمية القشة التي قصمت ظهر البعير للمسلمين المهددين ثقافيا ودينيا، خصوصا مع إعلان مجلة "بلاي بوي" عن نيتها إصدار نسخة إندونيسية، وتفجر جدل خلافي حاد فيما يتعلق بكيفية التعامل مع الأزمة والمدى الذي يسمح فيه لثقافة خارجية أن تؤثر في القيم الإندونيسية.

حين كان فريقنا على وشك مغادرة بالي، عثر على مقالة من صفحتين في مجلة "تايم" تتناول القوانين المتعلقة بالإباحية في إندونيسيا[36]. فالمسلمون في إندونيسيا يشاهدون رجالا ونساء شبه عراة على الشواطئ أو يرقصون ويشربون الخمر في نوادي الرقص، وهذا ينتهك قواعد الحشمة الإسلامية. كان صدام الثقافات هذا وراء تفجير ملهى ليلي في بالي عام 2002 خلف عدة مئات من القتلى. ليو باتوبارا عضو مجلس الصحافة الإندونيسي قال آسفا في مقالة "تايم": "ربما نسير على درب طالبان".

التوترات بين مطالب الإسلام المثالي وموجة العولمة الكاسحة التي تتعذر مقاومتها، بقوالبها المنمطة المؤثرة، لاحظتها أمينة، الشابة المسلمة المختصة بالأنثروبولوجيا، في جولة قامت بها في بالي "للحصول على إحساس أنثروبولوجي حقيقي" بثقافتها:

قمنـا بجولة نظمها الفندق لمشاهدة الرقص الهندوسي التقليدي الذي يصور قصة راما وسيتا. كان دليلنا هندوسيا متشوقا إلى التعبير عن معرفته ببالي باللغة الإنكليزية.. سألته أن يفسر لنا من منظوره الخاص سبب تفجيرات بالي، فأجاب إن بالي كانت مكانا هادئـا وآمنا تهيمن عليه الأفكار الهندوسية والبوذيـة القائمة على الوجود المتناغم، إلى أن.. توقـف عـن الكلام وعبس مستنكرا وأشـار إلى ذقنه الحليقة ورأسـه في دلالة على اللحية الطويلة والعمامة، قاصدا بذلك المسلمين.



موكب ديني هندوسي يعبر أحـد شوارع بالي، مع أن إندونيسيا أكبر أمة إسلامية والغالبية الساحقة من سكانها من المسلمـين. كانت بـالي، تقليديا، جزيرة هادئة وآمنة، لكنهـا شهدت في السنوات الأخيرة أعمـالا إرهابية استهدفت الثقافة الغربية الغازية.

وجـدت، كمختصة في الأنثروبولوجيا، تعليق الدليل الهندوسي مفاجئا ولافتا ومعبرا عـن إدراك منتشـر عن المسلمين في بـالي. فهي "جزيرة الفردوس" مـن النوع الذي نراه في أفـلام هوليـود أو نقرأ عنه في الروايات. فشواطئها الحالمـة، والأجساد الممددة بثياب البحـر، وأشجار النخيل وزهـور الأوركيد، والشمس المشرقة والمناخ المـداري، والنوادي الليليـة والفنادق الحديثـة الفخمة، تثير المشاعـر والأحاسيس وتعطي السيـاح إحساسا بأنهـم يرتعون ويستمتعون بـكل وسائل الراحة في هذا العالم. لكن هذا الفردوس الأرضي

هو الذي يؤذي على ما يبدو مشاعر بعض الجماعات التي يعد أفرادها أنفسهم محاربين ومجاهدين في دنيا زائلة مؤقتة لتفادي السطحية والتفاهة، والمتع الحسية والملذات الجسدية، والرغبات الشهوانية. يمثل المسلمون أغلبية سكان إندونيسيا، لكنهم أقلية في جزيرة بالي، حيث معظم السكان من الهندوس والبوذيين. ومن بين هذه التشكيلة المتنوعة من سكان إندونيسيا، هنالك جماعات إسلامية متشددة على استعداد لبلوغ أقصى حد وتنفيذ عمليات انتحارية في النوادي الليلية والمراقص كشكل من أشكال الاحتجاج على أسلوب الحياة الموصوف في سيناريو "جزيرة الفردوس".



أكبر أحمد (إلى اليسار)، وأمينة أحمد ابنته الكبرى المختصة هي أيضا بالأنثروبولوجيا (في الوسط)، وهيلي ولدت (إلى اليمين)، يقفون مع اثنتين من الراقصات اللاتي يؤدين رقصة القرد التقليدية المستمدة من النصوص الدينية الكلاسيكية.

نقطة المجابهة التي تعد أشد حدة ودرامية بين الغرب والإسلام تتعلق بالجانب اللاهوتي من الدين، خصوصا منذ نشر سلمان رشدي كتابه "آيات شيطانية" عام 1988، والرسومات الكرتونية الدنمركية المسيئة للرسول، والملاحظات المثيرة للتساؤل والشك التي أدلى بها البابا بنيديكت السادس عشر. في نظر الغرب - وأولئك الذين يثمنون حرية التعبير وحرية الكلام - يعد حق الفرد في قول أو كتابة ما يريد أمرا جوهريا للحضارة ذاتها. أما في نظر المسلمين فإن أي صيغة من صيغ انتقاد النبي تعد انتهاكا

خطـرا وتعديـا جديا. ولأن النبـي نقل كلام الله المقدس، القرآن، فـإن أي إهانة (أو ما يـدرك بوصفه إهانــة) توجه إليه تعد هجومـا على الدين والنبـي في آن معا. فضلا على ذلـك، ولأن المسلمين يجلون النبي ويحبونه كأب وزوج وقائـد ملهم في أوقات الشدة، فإن علاقـة حـب وإجلال شخصيـة تربط المسلم بالنبـي، كأنه فرد من أفـراد عائلته. يفسر هـذا الحب الشديد وهذه الشخصنة في العلاقة الرد العاطفي/ الوجداني على الهجمات والإسـاءات للرسول، التي يعتقد المسلمون أنها تشير بدلالتها إلى أن الغرب يدين وينتهك جوهـر هويتهـم الدينية والثقافيـة والشخصية، ومن ثم أفكارهم عـن الشرف والكرامة والعزة.



جوناثـان هايـدن يتآلف مع "سكان" معبد القرود المقدسة. يجل الهندوس القرود، إضافة إلى غيرها من المخلوقات، التي قدمتها النصوص الدينية المقدسة بطريقة إيجابية.

وفي حـين رغب المسلمـون في حرية الكلام، إلا أنهم أكـدوا أيضا الحاجة إلى احترام معتقـدات وتقاليد الآخرين. وهم يدركون الحدود المقيـدة لحرية الكلام لأن أي تعليقات طائشـة وتحقيرية في مجتمعاتهم المتعددة الثقافـات والديانات، قد تفضي إلى المجابهة. حتـى في الولايات المتحـدة، أثارت ملاحظـات ميل غيبسـون المعادية للساميـة، وكلمات مايـكل ريتشاردز العنصريـة عند مخاطبة الشبـان الأمريكيين الأفارقـة (نعتهم مرارا

بـ"الزنـوج") عـام 2006، غضبا وحنقـا يمكن تفهـم دواعيهما. مثل هـذه الملاحظات الكريهـة تذكرنا جميعا بطبيعة التعصب والتحيز. لقد عانى الأمريكيون الأفارقة واليهود الأمريـن وتعرضوا للاضطهاد في الماضي بأساليب مختلفة وفي سياقات تاريخية متباينة. وليس التراحـم والإحسان والحكمة والحفـاظ على الكرامة والمسايـرة والتعاطف معهم سوى انتصار للروح الإنسانية ورفضها للخضوع والانحدار.

يلاحظ المسلمون عدم ظهور مثل هذا الغضب في الولايات المتحدة حين تعرض الإسلام لحالـة مماثلـة من الطعن والقـدح وتشويـه السمعة. وتنامـى شعورهم بأنهـم معزولون وضحايا، وهذا ما أوجد حنقا واستياء لدى العديد منهم. أما الرد العنيف في بعض أجزاء العـالم الإسلامي فيعزى أساسـا إلى توليفة جمعت الإدراك بأن الإسلام يتعرض للهجوم من الغـرب وصعود نموذج ديوباند، الذي يشدد على العـزة الإسلامية ويستحث عواطف المسلمين. وبالمقابل، يتعرض للتهميش نموذج أجمر الضعيف، الذي يؤيد النقاش الهادئ، ونمـوذج عليكره، الذي يلح على بنـاء المؤسسات والقيم الحديثة مثل حرية الكلام والولاء للدولـة – الأمـة. ولو كان نموذج عليكره هـو المهيمن لتمثلـت ردود المسلمين على الرسوم الدانمركيـة المسيئة للرسول في الانخـراط في جدل وحوار وكتابـة الرسائل. ولأن نموذج عليكـره فشل في توفـير منتدى حواري للتعبير أو لتمثيل المسلمـين، لم تعد الأمة الدولة ولا نموذج عليكره بديلا قائما في العالم الإسلامي حاليا.

متلازمة "تاج محل"

لا ينبثـق غضب ويأس المسلمين مـن إدراك أن السياسات الأمريكية مخطئة ومضللة فقـط، بل هناك شياطين جوانيـة أيضا. إذ يعاني المسلمون اليوم، خصوصا أولئك الذين يعيشـون في عواصم الإسلام التي كانت شهيرة ذات يـوم مثل استنبول ودمشق والقاهرة ودلهـي، مـا أدعوه "متلازمة تـاج محل". فبناء مثل تـاج محل يستحضـر الماضي التليد المشـرق للمسلمين. وجماله البهي حين يقارن مـع الحاضر المؤلم والتعس يطلق خلطة من المشاعـر – الاعتزاز والفخر، والألم والتبريح، والغضب والحنق: الاعتزاز بروعة الماضي، والألم من واقع الحاضر، والغضب على المستقبل الكئيب الذي يلفه الغموض وعدم اليقين. هذه هي "متلازمة تاج محل"، والمسلمون كلهم متأثرون بها بطريقة أو بأخرى: حين ينظر

أتبـاع نموذج أجمر إلى تاج محل يبصرون جمالا أثيريـا أبديا يؤكد لهم الرسالة الكونية القائمـة علـى الحـب؛ في حين يستلهم منـه أتباع ديوبانـد تجديد الكفاح وبعـث النضال لإحيـاء الماضي التليد واستعادة مجد الإسلام؛ ويرى فيه أتباع نموذج عليكره روعة وبهاء الحضـارة الإسلامية، القادرة منذ القديم على التجميـع والتوليف والامتياز، ويأملون أن تعود مرة أخرى إلى ريادة الفن والعمارة والمعرفة والعلم.

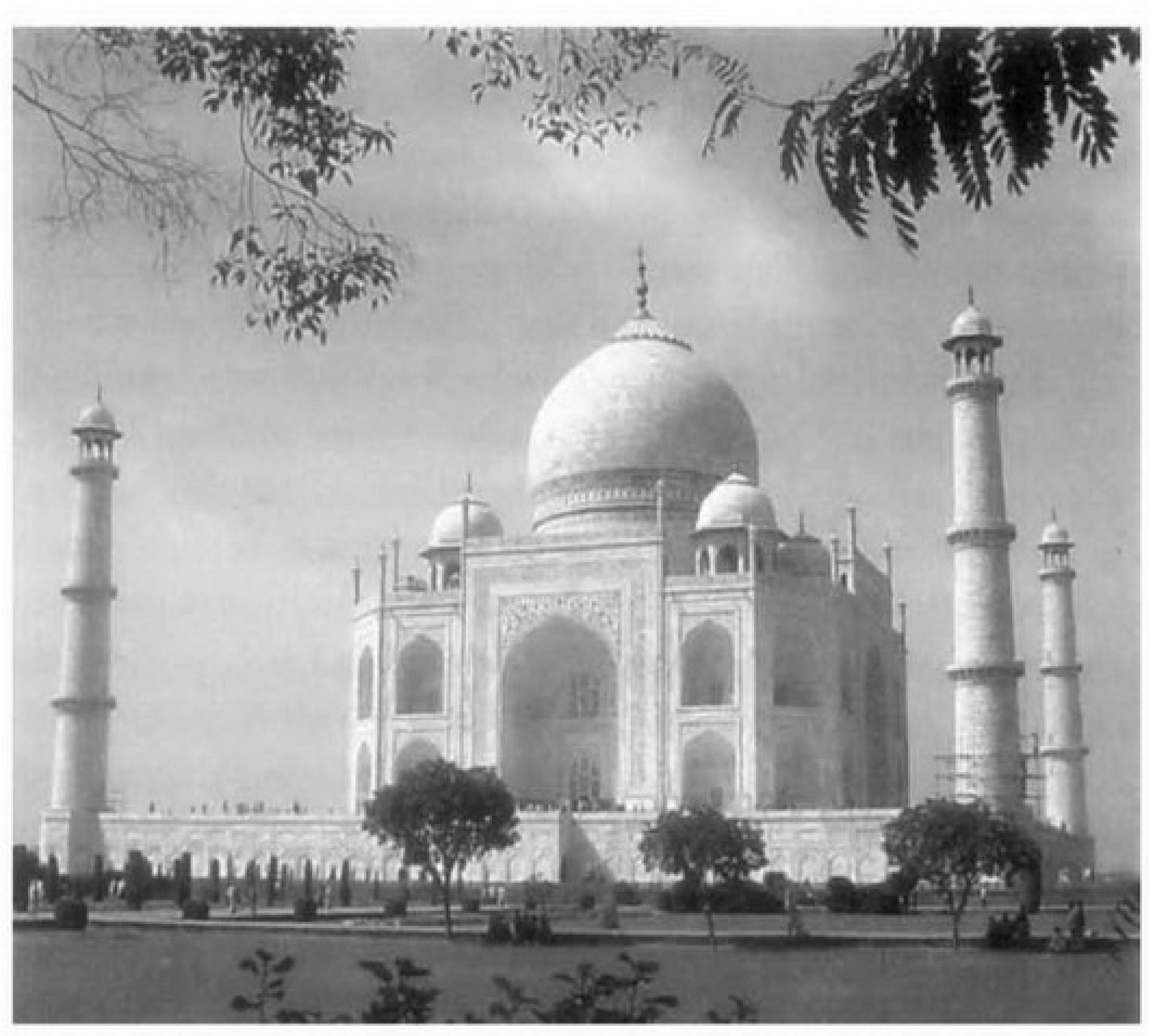
يربض تـاج محل، رمز قوة وسلطة ورحمة وعاطفة الحـكام المسلمين، وحيدا منعزلا وسـط بحر من أكـواخ الصفيح الفقيرة التي تـؤوي الحرفيين المسلمـين المفقرين الذين يزعمـون التحدر مـن نسل بناته العظام. حين زرت تاج محـل في أغرا مع فريقي، خبرت مـرة أخرى تعقيد الفكرة، وجمـال التنفيذ، وعمق الفكر الروحـاني للعمارة، الرامز إلى حضارة بلغت الأوج. المبنى يعبر عن أعظم وأبهى تركيبة توليفية تجمع التراثين الإسلامي والهندي. تاج محل يستحضر العواطف الوجدانية التي تحرك البشر - الحب، والتعاطف، والحزن - لكنه يتصل أيضا بمفاهيم الدار الآخرة ويجبر الزوار على مواجهة أنفسهم.

قدم الإسلام إلى العالم حضارة غنية شملت إمبراطوريات قوية، كالعباسية والعثمانية والصفوية والمغولية. الحكام المسلمون رحبوا بالشعوب من جميع الديانات وكانوا بين أكثر القـادة إحسانا ونفعا وتنـورا في التاريخ. واعتمادا على روح الاجتهـاد، استطاع المسلمون تكييف التقاليد التراثية الإسلامية لتتواءم مع التغييرات الجارية حولهم. التجار اكتشفوا طرقا جديدة للقوافل، ونقلوا البضائع والسلع والمنتجات بين آسيا وإفريقيا وأوروبا. "طريق الحريـر" الأسطوري الذي اخـترق آسيا الوسطى وربط الصين مع العالم الإسلامي، كان شهـادة دامغة على حضارتهم المزدهرة. ومنذ عهد النبي، الـذي اشتغل بالتجارة أيضا، حظي التاجر بمكانة محترمة في الإسلام.

تمتـع العلم والمعرفة أيضا بمكانـة سامقة. ففي ذروة الحضارة الإسلامية، قبل زهاء ألـف سنة، كانـت مكتبة البلاط في قرطبـة تضم 400 ألف كتاب، في حـين لم تكن أكبر مكتبـات أوروبا تحوي أكـثر من 600 كتاب آنـذاك. يلاحظ المؤرخ فيليـب حتي، معترفا بفضل الإسلام على الغرب بسبب إحياء الفكر اليوناني، أنه "لو ضاعت أبحاث ودراسات أرسطـو وجالينوسـ وبطليموس علـى الأجيال اللاحقة، لظل العالم فقـيرا كأنما لم تنتج

أبـدا"[37]. وتلقى العلم الدينــي التشجيع إلى جانب نمو وازدهــار الأدب الذي استكشف تعبـيرات شعريــة جديدة. وجـرى التوكيد على الحــوار والفهم المتبادل بـين أتباع نماذج أجمــر وديوباند وعليكره. أما الفلاسفة المسلمون العظام، من أمثال الإمام الغزالي، فقد عبروا عن التوازن بين النماذج الثلاثة. ولا غرو أن تمثل الحضارة الإسلامية مشعل ونور وعظمة العالم في عصرها.

تعـززت "متلازمــة تاج محل" بحالــة وسائل الإعــلام في العــالم الإسلامي. فخلال رحلتنا، شاهدنا - كما ذكرنا آنفا - لواقط المحطات الفضائية تنتصب في كل مكان، حتى في أفقــر الأحياء السكنيــة. وفي وسط هذه الأحياء المكتظة والمحزونــة والمغمومة، يشاهد المسلمون الصور المتألقة والمغرية القادمة من الغرب التي تتحدى قيمهم التقليدية - نساء عاريــات في أوضاع مثـيرة ومستفزة، وحروبا تشن على إخوانهــم المسلمين، وحياة مترفة باذخــة: كلها تدفعهم إلى اليأس وخيبة الأمل بالعــالم الخارجي أو المجتمع الذي يعيشون فيه.



تــاج محـل الذي بنــاه الإمبراطور المغولي شــاه جيهان، يذكـر المسلمين بالماضي المجيـد المتألق. الصــراع بين ولدي الإمبراطــور، دارا شيكـوه، الصــوفي الروحــاني، واورانغزيب، الأصولي المتزمــت، يعبر عــن المجادلاتالراهنة داخل بالإسلام.

"متلازمة تاج محل" تحمل إشارة دلالية على الأزمة في العالم الإسلامي. فالزعامة والقيادة، والشخصيات المسؤولة في السلطة، والعلاقات بالدولة، والاقتصاد، وكيف ينظر الناس إلى جيرانهم ويعاملون النساء في عائلاتهم، والدين نفسه، محاصرة كلها في مزيج من العواطف المتولدة عن المتلازمة. لا تعد هذه الأزمة نتيجة مباشرة للأحداث اللاحقة على الحادي عشر من سبتمبر، مثلما يعتقد بعض المعلقين في الغرب، لكنها كانت في طور التكون طوال القرنين الماضيين. أما الغضب المتفاقم والشعور المتعاظم بالظلم لدى المسلمين في أعقاب ذلك اليوم المشؤوم من أيام سبتمبر، فقد عملا على إذكاء نار الاضطراب المشتعلة أصلا في العالم الإسلامي. أحد طلاب جامعة الفتح في استنبول وصف بأسلوب حاذق العالم الإسلامي بأنه "دب نائم واستيقظ. ومن الصعب إعادته إلى سباته".

هذا الاضطراب، مثلما وجدنا في رحلاتنا خصوصا في المدن الكبرى في العالم الإسلاميمتجذر في الفجوات الفاصلة بين النخب الغنية والفقراء، التي تتسع الآن لتبلغ حد الخطر. فالأملاك الواسعة تنتصب فيها بيوت فخمة تشابه تلك الموجودة في أغنى المناطق الأمريكية وسط أحياء الفقر ومدن الصفيح. الآن، ترتفع مباني المكاتب التجارية والفنادق العالمية فوق بحر من الأكواخ والبيوت والمتاجر المؤقتة. ويفصل بين الجانبين حراس ورجال أمن مدججون بالسلاح ويتحققون من كل من يدخل مناطق البيوت المترفة والفنادق الفخمة خوفا من العمليات الانتحارية. لا يشعر الفقراء بالإقصاء والتهميش فقط، بل بالغضب والحنق أيضا نتيجة إدراكهم لضآلة فرصة المشاركة في الكعكة الاقتصادية التي يبدو أن النخبة تلتهمها بنهم وطمع. أما ما يتعلق بالنخبة، فيبدو أن همها الرئيس ينصب على حماية المال الذي أتى من العقود والصفقات الدولية، وفي بعض الحالات من المشاريع المغامرة المحظوظة والمرتبطة بالعولمة التي تغل عائدات ربحية سريعة، مثل ظاهرة "دوت. كوم" في الولايات المتحدة. ويجري تجنب النزعة الإسلامية نحو الأعمال الخيرية ومساعدة الفقراء في المجتمع بأعذار تبريرية مثل "نظرية التقطر البطيء" التي تشير إلى أن الفقراء سيحصلون في نهاية المطاف على بعض المنافع حين ينفق الأغنياء ما يكفي من المال. ونجحت العولمة في غرس واحدة أو أكثر من سماتها السامة، كالجشع مثلا، في هذه المجتمعات.

في هـذه الأثناء، تـزداد الشقق الصغيرة ومدن الصفيح اكتظاظـا بسكانها وتتدهور أحوالهـا. في معظـم المدن التـي زرتها، كانـت البنية التحتيـة تنهار وتتداعـى تحت ثقل الانفجار السـكاني والتدفق المستمر للقادمين من المناطـق الريفية. وفي أفضل الحالات، عانـت شبكات المياه والكهرباء ووسائل المواصلات ومرافق الرعاية الصحية من الفوضى وعـدم الانتظـام، وفي بعض الأحيـان لم تكن متوفرة على الإطـلاق. الأوضاع في كراتشي وجاكرتـا مزرية ومتدهـورة ومفزعة وكابوسية، ويعيش أغلـب السكان في حالة من الفقر المدقع. في القاهرة، يعاني الفقراء ظروفا مأساوية يائسة دفعتهم للإقامة في المقابر.

لا يعنـي ذلك كلـه أننا لم نشاهـد التأثيرات النافعـة والمفيدة للعولمة خـلال رحلتنا. فمستويات المعيشة أكثر ارتفاعا بالتأكيد في بعض المدن، مثل دلهي، والفجوة بين الأغنياء والفقراء تبدي بعض العلامات على التقلص. لكن على وجه العموم، لم أشاهد إلا الأغنياء يـزدادون غنى من العولمـة. ولربما تتحمل نخبة البلدان الإسلاميـة المنتجة للنفط معظم الذنـب واللوم، حيـث تعيش حياة أبعد ما تكون عن غالبية الأمـة، وفي جوانب عديدة عن مثل الإسلام ذاته. وتتبدى "النزعة الاستهلاكية" المبتذلة للنخبة واضحة لا لبس فيها في أسلوب الحياة، واللباس، والتنقل والتحرك بحرية. ولو تخلت عن جزء يسير من مكاسبها لقضت على الفقر في العالم الإسلامي. لكنها في الحقيقة تلعق عسل العولمة وحدها.

المسلمـون العاديـون الذين يشاهدون النخبة لا يشاركونهـا رغبتها في "ركوب موجة" العولمـة. قـال لنـا مسلـم إندونيسـي في الخمسين من عمـره إنـه رأى في المـدة الأخيرة "مزيدا من الاتكال على التقانة، والمادية، والأنانية"، وهذا أدى إلى "الافتقار إلى العمل الصالـح، والغدر، والتلوث بالحضارة الغربية". الخطر أصبـح حقيقيا وداهما مع زيادة عـدد المشاهدين للمحطات التلفزيونية عدة ساعـات يوميا، ومتصفحي مواقع الإنترنت، ومشتري أحدث المنتجات التقانية (مثل iPods). فتاة إندونيسية في الثالثة عشرة قالت لنـا إن التقانة جعلت "الشباب كسالى وغير مسؤولـ " ومتكلين على "الثقافة الفورية". ومـع أن الطبقـة الوسطى تـبرز في أماكن عديـدة، إلا أن تركيزها لا ينصـب بالضرورة علـى إعادة إحياء وصياغة القيم الإسلامية. وما يشاهده المسلمون على شاشة التلفزيون ينفرهم ويجذبهم في آن، وهذه هي المعضلة التي يعانيها نموذج عليكره.

في حـين أن كل بلد إسلامـي زرناه يمكن أن يفاخر ببضعة مراكـز تعليمية ممتازة، إلا أن الصـورة العامة للتعليـم في العالم الإسلامي محزنة وتدفع إلى اليأس. فالأرقام المقارنة التي نشرها برنامج الأمم المتحدة الإنمائي والبنك الدولي تضع البلاد الإسلامية في أسفل السلـم. وأداؤها الهزيـل في المجال التعليمي يمثل مسألة تثـير الغضب والانزعاج على وجه الخصوص لأن الإسلام عد طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، كالصلاة كما يقول بعضهم، لكن عدد الجوائز التعليمية أو العلمية أو الفكرية التي نالها المسلمون على الساحة الدولية لا يتناسب مع عدد السكان المسلمين في العالم. ونتيجة اليأس يرسل الآباء أبناءهم إلى مدارس محدودة المرافق وحتى محدودة المناهج. في معظم البلدان الإسلامية لا تستطيع غالبيـة السكان تعليم أبنائهم في المدارس الخاصة بسبب أقساطها المرتفعة، في حين يعاني القطاع التعليمي الحكومي المجاني التدهور والقصور وانخفاض الطاقة الاستيعابية.

لسوء الحظ، لا يساعد تعليم أبناء النخبة الذين درسوا في الخارج المسلمين على حل مشكلاتهـم الاجتماعية. فهم يعودون بالقليل من العبـارات والجمل والكليشهات الغربية المبتذلة التي ترددها شفاههـم، ولا يقومون بمحاولات جدية لإنشاء روابط معرفية تجمع الـتراث الغني لتقاليدهم الإسلامية مع المفكرين الغربيـين العظام الذين درسوهم. لقد غـاب تـراث التفكير النقدي عـن العـالم الإسلامي خلال العقـود القليلـة الماضية. وفي الحقيقة، يبدو أن بعض المسلمين يعيشون في غبطة وهناء غير مدركين للحاجة إلى تقديم إجابـات صعبـة وأحيانا مؤلمة عن الأسئلـة المعقدة المتصلة بالقطيعة بـين الغرب والعالم الإسلامي. وكثيرا ما يكون فهمهم للعالمين سطحيا وساذجا ومقطعا ومجزأ وحتى مصنعا في الغـرب. وحين سألت وزيرا عربيا بـارزا في الدوحة عن كاتبه المفضل، أجاب بتكشيرة عريضـة: "البروفسـور برنارد لويس". ومن الواضح أنه كان غافـلا عن المفارقة الكامنة في استشهـاد عربـي بمثل هـذا الاستمتـاع بمستشرق نموذجـي، يتهمه العـرب أنفسهم بالمساهمة في سوء فهم الغرب لثقافتهم وتاريخهم. وتساءلت هل أفرز عمل إدوارد سعيد المهم، "الاستشراق"، أي تأثير في النخبة المسلمة!؟

وبوصفـي مسلما ترعرع في التيار الغالب لنموذج عليكره، أدهشني انحطاطه البطيء وتراجعه التدريجي الثابت خلال العقود الأخيرة. فمن الصعب أن نتخيل الآن أن المسلمين

نشطوا في ربط تقاليدهم التراثية مع ظروف الحاضر، ضمن إطار الاجتهاد (التفكير الإبداعي) الذي حض عليه الإسلام. فهؤلاء المسلمون كانوا رواد التغيير وقامات فكرية سامقة، لهم معجبون في الشرق والغرب. وأسماؤهم اليوم مكللة بالمجد والغار - محمد عبده وجمال الدين الأفغاني (في الشرق المتوسط)، السير سيد ومحمد علي جناح ومحمد إقبال (في جنوب آسيا). لم يكن هؤلاء المفكرون يعيشون معزولين في أبراجهم العاجية. وكانت أفكارهم دافعا محفزا للتغيير الذي أثر في حياة ملايين الناس.

ما هو واضح أن نموذج عليكره للقيادة نخره الفساد وأصابه التشوه خلال النصف الثاني من القرن العشرين. وفي حين أن أتباعه سعوا بدأب لإقامة نظام سياسي إسلامي ديمقراطي وعصري اعتمادا على الأنظمة القانونية الغربية، فقد أجبرتهم ضغوط الحرب الباردة على الاختيار بين المعسكرين الاشتراكي أو الرأسمالي. الانضمام إلى أحدهما كان يعني الحصول على المعونات والأسلحة والدعم الدولي، لكنه أدى أيضا إلى الاتكال على مصدر هذا الدعم والافتقار إلى المسؤولية والمحاسبة أمام مواطني الدولة. أما أنظمة الحكم القمعية الناتجة عن ذلك كله فقد أعاقت تطور مجتمعات إسلامية حداثية حقيقية. على سبيل المثال، كان جمال عبد الناصر بطل القومية العربية في الخمسينيات والستينيات، لكنه لجأ إلى أساليب التعذيب والإعدام عند التصدي للمسلمين المتشددين من أمثال سيد قطب، الذي أصبح شهيد الإسلام الجهادي بعد إعدامه عام 1966. أعمال القمع هذه زادت تطرف وتشدد شريحة واسعة من السكان وسوف تتردد أصداؤها في العقود التالية مع كل خطوة خاطئة اتخذها ما يسمى بالزعماء الديمقراطيين، الذين تخلوا عن نموذج عليكره.

ثمة عامل آخر عرقل تطور الديمقراطية في معظم البلدان الإسلامية تمثل في وضع الجيش الأكثر تنظيما وتدريبا من أي جزء آخر من المؤسسة، وهذا ما منع وأقصى الأنظمة الديمقراطية للحكم. هنالك جانب أكثر شؤما وترويعا في غياب الديمقراطية أيضا. فأجهزة الأمن والاستخبارات تستخدم الآن على نطاق واسع لحث السياسيين والمنتقدين للحكومات على الانتظام في الصف. ويمكن للأساليب التكتيكية أن تراوح بين الاغتيالات والابتزاز السافر والمباشر واختطاف أفراد عائلات المعارضين. ومؤسسات

الجيش المختصة بمكافحة الفساد أو محاربة الإرهاب أصبحت الآن أشد السلطات القاهرة قمعا وإجبارا وإكراها لكسب تأييد السياسيين المترددين، وهذا سمم الجو العام تماما كما حدث في عهد صدام حسين. وفي نهاية المطاف، لا يحكم الديكتاتوريون إلا بالخوف. وحين يسيطر على الناس إلى حد منعهم من الوقوف والتعبير عن رأيهم بسبب ما يحدث للمنتقدين والمعارضين، تتعرض الديمقراطية لمزيد من العراقيل المحبطة. وحتى حين تكون الديمقراطية حاضرة، تنزع الأحزاب السياسية إلى الانتهازية والفوضى والتفكك وتغيير الولاءات بسهولة عند عقد صفقات تكون أفضل وأكثر فائدة. حين شنق العسكر أكثر زعيم سياسي باكستاني شعبية، ذو الفقار علي بوتو عام 1979، توقع الناس عاصفة مدوية من ردود الأفعال، لكن لم يحدث الكثير وسارت الحياة كالمعتاد. امتدح الديكتاتور الجديد بوصفه المنقذ المخلص، وحكم بقبضة من حديد طوال عقد من السنين، إلى أن قتل في انفجار غامض دمر طائرته وهي محلقة في الجو.

ساهم فشل القوى الدولية وضعف الزعماء المسلمين وعجزهم عن حل مشكلات الفلسطينيين والكشميريين والشيشان القديمة العهد، والآن العراقيين والأفغان واللبنانيين، في تفاقم غضب المسلمين. فالتطورات السياسية التي حدثت خلال القرن الماضي تركت ملايين المسلمين لاجئين ونازحين عن أوطانهم وبيوتهم، يحاصرهم اليأس وعدم اليقين. وصب انحطاط وركود وغياب القيادة الأخلاقية والمعنوية الزيت على نار الغضب والإحباط لدى المسلمين، وهذا ما غذى وقوى نموذج ديوباند.

عبر معظم المسلمين الذين التقى بهم فريقنا عن الاستياء والسخط على الأوضاع الراهنة وتشوقوا إلى التغيير. وبغض النظر عن توجس وتخوف المعلقين في العالم الإسلامي من غزو أفغانستان والعراق بقيادة الولايات المتحدة، فقد تشبثوا بأمل انبثاق حقبة جديدة من الديمقراطية يشهدها هذان البلدان وتحسن حياة مواطنيهما. وظهر خطاب حماسي عن الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات المدنية في أعقاب الغزو. لكن لسوء الحظ، تمثل التحدي الأعظم لكابول وبغداد في الحفاظ على الأمن والنظام. وبدد الانهيار السريع للمجتمع وتفككه وتفجر النزاعات الدموية وأعمال القتل العشائرية والقبلية والمذهبية أي أمل باق بالتجربة الديمقراطية، خصوصا بعد فضائح الأعمال

الوحشية التي يرتكبها الجنود الأمريكيون بحق المدنيين من السكان المحليين. وتحولت حالة عدم اليقين وغموض المستقبل إلى يأس كاسح ثم غضب ساحق. ومهما بلغ مقت وكره الناس للطالبان في أفغانستان وصدام حسين في العراق، فقد أخذوا يشعرون بالحنين إلى عهدهما حيث عاشوا في نوع من الأمان والاستقرار. وهكذا، أدت محاولات الولايات المتحدة لتحسين وتلميع صورتها إلى تدهور مكانتها الآن إلى الدرك الأسفل لتصبح أسوأ في نظر الناس من أكثر الحكومات الدينية أو الديكتاتورية قسوة ووحشية.

"عار عليك إن خدعتني مرة - وعار علي إن خدعتني مرتين"

في حين ساعد ديك تشيني ودونالد رمسفيلد الرئيس رونالد ريغان - مع نصائح من كيسنجر وبرنارد لويس - على تغيير العالم نحو الأفضل عبر إسراع انهيار الاتحاد السوفييتي قبل ربع قرن من الزمن، لكنهما وضعا سياسات متناقضة فيما يتعلق بالعالم الإسلامي نعاني عواقبها اليوم. وحتى مع نهاية الحرب الباردة، بقيت سياسات حقبة الحرب الباردة تجاه العالم الإسلامي على حالها، ويعود جزء من السبب إلى استمرارية اللاعبين أنفسهم، مع النظرة ذاتها إلى العالم.

ما يزال تشيني ورمسفيلد وبول ولفوويتز وكيسنجر يهيمنون ويحددون السياسة الخارجية الأمريكية الموجهةكما كانتنحو "الدول المسببة للمشكلات": الأراضي الفلسطينية، والعراق، وسورية، وإيران[38]. وتبقى علاقات الولايات المتحدة بهذه البلدان إشكالية حتى بعد عقود من التدخلات الأمريكية. والسياسات والتكتيكات نفسها التي فشلت مع هذه البلدان الإسلامية في السابق يستخدمها القادة الأمريكيون أنفسهم مرة أخرى. أما فرص الحصول على نتيجة مختلفة هذه المرة فليست كبيرة.

بوجه عام، تعتمد السياسات الأمريكية تجاه العالم الإسلامي على افتراض إمكانية تقسيم الزعماء المسلمين إلى معسكرين: "المسلمون المعتدلون والمسلمون المتطرفون". ويُعتقد أن قادة المعسكر الأول يريدون توثيق الروابط مع الغرب وعقد صفقات ضخمة لشراء الأسلحة أو اتفاقيات للمصلحة المتبادلة؛ في حين يهيمن على المعسكر الثاني رجال دين ملتحون وملتحفون بعباءاتهم السوداء، ويجاهرون بمشاعرهم المتطرفة المعادية لأمريكا، ويحاولون أخذ الأمريكيين رهائن، ويتأصل فيهم الشر أساسا. وهكذا يفصل

"الأخيـار" عـن "الأشرار". وما زالت سياسة واشنطن تـرى العالم ضمن هذا الإطار الثنوي المبسط والساذج وتتصرف على أساسه.

لم يـدرك الـرأي العام الأمريكي حتـى الآن المفارقـة الكامنة في أن القـادة الذين يتطلعـون إليهم لتحقيـق الأمن والأمان هم الذين أوصلوا "أشـرار" اليوم إلى السلطة، وهـم الذين يبقونهم علـى سدتها بسياساتهـم الخاطئة والخرقاء. وبعـد ربع قرن من السياسات الأمريكية التي ساعدت - بطريق مباشر أو غير مباشر - في وصول الخميني إلى السلطـة في إيـران، أطلقت تسلسـلا آخر من الأحداث التـي ضخمت ودعمت بروز القـادة والزعماء الشيعة المناهضين للولايات المتحـدة: محمود أحمدي نجاد في إيران، ومقتدى الصدر في العراق، وحسن نصر الله في لبنان. أما شعبية هؤلاء الزعماء فإنما هـي نتيجة مباشـرة لتحديهم وقدرتهم على إيـذاء أمريكا وإسرائيـل والهزء بهما. في حـين أوجدت السياسـات الأمريكية الهادفـة إلى وقف وكبح هؤلاء القـادة الإسلاميين "المتطرفـ "، هـلالا يضم قيـادة شيعية إحيائيـة آسرة في قلب العـالم الإسلامي، ومـن ثـم أخلت بالتوازنـات الإثنيـة والمذهبية الدقيقـة في المنطقة. ولربمـا يمثل بروز القـادة الشيعة المهيمنين كالعمالقة والمردة حتـى على الأفق السني، ظاهرة مؤقتة، وقد تعيـد الغرائز الفطريـة الإثنية والطائفية توكيـد ذاتها قريبا، لكـن في الوقت الراهن، نجحـت السياسات الغربيـة السيئة التخطيط في تجسير أعمق هـوة تقسم الإسلام في بعض أجزاء الشرق الأوسط. وجدنا طوال رحلتنا العديد من السنة يستشهدون بزعماء الشيعـة ويختارونهم نماذج يحتـذى مثالها. وعلى الرغم من العنف المذهبي الدموي في العراق، فإن الإدراك القائل إن الإسلام يتعرض للهجوم ما يزال يوجه مشاعر وعواطف المسلمين.

ثمـة وجهة نظر ثمينـة هنا يوفرها اثنان مـن المعلقين في العـالم الإسلامي: صحفي باكستاني وباحث مصـري، ينتمي كل منهما إلى عاصمة مهمة في الأمة الإسلامية وتمثل حليفـا رئيسا للولايـات المتحدة. ويقدمان صـورة واضحة عن نظـرة المسلمين للأحداث الراهنـة. أولهمـا الصحفي الشهير ايـاز أمير، الذي علق كما يلي علـى الوضع في العالم الإسلامي بعد العدوان الإسرائيلي على لبنان:

أصبح حزب الله رمزا للتحدي يتجاوز حدود لبنان، وغدا زعيمه، السيد حسن نصر الله، أشهر شخصية في العالم الإسلامي اليوم. إذن، ماذا حقق العدوان الإسرائيلي والسياسة الأمريكية المؤيدة له؟ حزب الله ما يزال موجودا. لكن مع فارق وحيد كبير يتمثل في استعداد مزيد من الشباب والشابات للدفاع عن القضية الإسلامية، ومزيد من الناس الذين يعدون حسن نصر الله رمزا للمقاومة.

شخصيا، أجد نفسي في وضع غريب. فأنا علماني في تفكيري أكثر من العديد من الناس الآخرين.. لكن علمانيتي تتصادم مع واقع لا يسر: صورة العالم الإسلامي المستعبد للقوة الأمريكية، وأفراد النخب الإسلامية يرقصون على أنغام أمريكا، ولا تزيد البلدان الإسلامية عن توابع تدور في فلك الولايات المتحدة. أرى ذلك في بلدي حيث يتعاظم التأثير الأمريكي، ومعظمه من النوع السلبي والسيئ. فإذا أراد العالم الإسلامي التقدم فعليه قطع هذا الرباط (مع أمريكا).

حتى الديمقراطية لن تأتي إلى العالم الإسلامي إلا إذا أوقف هذا النفوذ والتأثير. فمن أكبر الخرافات في عصرنا أن أمريكا تريد أن تزدهر الديمقراطية في أراضي المسلمين. ماذا لو كانت الديمقراطية لا تناسب مصالحها؟ لو كانت لدينا حكومات تحظى بالشعبية في البلدان الإسلامية فإن أول ما تطالب به هو إنهاء الهيمنة الأمريكية.

كان الأمريكان راضين على الشاه، ولم يطيقوا إيران الديمقراطية، ولا حماس الممثل المنتخب للشعب الفلسطيني، ولا حزب الله الذي يحظى بمكانة تمثيلية قوية في السياسة اللبنانية. الديمقراطية في العالم الإسلامي ومصالح السياسة الخارجية الأمريكية ضدان لا يلتقيان. لهذا السبب تجد كل حركة شعبية في العالم الإسلامي نفسها في مسار تصادمي مع مصالح الولايات المتحدة.

الآن، لو قبلنا جدلا أن الهيمنة الأمريكية على العالم الإسلامي ليست أمرا جيدا وتستحق المقاومة، يصبح من الصعب على ما يدعى بالعلمانيين من أمثالي أن يغمضوا عيونهم عن الحقيقة المقلقة والجارحة التي تشير إلى أن القوى الوحيدة المقاومة لهذه الهيمنة، بنجاح في أغلب الأحيان، هي التي تستمد إلهامها بطريقة أو بأخرى من الإسلام.

دعونا الآن نكتشف المفارقة في ذلك كله. لقد قصد بـ "الحرب على الإرهاب" محاربة واحتواء الإسلام الجهادي المتطرف. لكن بدلا من ذلك، تحولت إدارة بوش لتصبح أقوى وأكبر داعميه. فبسبب غطرستها وأكاذيبها وتأييدها الأعمى لإسرائيل، زودت الإسلام المتطرف بقوة دافعة لم يكن يأمل بامتلاكها من تلقاء نفسه[39].

ثانيا، الباحث المصري سعد الدين إبراهيم يقتفي أثر نهوض حسن نصر الله ويربطه بالموقف الخامد الباهت لرؤساء وقادة النظام العربي:

طوال أكثر من أربعة أسابيع من القتال في مواجهة عتو أقوى آلة عسكرية في المنطقة، صمد حزب الله وفاز بإعجاب وتقدير ملايين العرب والمسلمين. وقارن الناس في المنطقة ثباته وصلابته مع الهزيمة الخاطفة التي تعرضت لها ثلاثة جيوش عربية جرارة في حرب الأيام الستة عام 1967.. تحدث حسن نصر الله، الزعيم الحالي للحزب، عدة مرات إلى جمهور إقليمي عريض عبر قناة "المنار" التابعة له، إضافة إلى المحطة التي هي أكثر شعبية "الجزيرة". لقد أصبح نصر الله اسما شائعا في كل بيت مصري.

ووفقا للنتائج الأولية لمسح حديث أجراه مركز ابن خلدون لاستطلاع آراء عامة الناس، شمل 1700 مصري، حصد إنجاز حزب الله 75% من أصوات الموافقين، وترأس حسن نصر الله على لائحة ضمت ثلاثين شخصية عامة في المنطقة رتبت وفقا لأهميتها. اختارت نصر الله 82% من الإجابات، تلاه الرئيس الإيراني محمود أحمدي نجاد (73%)، وخالد مشعل رئيس المكتب السياسي لحماس (60%)، وأسامة بن لادن (52%)، ومحمد مهدي عاكف مرشد جماعة الأخوان المسلمين في مصر (45%).

النمط هنا واضح لا لبس فيه، وهو إسلامي بامتياز. ومن بين قلة من الشخصيات العامة العلمانية التي كانت من بين أهم عشر شخصيات، الفلسطيني نبيل البرغوثي (31%) والمصري أيمن نور (29%)، وكلاهما من سجناء الرأي في السجون الإسرائيلية والمصرية (على التوالي).

لم يظهر أي من الزعماء العرب في لائحة الشخصيات العشر التي هي أكثر شعبية. وفي حين أن هذه النتائج (المصرية) عرضة للتقلب في المستقبل، إلا أنها تشير إلى

الوجهــة التي تتحرك المنطقة نحوهــا. فالعرب لا يحترمون الأنظمــة الحاكمة، ويعدونها استبدادية وفاسدة وعاجــزة. ويتبنون في أفضل الأحوال موقفا ازدواجيا من الإسلاميين المتشدديــن من أمثال بن لادن. أما الإسلاميون في التيار الغالب فقد استطاعوا عبر دعم عريض تطوير نزعات وميول مدنية وتوفير خدمات اجتماعية، وهم اللاعبون الرئيسيون علــى الأرجح في بنــاء شرق أوسط جديد. وفي الحقيقة، فهم يقومون الآن بهذا الدور عبر حــزب العدالة والتنمية في تركيا، والحــزب الذي يحمل الاسم نفسه في المغرب، والأخوان المسلمين في مصر، وحماس" في فلسطين، و. بلىحزب الله في لبنان[40].

حتــى قبل تفجر الصراع اللبناني - الإسرائيلي عام 2006، ظهرت أصوات أمريكية مرجعيــة وتساءلت هل تلحق بعض السياسات الأمريكية المتعلقة بإسرائيل الضرر والأذى بالبلدين كليهما. كلايتون سويشر، مدير برامج معهد الشرق الأوسط، مثلا، قدم الحجة علــى أنه "إذا أردنا إصلاح علاقاتنا بالعالمين العربي والإسلامي، علينا إجراء استقصاء نزيــه ومفتــوح فيما يتصل بدورنا في الصراع العربــي – الإسرائيلي. إن حياة العديد من الأمريكيين والإسرائيليين والعرب تعتمد على ذلك. وباعتبار جميع التهديدات الموجهة إلى بلدنــا من الشرق الأوسط، مضى زمن السياسة الضيقــة الأفق والمؤسسة على الخرافات والأساطــير. هنالــك جوانب عديدة لهذه القصة المعقدة، لكن مــا زالت الصيغ السحرية الأحادية التي تلقي اللوم على العرب وحدهم تهيمن على الساحة"[41]. ثمة مقالة كتبها عن هذا الموضوع جون ميرسهايمر وستيفن والت بعنوان "لوبي إسرائيل" أثارت جدلا خلافيا حــادا بين المفكرين على المستوى الوطني، ومنهــم سكوت ريتر، الخبير المتمرس بالجانب الجيوسياســي للأسلحة النووية، وربطــت السياسات الإسرائيليــة بالمحافظين الجدد في واشنطن. برأي ريتر، كانت الحرب على العراق، بغض النظر عن كارثيتها، والحديث عن مهاجمة إيران، حلقة من السلسلة المتصلة بين إسرائيل والمحافظين الجدد.

برز جدل أيضا فيما يتعلق بدور وموقف الديكتاتوريين والدعم الذي تلقوه من الولايات المتحــدة طوال عقــود من الصراع مــع الشيوعية. ومنذ الحادي عشر مــن سبتمبر، تغير خطاب ودور الحكام الديكتاتوريين تغيرا ماكرا ومراوغا، مع أن علاقتهم بشعوبهم بقيت علــى حالهــا. فهم أيضا يتحدثون عن الديمقراطية في حــين يستمرون في قمعها وقهرها.

وبعد أن تعلموا استغلال أسيادهم البعيدين في واشنطن، حولوا الوضع لمصلحتهم عبر سحق أي معارضة تواجه سلطتهم وإطلاق اسم "الإرهاب" عليها، حيث أعطتهم واشنطن "شيكا على بياض" للاستمرار في انتهاك حقوق الإنسان وركم السلطة والثروة دون ضوابط أو قيود.

ديفيد والتشينسكي، الصحفي في "واشنطن بوست" عرف الديكتاتور بأنه "رئيس دولة يمارس سلطة عشوائية على حياة مواطنيه، ولا يمكن إزاحته عن السلطة عبر الوسائل القانونية. وأسوأ الديكتاتوريين يرتكبون انتهاكات فظيعة لحقوق الإنسان"(43). واعتمادا على المعلومات المستمدة من هيئات حقوق الإنسان الدولية ومنها منظمة حقوق الإنسان، وبيت الحرية (Freedom House)، ومراسلون بلا حدود، ومنظمة العفو الدولية، يجد والتشينسكي أن خمسة من أسوأ عشرة ديكتاتوريين في العالم، وثمانية من أسوأ عشرين ديكتاتورا هم من المسلمين. في عام 2005 وعام 2006، اعتلى حاكم مسلم قمة لائحة الديكتاتوريين – عمر حسن البشير، رئيس السودان. في حين كان معمر القذافي وبرويز مشرف في لائحة أسوأ عشرة ديكتاتوريين عام 2005، لكنهما انتقلا بعد ذلك إلى لائحة العشرين: "لا لأن سلوكهما تحسن، بل لأن سلوك غيرهما أصبح أشد سوءا"(44).

تجدر الإشارة أيضا إلى أن ثلاثة على الأقل من الحكام الديكتاتوريين المسلمين متحالفون تحالفا وثيقا مع الولايات المتحدة ويتلقون دعمها وتأييدها، وتلك حقائق لا تذكرها كثيرا وسائل الإعلام الأمريكية. وحين اقتنعت الولايات المتحدة بأن عليها الاختيار بين الديكتاتور المسلم والزعيم الديني المسلم، وجدت دائما أن الأول أكثر جاذبية من الثاني مع ارتفاع مد الأصولية الإسلامية المتشددة. ومثلما قال الرئيس فرانكلين روزفلت حين اضطر إلى اختيار مشابه في أمريكا الجنوبية: "لربما كان (الديكتاتور) ابن زنا، لكنه ابننا".

تمثل إيران نموذجا لافتا لكيفية تورط الولايات المتحدة في المشكلات الصعبة عبر دعم الحكام المستبدين. القصة تعود إلى نصف قرن تقريبا. ففي أوائل الخمسينيات، أثار رئيس وزراء إيران المنتخب ديمقراطيا، محمد مصدق، حنق وغضب بريطانيا حين

أمم شركة النفط الإنكليزية – الإيرانية. وبمساعدة الولايات المتحدة، أطاحت بريطانيا محمد مصدق وأعادت شاه إيران محمد رضا بهلوي إلى السلطة. بررت الولايات المتحدة دعمها بسياسة الاحتواء، التي سعت إلى ضمان المصالح الاقتصادية الأمريكية ووقف انتشار الشيوعية.

وبدءا بعهد إدارة كنيدي، عملت الولايات المتحدة على تحسين البنية التحتية في إيران عبر القروض الضخمة إلى بنك التنمية الإيراني. وذهبت التمويلات إلى المشروعات الزراعية والصناعية، مثل مصانع النسيج والإسمنت والمياه ومكافحة الآفات الزراعية وإنشاء الجمعيات الزراعية. وساعدت في إطلاق برامج صحية في الجامعات الإيرانية، وأقامت شبكة من مراكز الرعاية الصحية في الأرياف، وبرامج في الولايات المتحدة لتدريب الإيرانيين المؤهلين ليصبحوا أطباء ومسؤولين عن الرعاية الصحية العمومية[45]. لكن وحين وصل الرئيس نيكسون إلى البيت الأبيض في أواخر الستينيات، تحول تركيز الولايات المتحدة (بدءا من أوائل السبعينيات) من تنمية إيران إلى الأعمال التجارية فيها. وفي هذه الأثناء، ازدادت محاولات الشاه الغريبة لضمان استمرار المعونة الأمريكية عبر إظهار قوة "إيران الجديدة"، واتباع التراث العظيم للإمبراطورية الفارسية السابقة تحت حكم داريوس وقورش. ونظم مناسبات مشهدية كبرى، منها احتفالية تنصيبه هو عام 1967. وفي الاحتفال الأكثر فخامة الذي نظمه تخليدا لقورش، عرض أفخر ما في الغرب، بدءا بالطهاة الذين استقدمهم من باريس وانتهاء بأروع أواني الخزف الأوروبية. وأقيمت مراسم فخمة للدبلوماسيين الغربيين، ووجد رجال الأعمال في إيران منجم ذهب لعملياتهم وسوقا مناسبة للخدمات والتقانة. ولربما نجحت استعراضات الشاه في ضمان دعم الغرب له، لكنها استعدت السكان المسلمين.

في أعقاب حرب فيتنام، سعت سياسة الولايات المتحدة إلى التعامل مع الأزمات الإقليمية بالوكالة بدلا من التورط العسكري المباشر، وهي سياسة باتت تعرف بـ "مبدأ نيكسون". وبعد أن اقتنعت إدارتا نيكسون وفورد كلتاهما بأن إيران حليف مؤثر في الحرب الباردة، اعتنقت وصدقت فكرة الشاه بأن إيران هي شرطي منطقة الخليج. وسمحت كل منهما للشاه بالحصول على كميات غير محدودة من الأسلحة (غير النووية) التي

يمكن أن تنتجها الولايات المتحدة. وبخلال بضع سنين، استطاع الشاه بناء خامس أو سادس أكبر جيش في العالم. وبحلول عام 1976، امتلك زهاء 3000 دبابة و 980 حوامة حربية، وأكثر من 200 طائرة مقاتلة متطورة، وأكبر أسطول من الحوامات البرمائية في العالم، و9000 صاروخ مضاد للدروع، والكثير من المعدات الأخرى الموجودة لديه أو التي طلبها من الولايات المتحدة وحلفائها(46).

من جانبها، سعت الولايات المتحدة إلى تطوير برنامج إيران النووي. ففي عام 1975، وقع وزير الخارجية الأمريكية هنري كيسنجر وثيقة للأمن القومي تجيز التعاون النووي بين الولايات المتحدة وإيران وتضع تفاصيل مبيعات معدات الطاقة النووية إلى إيران. وفي عام 1976، وقع الرئيس فورد توجيها يمنح طهران فرصة شراء وتشغيل منشأة معالجة بنتها الولايات المتحدة لاستخلاص وقود المفاعل النووي. ولم يكتف فريق الرئيس فورد (ضم ديك تشيني الذي خلف دونالد رمسفيلد كرئيس لموظفي البيت الأبيض، وبول ولفوويتز الذي أشرف على شؤون عدم انتشار الأسلحة النووية في وكالة نزع الأسلحة والسيطرة عليها) بتصديق الخطط الإيرانية لبناء صناعة طاقة نووية ضخمة فقط، بل عمل بجد ودأب أيضا على استكمال صفقة بعدة مليارات من الدولارات تعطي طهران حرية التحكم بكميات كبيرة من البلوتونيوم واليورانيوم المخصب، العنصرين الضروريين لصنع القنبلة النووية. إضافة إلى ذلك، استمر في المساعي لتزويد إيران بالتكنولوجيا النووية. أما الشركات الأمريكية فقد كسبت بدعم من واشنطن 6.4 مليار دولار من بيع ستة إلى ثمانية مفاعلات نووية إضافة إلى قطع الغيار(47).

أدى النفوذ المتنامي للولايات المتحدة، عبر مليارات الدولارات المخصصة للأغراض التجارية والصفقات النفطية، إلى اتساع الهوة الفاصلة بين الأغنياء والفقراء بمعدل ينذر بالخطر. وفي حين رتع الشاه والشركات الغربية الداعمة له في الاحتفالات المسرفة التي صرف عليها بسخاء منقطع النظير، غرق ملايين الإيرانيين في وهدة الفقر. وحين بدأت بوادر ردود الفعل العنيفة تتعاظم على موقف الشاه المغالي في ممالئة الغرب في أوائل الستينيات، ازداد استبداده وتعسفه، وأطلق العنان لشرطته السرية السيئة الصيت، "السافاك"، للتصدي للمعارضين والمنشقين. ضم معارضو النظام طيفا واسعا شمل

الاشتراكيين والماركسيين والإسلاميين المحافظين وبعض "المسلمين المعتدلين"، وعناصر من الأغنياء والفقراء على حد سواء. وتعاظم العداء لأمريكا.

من الشخصيات الوحيدة التي تمكنت من الوقوف في وجه حكومة الشاه وجهاز "السافاك" آية الله الخميني، وهو رجل دين كان يدرس الأخلاق الإسلامية في المدرسة الفيضية في قم. ونتيجة الاعتقاد أن الإسلام يتعرض للهجوم في إيران من الولايات المتحدة، لم يتردد الخميني في إعلان ذلك صراحة وعلى رؤوس الأشهاد، واتخذ عام 1963 أول خطوة فيما أصبح لاحقا هجوما مستداما على الشاه، الذي صوره كعدو للإسلام. احتج الخميني على حكم الشاه الوحشي والظالم، وأساليب التعذيب والقمع القاسية التي يستخدمها مع جميع أطياف المعارضة، مع إدانة الولايات المتحدة وإسرائيل أيضا. وتحدث بحماس وبصوت عال باسم الفقراء داعيا الشاه إلى مغادرة قصوره وزيارة أحياء الفقر في جنوب طهران. وزعم أنه يريد تدمير الإسلام ذاته: "بلادنا، والإسلام في خطر، ويقلقنا ويحزننا الوضع في هذا البلد المدمر. نسأل الله أن يصلح حاله"، حسبما قال عام 1963[48]. ثم أعلن أن إيران ليست سوى مستعمرة أمريكية وتساءل: "أي أمة تلك التي تخضع لمثل هذا الإذلال؟"، معبرا عن أسفه وحزنه على الكثيرين الذين يتوقع موتهم في الشتاء القادم "لا سمح الله، من البرد والجوع"[49].

انتقد الخميني بشدة أيضا الحصانة التي منحها الشاه للقوات الأمريكية معلنا أنه "باع" استقلال إيران: "إذا قام خادم أمريكي أو طاه أمريكي باغتيال أحد مراجعكم وسط السوق أو دهسه بالسيارة، لا يحق للشرطة الإيرانية اعتقاله! ولا تملك المحاكم الإيرانية الحق في محاكمته!.. لقد أنزلوا الشعب الإيراني إلى أدنى من مرتبة الكلاب الأمريكية. إذا دهس إيراني كلبا لأمريكي، سوف يعاقب. لكن إذا دهس طباخ أمريكي الشاه، رئيس الدولة، لا يملك أحد الحق في التدخل"[50]. في مجتمع ما زال يعرف وفقا للمفاهيم القبلية عن الشرف، ألهبت هذه الأفعال مشاعر الاعتزاز الوطني لدى الإيرانيين العاديين وفاقمت إحساسهم بالإهانة والإذلال.

في أعقاب هذه الخطبة، أجبر الخميني على العيش في المنفى في العراق، وأطلقت الحكومة حملة قمعية أخرى على المعارضين، استهدفت المدارس والحوزات الدينية بتهمة

تعليم الكراهية للحكومة، ثم اعتقلت / وعذبت حتى الموت آية الله رضا سيدي لأنه اعترض علـى مؤتمر نظم لترويج وتشجيع الاستثمارات الأمريكية في إيران، وأدان النظام بوصفه "عميـلا مستبـدا للإمبرياليـة"[51]. تفاقمت حدة التوتـر في أواخر الستينيـات وأوائل السبعينيـات، حيث قتل المئات في حملات القمع الوحشية، وبدأت معدلات التضخم ترتفع بسرعـة، في حـين بقيـت قرى عديدة تعيش في فقـر مدقع لا أمل في الخـروج من وهدته. هذه هي الظروف ذاتها التي يزدهر فيها نموذج ديوباند ويرفض مبادئ "الديمقراطية" و"التجارة الحرة" التي تروجها الولايات المتحدة.

وبعد أن أدركت الحكومة أنها تفاقم غضب واستياء الجماهير عبر محاولة إلغاء ومحو مظاهر ومقومات ومعالم الثقافـة الإسلامية، اتخذت مقاربة مختلفة قائمة على ضرورة "تحديث" الإسلام ليصبح "إسلاما مدنيا". وفي سبيل تسهيل هذا التحول وإظهار أن الحكومـة تحترم الإسلام فعـلا، أنشأت مؤسسة جديدة تعتمـد على "ملالي الاعتدال"، والخروج إلى الجماهير لترويج وتشجيع التعليم، وتشييد البنية التحتية، وتلقيح المواشي، وإظهـار أن الإسلام منسجم ومتوافق مع العصـر الحديث. ذلك هو نموذج عليكره. لكن في نظـر الرعايا الذين كانوا مخلصين ذات يوم في ولائهم للشاه، كانت هذه اليد الودودة الممـدودة هزيلة جدا ومتأخرة جدا. فبحلول ذلك الوقت، بلغت مشاعر الغضب والاستياء التـي مـلأت نفوس الإيرانيـين حدا لم تعد تكفي عنـده حتى هذه الإصلاحـات الإيجابية لمحـو ذكريـات غطرسة الشـاه، وقسوته، وعدم رغبتـه في العمل مع الجماعـات المختلفة التـي طالبت بالمشاركة الديمقراطيـة المشروعة. وما ضاعف مشاعـر الغضب إدراك أن الأمريكان هم القوة الحقيقية خلف العرش.

ثم تحـول عامة الإيرانيـين إلى الخميني بوصفـه بديلا معقولا وواعـدا للشاه، حيث استخـدم التقانات الحديثة، مثل "شرائط الكاسيـت"، لنشر رسائله المتحدية التي يبثها مـن منفاه. واكتسب مزيدا مـن المصداقية لدى المسلمين العاديين حـين توفي أحد أبنائه الذي كان يعيش معه في منفاه فجأة، واتهم جهاز "السافاك" بالتورط في الحادث.

وعلى شاكلة الشخصيات الإيرانية الأخرى في تلك الحقبة، مثل علي شريعتي، اعتقد الخمينـي أن الإسلام الشيعي يحمل رسالة حديثـة في عصر طحنه الظلم والبؤس وغاب

عنه اليقين: "الإسلام دين المجاهدين الملتزمين الدين والعدل. دين الطامحين إلى الحرية والاستقلال. مدرسة المناضلين أمام الإمبريالية". وقال إن الإسلام رائد مُثل التحرر والحرية الحديثة التي يزعم الغرب امتلاكها، واستحث الإيرانيين على رفض الثقافة الغربية وإعادة اكتشاف تراثهم: "لقد نسينا هويتنا، واستبدلناها بالهوية الغربية.. وأصبحنا عبيدا للمثل الأجنبية الغربية"[52].

ومع تفاقم الأوضاع الاجتماعية وتعاظم خيبة الأمل من الحكومة، انضمت شرائح المجتمع كلها، ومنها الفنانون ورجال الأعمال، إلى رجال الدين في جوقة واحدة للاحتجاج على الحكومة. وأظهرت جميع الطبقات، العليا والوسطى وما بينهما، ازدراء متناميا للولايات المتحدة، وتفجرت الاحتجاجات العنيفة. فبين عامي 1971. 1975 حدثت 31 عملية تفجير وتهديد بتفجير المؤسسات والمنشآت الأمريكية، منها تفجيران استهدفا السفارة الأمريكية ذاتها[53].

وفي خطاب قوي مناهض لأمريكا ردد صدى مشاعر وآراء جميع شرائح وطبقات المجتمع الإيراني، رسم الخميني صورة الولايات المتحدة كمصدر للشر في العالم، وعلى ما يبدو لم يتمكن الأمريكيون من فهم الوضع، فتشبثوا بعناد بالرأي القائل إن إيران تحتل مركزا محوريا للمصالح التجارية والأهداف الاستراتيجية الجيوسياسية للولايات المتحدة - والنخبة في طهران يمكن العمل معها. في عام 1977، وصل الرئيس جيمي كارتر إلى طهران في زيارة رسمية وتبادل الأنخاب مع الشاه، معلقا بملاحظة غريبة وسيئة التوقيت تؤكد أن إيران "جزيرة للاستقرار في ركن مضطرب من العالم"، بفضل "القيادة المستنيرة" للشاه، و"نتيجة لمشاعر الاحترام والإعجاب والحب" التي يكنها الشعب الإيراني له. وبعد زهاء أسبوع من مغادرة كارتر لطهران، اندلعت الثورة وبلغت ذروتها مع عودة الخميني من باريس، وتفجرت أعمال العنف في مختلف أنحاء إيران.

في حين استمرت الولايات المتحدة في الإصرار العنيد على أن الثورة ليست وشيكة وعبرت عن دعمها وتمسكها بالشاه، ظهرت شعارات على جدران طهران تشبه جيمي كارتر بيزيد، الخليفة الأموي الذي بعث بجيشه لقتال الحسين حفيد النبي عام 680م، والشاه بشمر قائد جيش يزيد الذي ذبح الحسين وصحبه. من المهم فهم مدى قوة

التأثـير التي تستحضرها في الشيعة أسماء مثل الحسـين ويزيد: فالأول هو الرمز المطلق للبطولة في وجه الطغيان والثاني هو الشر المصفى عينه. تعزز هذا الإدراك بأعمال القمع الوحشيـة التـي مارسها "السافاك" علـى المتظاهرين، وخلفت العديـد من القتلى في قم وغيرهـا، وهـذا ما شجع الإيرانيين علـى اعتبار أنفسهم شهداء يهبـون في وجه الطغيان الذي قاوموه على مر السنين.

مـع أن الولايـات المتحدة عبرت عن دعمها الثابت للشاه إلا أنها حاذرت من حمام دم في إيـران. فقد استثمرت في البـلاد وكان العديد من مواطنيها يعيشون في إيران والعديد مـن الإيرانيين يعيشون في أمريكا بحيث أحجمت عن فعل ما من شأنه تعريضهم للخطر. لكنهـا لم تستطـع تفادي الإدراك بأن الشاه يخسر نفـوذه وتأثيره بسرعة، خصوصا حين نـزل مئات الآلاف من المتظاهرين إلى الشـوارع في آب/ أغسطس 1978 للاحتجاج على إعلان الأحكام العرفية. وفي الثامن من أيلول/ سبتمبر، فتحت عناصر "السافاك" النار علـى الحشود في ساحة جاله، وهي ممارسة غدت روتينيـة كلما وحيثما تجمعت الحشود الجماهيرية عام 1978، فقتل المئات من المتظاهرين المحتجين. ومع ذلك، اتصل الرئيس كارتـر بالشاه بعد حادثة الساحة للتعبير عن دعم أمريـكا الثابت، فسر الشاه لدرجة أنه أمـر بنشر نص المحادثـة الهاتفية بينهما. وبدا في نظر العديد مـن الإيرانيين كأن الشاه يتلقى التهنئة من كارتر على المذبحة[54].

مـع خروج الأزمة من نطـاق السيطرة، بدأ صبر الولايات المتحـدة ينفد تجاه الشاه. وحـين أدركـت أن مصالحهـا في إيران معرضـة لخطر داهـم، توسلـت الإدارة إليه كي يتصـرف بطريقة تعيـد الاستقرار للبلاد، حتى إن عنى ذلـك التنازل عن العرش وتعيين خليفة له. وبعدها عاد الخميني إلى إيران، فاستقبله مليون إيراني في المطار، وانهار نظام الشاه كبيت من ورق.

في أكتوبـر 1979، نقل الشاه المكروه إلى الولايات المتحدة لتلقي العلاج لكنها رفضت منحـه حق اللجوء السياسي وطلبت منه البحث عن ملاذ في مكان آخر. ولربما قصد من هـذا الرفض أن يظهر الأمريكيون للمسلمين أنهـم يبعدون أنفسهم عن الشاه، لكنه أفرز نتيجة عكسية - فقد أكد للمسلمين أن الأمريكان قوم يتأصل فيهم الغدر وعدم الوفاء تجاه

حليف أخلص لهم الولاء. الشرف والوفاء والإخلاص (كما شرحنا في الفصل الثالث) قيم وسجايا تحتل مركزا محوريا في الثقافة الإسلامية، وهذا الفعل الغادر سلط الضوء على الاختلافات الأساسية والدرامية بين المجتمعين. وخلال الفوضى العارمة التي أعقبت الثورة، اقتحم الطلاب السفارة الأمريكية واحتجزوا رهائن فيها، ورفضوا إطلاقهم حتى يعود الشاه ويحاكم في إيران. حين كان الخميني في المنفى، عارض محاولة سابقة قام بها الماركسيون للاستيلاء على السلطة، لكنه دعم احتلال السفارة من مجموعة غير منظمة من الطلاب الثوريين الغاضبين. فقد تذكر هؤلاء انقلاب عام 1953، واقتنعوا أن وكالة المخابرات المركزية متورطة حتى الأذنين في إيران وسرعان ما ستتحرك لإعادة الشاه إلى العرش. لذلك، اقتحم الطلاب السفارة لإجهاض أي انقلاب جديد والانتقام للانقلاب القديم.

المتطرفون هم الذين يسيطرون الآن على الثورة، ليقصوا ويهمشوا القوى التي لم تسايرهم حيث اتهموها بتأييد أمريكا، ومن ثم فهي عدو الثورة. أما أزمة الرهائن التي استمرت 444 يوما فقد سممت العلاقات بين الولايات المتحدة وإيران. أصيب الطلاب بالإحباط حين فقد مزيد من الأمريكيين اهتمامهم بالثورة على ما يبدو، وهذا من الدوافع المفتاحية وراء احتجاز الرهائن في المقام الأول. ومع استمرار الأزمة وتردي العلاقات بالولايات المتحدة، تعزز موقف الطلاب والخميني داخل إيران.

في أوائل الثمانينيات، لجأت الولايات المتحدة إلى مجلس الأمن الدولي طلبا للعون، آملة أن يفرض عقوبات على إيران. لكن الاتحاد السوفييتي عارض الفكرة في الوقت الذي غزا فيه أفغانستان، وهذا ما غير المشهد الجيوسياسي تغييرا جوهريا. وناقش مجلس الأمن القومي الأمريكي العديد من الاستراتيجيات الأخرى لتحرير الرهائن، ومنها الضربات العسكرية والحصار. بل فكر حتى بالقيام بمحاولة انقلابية ضد الحكومة الثورية، لكنه قرر في نهاية المطاف التراجع عن مثل هذه الخطوة.

بدلا من ذلك، تسللت جماعة من قوة دلتا في الجيش الأمريكي إلى إيران لإنقاذ الرهائن بواسطة الحوامات. لكن المهمة، التي سميت "عملية مخلب النسر"، فشلت فشلا ذريعا. فالظروف الجوية السيئة، التي تجاهلها الجيش، أدت إلى خروج إحدى الحوامات

مـن العمليـة بسبب عطـل فني، واصطدام حوامـة أخرى مع طائرة نقل مـن طراز "سي 130"، فقتـل ثمانية من أفـراد الطاقم. وهكذا، تخلت إدارة كارتر نهائيا عن الخيار العسكـري، مما أجـبر أقوى دولة في العالم على الاكتفاء بالانتظـار حتى يكون الإيرانيون علـى استعـداد لإطلاق الرهائن مـن أسرهم. ومع أنهم أظهروا بعض الإشارات في هذا الاتجـاه في منتصـف عام 1980، إلا أن الخميني قرر الانتظار حتى كانون الثاني / يناير 1981، أي إلى عشيـة تنصيـب رونالـد ريغان رئيسا ليثبت - كما قيـل - قدرته على منع رئيـس أمريكي من الوصول إلى سدة الرئاسة، تماما كما فعلت وكالة المخابرات المركزية حين أسقطت حكومة مصدق عام 1953.

بين عشية وضحاها تقريبا، لم تخسر الولايات المتحدة حليفا رئيسا في المنطقة فقط، بل ساعدت أيضا دون قصد في وصول قيادة متطرفة (تتبع نموذج ديوباند) إلى السلطة، قيـادة ترى في الولايـات المتحدة "الشيطان الأكبر". كانت الأمـور ستتخذ مسارا مختلفا تمامـا لو أعـادت الولايات المتحدة العلاقات الديبلوماسية مـع طهران بعد ثورة الخميني مباشـرة وأكدت احترامها للإسلام كدين قـادر على التكيف مع الديمقراطية؛ وساعدت في تعزيـز الديمقراطيـة الإيرانية الجديدة عبر تقديم العون لإجـراء انتخابات، وتطوير الخدمـات المدنية، والمشاركة مع المؤسسات التعليمية؛ ولم تشن ما عده الإيرانيون هجوما إعلاميا على ثقافتهم ودينهم؛ وخاطبـت الشعب الإيراني بلغة النيات الحسنة والتشجيع علـى التغيـير والتحول عن ديكتاتوريـة السنوات الماضيـة. وكان من الممكـن تجنب أزمة الرهائـن والخطوات اللاحقـة التي أدت إلى المواجهة الحالية، على الرغم من وجود بقية من المشاعر المعادية لأمريكا. لكن الولايات المتحدة بدت غير مهتمة وغير معنية بتجربتها في إيران: إذ سرعان ما ستصبح راعية لديكتاتور آخر، صدام حسين، سيكون أيضا عدوا لدودا لها في المستقبل.

في أعقـاب الثـورة، ركـزت إيران اهتمامـا متناميا علـى شيعة العـراق، الذين كانوا يتعرضـون للقمع والاضطهاد تحت حكم صدام حسـين، وحثتهم على إعلان الجهاد على الديكتاتـور العراقـي. وكثيرا ما أشـار الإيرانيـون إلى صدام بوصفه "دميـة الشيطان" واتهمـوه بأنه "مريض عقليا"[55]. مـن جانبه كان صدام يراقـب الوضع الإيراني طوال

السبعينيات بعين القلق، خصوصا بعد أن هدد الخميني بتصدير الثورة إلى العراق، لا سيما مدينة كربلاء المقدسة. وبعد أن رأى ما أنجزه الخميني وما حل بالشاه، اعتقد صدام أن مخاوفه مبررة. إضافة إلى ذلك، فر العديد من القادة الإيرانيين الذين عملوا في مؤسسة الشاه العسكرية إلى العراق وحاولوا إقناع بغداد بمساعدتهم على استعادة بلادهم من قبضة الخميني. بعضهم قال إن الجيش الإيراني يعاني التفكك وفرار أفراده من الخدمة ويتعرض لعمليات تطهير واسعة (حيث أعدم مئات المنشقين السياسيين). وحين اقتنع صدام بإمكانية إسقاط حكم الثورة وإقامة حكومة أكثر صداقة مع بغداد، قرر شن غزو مفاجئ لإيران. والأهم أن العراق سيجني مزيدا من عائدات النفط، وسيصبح صدام زعيم العالم العربي دون منازع. وهكذا، في الثاني والعشرين من أيلول/ سبتمبر 1980، بدأ صدام حربا طويلة ودموية سيسقط فيها أكثر من مليون قتيل.

بدأت الولايات المتحدة تقدم مساعدات مهمة للعراق. ففي شباط/ فبراير 1982، شطبت العراق من قائمة الدول التي تدعم الإرهاب الدولي، ومن ثم عبدت الطريق لزيادة كبيرة في العلاقات التجارية بين العراق والولايات المتحدة. وفي كانون الأول/ ديسمبر 1984، بعد قرابة شهر من إعادة العلاقات الديبلوماسية، بدأت السفارة الأمريكية الجديدة في بغداد تزويد الجيش العراقي بمعلومات استخبارية مهمة. في الوقت ذاته، ضاعفت واشنطن تقريبا ائتمانات العراق للمنتجات الغذائية والمعدات الزراعية من 345 مليون دولار عام 1984 إلى 675 مليونا عام 1985. وفي أواخر عام 1987، وعدت العراق بائتمان يبلغ مليار دولار للسنة المالية 1988، أي أكبر ائتمان يقدم إلى بلد في العالم[56]. وتدخلت المؤسسة العسكرية الأمريكية في الحرب تدخلا مباشرا أيضا، حين أغرقت السفن الإيرانية في الخليج العربي.

مع تقدم مسار الحرب باتجاه استحالة انتصار أي من الفريقين، تنامى إحباط العراقيين من عجزهم عن تحقيق انتصارات حاسمة وحاولوا استخدام الأسلحة الكيماوية. فبحلول أواخر عام 1983، خزنت بغداد ما يكفي من غاز الخردل للقيام بذلك، وسرعان ما امتلكت كميات من الغازات والمواد الخانقة مثل الفوسجين (ثنائي كلوريد الكربونيك)، ثم غازات الأعصاب مثل التابون والسومان والسارين. وألحقت

هجمات صدام الكيماوية بإيران دمارا مروعا خصوصا بين صفوف المدنيين العزل. وسعى الإيرانيــون سعيا حثيثا لشراء الأقنعة الواقية من الغازات، لكن هذه لم توفر حماية كافية من غازات الأعصاب المتطورة التي تسبب الهلاك عند ملامسة الجلد المكشوف. والعديد من الإيرانيين الملتحين لم يتمكنوا من ارتداء الأقنعة بالطريقة الصحيحة فقتلتهم الغازات السامــة. من المرجح أن المواد الكيماوية العراقية قتلـت قرابة خمسين ألف إيراني خلال الحــرب[57]. وخــلال الأشهر الأخيرة من الحرب عام 1988، شــن صدام أشد هجماته الكيماويــة فتكا على الكرد وعلى الإيرانيين الذين دعموهم في حلبجه، حيث قتل أكثر من خمســة آلاف شخص على أقـل تقدير[58]. ولم يكتف بقصف المناطـق الكردية في شمال العــراق بالأسلحة الكيماوية، بل دمر القرى الكردية ونقل سكانها إلى معسكرات الأعمال الشاقــة. من المؤكد تقريبــا أن الولايات المتحدة كانت على علم بهذه العمليات، التي مثلت خرقــا فاضحا لبروتوكـولات جنيف لعــام 1925 وتحديا للأمم المتحــدة، وسمحت ببيع العراق المواد الكيماوية السامة والمواد الجرثومية المهلكة، مثل الجمرة الخبيثة والطاعون الدبلي. كما أجازت وزارة التجارة الأمريكية تصدير المبيدات الحشرية إلى العراق، على الرغــم من الاشتباه بأنها تستخدم لإنتاج الأسلحة الكيماوية. في شباط/ فبراير 1984، أصــدر ناطق عسكري عراقي التحذير المرعب التــالي إلى إيران: "يجب أن يدرك الغزاة أن لــكل حشــرة ضارة مبيــدا حشريا قادرا علــى إبادتها.. والعراق يمتلـك هذه المبيدات الحشرية المهلكة"[59].

في السنــة السابقة، أبلــغ أحد كبار مسؤوليوزارة الخارجيــة، جوناثان هاو، أبلغ وزير الخارجية جورج شولتز أن التقارير الاستخبارية أظهرت أن الجنود العراقيين "يستخدمون بشكل يومي تقريبا الأسلحة الكيماوية" ضد الإيرانيين. لكن إدارة ريغان كانت قد التزمت تقــديم دعــم ديبلوماسي وسياسي واسع النطاق إلى بغداد، بلغ ذروته في عدة زيارات قام بهــا دونالد رمسفيلد، المبعوث الخاص المعين حديثا للرئيس الأمريكي في الشرق الأوسط. زودت العــراق بمــا يحتاجــه تشكيلة متعددة من الشــركات الغربية، منهــا بكتل، ويونيون كاربايــد، وهونيويل. واستخدم وليام كيسي مدير وكالة المخابرات المركزية شركة تشيلية (كارديون) لتزويــد العراق بالقنابل العنقودية للقضاء على الموجــات البشرية الإيرانية، حيث كان يندفع آلاف الشهداء نحو الخطوط العراقية[60].

صممت الولايات المتحدة على فعل أي شيء يمكن أن يوقف إيران، مثل دعم صدام الديكتاتور المستبد، وكانت بذلك تخلق حالة شبيه بحالة "شاه إيران". ولو احترمت الولايات المتحدة القوانين الدولية واستمرت في التزام مثلها العليا، لما تلطخت يداها بهذا الدم المسفوح في الشرق الأوسط، وهذا أمر لم يغب عن ذاكرة سكانه حتى الآن. ولما شنت حربين على صدام وأزهقت فيهما أرواح الآلاف من الضحايا.

لم تكتف الولايات المتحدة بتجاهل الدروس والعبر من الانهيار المشهود لحكم شاه إيران ونهوض الخميني فقط، بل عملت أيضا على تفعيل وتنشيط السياسات المتخذة خلال تلك المرحلة الكارثية. الخبراء المحنكون والسياسيون المتمرسون الذين ضللوا الشعب الأمريكي آنذاك عاودوا الظهور مرة أخرى على مسار مشابه لتهديد سورية وإيران، حتى في الوقت الذي ما زالت فيه المشكلات في العراق وأفغانستان دون حل. وفي الحقيقة، يبدو أن الأمريكيين وصلوا إلى طريق مسدود مع أحمدي نجاد. فخبراء السياسة الخارجية الذين نصحوا الشاه بتجاهل الأصوات الإسلامية يقدمون مشورتهم الآن وينصحون الإدارة الأمريكية بتجاهلها. وهذا لن يؤدي إلا إلى تفاقم مشاعر الغضب والاستياء والعداء للولايات المتحدة. فضلا على ذلك، في حين كان أمام الأمريكيين بديل الحكومات "العلمانية" للعمل معها، لم يعد لديها الآن سوى الأحزاب الإسلامية، وجميعها تتطلب مقاربات مختلفة ومتباينة. وبذلك، يتجاهل الأمريكيون العديد من الحكومات الإسلامية والحركات الشعبية الحقيقية، ويسيئون فهمها ويصنفونها في خانة "الإرهاب". ومن ثم فهم يخسرون ويستعدون شرائح واسعة من السكان ويحولونها إلى أعداء ألداء بدلا من عقد علاقة عمل معها يمكن أن تتطور إلى دعم وصداقة.

حين أصبح محمود أحمدي نجاد، مدعوما من الملالي المتشددين، رئيسا لإيران في صيف عام 2005، انتهى الحوار المتقطع لكن القائم بين الحضارات الذي بدأه سلفه محمد خاتمي[61]. ونتيجة تزعزع استقرار العالم وخوض جنود البلدان الغربية حربين دمويتين في العراق وأفغانستان، يتجه العالم الآن نحو مستوى أشد خطرا من المواجهة.

صور الخطاب العدواني الكريه الذي تبثه وسائل الإعلام أحمدي نجاد على هيئة هتلر في الولايات المتحدة، وبوش كشيطان رجيم في إيران. لكن نظرة أحمدي نجاد إلى

العالم تشكلت بطريقة مباشرة بسياسة الولايات المتحدة تجاه إيران في السبعينيات والثمانينيات، حين كان زعيما طلابيا خلال الثورة وشارك فيما بعد في الحرب الإيرانية - العراقية. ولا بد أن بياناته وعباراته المستفزة محسوبة ومقصودة لإغضاب وتهييج الولايات المتحدة وإسرائيل ويجب رؤيتها ضمن هذا السياق. وأعتقد أنه يؤمن فعلا أن الجنود الأمريكيين محاصرون الآن في الرمال المتحركة العراقية وفي وضع يائس بحيث تحولت الولايات المتحدة إلى نمر دون أسنان ومخالب. لكن ما يتعذر إنكاره أن بيانات وعبارات نجاد المتطرفة أكسبته شعبية بين المسلمين العاديين، حتى السنة منهم مثلما رأينا خلال رحلتنا.

لبنان أيضا يتناسب تماما مع النظرة الإيرانية للعالم. فحين تشكلت حكومة الخميني المعادية لأمريكا، نظر الخميني إلى العالم الخارجي ووجد حالات مشابهة يتعرض فيها المسلمون للهيمنة والقمع والاضطهاد، خصوصا إخوانه الشيعة، وسرعان ما تركز انتباهه على لبنان. فقد اجتاحت إسرائيل لبنان عام 1978 لمنع منظمة التحرير الفلسطينية من مهاجمة شمال إسرائيل بالصواريخ. وفي عام 1982، اندفع الإسرائيليون حتى بيروت واحتلوا المدينة، سعيا لإقامة منطقة عازلة في جنوب لبنان. وكان الاحتلال الإسرائيلي للبنان وحشيا وأدى إلى استياء واحتجاج ومقاومة على نطاق واسع، خصوصا من الشيعة. ولمحاربة الاحتلال، أرسلت الحكومة الجديدة في إيران المال والسلاح إلى لبنان، فاستخدما لتكوين منظمة مقاتلة يمكن ألا تكتفي بالكفاح ضد الإسرائيليين فقط بل تواجه الأمريكان أيضا. اعتنق "حزب الله" مبدأ التفجيرات الانتحارية لمجابهة الولايات المتحدة وإسرائيل معا، فهاجم ثكنة مشاة البحرية الأمريكية في بيروت عام 1983، وكانت تلك طريقة جديدة ظهرت عام 1981 حين هاجمت مجموعة شيعية السفارة العراقية في بيروت. عد حزب الله وإيران هذه العمليات "استشهادية" لا انتحارية، لأن القرآن حرم الانتحار[62]. ثم انتقلت الطريقة من الشيعة إلى السنة حين بدأت "حماس" استخدام التفجيرات الانتحارية، لتصبح سلاحا في يد الجهاديين في حربهم مع الغرب. وبعد الغزو الأمريكي لأفغانستان والعراق، استخدم السنة والشيعة العمليات الانتحارية في التقاتل وفي محاربة الدولة العراقية والجنود الغربيين. وسرعان ما بدأ الانتحاريون -

وحتى الانتحاريات - يحدثون تأثيرا نافذا شعرت به البلدان الإسلامية (السنية) الأخرى مثل السعودية والأردن وباكستان. وأدى اقتران غضب المسلمين على الطغيان والاستبداد والظلم مع الأفكار القبلية عن الثأر والشرف إلى ظهور تفسيرات جديدة وخلافية وعنيفة بين العلماء المسلمين حول المفهوم القرآني للانتحار.

عند تذكر هذا السياق، يمكن بسهولة مقارنة وجهات النظر الواردة في خطابي بوش وأحمدي نجاد أمام الأمم المتحدة في التاسع عشر من أيلول/ سبتمبر 2006. فقد وجه الرئيس بوش خطابه إلى الشعب الإيراني قائلا: "على الرغم من أن حكامكم قد اختاروا حرمانكم من الحرية واستخدام موارد دولتكم لتمويل الإرهاب وتشجيع التطرف والسعي لامتلاك أسلحة نووية" إلا أنه يأمل بقدوم "يوم يمكنكم فيه العيش بحرية، ويمكن أن تصبح فيه أمريكا وإيران صديقتين وشريكتين في سبيل قضية السلام". أما أحمدي نجاد فقد رد بعدة انتقادات، ملاحظا أن مجلس الأمن الدولي فشل في الدعوة إلى وقف فوري لإطلاق النار بعد الحرب التي اندلعت بين إسرائيل و"حزب الله" في لبنان عام 2006. إذ تطلب الأمر أربعة وثلاثين يوما للتوصل إلى هدنة لوقف النزاع: "بقي مجلس الأمن متفرجا أياما عديدة، ينظر إلى مشاهد الفظائع الوحشية التي ارتكبت بحق اللبنانيين.. لماذا؟"، كما سأل. ثم قال بالتحديد: "أقف ضد السياسات التي اختارتها حكومة الولايات المتحدة لإدارة العالم لأن هذه السياسات تدفع العالم نحو الحرب"[63].

وعلى الرغم من الاختلافات على السطح، تتشابه ملاحظات بوش وأحمدي نجاد في فهمها لما تدعوه الديانات الإبراهيمية بنهاية الزمان. هذا الفهم هو الذي يكون نظرة كل منهما إلى العالم. فكلاهما يؤمن بمعركة حاسمة ونهائية بين الخير والشر، ويعتقد أنه يمثل الخير كما يجسد خصمه الشر. وأن المسيح سوف يعود إلى الأرض وينضم إليه في المواجهة - وهنا تكمن مفارقة انتماء الديانتين المسيحية والإسلام إلى العائلة الإبراهيمية واكتساحها الحجج المنطقية وتحويلها إلى عبث. واللافت أن كلا منهما يؤكد أنه اختير تحديدا لقيادة أمته من قوة إلهية ويعمل بهمة ونشاط على نشر وبث رؤيته الأخروية. بوش يعتقد أن المسيح إلى جانبهعندما سئل عن الكتاب المفضل لديه، قال إنه الإنجيلويؤمن

نجـاد بالشـيء ذاته تمامـا، أي أن الله معه. ووفقـا للتراث الإسلامـي، هنالك علامات وآيات دالة على نهاية الزمان منها عودة عيسى المسيح الذي سيحارب قوى الأعور الدجال (المسيـح الدجـال عند المسيحيين). وبـرأي تقاة الشيعة، مثل أحمـدي نجاد، تتمتع هذه اللحظـة الزمانية بأهمية دلالية مضاعفة لأنها ستمهد لعودة الإمام الغائب، الذي يتحدر من آل بيت النبي ويحارب إلى جانب المسيح ضد الأعور الدجال.

يتطلب إيمان بوش المسيحي أن يعمل على تأمين القدس استعدادا لعودة المسيح، تماما كما يتطلب إيمان أحمدي نجاد الترحيب بعودة الإمام الغائب الذي ستبشر عودته بقدوم المسيـح. وكلاهمـا ملتزم تعجيـل العملية التي تعيـد المسيح إلى الأرض. وبوصفه زعيما منتخبا بطريقة شرعية في وطنه، فهو يعبر عن معتقدات شريحة واسعة من سكانه.

الحملـة الأمريكية لمنع إيران من تطوير برنامـج تخصيب اليورانيوم وتصميم إيران على القيـام بذلك بحاجة إلى رؤيتهما ضمن هذا السيـاق. فالسياسة الخارجية للبلدين كليهمـا مؤسسة علـى ذم وقدح والطعن في رئيـس البلد الآخر وثقافتـه. وهذا يساعد في تفسير السبب الذي دفع كيسنجر، في مؤتمر مجلس الشؤون الدولية المنعقد في فيلادلفيا عام 2006 (انظر الفصل الرابع)، إلى وضع خطة موجزة لشن هجوم نووي على إيران. وبعد بضعة أسابيع فقط، اندلعت الحرب في الشرق الأوسط حين حاولت إسرائيل اجتياح جنوب لبنان وارتفعت أصوات المعلقين الأمريكيين الصاخبة تأييدا لتوجيه ضربة عسكرية نوويـة إلى إيران لمنعها مـن حيازة التقانة النوويـة. إيران ليست العـراق ولا أفغانستان، فكلاهمـا بلد أصغر وأكثر فقرا وأقل تجانسا. ولن تقتصـر نتائج الضربة النووية لإيران على إثارة وإلهاب مشاعر الشيعة في العالم فقط، بل ستؤدي إلى زعزعة استقرار جيران إيـران المهيمن، مثـل السعودية وباكستان، وكلاهما حليف رئيـس لأمريكا. ولا ريب في أن التداخل المعقد الـذي يخلط بين السياسة الخارجية المشوشة واللاهوت، يدفع العالم إلى شفا حرب عالمية.

تجعـل هـذه السياسات نمـوذج أجمر غـير ذي صلة ونمـوذج عليكره مجـرد ذريعة تبريريـة للتنـازل أمام الغـرب. والمسلمون الذين يعـدون أنفسهم معرضـين للهجوم من الغـرب، عسكريا وثقافيا في آن، لا يجـدون أي معنى في الحديث عن الإنسانوية الشمولية

والعالمية في نموذج أجمر، وليس لديهم أي أمل - نظرا للسجل الثابت للسياسة الخارجية الأمريكيـة - في الحصول على دعم للزعمـاء الديمقراطيين الذين يتبنون نموذج عليكره إلا إذا كانـوا مستعدين للتنازل عن مصالحهم الوطنيـة. لهذا السبب يحتشد هذا العدد الكبـير من المسلمين وراء نموذج ديوباند. لكن لأن الولايات المتحدة ترفض الحوار معهم، انقطعت الاتصالات، وعـاودت الظهور على السطح الحجج والأدلة التي سادت في العقود القليلة الماضية، ونفذت السياسات القديمة ذاتها، وتشكلت الكوارث نفسها.

ومـع سعي الأمريكان الحثيث إلى مساعدة العـالم الإسلامي أو السيطرة عليه، يبدو أن الوضـع يـزداد فوضى واضطرابـا، ويستمر في ترديد أصداء الماضـي. يلاحظ العالم الإسلامـي ذلـك ولا يخدعه حديث الولايـات المتحدة عن الديمقراطيـة. وبدلا من ذلك يبقى في حالة انتظار للكوارث المتوقعة التي تلوح في الأفق (ويمكن تجنبها بالتأكيد).

ومع ذلك كله، يمكن الآن لتغيير جذري في السياسات تجاه العالم الإسلامي أن يجنب العـالم هذه الكـوارث، على المدى البعيد والقريب معا. يجـب القيام بخطوات جبارة نحو بناء الثقة وإظهار حسن النوايا إزاء العالم الإسلامي وتوكيد احترام ثقافته ودينه. وعلى الولايات المتحدة أن تقرن خطابها عـن الديمقراطية بدعم حقيقي للعملية الديمقراطية بغض النظر عن الحاجة إلى حلفاء يذعنون لها. وعلى نحو مشابه، وبدلا من تقديم المعونات العسكرية إلى البلدان الإسلامية، يجب أن تطور برامج تعليمية ومرافق تثقيفية تغير تفكير الشباب المسلم الذين يتعلمون الآن التطرف في المدارس الدينية. إن كره المسلمين لأمريكا يأتي مـن كونهم ضحايا الأسلحة الأمريكية التي يستخدمهـا إما حكامهم الديكتاتوريون أو الجنـود الأمريكيون، بحيث ينسبون جميع هذه الأعمال الوحشية الفظيعة إلى الولايات المتحـدة. فإذا طبقت هذه التغييرات في السياسة في الحـرب على الإرهاب، فسوف تغير العلاقـة تغييرا جذريا وتقلص عدد الأعداء في الحاضر والمستقبل. ليست هذه المبادرات مكلفة ولا تتطلب أكثر من تطبيق التفكير المنطقي على القضايا المعقدة التي أوقعت صناع السياسة الأمريكيين في ورطة مأزقية في أعقاب ردة الفعل العنيفة على مشروع المحافظين الجـدد و"مبدأ بوش"، كما عبرت عنها نتائج انتخابات الكونغرس النصفية عام 2006: إذ فاز الديمقراطيون بأغلبية مقاعد مجلس الشيوخ ومجلس النواب (كان الفوز في مجلس

الشيـوخ بهامش بسيط)، وعد ذلك على نطاق واسع استفتاء للأمريكيين على الحرب في العراق والحرب على الإرهاب.

ومع استمرار دورة العنف التي تشمل الآن الكوكب الأرضي ويبدو أنها تخرج عن نطاق السيطـرة، تبتعد الحضارتان الغربيـة والإسلامية باطراد عن مثلهما القائمة على العدل والإحسـان والحكمـة. ومن المهـم لجميع البشر فهـم هذه العلاقة المعقـدة، بغض النظر عـن المنظور السياسي أو المعتقـد الديني. وفي غياب الإرادة العالميـة الشاملة لوقف زخم العنف وعدم اليقين، فسوف يتحولان إلى كابوس عالمي لا نهاية له. المجتمعات بحاجة إلى العـودة إلى تلـك الأفكار التي رعتها وغذتها طوال آلاف السنـين، وأوجدت فيها الإحسان والتعاطف مع الآخرين. باختصار، تعد الأزمة الراهنة تحديا لهوية الإنسان ذاته، بوصفه كائنا مفكرا يهتم بأخيه الإنسان.



-6-

رفع الغشاوة

سيدي،

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته. آمل أن تكون بأحسن حال. تلقيت رسالتك بالبريد الإلكتروني وسررت إلى حد العجز عن التعبير عن سروري بالكلمات. الحمد لله، ترجمة كتابك تسير على قدم وساق وسوف تنشر بعد أقل من ثلاثة أشهر كما وعدت، إن شاء الله.

أين أنت في هذه الأيام وكيف حال رحلتك؟ تعلمت الكثير خلال صحبتك القصيرة. آمل (أن تتبع) إرشاداتك في المستقبل. جزاكم الله وبوركتم.

مع أطيب التمنيات

إعجاز ارشاد قاسمي

الأمين العام لمؤسسة السلام الإسلامية.

نيو دلهي.

مفتي على الإنترنت، دار العلومديوباند سابقا.

من يقدر على منع نفسه من العجب من قدرة الروح البشرية على التوسع والتغير؟ حين التقيت بإعجاز أول مرة، بدا متشبثا تماما برأيه، حيث تكون عالمه من تصنيفات بسيطة واضحة المعالم تميز الأصدقاء من الأعداء والدين الصالح من الدين الطالح. بدا إعجاز، مؤلف كتاب "الجهاد والإرهاب"، مهوسا بـ"البربرية الأمريكية" و"الهمجية الإسرائيلية". ولم يكن ثمة ظلال رمادية في نظرته إلى العالم. ومع أنه متدين بأسلوب رسمي ومتشدد، إلا أنه استطاع تطوير سعة صدر روحية تزامنت مع الرؤية القرآنية للإنسانية المشتركة. والآن ها هي رسالته الإلكترونية أمامي وقد وصلت بعد بضعة أيام من عودة الفريق من الرحلة الميدانية في منتصف شهر نيسان/ أبريل، معبرة عن رؤية جديدة، أو "إرشاداتك" حسب تعبيره.

بعد زيارتنا إلى ديوباند، رافقنا إعجاز طوال الأسبوع التالي حين التقينا المسلمين في الاجتماعات الكبيرة والصغيرة في دلهي. ورتب لنا بعض اللقاءات بنفسه، مثل الزيارة إلى مقر الجماعة الإسلامية، الحزب الإسلامي المتشدد في جنوب آسيا. وأصغى طوال الأسبوع بعناية لخطبي وأحاديثي عن أصدقائي الأمريكيين المسيحيين واليهود التي أكدت أن الأمريكيين ليسوا متشابهين كلهم.

في كل منتدى، كان يسمع توكيدي على الحاجة إلى الحوار والفهم بوصفهما واجبا فرضه القرآن، خصوصا في ضوء القوى العولمية التي تصدم الأمة هذه الأيام. حينذاك، أظهر إعجاز اعتزازا (إقليميا) متناميا وهو يقدمني قبل إلقاء محاضراتي. في البداية، قبل أسبوع في ديوباند، قدمني بوصفي "باحثا عظيما" قادما من بلد بعيد. الآن، مع بعض التحدي في صوته وأكثر من مجرد التلميح المميز للمغالاة السائدة في جنوب آسيا، أصبح يدعوني أفضل نموذج للدين الإسلامي - وفي الحقيقة، لجميع الأديان.

أعتقد أننا كنا أول أمريكيين يقابلهم إعجاز ويقضي معهم وقتا طويلا. أجرى أحاديث مطولة، مع هيلي وفرانكي ثم مع هاديا، عن قضايا جدية كانت تثيره وتهيج أعصابه فيما يتعلق بالشؤون الدولية. ومع أنه بدا متحفظا في البداية ومحجما عن الحديث مباشرة مع هيلي وهاديا، إلا أنه أصبح أكثر انفتاحا بعد أن أمضى بضعة أيام معنا في الميدان، وتمكن أخيرا من وضع وجه إنساني على ما كان يدعوه سابقا بـ"البربرية الأمريكية". فهؤلاء الأمريكيون يصغون فعلا إلى آرائه وعلى استعداد لمناقشتها بأسلوب جدي، وذلك على العكس من الملقين المنمطين في وسائل الإعلام الذين يصنفون أمثاله في خانة "المتطرفين الإسلاميين" دون تعرف الروابط الإنسانية المشتركة بين البشر.

قرب انتهاء زيارتنا إلى الهند، قال إعجاز إنه يريد ترجمة كتابي "الإسلام تحت الحصار" إلى اللغة الأوردية. الكتاب يستكشف فكرة السمات الإنسانية المشتركة، خصوصا بعد الحادي عشر من سبتمبر، ويشرح حقيقة أن المجتمعات كلها تشعر اليوم بأنها تحت الحصار وقد فقدت توازنها. ومن المهم لها تعلم تبادل الثقة فيما بينها، وهذا لا يمكن تحقيقه إلا عبر الحوار والفهم. وبدأ فيما بعد الترجمة، ويبدو أنه يعبر عن شكر وامتنان يتجاوزان حدود التعبير بالكلمات لأنه وجد أخيرا شخصا يحاول فعلا "شرح

المفهوم الإسلامي في العالم المعاصر. بارك الله فيكم، وأدعو الله لكم بالصحة والتوفيق وخدمة الإسلام".

ما مدى وضوح تأثير مبدأ الحوار والفهم؟ عبر توزيع ترجمة "الإسلام تحت الحصار" على شبكة ديوباند الواسعة من المدارس والمساجد، يستطيع إعجاز نشر هذه الأفكار بين آلاف القراء الشباب، آملا بتجذر رسالتي عن الحوار مع حضارات العالم الأخرى. وبدلا من تفسير الجهاد بوصفه عنفا، يمكن للشباب التفكير به كحركة مسالمة تستهدف إيجاد فهم أفضل؛ ولربما يفكرون الآن بمكان الإسلام في القرن الحادي والعشرين بأسلوب أكثر توازنا وتراحما، ويستعدون للتواصل ومد اليدين إلى الحضارات الأخرى، أو يحاولون فهمها على أقل تقدير.

إذا استطاع إعجاز تغيير موقفه المتشدد، فبمقدور غيره اتخاذ مواقف مشابهة، يشمل ذلك الأمريكيين وحتى الإسرائيليين. وعلى شاكلة إعجاز، قد يتخلى أفراد آخرون عن جدلية "نحن" مقابل "هم" لتحل محلها أخرى تضم البشر جميعا. وبرأيي، كان حديث إعجاز بالغ الأهمية عظيم الشأن بل يشبه ناقلة نفط تغير مسارها وسط المحيط.

لم أسمع خبرا عن إعجاز طوال عدة أشهر وبدأت أتساءل عما حدث لخطط ترجمة الكتاب إلى الأوردية. ثم كتب إلي في منتصف كانون الأول/ ديسمبر ليخبرني أين كان وكيف يسير المشروع:

اعتذر عن انقطاع اتصالي بك طوال هذه المدة، في الحقيقة غبت عن الهند ثلاثة أشهر، حيث ذهبت في رحلة إلى جنوب إفريقيا والدوحة. ورجعت إلى الهند قبل أسبوعين. الحمد لله، انتهت ترجمة الكتاب في آب/ أغسطس لكن لسوء الحظ لم تنشر الترجمة حتى الآن لأنني لم أكن في الهند. بعد عيد الأضحى إن شاء الله سوف ينشر كتابك بواسطة سونيا غاندي (زوجة رئيس الوزراء الراحل راجيف غاندي)".

لاحظت أن إعجاز قاسمي كان يظهر لقبه: أمين عام مؤسسة السلام الإسلامية في نيودلهي، ويضيف إشارة إلى منصبه القديم: الناطق باسم دار العلوم في ديوباند سابقا. ومن الواضح أنه منخرط في مهمته الجديدة لبناء الجسور وتعزيز السلام.

وعي إعجاز الجديد يقدم أملا واعدا ومشرقا في مشهد كئيب لولاه. لقد فعل ما أوصى به بوذا تحدى السموم في ذاته. وبعد أن كبح جماح غضبه على جهل الأمريكيين، بدأ رحلة عظيمة الأهمية لا للأمة فحسب بل للعالم عموما، مع أنه ربما لا يعي ذلك تماما.

"وفي داخلي، وهذا هو المهم"

التقدم الروحي الذي حققه إعجاز لم يفاجئني تماما؛ فالحياة إنما هي رحلة للبشر كلهم، وهم قادرون على التغير عبر مراحلها المختلفة. تزودهم الأديان والحكماء بالدليل المرشد أو بمعالم هادية على طريقها. مسار حياتي حمل علامات مثل هذا التغيير دون أن أدركه.

حين كنت شابا، أعجبت باورانغزيب لأنه بدا مجسدا للحاكم المسلم المثالي. لقد اجتذب ولائي في مرحلة الشباب وحماسي لديني، ورأيت فيه بطلا منافحا عن الدين. كان لا يقبل التنازل والتسويات في المسائل التي تعرض المسلمين للتهديد. وبعد أن ترعرعت في بيئة تسودها أعمال عنف ديني واسعة النطاق، وظلت ذكرياتها تطاردني مدى الحياة، شعرت أن كل مسلم لا بد أن يتأثر باورانغزيب، بطل الإسلام والتجسيد الحي لنموذج ديوباند.

في مرحلة لاحقة من حياتي، اكتشفت بطلا مسلما آخر هو محمد علي جناح. جميع القضايا التي ناقشتها مع زملائي في الجامعة تصدى لها محمد علي جناح حين قاد حركة باكستان. وخلافا لاورانغزيب، كان جناح مستعدا للتفاعل مع/ وحتى امتصاص وتمثل الأفكار الأجنبية المتعلقة بالديمقراطية وحقوق التصويت للمرأة والأقليات. لكنه لم يكن يساوم أو يقبل التسويات فيما يخص حقوق وأمن مجتمعه وقومه أيضا. أثارتني رؤيته على مستوى واحد من المكانة مع المهاتما غاندي وجواهر لال نهرو، الرمزين الهنديين العظيمين. وكمسلم، شعرت باعتزاز كبير حين نجح في انتزاع دولة باكستان المسلمة من قبضة البريطانيين القوية والمؤتمر الوطني الهندي. أما حقيقة قدرته على تحقيق هذا النجاح ضمن الأطر الدستورية فقد عززت مكانته في نظري.

حين تقدم بي العمر، تعاظم اهتمامي بالإسلام الصوفي والشمولي الذي تعرفته عن طريق والدي، الذي عمل أولا في الحكومة ثم في الأمم المتحدة، حين كنت طالبا في

لاهــور. كان يطلب منــي مرافقته إلى مقام داتا صاحب، الــولي الشهير في لاهور (تعرف لاهــور أيضا باسم مدينة داتــا صاحب)، فأقبل نزولا على رغبته لا رغبتي الشخصية. لم يلــح قط علــى الذهاب معه ولم يلق علــي محاضرة عن أفكاره عــن الإسلام. ولم يضغط علــي لنشــر الرسالة العالمية القائمــة على "صلح الكل" كما يجسدهــا داتا صاحب إلا في أواخــر أيامه[1]. لكن شيئــا ما في تلك الزيارات لامس جزءا روحيا في كياني لم أكن حتى أعلــم أنني أملكه. فيما بعد، عنــد استكمال دراستي في جامعة كيمبردج، عدت إلى لاهور وانتسبــت إلى أكاديمية الخدمة المدنيــة النخبوية الراقية، تجسيد نمــوذج عليكره. كنت محافظــا علــى اقتناعي بمزايــا وفضائل أسلــوب عليكره في التفكــير، والإعجاب بمحمد علــي جناح واورانغزيب كبطلين مــن أبطال الإسلام، رغم أن الشكوك بدأت تنتابني فيما يتعلق بالثاني. لكن حتى في ذلك الحين، هنالك شيء شدني إلى داتا صاحب، وحين زرت مقامــه في القسم القديم مــن المدينة، كتبت قصيدة شعرية بعنــوان "متجولا في الشوارع بصحبــة داتــا"، لوصــف التجربة، دون حتــى إدراك كيف عبرت عن نفســي الجوانية في حياتي الآتية:

كانوا كلهم هنا:

الحب يبقى حبا

مهما بدا فجا في العرض

والإيمان يستحيل حبا

مهما بدا أخرق في التعبير

والحب يبدع الإيمان

من أي ناحية أتى

عدت في تلك الأمسية

محوما في الهواء على قرون تقذفني

إحساس حاد بالخير والصلاح

والصداقة

من الداتا

ينساب في شوارع لاهور

وفي داخلي

وهذا هو المهم[2]



أكبر أحمد، حين كان موظفا شابا في الخدمة المدنية، يجلس مع والدته في أواخر الستينيات. كانت الخدمة المدنية في باكستان تضم النخبة وتقوم على نموذج الإسلام العصري (نموذج عليكره)، لكن أكبر أحمد تعرض أيضا لتأثيرات تقليدية وروحانية خلال هذه المرحلة.

المنتسبون الشباب إلى أكاديمية الخدمة المدنية في لاهور كانوا يرون أنفسهم التجسيد الحي للإسلام العصرينتاج حقيقي لنموذج عليكرهوينزعون إلى الهزء بأساليب وطرق أجمر وديوباند. فبرأيهم، يعد الروحانيون مغالين في الاهتمام بالآخرة، وحالمين، ومشوشي الذهن، في حين بدا المتشددون متزمتين ومتخلفين يفتقدون الأهمية والصلة بالواقع: إما "متصوفة" (نموذج أجمر) أو "ملالي ملاعين" (نموذج ديوباند). فعلى

الرغـم من كل شيء، نجح نمـوذج عليكره في قيادة الأمة إلى الاستقلال عن البريطانيين وسوف يحمي هذا الاستقلال في المستقبل. وهكذا لم يفهم أترابي، الذين اشتبهوا بذهابي إلى مقـام داتـا، دوافعي وبواعثـي الحقيقية. ودار جدل تحزيري عـن سبب اختفائي بين الحـين والآخر. إذ وجـدوا أن نموذجي أجمر وعليكره ضـدان لا يجتمعان. وكنت مع هذا وذاك في آن.

حـين أنظر إلى الماضـي بعد تجربة أربعة عقـود أشعر بالخجل والمتعـة معا من ذلك الشاب المتهـور المغرور المتعجرف المتفجر طاقة وأفكارا واعتـدادا بالنفس. كان جزء من ذاتـي يقول: "لقد بلغت القمة. أنا الأفضل والأوسم والأعظم". في حين رفض باقي كياني هـذا الجزء، وسهل على الكل احتواؤه. كانت زياراتي إلى مقام داتا تساعد في كبح جماح الثمالـة والنشـوة بالأكاديمية. وحين كنت أدخـل المقام وأبدأ خلع حذائـي وتغطية رأسي يتبخر ما أحدثته الأكاديمية في نفسي من تعجرف وتكبر واعتداد بالنفس.

عندمـا كنـت أرافق والـدي إلى مقام الـولي في أجمر، الذي كان علـى علاقة روحية بالـولي في لاهور، اكتشفـت الجمال الأبـدي للرسالة الروحية الصوفيـة. حتى في خضم ضجيـج البشـر الصخّاب، تنزل علي شعـور بالسكينة ليمحو أي أثـر للغضب والغطرسة والمطامـح، ويملأ نفسي بإحساس روح القداسة، ليجعلني أشعـر باتحادي مع جميع من هـم حـولي، وأنهم أيضا يختبرون الصلة عينها مع المقدس السماوي عبر قبولهم الزوار الآخريـن، أغنيـاء أو فقراء، مسلمين أو غير مسلمين. ومع أننـا جميعا وصلنا كغرباء، إلا أننا أصبحنا أخوة وأخـوات في النوايا الصافية، لنميز وندرك روابط الإنسانية المشتركة في مكان العبادة هذا. ليس ثمة ماض ولا مستقبل، بل حاضر مسالم مطمئن. استطعت أن أرى بوضـوح، كأنما رفعت غشاوة عن عيني، مدى قرب البشر بعضهم من بعض وبشاعة الحواجز التي أقاموها لتحول دونرؤيتهم الجمال في أرواح العالم المتنوعة.

في رحلتنا داخل الإسلام، رأى أعضاء فريقي الشباب رأي العين التأثير الذي مارسته أجمر علي، كما وصفته هاديا:

في أجمـر، رأيت فجأة أستاذنا العزيز، الدكتـور أكبر، يتحول من ديبلوماسي محنك وباحث محلل إلى روحاني مطمئن ومسالم، بعد أن استولت عليه الروحانية المحيطة به من

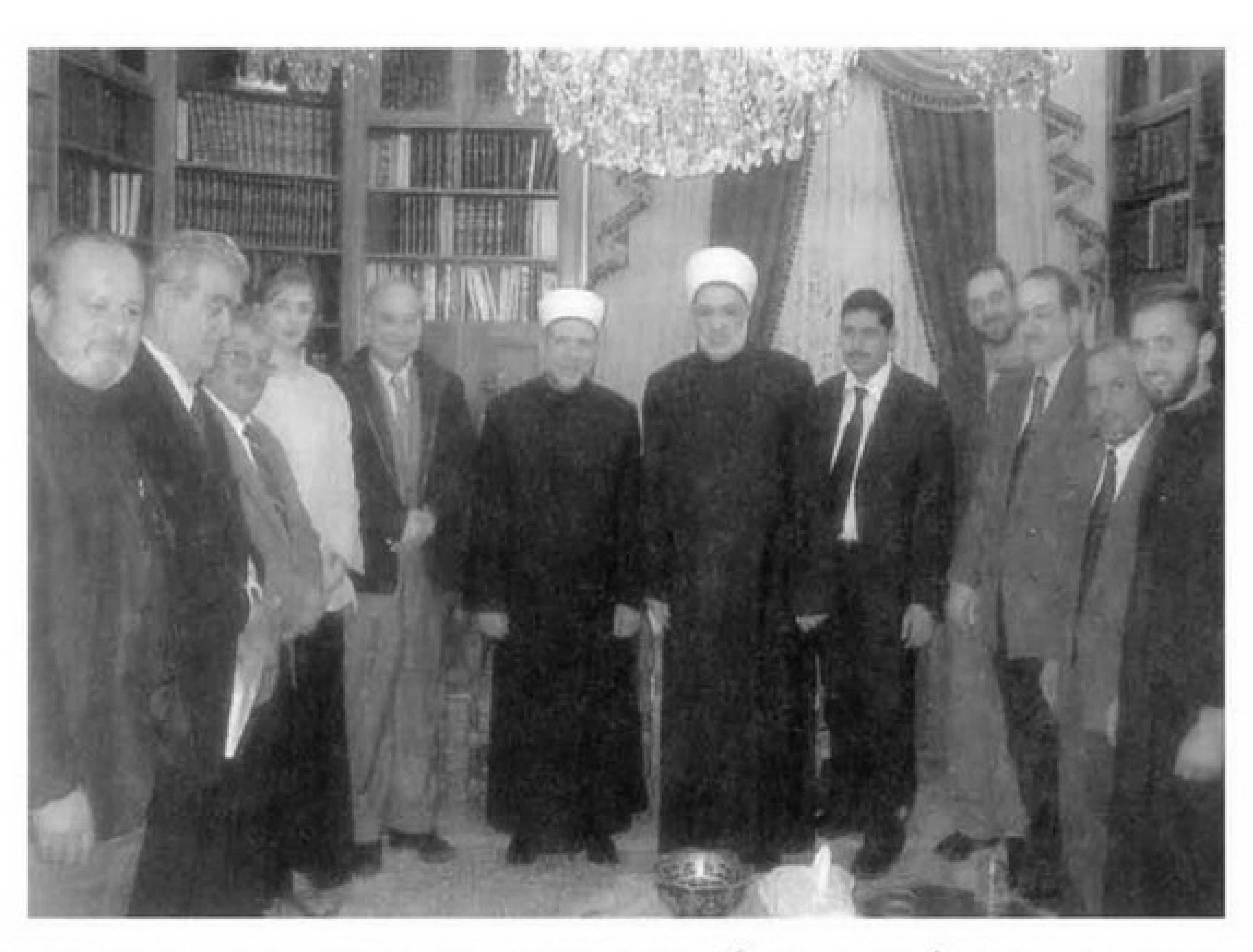
كل حدب وصوب. اتبع بهدوء دليلنا إلى مرقد الولي الصوفي الذي عاش في القرن الثاني عشر، مرددا الدعاء متمتما الصلوات بصوت هامس. وحين دخلنا مرقد معين الدين تشستي، تغير وجه أكبر كليا. لم أره بمثل هذه الحالة الوجدانية من قبل. لربما تذكر والده، الذي اعتاد مرافقته في الزيارات السابقة إلى المقام في أجمر. ذكرني الدكتور بتلاوة الفاتحة على روح الولي وهمس سرا: "في كل مرة صليت هنا، غمرتني البركات". ثم رفع راحتيه وصلى متضرعا خاشعا. بدا مطوقا بهالة من الطمأنينة والهدوء والصلة بخالقه. جلس صامتا بعض الوقت، وقد أغمض عينيه وحنى رأسه، كأنه غائب عن الوعي لا يرى أي شيء حوله.

عندما جلسنا في الباحة المفتوحة بين المسجد والمقام، بدا الدكتور وكأنه يعود ببطء من غشيته ويرجع من عالم مختلف. أمكننا رؤية مدى تأثره بالزيارة. جلس القرفصاء وأصغى لكلمات المنشدين يرتلون المدائح الإلهية. قال لي "افتحي قلبك. واعثري على مكان فيه يسع الجميع".

لا يمكن لنفوسنا وأرواحنا التواصل إلا إذا تجشمنا عناء - وأحيانا ركبنا مخاطرة - زيارة بعضنا بعضا. ولسوء الحظ، لا يغامر سوى قلة من الأمريكيين في العالم الإسلامي بالخروج من وراء الجدران العالية المحصنة التي تطوق مباني إقامتهم لمقابلة الناس العاديين في الشارع (صاحب متجر أو سائق سيارة أجرة مثلا). لنتخيل تأثير زيارة يقوم بها مثلا ديبلوماسي من السفارة الأمريكية في دمشق إلى شيخ معروف لإجراء حوار بعيد عن الرسميات. لنتخيل عدد الحواجز الثقافية والنفسية التي يمكن تجاوزها آنذاك.

فريقنا فعل ذلك بالضبط. سافرنا إلى دمشق وقمنا بزيارة الشيخ حسام الدين فرفور، رئيس معهد الفتح، الجامعة الإسلامية المعروفة. بدا الشيخ متجهما بعمامته البيضاء ولحيته المشذبة وجبته السوداء التي غطت جسمه الضخم، وهو ينتظرنا في مكتبه المعتم مع قرابة عشرة من كبار رؤساء الأقسام والكليات، جلسوا جميعا على أثاث قديم العهد. تحدثوا بنوع من الحنين حين تذكروا زياراتهم إلى الجامعات الأمريكية والبريطانية، وخلال اللقاء، دخل طلاب الشيخ حاملين أكواب العصير.

مـع أنني بدأت بطـرح بعض الأسئلة عن الإسـلام، إلا أن مجرى الحديث تحول فيما بعـد إلى وصف ممـل وأحيانا هاذر للمشكلات القائمة مع الولايات المتحـدة. كنا نتلقى المحاضرة ذاتها جوهريا طوال الأيام القليلة الماضية، وأعددت نفسي لأصيل طويل وعقيم. مع استمرار الحديث، شعرت أن الشيخ بيروقراطي كيّف الإسلام مع الخطاب الاشتراكي والنظام الاشتراكي الذي يشتغل ضمنه. الصورة الرسمية للرئيس بشار الأسد في المكتب وإقـرار الشيخ بالخدمات التي قدمها الرئيس لقضية الأمة والإسلام أكدا هذا الانطباع. حـين بدأنا نستعد للمغـادرة، دعانا الشيخ إلى عشاء في منزلـه. وعدته أن أبلغه إذا كنت أستطيـع تلبية الدعوة، تاركا لنفسي فسحة من الوقـت للتفكير بعذر مقبول لأنني لم أكن متيقنا تحمل حضور جلسة أخرى من هذا النوع.



الضيوف الذين تجمعوا قبل مأدبة العشاء التي أقامها العالم الإسلامي المعروف، الشيخ فرفور، في منزله في دمشق. تغيرت طبيعة الأمسية حين بدأ الشيخ ينشد المدائح النبوية.

علـى الرغم مـن قلقي من جلسة مملة أخرى، إلا أننا زرنـا الشيخ في منزله في الليلة التاليـة. يقـع البيـت "العربي" في زقـاق شعبي مكتظ، وبـدا مدخله غامضـا، حيث كان يفضـي إلى فناء ثم بهو وفنـاء آخر، بديع وأنيق، ينفتح على البيـت الرحب والمريح حيث

تنفصل مخادع الرجال عن النساء وفقا للتقاليد المحلية. دخلنا غرفة مكتب الشيخ، التي امتلأت جدرانها بالكتب المجلدة عن الإسلام من النوع الذي نجده في بيت أي مسؤول مثقف وميسور في العالم الإسلامي. حضر بعض الأساتذة الذين التقيناهم في الجامعة، إضافة إلى عدد من الوجوه الجديدة، ومنهم شخصيات دينية بارزة وأتباع الشيخ.

أجلسني الشيخ في صدر غرفة الجلوس وبجانبي هيلي، المرأة الوحيدة الحاضرة. وسرعان ما وصل الضيوف، والعديد منهم يرتدون الجبة السوداء ويعتمرون العمامة البيضاء مما يدل على مكانتهم الدينية الرفيعة. وبعضهم من أبرز علماء الدين في دمشق. وبدلا من التحية المعروفة (السلام عليكم مع المصافحة)، لمس كل منهم صدره - وهذه تحية صوفية تقليدية. الإشارة التلميحية إلى الصوفية أيقظت فضولي.

أبدى الضيوف نحونا مشاعر ودية ودافئة وكريمة، وسيطر على الأمسية إحساس جديد. وبعد الحديث الذي تجاوز السياسة ليركز على العلماء المسلمين الكبار، دعا الشيخ ضيوفه إلى قاعة الطعام. كان العشاء، الذي قدم على مائدة عريضة، مكونا من تشكيلة واسعة من الأطباق العربية الشهية التي تطلبت حتما أياما لتحضيرها، فشعر الضيوف بمزيد من الاسترخاء. ولكي تشعر هيلي بمزيد من الراحة هي أيضا، دعا الشيخ كنته الإسبانية للجلوس معها نظرا للفصل الصارم بين الرجال والنساء عادة. وبدأت الاثنتان تبادل الحديثلأن هيلي تتحدث الإسبانيةعن النساء غير المسلمات من أمثالها اللاتي يعتنقن الإسلام عند الزواج من مسلمين.

بعد الاستمتاع بالطعام اللذيذ والصحبة الدافئة، لم يعد الشيخ يبدو كرب بيت عربي تقليدي بل رجل يعيش في سلام وطمأنينة مع نفسه. بدأ يهمهم وقد أغمض عينيه ويميل بلطف إلى الأمام وإلى الوراء مع إيقاع راحتيه على ركبتيه. همس طلابه إلينا إنه يحب ترديد المدائح النبوية. ثم شجعوه على الإنشاد بصوت عال، فعلا صوته القوي المطمئن وملأ الغرفة بالتعاطف والحب. كانت المدائح تتناول نبل وبهاء وإحسان النبي، وسرعان ما علت وجوه الحاضرين أمارات السكينة والهدوء والدعة.

بدأ نوع من التداخل المعقد بين النماذج الثلاثة (التي حددناها في هذا الكتاب) يتكشف أمامي في الغرفة. فما بدا أنه نموذج عليكره، الذي يدعو إلى الجمع والموالفة مع

المنظومـات غير الإسلامية (الاشتراكيـة في هذه الحالة)، أخذ يتحول إلى نموذج أجمر، بتعبيراته الروحانية عن السلام والأمان والإحسان والتراحم والإنسانوية العالمية الشاملة. التغيـير في الخطاب تناسب مـع لغة الشيخ فرفور الإشارية، بعد أن تحول من بيروقراطي رسمي وعصبي وحتى عدائي قليلا إلى شيخ صوفي رقيق ومبتسم وودود.

بعـد العشاء، رافقنا الشيخ إلى المدخـل الرئيس لبيته، حيث انتظرنا وصول سيارتنا، ريـاح شباط/ فبراير الباردة أرعدت هيلـي قليلا. وبلحظة، وبناء على طلب الشيخ، دخل ابنــه المنزل وخرج حامــلا وشاحا بلون أسمـر مصفر، ناوله إلى الشيــخ الذي رفعه فوق رأسه وأغمض عينيه وتلا دعاء بالعربية. وفيما بعد أبلغنا المترجم أنه دعا الله أن يبارك لنــا ويحفظنا ويرعانا في سفرنــا ويسعدنا في حياتنا. تلفعت هيلي بالوشاح وعلت محياها ابتسامــة، وما زالت تحتفظ به كذكرى للحظة من اللطــف الحقيقي العفوي ورمز للصلة الجامعة بين الثقافات.

في اليــوم السابق على مغادرتــي دمشق، تلقيت عدة رسائل عاجلــة من الشيخ فرفور يطلــب فيهــا مقابلتــي. فسوف يحل ضيفــا على حفل عشــاء يقيمه السفـير الباكستاني، واقترحت عليه الذهاب معا في سيارتي والتحدث في الطريق نظرا لضيق الوقت. لكنه ألح علــى لقاء منفرد بيننا. وحين وصل إلى الفندق قــال إنه يريد تقديم هدايا لنا ويرغب أن تكــون عربونا على الاحترام. أعطاني نسخة بديعة من القرآن لم أر مثلها في حياتي، وهي نسخــة مطبوعة خصيصى للرئيس الأسد. وكتب داخلها كلمات تشجيعية بالعربية. وقدم هديــة إلى كل عضو من فريقي، كتب عليها رسائل تعبر عن السلام والبركات الروحانية. كان التأثر واضحا على هيلي، حيث كتبت تقول:

اختــار لكل منــا كتابا خاصــا به، وخصنــي بكتــاب بالإسبانية. كتــب داخل الغلاف الخارجــي رسالة تعبر عن الأمــل بمستقبل العالم والعمل الذي نقوم به. وقال إن حبنا لله والإنسانية هو الأمل الوحيد وأنه يدعو الله أن استمر في العمل من أجل السلام. لقد أثبت الشيــخ فرفور، وإعجاز، وعدد لا يحصى ممن التقينا بهــم في الرحلة أن السبيل لمحاربة التعصــب والكراهيــة في عالمنــا هو التراحــم والإحسان والحــب لا الإقصــاء والاستبعاد والكره. وهكذا، يجب علينا مقاربة العالم لا من موقع الخوف كما فعلت قبل هذه الرحلة،

بـل من موقع الحـب والصداقة الذي أرى العالم منه الآن. مـن الممكن ذلك، لكنه يتطلب تغييرا جذريا في أسلوب تفكيرنا وطريقة تصرفنا كقوة عالمية. فإذا استطاع ثلاثة طلاب (أمريكيـون) مع أستاذهم إحداث مثل هذا الفـارق، ماذا يمكن لحكومة وأمة برمتها أن تفعل بقوة التراحم والتعاطف والحوار؟

قـد يفكر المسلم بنمـاذج أجمر وديوباند وعليكره بطـرق مختلفة في لحظات متباينة أو حتـى متزامنة مـن الحياة. والانتقال من نمـوذج إلى آخر يعتمد علـى نمو الشخصية والظـروف المحيطة والفرص المتاحة. في حالتي أنا بالـذات، كان الانتقال والحركة جزءا مـن مسيرة حياتـي؛ وفي حالة إعجاز، حـدث تغير مميز في الوجهـة. العوامل الخارجية الطارئـة والمواقـف المجتمعية العامة تؤثـر في تدفق وشعبية هذه النمـاذج داخل الأفراد. وهذا يجعل من المهم جدا معرفة ما هي العوامل المؤثرة في المسلمين في شتى أنحاء العالم وفي اتباعهم النموذج القائم على الحب والتعاطف وقبول الآخر.

استخدام معارف الحكماء في عصر العولمة

مـع انتقـالي من مرحلـة إلى أخرى في الحيـاة وترحلـي في العالم والتطـور الروحي الـذي شهدته، اكتسبت نوعا من الرؤية لأفضـل سبيل يسير عليه أولئك المهتمون بتحقيق السـلام. قابلت على الطريق العديـد ممن لا ينتمون إلى ديني وثقافتـي، لكنني بادلتهم الاحترام والإعجاب. هذه العلاقات قادتني إلى منظور جديد آخر: وجدت أن البطلين في نظـري، اورانغزيب ومحمد علي جناح، يجسدان صيغا من الإسلام ما زالت تمثل حواجز تعيق الفهم. اورانغزيب كان مغاليا في "إسلاميته" الاستبعادية، ومحمد علي جناح فشل، مـع قبولـه بنفـوذ وتأثـير "ويستمنسـ " في سياستـه، في تقديـر قيمة البعـد والطبيعة الروحانيين للثقافات الأخرى.

وخلال جهدي المبذول لتشجيع السلام والحوار بين الثقافات، تبين لي أن نموذج أجمر يفتقر إلى الشكل المحدد وتفسيره يغالي في الشخصنة إلى حد أن إفراطه في الخصوصية يمنعـه من مواجهـة ضغوط النزعـة الاستهلاكية المتفشية في هذا العصـر. افترضت أن سبيـل التقـدم الوحيد يكمن في ترويـج وتشجيع نموذج عليكره. فعلـى الأقل يتمتع بميزة قدرته العملية، ويمكن فهم إطاره المرجعي من المسلمين والغرب على حد سواء. واعتقدت

أن بمقدور نموذج عليكره في نهاية المطاف، كما فعل محمد علي جناح، المساعدة في إيجاد شعور بالوطنية العصرية. وفي حين أن هذا النموذج ربما يروج لغة التجارة والسياسة الدولية، فإن الوطنية - بالتعريف - توجد حواجز معيقة تقصي وتستثني الجيران ومن ثم تمنع الفهم الحقيقي والسلام الدائم بين الثقافات. في مواجهة العولمة، توضح أن نموذج عليكره يمتلك إمكانية إنتاج الحكمة والعدالة، لكنه يفشل في إنتاج التراحم والتعاطف، الطريقة الوحيدة الأكيدة لجمع الحضارات معا في علاقة صداقة. والطلاب الذين التقاهم فريقنا في عليكره ربما كانوا يتحدثون الإنكليزية بطلاقة ويقرؤون توماس فريدمان، لكن قلة منهم تعمقت في الحضارة التي تواجههم، ولم تصل إلى حد قراءة نثر توما الإكويني وشعر القديس فرانسيس، أو حتى مسرحيات شكسبير. ولم تتمكن من التواصل معها لا روحيا ولا ثقافيا. ومثلما هو مطبق هذه الأيام، اختزل نموذج عليكره إلى الخنوع إلى الصفقات التجارية السطحية والمنتجات الاستهلاكية الزائلة. بكلمات أخرى، فشل نموذج عليكره في عقد الصلة الروحية الضرورية بين الثقافات.

إذا كان نموذج عليكره يعاني نقائص وأخطاء وعيوبا، فكذلك حال نموذج ديوباند، حيث تسهل إثارة مشاعر الغضب والحماسة العاطفية بين أتباعه. ولا يمكن أن يعمل بفاعلية في عصر العولمة إلا إذا بدأ بالتغيير. إذ لا يستطيع المسلمون البقاء في جزيرة معزولة وسط بحر من الثقافات والديانات المتنوعة. وباعتبار البشر ينتمون إلى حضارة عالمية، فهم الآن أكثر قربا وأشد اعتمادا على بعضهم بعضا بحيث يستحيل عليهم ترف تجاهل وإقصاء الآخرين. يجب على نموذج ديوباند مقاربة الديانات والمعتقدات الأخرى عبر قبولها والتعاطف معها إذا أراد المسير قدما إلى الأمام. وأظهر واحد من أكثر أبنائه إخلاصا ووفاء (إعجاز قاسمي) أن ذلك أمر ممكن.

ومثلما يقيم نموذج عليكره حدودا سياسية، يضع نموذج ديوباند حدودا دينية. ولا ريب في أن جميع من يطوقون أنفسهم بالحدود - مسلمين كانوا أم غير مسلمين - على أسس وطنية أو دينية يقصون ويعزلون أولئك الذين يعيشون على الجانب الآخر. ومن السهل أن ينحط هذا العزل الإقصائي إلى درك اللامبالاة بآلام وتباريح الآخرين، وكثيرا ما يصل إلى حد العنف ضدهم. أتباع نموذج أجمر وحدهم - مسلمين وغير مسلمين -

يؤمنــون بالرابطــة الإنسانية المشتركــة ومن ثم يقدرون على العيشــ بارتياح مع الآخرين والتكيف معهم والتعلم منهم. هذا هو الدرس العظيم الذي نتعلمه من تاريخ العالم والمأزق الراهن. وإلا كيف تستطيع الحضارة العيش بسلام وتناغم في المستقبل؟.

يستحضر هذا كله فكـرة وممارسة قبول الآخر وفقا لنموذج أجمر العالمي الشمولي. ولا يعنــي ذلـك القـول إن مشـكلات العـالم سـوف تحـل آليـا بواسطة الجانـب الحالم والروحاني من نموذج أجمر، الذي يتعرض أحيانا للإغراء المحفوف بالخطر للانسحاب من المجتمع كليا. ومن الواضح أن طبيعة النموذج القائمة على قبول الآخر يجب تدعيمها بالالتزام والحماس اللذين يمكن أن يوفرهما نموذج ديوباند، إلى جانب المهارة والبراعة في التفاوضـ مـع الحكومات والمنظمات والأحـزاب السياسية، وهي مـن السمات المميزة لنموذج عليكره.

تكمـن قوة نظـرة نموذج أجمـر إلى العالم في امتلاكهـا روح القبول ذاتهـا المتأصلة في التقاليـد التراثيـة الأخرى. فالنصوصـ اليهوديـة، والإنجيل، والقـرآن، والنصوص الهندوسية المقدسة، ونصوص السيخ المقدسة، وأقوال كونفوشيوس وحكم بوذا – تجاوزت تعاليمهـا كلها إطار الطقوس الشعائرية والعبادية. فقد علمت البشر كيف يخترقون عمق رسالتهـا ويبحثون عـن موضوع أساسي وجوهـري ومشترك في كل منهـا: أهمية فضائل العـدل والإحسـان والعلم بوصفها ترياقـا للسموم التي أصابت ببلائهـا المجتمع البشري وشوهته وضللته. المسألة تتعلق فقط بالبحث عن الفهم والروح الحقيقية للدين.

تبدو المشكلات الرهيبة الناجمة عن الفقر، والانفجار السكاني، والاحتباس الحراري، وأعمال القتل بدوافع دينية وإثنية في شتى أنحاء العالم، مستحيلة التفسير والتبرير في هذه المرحلـة من التاريخ، لأن الحضارة العالمية ورثت ميراثـا غنيا من الفكر الروحي. ولربما نتسـاءل: هل يمكـن للركائز الفلسفية النظريـة التي أوجزناها في هـذا الكتاب أن تقدم العـون والمساعدة؟ الجواب، كما أعتقد، هو أنها ليسـت قادرة فقط على تقديم المساعدة في السمو بالنفوس والأرواح بطريقة مباشرة وشخصية، بل يمكنها الارتقاء بالجدل على المستويـين الوطني والدولي حول هـذه القضايا العالمية تحديدا. لكن ذلك سيتطلب جهدا دؤوبا ومثابرة على المدى البعيد والقريب.

يجب أن تأخذ الحلول في الحسبان ارتباط بلدان وسكان العالم ارتباطا وثيقا، وحقيقة أن كل ما يجري في الولايات المتحدة يحدث تأثيرا فوريا تقريبا في العالم الإسلامي، والعكس صحيح. وإلى أن تتمتع المجتمعات بالعدالة أو أن تعد نفسها كذلك، سوف يستمر الغضب بنشر سمومه وبثها في أرجاء العالم كافة. لقد رمزت أحداث الحادي عشر من سبتمبر إلى غضب المسلمين، الذي استفز غضب الأمريكيين. كان الغضب هائلا على حجم المأساة والضحايا الأبرياء بحيث أصبح من المستبعد، ومن غير المنطقي، توقع تعاطف وتراحم وتفهم الأمريكيين آنذاك. فهذا يناقض الطبيعة البشرية ذاتها. لكن لو ساد التفكير الهادئ المتروي لتمثلت المهمة الأولى في القبض على المجرمين والمتآمرين ثم تعزيز التعاطف العالمي مع الولايات المتحدة الذي عبر عن نفسه بأسلوب عفوي وتلقائي - حتى في البلدان المعادية لأمريكا مثل إيران - ليتحول إلى حركة تستهدف تحسين وضع المستقبل المشترك للكوكب الأرضي.

تمثلت ردة فعل جورج بوش على مأساة الحادي عشر من سبتمبر في الغضب لا في التعاطف أو التراحم أو الفهم. إذ قال بعد بضعة أيام مخاطبا الجلسة المشتركة للكونغرس: "لقد تحول حزننا إلى غضب، والغضب إلى عزيمة وتصميم"، فاستقبل بعاصفة مدوية من التصفيق. وبذلك تجاوز انتهاك بوش مجرد تحذير بوذا من سم الغضب، لأنه رفض وصيتين مركزيتين من وصايا المسيحية: "لا تقتل!" (الوصية الموروثة عن موسى)، و"فليحب بعضكم بعضا" (الموروثة عن المسيح ذاته). ومنذ ذلك الحين، سوف يوجه غضب بوش إلى كل من يرغب في اتهامه بـ"الإرهاب". هذا النمط من التفكير سيتحول إلى سياسة خارجية للولايات المتحدة، التي ستختزل ضمن شعار بسيط: "إما أن تكونوا معنا أو مع الإرهابيين". أما حجج بوش التي قدمها ليثبت أنه يخوض "حربا عادلة" بالمفهوم المسيحي - بل استخدم تعبير "الحرب الصليبية" - فقد رفضها حتى بعض المسيحيين. إذ أعلن البابا يوحنا بولس الثاني أن الحرب على العراق ليست حربا عادلة: إذ لم يكن الأفغان والعراقيون متورطين في حرب على الولايات المتحدة. بدلا من ذلك، كان على الولايات المتحدة استهداف "القاعدة" وإحضارها إلى العدالة.

سـوف يشن بوش واحـدة من أكثر حروب التاريـخ بعدا عن التكافـؤ والتعادل، حيث استخـدم أحـدث تقانـة عرفها الإنسـان ضد بلديـن مسلمـين صغيرين يعانيـان الفقر وانقسامـات وتصدعـات عميقة: أفغانسـتـان والعراق. فقد مزقـت كلا منهما النزاعاتُ الإثنية والصراعـات السياسية، وتطلع شعبه، بملايينه التي تعيش على حافة الجوع، إلى الولايـات المتحدة طلبا للعـون والصداقة. ثم صدم بالهجوم الذي شن عليه فقتل الآلاف، فضـلا على تعرض الكثيرين للتعذيـب والإذلال الجنسـي. الكابوس الـذي خلقه جورج بوش لهـذه المجتمعات الإسلامية سوف ينتشر بسرعة ليصيـب أجزاء أخرى من العالم، ومنهـا مجتمعه هو. ومع أن الأمر تطلب وقتا ليدرك الأمريكيون الحقيقة، إلا أنهم وجدوا أنفسهـم في نهايـة المطـاف على منحدر زلق يمكـن أن يؤدي إلى تعليـق العمل بالحريات المدنية، وترصد العالم، وعصاب جنوني، وكراهية الآخرين، مع نقاش مفتوح عن "اعتقال واحتجاز" المسلمين في الولايات المتحدة. تلقى التعذيب الدعم والتشجيع، وقاد نائب الرئيس حملة مؤيدة لاستخدامه، خصوصا التعذيب بالماء، وكممت أفواه المنتقدين[3]. أما الحجة السائدة فكانت: يجب هزيمة الإرهابيين مهما كان الثمن. وغذى مزاج الغضب الذي عبر عنـه بوش بطريقة مباشرة وقوية أفعال وتصرفات الإدارة ووسائل الإعلام الكبرى، التي استثارت مشاعر الخوف وانعدام الأمن والأمان لدى الشعب.

بعـد عدة سنوات على الحادي عشر من سبتمبر، عمل صناع الرأي العام في الولايات المتحـدة، ومنهم مقدمو البرامـج التلفزيونية، الذيـن استعرضـوا أفكارهم تحت عباءة التبحـر في العلم والمعرفة، على الترديـد الببغائي لمخاوف الإدارة من وجود هجوم وشيك ومحتوم على الولايات المتحدة، وتعاظم خوف الأمريكيين من تعرضهم لخطر وشيك فزاد غضبهـم لأن تغييرا كبـيرا أصاب حياتهم. وترك الأمـر إلى المهرجين والممثلين الهزليين لإعادة شيء من المنطق الواقعي إلى الساحة، والإشارة، خصوصا بعد غزو العراق، إلى ما كان خاطئا وظالما وسخيفا وعبثيا في التطورات التي حدثت حولهم. بدأت الأصوات ترتفع بعد الأخبار الكارثية القادمة من العراق ولم يعد بالإمكان وقفها، وسرعان ما تحول الناس إلى جـو ستيوارت وستيفن كولـبرت (على "كوميدي سنترال") للحصـول على الأخبار. أشعر شخصيا بالامتنان لمعرفة أن الأمريكيين ما يزالون يحتفظون بروح الدعابة الشهيرة لديهم، وذكائهم الحاد، وتعاطفهم مع المضطهدين والمستضعفين.

لا يمكن لأحد منا توقع ردة فعله على المأساة الشخصية الموت المفاجئ لزوج أو ابن أو حتى قريب. وحين تصيب مأساة كهذه مجتمعا برمته، تتعاظم وتكبر وتتضاعف، فإن سببها أعداء تقليديون، تعبر ردة الفعل السائدة عن الغضب بقدر ما تعبر عن الكره، لكن البشر قادرون على الاستجابة لأسوأ أنواع العدوان بالإحسان والتعاطف وكرم الأخلاق. برأي الكتّاب، ليست هذه الاستجابات المعبرة عن سماحة النفس الإنسانية سوى سمة من سمات "الأولياء والصالحين"، وفي نظر الشعراء هي "ومضات سماوية وربانية". أحداث الحادي عشر من سبتمبر أنتجت العديد من الأمثلة على هذه السمات والومضات. منظمة "أصواتنا معا" برئاسة ماريان سكوت الناشطة التي لا تكل ولا تمل، أسسها أولئك الذين فقدوا أقاربهم في ذلك اليوم المشؤوم (www.ourvoicesto-gether.org). ومن مشروعات المجموعة بناء مراكز تعليمية وتثقيفية في أفغانستان. ولأنها تدرك أن أعضاء "القاعدة" وأسامة بن لادن عاشوا بين الأفغان، فقد أرادت تحويل الغرباء والأعداء إلى أصدقاء. جوديا بيرل بعث بإشارة مشابهة أيضا حين عرض علي الحوار ثم الصداقة مع علمه بأنني باكستاني الأصل. وعلى الرغم من أن ابنه الحبيب قتل في باكستان، إلا أنه غالب نفوره الطبيعي من أولئك الذين ارتكبوا هذه الجريمة ليتواصل مع أفراد الأمة ذاتها التي خرج منها القتلة. والحوارات التي أجريناها معا منذ عام 2003 ساعدت في تشجيع الفهم اليهودي - الإسلامي المتبادل وفي بناء الجسور بين أتباع الديانتين.

أظهر السياسيون أيضا أن بمقدورهم الارتقاء فوق الأهواء البشرية المشتركة وبلوغ مستوى أخلاقي رفيع وسام عبر الإصرار على التعاطف والتراحم والإحسان والعدل في وجه أعمال القتل والتدمير الهائلة. غاندي ونهرو ومحمد علي جناح ثلاثة من رجال الدولة هؤلاء. ففي صيف عام 1947، ذبح الهندوس والمسلمون والسيخ بعضهم بعضا في جنوب آسيا: قتل مليونا شخص ونزح قرابة خمسة عشر مليونا من بيوتهم ليجدوا بيوتا جديدة في أرض جديدة[4]. لكن وقف كل واحد من هؤلاء الثلاثة بثبات في وجه العنف الطائفي حتى وإن كان ذلك يعني تحدي طائفته. في مناسبات عديدة، لجأ غاندي إلى الصوم حتى الموت إلى أن يوقف الهندوس أعمال الشغب ضد المسلمين في الهند:

وأعلـن نهرو أن أمته أصابها "الجنون" وأمر إدارته كلها بكبح جماح العنف باعتباره أهم أولوياتها؛ وألقى محمد علي جناح، على الجانب الآخر من الحدود في باكستان، وهو يرى حشدا من الغوغاء المسلمين الغاضبين يحاصرون جماعة من الهندوس في كراتشي، ألقى بنفسه وسطهم لوقف العنف وأعلن: "سأجعل نفسي الحامي والنصير للأقلية الهندوسية في باكستـان"[5]. ونتيجة لذلك، تعرضـ الزعماء الثلاثة للتهديد من طوائفهم. في نهاية المطاف اغتال غاندي رجل اشتكى دعمه وتأييده للمسلمين.

ثمة عدد لا يحصى من الأمثلة التي يجسدها اليهود والمسيحيون والمسلمون والهندوس، شيبـا وشبانـا، رجـالا ونساء، تثبت وتبـين طاقة البشر علـى بلـوغ ذرى أخلاقية سامقة في أصعـب وأقسـى الظروف. هكذا يتحول الأفـراد العاديون إلى شخصيـات استثنائية، فيدخلون التاريخ ويصبحون جزءا من التراث الشعبي والأسطورة.

لكن للأسف، لم يظهر زعيم استثنائي غيري يقود الولايات المتحدة بعد الحادي عشر من سبتمبر. ولم تخمد حدة الغضب الهائل الذي هيمن بعد ذلك اليوم الكارثي، وما يزال مستمـرا في التأثير في حكم قادة الولايات المتحدة وحكمـة مواطنيها. ونتيجة لذلك، فإن مؤسسـات الديمقراطية وحقوق الإنسان والحريات المدنيـة، التي تقدر قيمتها مجتمعات عديدة في العالم، معرضة للخطر ومصابة بالضعف والوهن. إن تجاهل المثل العليا للآباء المؤسسين بذريعة الحرب إنما هو خيانة لا لرؤيتهم فقط بل لمستقبل الاتحاد أيضا.

كان علـى الولايـات المتحـدة، خصوصا وأنها أمـة فتية نسبيا وقويـة، صياغة فلسفة جديدة تجاه الحضارات الأخرى. ولأنها تتعامل مع الدول الإسلامية ذات الطبيعة المتنوعة اجتماعيا وسياسيا، فهي بحاجة إلى تقدير أهمية الفوارق بين هذه المجتمعات دون إبطاء. المسلمـون يشتكون على نطاق واسـع غياب العدالة، والفساد المستشـري، وانهيار القانون والنظام. وكثيرا ما دعمت الولايات المتحدة التدخلات العسكرية دون أن تدرك كم يشجع هذا الدعم الاضطراب والفوضى، أو حجم آثاره السلبية داخل البلد المعني.

ربمـا يكمن أحـد أسباب رد الولايـات المتحدة في أن صنـاع وراسمـي السياسة فيها يميلـون إلى عـدم التركيـز على الأهـداف بعيـدة المدى والاكتفـاء بالاهتمـام بالحالات الطارئـة الفورية، وهـذا يشجع على اتخـاذ مقاربة عاطفية وجوانية أكـثر منها منطقية

وعقلانيــة. إضافة إلى ذلــك، ربما تكون السياسة الخارجية الراهنــة متأثرة بالرغبة في الفــوز بالانتخابات القادمة بعد أربع سنين. وكلا العاملــين يمنع الزعماء الأمريكيين من الحوار مع ممثلي نموذج ديوباند، حتى إن انتخبوا ديمقراطيا، كما هي الحال مع حماس أو أحمــدي نجاد. وبتجنب هذا الحوار، لا تتجاهــل الولايات المتحدة أصواتا تمثل شرائح واسعة من المجتمع الإسلامي فقط، بل تعزز مكانتهم إلى درجة تتجاوز قيمتهم الحقيقية. وعبر رفض العمل معهم تصيب المسلمين من أتباع نموذج ديوباند الذين يرغبون فعلا في العمــل مع الولايات المتحــدة بمزيد من الإحباط وتزيد غضبهــم، ومن ثم يصبحون أكثر ميــلا إلى الانضمــام إلى صفوف المؤيديــن للقيام بأعمال عدائية ضدهــا. هناك العديد مــن أمثال إعجــاز (في نموذج ديوبانــد) الذين يمكن إقناعهم بالحــوار بتعديل نظرتهم تجاه الأمريكيين، كما بينت الرسالة الإلكترونية التي بعث بها رئيس قسم اللغة الإنكليزية في جامعــة ديوبانــد (حزيران / يونيو 2006): "التقيت بك عنــد زيارتك لدار العلوم في ديوباند.. كانت تلك من أسعد لحظات حياتنا. تأثرنا تأثرا بالغا بكم جميعا".

يمكن لصناع وراسمي السياســة والديبلوماسيين الأمريكيين العمل مع أنظمة نموذج ديوبانــد لترويج المعايير الأمريكيــة القائمة على العدالة والمســاواة وحقوق الإنسان، لكن ذلك لن يتم إلا بالحوار. إن زيارة الباحثين والأكاديميين والديبلوماسيين الأمريكيين إلى المساجد والمدارس الدينية وقيامهم بمحاولات جادة لإجراء الحوار يمكن أن يحدث تأثيرا مهمــا. الحوار لا يمنع الولايات المتحدة من اتخاذ إجراءات عقابية بحق المدانين بارتكاب أعمال العنف، لكن يجب التمييز بطريقة دقيقة بين المذنبين فعلا والأبرياء حقا. وهنالك حاجــة للبحث عــن الحقيقة قبل إصدار الاتهامات بحق "الأنظمــة الإرهابية" أو الإعلان عــن "مؤامرات إرهابيــة"، ثبت فيما بعد أنهــا زائفة. وحتى في حالــة "مقاتلي الأعداء" الأفراد، من المهم احترام الإجراءات القانونية التي يجب أن تكون سريعة وملموسة بحيث يعرف العالم أن العدالة الأمريكية لا تشوبها شائبة.

الحقيقــة والعدالــة من المثــل الأمريكيــة. ولا يمكن للتلفزيــون أن يحل محــل الواقع الحقيقي. ويجب على الأمريكيين ألا يرضوا ويقنعوا بإبعاد أنفسهم عن الظلم الذي يصيب العــالم ببلواه. الأسئلــة التي يجب أن يطرحها جميع الأمريكيين هــي: ماذا يعني أن تكون

الولايات المتحدة أقوى دولة على وجه الأرض؟ هل يعني ذلك حيازة واستخدام الأسلحة الفتاكة التي تقتل الأبرياء الذين يعيشون في القرى والأماكن النائية من العالم؟ هل يعني بناء ذهنية القلعة الحصينة لأمريكا؟ أم يعني تطوير مؤسسات اجتماعية وسياسية لتنوير وتثقيف ومساعدة البشر كلهم؟ بوصف الزعماء الأمريكيين القادة الأخلاقيين والسياسيين للكوكب الأرضي، يجب أن يحاول الأمريكيون حث حضارات العالم الأخرى على التصدي للمشكلات العالمية المشتركة. ولا يمكن لقوة أخرى أن تؤدي هذا الدور.

عند التعامل مع العالم الإسلامي، يحتاج المعلقون ومخططو السياسة الغربيون إلى فهم النماذج الثلاثة في السياسة الإسلامية. ومثلما كررنا في فصول هذا الكتاب، خضعت زعامة العديد من المجتمعات الإسلامية لهيمنة نموذج ديوباند، الذي كانت له اليد الطولى بسبب عجز الدولة الإسلامية الحديثة عن توفير الأمن والأمان لمواطنيها، أو المبالغة في تشديد الإجراءات الأمنية القائمة على أساليب الترهيب والتخويف، أو فشلها في توفير الخدمات الأساسية مثل الرعاية الصحية المناسبة والتعليم. في أوقات الأزمات الوطنية، أخفقت بعض الدول حتى في ضمان سيادة ووحدة أراضيها. وما يعادل ذلك في الأهمية، أن معظم الدول الإسلامية لم تغرس في مواطنيها الشعور بالاعتزاز الوطني والهوية الوطنية، وهو من العوامل التي كانت ستنشط المسلمين وتزودهم بالطاقة والحيوية عند الاستقلال عن القوى الاستعمارية الغربية قبل نصف قرن. وحين يشعر شعب بأن حكومته لم تعد تتصل بطموحاته وتطلعاته، يقاطعها ويبتعد عنها بمعنى أنها تصبح تعبيرا لا شرعيا ومصطنعا عن إرادة الغرب. المثال على ذلك باكستان برويز مشرف، التي تحولتفي أفضل الأحوالإلى نسخة مشوهة من نموذج عليكره، وتملأ أتباع نموذج أجمر باليأس والإحباط، وتثير حنق وغضب أتباع نموذج ديوباند.

ملأت القيادات التي تتبنى نموذج ديوباند الفراغ الذي خلفه فشل الدولة. إذ لم تكتف بتوفير مرافق الرعاية الصحية والتعليم، مثلا، بل أصبحت في حالات كثيرة المدافع الوحيد عن الأمة في وجه القوى الأجنبية - مثلما فعل حزب الله حين صد العدوان الإسرائيلي على لبنان عام 2006، وكما فعل العراقيون والطالبان حين عرقلوا وأبطأووا آلة الحرب الأمريكية. لقد زادت هذه الإنجازات المتحققة في وجه أعتى جيش في الشرق الأوسط

وأقـوى جيش في العالم ألق وبريـق ومصداقية نموذج ديوباند. وبالمقابل، بدت الحكومات التـي تميل إلى نموذج عليكره ضعيفة يكتنفهـا الغموض وعدم اليقين، إلى حد الانفصال عن الواقع تقريبا.

ومثلمـا أوضحت تكنولوجيا المعلومات الحديثة للمسلمـين العاديين، استسلم الرئيس مشـرف، قائد واحد من أقوى الجيوشـ في العالم الإسلامي والمجهـز بالأسلحة النووية، وتراجـع علـى الفور أمام الغضـب الأمريكي بعد الحادي عشر مـن سبتمبر، في حين كان مـا يدعى بالمتمرديـن والانتحاريين على استعـداد للتضحية بكل شـيء في سبيل أرضهم وشعبهـم. ومـع أن الكثيرين ربما لا يوافقون علـى أعمال العنف التي يقـوم بها إخوانهم المسلمـين، لأنها تقتل من الأبريـاء أكثر من الجنود في الميـدان، إلا أنهم يعجبون ويقرون بشجاعـة وإخلاص والتـزام هؤلاء المستعدين للتضحية بحياتهـم. بيت الشعر الذي كتبه روديـارد كيبلنغ عـن الجنود البريطانيين الذيـن قتلهم رجال القبائـل المسلمون: "ألفان مـن الجنيهات على التعليـم/ تبددها بارودة عتيقة بعشر روبيات"، يجد صداه في أجهزة التفجـير المحلية الصنع والرخيصة والمتوفرة، التي أثبتت قدرتها الفتاكة وأوقعت خسائر جسيمة في صفوف الجنود الأمريكيين.

ارتكب الأمريكيون خطأ قاتلا في خوض الحرب على الإرهاب عبر إحياء استراتيجية استخدمت في الحـرب الباردة مع الاتحاد السوفييتي. فهذه المقاربة لا تأخذ في الحسبان تعقيـد المجتمـع الإسلامي. إذ يلتزم المسلمـون جميعا دينهم، بغض النظر عن النموذج الـذي يتبعونـه، وسـوف يدافعون عنـه، وبالتوسع عـن وطنهم، بطرائـق مختلفة ضد ما يعدونـه هجوما من الخـارج. وعلى العكس من ذلـك، فقد المواطنـون السوفييت، الذين تعرضـوا لإرهاب نظام وبنيـة الدولة برمتهـا فأصابهم الإحباط وخيبـة الأمل، إيمانهم بإيديولوجية الدولة، حيث لم يكن انهيارها محتوما بل أدى إلى شعور عام بالارتياح أيضا. لقـد فشل أولئك الذيـن أملوا بالتوصل إلى نتيجة مشابهة عـبر الحملات العسكرية على العـالم الإسلامي بعد الحادي عشر من سبتمبر، في إدراك حقيقة أن المجتمع الإسلامي، المدعـوم بالإسلام، سـوف يهب لمواجهة التحـدي أمام ما بدا أنها حملـة تستهدفه. هذا يعني أن الإسلام نظام كلي ومتكامل، وأجزاؤه المختلفة تؤدي دورها في أوقات مختلفة من

التاريخ للحفاظ على الكل، كالجسد الذي إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالحمى والسهر.

لقد أدت المقاربة الغربية، التي انحدرت إلى مستوى إدانة الذين يميلون إلى نموذج ديوباند بوصفهم إرهابيين ورفضت الحوار معهم، إلى سياسة غير واقعية ومحكوم عليها بالفشل الذريع. ولأن العديد من المسلمين متأثرون بنموذج ديوباند، يحتاج الغرب إلى ابتكار طرق جدية للحوار مع القادة الذين يتبنون النموذج. ويحتاج أيضا إلى تشجيع ودعم الصيغ الحقيقية من نموذج عليكره بطريقة نشيطة وفعالةأي دعم الديمقراطية غير المقيدة، لا تلك الصيغة التي تأتي تحت قناع الديكتاتورية العسكرية. وعلى الغرب أيضا البحث عن / وتعزيز نموذج أجمر لأنه يوفر منطلقا أصيلا ودائما للفهم العالمي المتبادل.

من جانبهم، يحتاج المسلمون إلى مراجعة النماذج الثلاثة مع التركيز على تكييفها لتلائم العصر، عصر العولمة الذي نعيشه. الإسلام يشجع كل فرد على النضال لبلوغ مستوى روحي أعلى. هذا المسعى يدعى - كما ذكرنا آنفا - الجهاد، الذي يعني حرفيا "السعي والمجاهدة". لذلك يحتاج المسلمون إلى إعادة اكتشاف الجهاد، لتحسين حياتهم بالمعنى الروحي، فهذا هو "الجهاد الأكبر"، مع العمل بهمة ونشاط على نقض وإبطال التفسير الذي يساويه بأعمال العنف، "الجهاد الأصغر"، حتى في حالة الدفاع عن النفس. المسلمون بحاجة إلى إدراك حقيقة أن أكثر "الأسلحة" مضاء وفعالية لمعالجة مظالمهم وشكاويهم هي العلم والمعرفة والعقل، لا القوة الغاشمة. عليهم إحياء مُثل الاجتهاد، الذي يسمح بالتفكير الإبداعي الخلاق للتواؤم مع الظروف والاحتياجات الجديدة للمجتمعات الحديثة، مثل حقوق المرأة، والأقليات، والمحرومين. ولا بد من تقليص مدى الولاءات القبلية في سبيل التعاون في عالم أكثر اندماجا وتكاملا. ويجب فتح المراكز التعليمية ودعمها من الحكومات لإحياء المثل الإسلامية.

وعلى القدر ذاته من الأهمية، يجب رفض كل عذر تبريري لتجاهل المثل القرآنية القائمة على العدل والإحسان والتراحم والحكمة. وعلى الزعماء المسلمين السعي ليكونوا على مستوى رؤيتهم للمجتمع المثالي. فالعديد من الحكام العرب يستخدمون ذريعة

إسرائيلبطريقـة مباشرة أو غير مباشرةلتجنب السير نحـو الديمقراطية إلى أن "تحل" تلـك المشكلـة. وفيمـا يتعلق بالسياسيـين وضباط الجيش في باكستان، تصبـح الذريعة كشمـير و"التهديد" الهندي، حيث يستغلونهـا لتأخير إدخال ديمقراطية حقيقية والتزام حقوق الإنسان والحريات المدنية. وكثيرا ما يستحضر الزعماء المسلمون "عدوا" ما لتبرير تعليق العمل بالقانون المدني وفرض إجراءات وأنظمة قاسية واستخدام الأساليب الوحشية. حتـى الزعماء في الولايات المتحدة وبريطانيا بدؤوا الاعتماد على الدوافع التبريرية، مثل التهديدات الإرهابية والأخطار المحدقة بالأمن. وإذا لم ترتق المجتمعات كلها إلى مستوى معاييرها الرفيعة ذاتها وتتوقف عن البحث عن الذرائع والحجج التبريرية للتخلي عنها، سوف تنحدر في نهاية المطاف إلى درك عالم من الإرهاب المشرعن.

مـاذا لـو استجاب العـالم الإسلامي وفقـا لطريقة نمـوذج أجمـر - أو حتى نموذج عليكـره - بعـد الغـزو الأمريكي لأفغانستان والعـراق؟ ضبط النفس هـذا كان سيؤثر في الغـرب ويوجد تعاطفا مع قضايـا المسلمين. لكن كما حدث، أكدت عمليات قطع الرؤوس، والتفجـيرات الانتحارية، والخطاب المفرط في عنفـه - وكلها تنجرف بعيدا عن نموذجي أجمـر وعليكره - القوالب المنمطة الموجودة للمسلمين. وسرعان ما سيبدأ الغرب مساواة العنـف والإرهاب بالإسلام ذاته. والأسوأ أن الغربيين بدؤوا يعدون المسلمين كلهم كائنات يتأصل في تكوينها العطش لسفك الدماء، وهو رأي غذى تنامي حالة الخوف الرهابي من الإسـلام (اسلاموفوبيا) في شتى أرجاء العالم، وازديـاد استخدام التعبيرات الازدرائية والتحقيرية للإسلام والمسلمين. حتى الرئيس بوش استخدم تعبير "الفاشية الإسلامية"، دون أن يـدرك ربمـا مضامينه ومدى الإهانـة التي ألحقها بالكثير مـن المسلمين، وفيهم حلفاء مخلصون له.

مـع أن سموم الجشع والغضـب والجهل ما زالت منذ عهود تصيـب البشر ببلاياها، هناك مـيراث أعظم يتمثل في حكمة الحكماء والعارفين. ومناداتهم بالإحسان والتراحم يمكـن أن تمثل اليوم أداة فعالة لكبح جماح الجشع الذي يحرك الشركات القوية المتعددة الجنسيـات، وحتـى الحكومات التي تستغـل دون رحمة الموارد الطبيعيـة للبلدان الفقيرة وتتجاهـل الحاجات الحقيقية للملايين. لقد أدى هذا الوبـاء القادم في ركاب العولمة إلى

حدوث فجوة هائلة بين بضعة أفراد يعيشون حياة تبذير ورخاء ومتعة وبين الملايين الذين يكافحون لكسب لقمة العيش – أو ما سماه علماء الاجتماع "النهب العالمي"[(6)]. ومثلما يحث نموذج أجمر، يجب على الأمم تعلم العيش على الحد الأدنى كفلسفة حياتية. يجب أن تستخدم الحد الأدنى من القوة والمياه والطعام، إذا أراد أي منها، فضلا على الكوكب الأرضي، البقاء والاستمرار. يجب أن يقبل كل منا الدعوة والتحدي اللذين أصدرهما السير جوناثان ساكس، أحد ابرز الحكماء من رجال الدين في عصرنا، لمعالجة عالمنا المتشظي والمتكسر[(7)].

كذلك علينا نحن أيضا اتباع نصيحة الحكماء التي تحثنا على طلب العلم والمعرفة. ودون ذلك، سيتحول كل فرد بشري إلى عالم مكون منه وحسب. فكل واحد من البشر بحاجة إلى أن يكون أكثر حساسية تجاه ما هو مقدس أو رمزي في ثقافة الحضارات الأخرى. ومثلما يتأثر المسلمون – كحالهم دائما وأبدا - تأثرا بالغا بأي إهانة توجه إلى النبي والقرآن، كذلك يتأثر الأمريكيون بأي إهانة توجه إلى علمهم، الذي يرونه مجسدا لشعورهم الوطني وهويتهم. إن الجهل بالثقافات الأخرى يؤدي إلى أخطاء سياسية محفوفة بالخطر، عند شن الحرب أو عند إجراء مفاوضات السلام. وحين تعرف المجتمعات عن الشعوب والثقافات الأخرى، يستبعد أن تراها معادية أو منقطعة الصلة بها. وما إن تدرك مدى اعتماد بعضها على بعض حتى تتوقف عن الرد على الاستفزاز بمزيد من الاستفزاز.

يجب إضافة العدالة إلى هذه المعادلة، التي ستمنع العنف من توليد القوة الفجة باستمرار. العدل والإحسان معا سوف يلغيان أسباب العنف، وأنا أشجع الأمم كلها على ضم هذه الفلسفة إلى عملية رسم سياستها. إن المجابهات العنيفة المتواصلة في عصرنا يمكن أن تحل إذا أمكن التصدي لها ضمن هذا الإطار. من أشد هذه الصراعات مأساوية ودموية ذلك الذي يحدث في الشرق الأوسط منذ نصف قرن دون أي أمل بالعثور على حل له بسبب إدراك الطرفين لغياب العدل والإحسان والتراحم. الأحداث البارزة التي توجد مزيدا من الكراهية والعنف حاضرة وحية في أذهان المتحاربين: غضب المسلمين الذي تفجر في أوائل عام 2007 بسبب أعمال الحفر والتنقيب تحت سور المسجد الأقصى في

القدس (الذي يعبر عن إحساس المسلمين بوجود مؤامرة دنيئة لهدم المسجد) : العدوان الإسرائيلي على لبنان في صيف 2006، حيث ردت إسرائيل على أسر حزب الله لجنديين من جنودها ردا ساحقا وعنيفا وهمجيا؛ القتل والدمار نتيجة القصف الإسرائيلي المستمر لغزة والضفة الغربية؛ وهذا كله دفع العرب للبحث عن مزيد من المجندين لتنفيذ العمليات الانتحارية الإجرامية، وقتل المسافرين في الحافلات والأبرياء في المطاعم.. والقائمة تطول. لقد حان الوقت كي يجلس الطرفان معا كندين، والعمل معا ضمن الأطر الثقافية والدينية لكل منهما - مع أخذ مظالمه وشكاويه بعين الاعتبار - وإقامة سلام دائم بينهما. ففي غياب العدل والإحسان والتراحم، سوف تتسارع حلقة القتل المفرغة لتوقع مزيدا من الضحايا.

لكن يجب أن يتبادل الطرفان كليهما الصداقة والمحبة قبل كسر هذه الحلقة المفرغة. القرآن يؤكد مرارا أن الفرد حين يبلغ عمرا معينا من الاستنارة الروحية، يرتفع الحجاب أو الستار أو الغشاوة عن عينيه ويتمكن من رؤية العالم وحقائقه بكل وضوح، متحررا من الارتباط بالمتع الدنيوية الزائلة، أو الآلام، أو الحاجات الأنانية. وحين تغالب سموم العولمة، تبرز الحقيقة والواقع ويصبح بالإمكان جني فوائدها ومنافعها بأمان وترك تأثيرها المسموم.

لو طلب مني أن ألخص ما تعلمته خلال رحلتي داخل الإسلام في بضع كلمات سأقول: كن مخلصا لمثلك العليا. وهذا يعني فيما يتعلق بالولايات المتحدة التركيز على ممارسة الديمقراطية وتشجيع التعليم والعدالة واستخدام "الحبال الدبلوماسية" لتحقيق هذه الغايات. على سبيل المثال، يمكن للسياسة الخارجية الأمريكية أن تؤكد أن دعمها لباكستان لا تضمنه إلا حكومة منتخبة ديمقراطيا داخل إطار زمني محدد. لقد قدمت الولايات المتحدة إلى باكستان زهاء خمسة مليارات دولار منذ الحادي عشر من سبتمبر (إضافة إلى مبلغ مماثل تقريبا لتمويل الأنشطة المتعلقة بالأمن ومكافحة الإرهاب) ، وكان بمقدورها أن تطلب إنفاق هذه المعونة على بناء المدارس وتدريب المدرسين وترجمة الكتب للباكستانيين، وترجمة الكتب الباكستانية إلى الإنكليزية ليقرأها الأمريكيون، لا على مشتريات الأسلحة. وكان الباكستانيون سيستفيدون من حكمة وبلاغة ورشاقة أسلوب

كتابات فرانكلين وجيفرسون، ويقدر الأمريكيون قيمة الطبيعة الديمقراطية لشخصية محمد علي جناح، والرؤية الشعرية لمحمد إقبال. هذا التغير البسيط في السياسة والوجهة سيضمن إنجاز ما أخفق فيه المسار الحالي: سوف يوجد شعورا حقيقيا بتقدير ما تفعله أمريكا في باكستان لدى الناس العاديين، ويقلص بالتالي خطر التهديد الأمني على الأمريكيين.

التوصية ذاتها أقدمها للزعماء والقادة المسلمين. التزموا قدر المستطاع مثلكم العليا. أكدوا العلم والإحسان والعدل في مجتمعاتكم. في هذا الوقت، تئن شعوبكم تحت وطأة حكمكم لأنها لا تجد هذه المثل مطبقة. ولا يمكنكم، لا أنتم ولا العالم المحيط بكم، منع الأمة من أداء دورها الكامل على المسرح العالمي. وسيكون هذا الدور إيجابيا ومفيدا للجميع حين تحدده هذه المثل الإسلامية العظيمة. أنتم بحاجة إلى أن تتذكروا - مثلما على الزعماء الغربيين أن يتذكروا - أن 25% من سكان العالم الذين سيبلغ عددهم 11 مليار نسمة بحلول عام 2050 (وفقا للتقديرات الديمغرافية الراهنة)، سيعيشون في سبعة وخمسين دولة غالبية سكانها من المسلمين[8].

إن روح التراحم والإحسان والحوار هي التي دفعتني إلى السفر في العالم لاكتشاف الأجوبة عن مشكلات عصرنا. تحدثت مع رؤساء الدول ورؤساء الحكومات، وسألت العلماء والباحثين والطلاب. بحثت في الكنس والكنائس والمساجد والمعابد. بحثت عن الحكمة في أقوال وأفعال الحكماء والعارفين، ولمحت مجد المقدس الرباني في قلوب الأبرياء وأفئدة الأنقياء. رأيت الحب في صلوات الزوار في الأضرحة والمقامات، وطيبة ورقة الغرباء، وترحيب المضيفين. لم يشتت انتباهي زهو وتفاخر وصياح وصراخ رجال - كصبية في مسرحية مدرسية - لا يقنعون إلا أنفسهم. رأيت نفوسا جاهلة تحاصر أولئك الذين يتحدثون عن السلام والتراحم والإحسان. سمعت أصواتا عالية وخشنة تصرخ "ليس الآن" و"ليس هنا". لكنني سمعت أيضا أصواتا عذبة وسط الضجيج الصاخب، تقول: "إن لم يكن الآن، فمتى؟ حان الوقت، حان". سمعت الصدى يتردد في بيوت العبادة، وفي المدن والقرى، وفي الوديان والجبال: لقد حان الوقت.



خاتمة
أمل العالم

كان مـن المناسـب أن تنتهـي رحلتنـا إلى العالم الإسلامـي في الكاتدرائيـة الوطنية بواشنطـن دي. سي، المدينة التي انطلقت منها. تعـد الكاتدرائية واحدا من أشهر المعالم التاريخيـة في واشنطن، حيث تربض على قمـة أعلى تلة فيها، وتشاهد أبراجها من ضفة نهر البوتوماك في فرجينيا. بنيت الكاتدرائية من الحجارة البيضاء والرمادية على الطراز القوطي، وتضم عمارتها الرائعة التي تملأ النفس بالرهبة والخشوع نوافذ زجاجية ملونة مبهرة وأماكن صلاة مزخرفة. النوافذ تصور مشاهد ومناظر أمريكية، وتعرض إحداها صخرة أحضرت من سطح القمر.

دخلتها في أصيل أحد أيام شباط/ فبراير الباردة، حيث حجبت السحب العالية أشعة الشمس. لكنني شعرت بالدفء فيها. كان أسقف واشنطن يقيم صلاة مسائية تكريما لي بعـد أن تم اختياري أستـاذ العام 2004 في واشنطن دي. سـي، في مناسبة غير مسبوقة تجمع بين الأديان.

قمنـا جميعا، أنـا الباحـث الأكاديمي المسلـم، وحاخام يهـودي، وأسقـف مسيحي، بتلاوة نصوص من كتبنا المقدسة، وألقينا الخطب من على المنبر، وتحدثنا عن صداقتنا وتواصلنـا بعضنـا مع بعض في هذه الظروف الصعبـة والعصيبة. نظرت إلى الحاضرين مـن فـوق المنبر وشعرت بانتصـار كرم وسخاء وسماحـة الروح الإنسانيـة وامتلأ فؤادي غبطة وبهجة:

تحظـى هذه المناسبة برأيي بدرجة عالية مـن الرمزية. هنالك الكثيرون في جامعتي يستحقون هذا الشرف غير المسبوق أكثر مني. رمزية المناسبة وحدها تمثل معلما بارزا في الحوار بين الأديان. لنتخيل إعادة للمناسبة: في مسجد في القاهرة أو لاهور أو كوالالمبور، يدعـى فيها عالم بارز يهودي أو مسيحي لحضور صلاة الجمعة ثم يفسح المجال له ليلقي الخطبة. إنها إشارة دلالية عظيمة آمل أن يكررها زعماء دينيون مسلمون.

لذلك أرغب في التأكيد لصديقي، جون وبروس، أنهما زعيمان حقيقيان للحوار، والتراحم، والإحسان، والفهم في عالمنا، وأعرف أنني حين كنت منخرطا في هذا الحوار، تلقيت رسائل سلبية، بل تنضح بالكراهية أحيانا، من أشخاص لا يؤمنون بالحوار. أعلم أيضا أن كلا منكما تلقى ردودا سلبية مشابهة من قومه. في الحقيقة، رأيت الهجوم على الأسقف تحت يافطة: "أول أسقف لليهود والمسلمين في واشنطن". أصدقائي الأعزاء، هذه ألقاب شرف واعتزاز وأنا متيقن أن شخصيات الكتاب المقدس العظيمة التي تلهمنا منذ عهد إبراهيم سوف توجهكم لتمييز روابطنا الإنسانية المشتركة في الأوقات الصعبة والمحفوفة بالخطر. في الحقيقة أريد أن أسجل أنني رأيت وسمعت الأسقف والحاخام يقفان وينتقدان بشجاعة انتهاكات حقوق الإنسان وغياب الحريات المدنية التي وجب على المسلمين غالبا تحملها. هذا هو الإيمان الحق والصداقة الحقيقية.

في أمسية يوم السبت تلك، تجمع سبعمئة شخص للمشاركة في هذه اللحظة المعبرة والخاصة من حوار الأديان. ضم المشاركون طلابا وسفراء ورؤساء حكومات سابقين. وأتى الضيوف من خارج واشنطن - من بالم بيتش، ولوس أنجلوس، وبوسطن. صديق زرادشتي، هو جيمي انجنير، الرسام الباكستاني، قدم من كراتشي للمشاركة في المناسبة. ومن بين أبرز الحضور سفراء مسلمون، وأئمة - منهم الإمام ماجد، رئيس أكبر مركز إسلامي في منطقة واشنطن - ومديرو مجلس العلاقات الأمريكية الإسلامية، والجمعية الإسلامية في أمريكا الشمالية، والأمين العام للمؤتمر الباكستاني الأمريكي. كانوا جميعا مدركين أنهم يشاركون في تجربة استثنائية. العواطف الوجدانية كانت على أشدها وعيون كثيرة اغرورقت بالدمعحتى مراسلة "بي بي سي" دمعت عيناها.

الرمز كان قويا ومعبرا. فعلى الرغم من كل شيء، نحن هنا في الكاتدرائية الوطنية، إحدى أكبر الكنائس في العالم، التي تربض في قلب عاصمة القوة العظمى الوحيدة في أوائل القرن الحادي والعشرين، حيث صلى رئيس الولايات المتحدة، وحيث تعقد المناسبات الرسمية مثل القداس على روح الرئيسين الراحلين رونالد ريغان ثم جيرالد فورد[1].

أتت هذه المناسبة غير المسبوقة للديانات الإبراهيمية الثلاث - اليهودية والمسيحية والإسلام - نتيجة للصداقة التي جمعتني مع شخصيتين روحانيتين بارزتين: الأسقف

جـون تشـان، بضحكتـه الدافئـة وقلبـه الطيـب وكلماتـه الرقيقـة، وكبـير الحاخامين بروس لوستيـغ، رئيس جماعة المصلـين العبرية، أصغرنـا نحن الثلاثة عمـرا وإن تمتع دومـا بالحكمة والحصافـة والاهتمام بالآخريـن. استقبل الأسقـف والحاخام المدعوين بابتسامـات عريضة والتماعة متألقـة في العيون. وبرأيي، يجسـد كل منهما أفضل ما في دينه، وقلبه نقي كأفكاره.



الأسقـف جـون تشان، يستضيف في الكاتدرائية الوطنية في واشنطن مناسبة غـير مسبوقة (صلاة مسائية) تكريما لأكبر أحمـد في شباط/فبرايـر 2005. رحب الأسقـف، والحاخام بروس لوستيغ (جماعة المصلـين العبرية في واشنطـن) بأكبر أحمد وعائلته أجمل ترحيب في الحادي عشر من سبتمبر، حين انتشر الغضب والارتياب بالمسلمين على نطاق واسع.

التقيـت أول مـرة الحاخـام عن طريق زوجتـه آمي، في حفـل عشاء كبـير أقيم بعد الحادي عشر من سبتمبر 2001 بقليل. وحين شعرت أنني تائه لأنني لم أكن أعرف أحدا مـن الحاضرين، قدمتني إلى زوجها، بروس. ولم يمض وقت طويل حتى وجه دعوة إلينا أنا وزوجتي لحضور حفل عشاء ومقابلة الأسقف جون تشان وزوجته اللذين وصلا حديثا. التقينـا تلك الليلة وبقينا حتى ساعـة متأخرة لنكتشف أننا نتقاسم الحماس نفسه للعثور على موضوعات مشتركة في تقاليد وتراث الديانات المختلفة.

نمـت مـن الاهتمام المشترك صداقة متينـة. أطلقنا معا عدة مبـادرات مهمة، منها القمـة الإبراهيميـة الأولى التي استضافهـا بروس وأصبحت معروفـة الآن على الصعيد

الوطنـي باسم "مسيرة الوحدة" التي تعقـد سنويا في الحادي عشر من سبتمبر. المسيرة يقودهـا ثلاثتنا، حيث تبدأ من مركز جماعة المصلـين العبرية، وتتوقف عند الكاتدرائية الوطنية، وتنتهي عند المركز الإسلامي، وينضم إلينا أتباع الأديان كلها.

في تلك المناسبة، صعد الحاخـام لوستيغ إلى المنبر وألقى عظة حماسية استحضرت التعاليم الإبراهيمية بعنوان: "الدكتور أكبر أحمد: ساع إلى الله":

العثـور علـى مثل هذا الشخص النادر أمر صعب. ففي عالم ما بعد الحادي عشر من سبتمـبر، حيث العـادي مشتبه فيه، والخـوف واللامبالاة مهيمنان. وبـدلا من أن نبحث عـن صداقة الآخرين نتجنبهـم ونتحاشاهم؛ شيدنا أسوارا لحمايـة أنفسنا فزاد خوفنا وعزلتنـا. حين عجزنا عـن البحث عن الآخريـن أو الله.. اختار أحمـد، بوصفه متحدرا مـن إبراهيـم، بناء جسور التفاهم والفهـم عندما اختار الآخرون بنـاء جدران الخوف. ولم يفعـل ذلـك بإنكار وتجاهـل الحقائق الواقعيـة القاسية في أيامنا هـذه، بل عبر لقاء الآخريـن، ورغمـا عنهم، في مقابلات مباشرة: "أنا - أنت". وقـف أمام التوراة المفتوحة علـى منبر كينسنا؛ استقدم رجال وعلماء دين من الجالية الباكستانية المسلمة للمشاركة في طقوسنـا (العشـاء في ذكرى الخروج من مصر)؛ شارك في لجان وبرامج تلفزيونية لا تحصـى. من الكنيسة إلى البيت الأبيض بجانـب الرئيس، لم يفوت فرصة دون أن يعلمنا كـي نعرف أن الإسلام الصحيح هو دين السلام. وفي خضـم أصوات التطرف الآتية من كل حـدب وصوب، نعبر عن شكرنـا وتقديرنا لأننا سمعنا صوتا آخر - صوت أكبر أحمد؛ الهادئ اللطيف، المفعم بالحكمة والصدق. في الحقيقة، امتلك أكبر تلك الشجاعة ليقول لا للكراهيـة والعنـف، وللخوف والانعـزال. إنها شجاعة حقة، لأنـه استمر، حتى في زمن الخطر الشخصي المحدق، في قول لا للظلم وبلى للحوار والإيمان بالله.

ثم وقف الأسقف جون تشان، ليختم المناسبة بعظة يوم الأحد، ويملأ صحن الكنيسة بروحانيته الدافئة ووضوحه الأخلاقي:

نمثل نحـن الثلاثة - أنا وبروس وأكبر - الحالمين بمجتمعنا العالمي.. ونمضي أوقاتنا معا نتقاسم الطعام ونتبـادل الحديث على مائدة مشتركة، وتملأ عائلاتنا قلبي بالبهجة والأمل. الأمل بأن يصبح عالمنا، المقسم من أولئك الذين يزعمون امتلاك الحق الحصري

في المعرفـة الصحيحـة والمعصومة برب الخليقة، عالما يمكن للـكل أن يعيشوا فيه بسلام وتناغـم.. نحن نجتمع في هذه الليلـة في هذه الكاتدرائية العظيمة، المكان المقدس للرحلة المقدسـة؛ يهودي ومسيحـي ومسلم، لنذكر بعضنـا بعضا وكل واحد منكـم بأن كل شيء ممكـن بمشيئة الله.. وبإذن الله نؤمن من أعماق قلوبنا بأن وقتا سيأتي على هذه الأرض يتمكن فيه جميع أبناء الله من الاحتفال بذلك السلام الذي يعم العالم.

نحن نعيش في عصر يعاني العالم فيه حالة خطرة من عدم التوازن. ببساطة، لا يمكن الاستمرار كما نحن. أعتقد أن العالم يزداد وعيا بالمصير الإنساني المشترك أكثر من أي وقت مضى. لأننا أخوة في رحلة مشتركة نعبد فيها الله ذاته ونتقاسم بطرق شتى القصص القديمة المقدسة نفسها التي تجمعنا روحيا معا لكنها تعرف تراثنا الديني بوصفه متميزا ومختلفا. قد يبدو هذا الإعلان للكثيرين راديكاليالكنه في رأيي أمل العالم.

الأسقـف علـى حق: هذا هو أمل العـالم. حين أنظر إلى البشر قـد ألاحظ عرقهم أو جنسهـم أو دينهـم المختلف، لكنني أعـرف أن كل واحد منا مقدر عليـه أن يعيش الدورة ذاتها: ولادة، نمو، ثم موت في نهاية المطاف؛ وأننا جميعا نشعر بالألم والسعادة والحزن؛ أعـرف أن قلوبنا تبكي حين يتـألم طفل أو يعاني شيخ عاجز التبريح والوجع. أعرف مدى عمق ارتباط مصائرنا الآن على هذا الكوكب الذي يزداد عدد سكانه ويرتفع عدد فقرائه. أشعر بالوحدة الكامنة في صميم المأزق الإنساني والحزن العميق لما يطغى علينا من جشع وغضب وجهل.

أعـرف أيضا الطيبة والصلاح والحيوية في أفراد كل عرق وأتباع كل دين. وأن هناك أمـلا للمجتمعـات على هـذا الكوكب لتصبـح مجتمعا عالميـا على الرغم مـن أن الوقت ينفـذ؛ لكـن عليها أن تعتنق الحـب بروح أولئك الذيـن تكلموا عنهوأحيانـا عانوهكتعبير عـن الشمولية الإنسانيـة التي تضم الجميع. وفي سبيل السمو علـى حدود العرق والقبيلة والديـن، والاعتـزاز بإنسانيتنـا المشتركة، يجب علـى كل فرد منا أن يتحـول إلى رسالة، تنقلها كلمة بسيطة واحدة: هذا هو أمل العالم.



ملحق
تحليل الاستبيانات

هاديا مبارك

مع فريق "الإسلام في عصر العولمة"

وزعت الاستبيانات في الجامعات والفنادق والمقاهي والمساجد والبيوت في تركيا، وقطر، ومصر، وسورية، والأردن، وفلسطين، والهند، وماليزيا. فبلغ عدد الإجابات في المعدل الوسطي 120 في كل بلد، ووفرت عينة للنماذج المعاصرة والتاريخية التي يحتذى مثالها، كما يلي:

المعطيات الديمغرافية

تراوحت أعمار المبحوثين بين سن المراهقة (مرحلة المدرسة الثانوية) وأواخر العشرينيات. لذلك، عبرت البيانات التي جمعناها عموما عن مدركات وآراء جيل الشباب في البلاد التي زرناها. ونظرا لأننا بدأنا مشروعنا بزيارة الجامعات والمدارس الثانوية، تابعنا هذه المقاربة طوال الرحلة. وعلى الرغم من هذا التحيز لمصلحة الشباب المتعلمين (المنتسبين إلى المدارس)، إلا أننا سعينا للموازنة بين الذكور والإناث من المبحوثين وبين الخلفيات الاجتماعيةالاقتصادية العليا والدنيا. على سبيل المثال، زرنا في عمان ثانوية للنخبة على الطراز الغربي (مدرسة بكالوريا عمان)، ومدرسة مشابهة في باكستان(ثانوية كراتشي للمتفوقين)، حيث يدرس في كلتا الثانويتين أبناء الديبلوماسيين والمسؤولين الحكوميين والطبقة العليا. أما في المدارس الدينية فقد مثل المبحوثون طبقة اجتماعية – اقتصادية أدنى مستوى. أضفنا أيضا جامعات الطبقة الوسطى، مثل جامعة "القائد الأعظم"، وجامعة الأردن، ومعهد أبو النور، وجامعة ماليزيا الإسلامية، وجامعة قطر.

من النتائج اللافتة التساوق بين المبحوثين في اختياراتهم للشخصيات الدينية، على الرغم من أن العينة تمثل تشكيلة متنوعة من المهنيين والشباب المنتمين إلى النخبة

والطبقـات العليـا والوسطى والدنيا. فتلـك التي ذكرها أفراد مجموعـة من الطلاب في مدرسـة دينية ذكرها أيضا الطلاب في المدارس العلمانية. ولذلك، عبرت الإجابات عن إحساس قوي بالارتباط الديني.

النماذج المعاصرة التي يحتذى مثالها

لم يظهـر المبحوثون إجماعا على النماذج المعاصرة التـي يحتذى مثالها. فضلا على ذلك، تبين أن معظم النماذج المعاصرة مرتبطة بالدين أو دينية: غالبية تلك التي اختيرت في العالم العربي اختلفت عن تلك التي اختيرت في جنوب آسيا أو في جنوب شرق آسيا، مع بعض الاستثناءات. ويمكن تصنيف الشخصيات المعاصرة ككل ضمن ثلاث فئات:

1. الشخصيات غير الرسمية التي تمثل نموذج ديوباند. بعضها يمثل مقاربة إسلامية حداثية تتسم بالبراغماتية السياسيـة، وتشجع المشاركة السياسية، وتعترف بشرعية نظـام الدولـة - الأمـة الحديث في سبيل دعـم قضيتها الإسلاميـة. الأمثلة على هذه الشخصيـات التـي اختيرت في جميـع البلدان تقريبـا يجسدها يوسـف القرضاوي، الداعيـة المعروف والمؤثـر، وأبو الأعلى المـودودي، المفكر الإسلامـي الشهير، وحسن البنـا، مؤسس جماعة الأخـوان المسلمين. أمـا المبحوثون الذين اختـاروا شخصيات أخـرى تحظـى بالشعبية من نموذج ديوبانـد، مثل أسامة بـن لادن، فكانوا يعارضون المشاركة في أي عملية انتخابية.

2. الشخصيات الرسمية/ الحكومية المنتمية إلى نموذج ديوباند، من رؤساء الدول أو سواهم من الشخصيات السياسية التي عدت ثورية ووقفت في وجه الغرب أو إسرائيل في مرحلـة ما مـن حياتها السياسية. بعض الأمثلة يجسدها محمـود أحمدي نجاد، وياسر عرفات، وحسن نصر الله، وآية الله الخميني.

3. المسلمـون المنتمـون إلى نموذجي أجمـر وعليكره. معظمهم رمـوز للثقافة الشعبية الإسلاميـة البازغـة حديثا، أو مفسـرون للإسـلام يسعون إلى "تحديثـه" في سياق تقليـدي، أو يحاولون جمع وموالفـة الإسلام والغرب. من هؤلاء: سامي يوسف، المغني وكاتـب الأغنيات البريطاني الإيراني الأصل، ويوسف إسلام (كات ستيفنز)، وحمزة

يوسف، الأمريكي الذي اعتنق الإسلام. أما عمرو خالد فيتربع على قمة النماذج المعاصرة التي يحتذى مثالها في كل بلد زرناه في العالم العربي. فقد اختارته نسبة تراوحت بين 45. 60% من السكان. هنالك إحساس لدى المبحوثين بأن صورة الإسلام، ومن ثم جميع أتباعه، تحددها وتعرفها الأحداث السياسية الراهنة. ولذلك فهم يبحثون عن قدوة إما تصلح الضرر أو تسيطر عليه عبر تقديم "الصورة الصحيحة للإسلام". فمحاضرات وبرامج عمرو خالد حازت على أعلى قبول لدى الشباب الأردنيين والسوريين والقطريين. وفي حين أن معظم الشباب المسلمين الذين استطلعت آراؤهم في جميع البلدان يعتقدون أن "الصورة الخاطئة عن الإسلام" لدى الغرب تمثل المشكلة الأولى التي تواجه العالم الإسلامي، إلا أن هناك محاولة لاستعادة "أصالة" الإسلام أو صورته الحقيقية. ولذلك، فإن أحد أكثر الأسباب شيوعا وراء شهرة عمر خالد هو تمثيله الصحيح للدين وحبه له، وقوته وعزمه وتصميمه وتضحيته في سبيل الإسلام. أما الأسماء السياسية الناشطة الأخرى المرتبطة بنموذج عليكره فشملت مهاتير محمد رئيس وزراء ماليزيا السابق.

تركيا

أشهر النماذج التي يحتذى مثالها في تركيا هم المفكرون والقادة المسلمون الذين يمثلون نموذجي أجمر وعليكره. اعتلى رأس القائمة فتح الله كولن (45%) وسعيد نورسي (18%). فتح الله كولن مفكر صوفي إسلامي اشتهر بسبب تشجيعه وترويجه الحوار بين الأديان في مختلف المجتمعات والأمم والثقافات. ويحظى بملايين من الأتباع والمؤيدين ويعد واحدا من أكثر الشخصيات الإسلامية التركية نفوذا وتأثيرا بين أفراد جيله. فضلا على أن حركته، حركة كولن، أسست مئات المدارس، خصوصا في تركيا ووسط آسيا. ألف كولن ثلاثين كتابا، ويعيش حاليا في بنسلفانيا. أما سعيد نورسي، المفكر الإسلامي الذي اختارته نسبة 18% من المبحوثين، فقد سعى إلى جمع وموالفة التعليم الديني والعلماني. ثلاثون بالمئة من المبحوثين رفضوا اختيار نماذج معاصرة يحتذى مثالها، وهذا يعبر عن مستوى الإحباط وخيبة الأمل لدى الشباب التركي.

قطر

كشـف المبحوثـون في قطر عـن إحساس قوي بالارتبـاط الديني. واختـارت الغالبية الساحقـة مـن الشباب عالمين دينيـين اثنين كنموذ جـين يحتذى مثالهمـا: الشيخ يوسف القرضـاوي (45%) الذي يمثل مدرسة ديوباند، والداعية الشاب الذي يتمتع بشخصية آســرة، عمـرو خالد (45%) ويمثـل نموذج عليكـره. القرضاوي علامـة وداعية مؤثر اشتهـر ببرنامجه الذي يبث على قناة الجزيرة "الشريعـة والحياة"، وموقعه على الويب (IslamOnline) الـذي أطلقـه عام 1997. نشـر القرضاوي أيضا زهـاء 50 كتابا، منهـا "الحـلال والحرام في الإسـلام" و "الإسلام: حضارة المستقبـل". أما عمرو خالد فهو أشهر من اوبرا وينفري في الولايات المتحدة، وهو أول داعية إسلامي يشاهده الملايين على شاشات التلفزيون. الشخصية التي نالت المرتبة الثانية في الشعبية هي الشيخة موزه بنـت ناصر المسند، زوجة أمير قطر، وذلك بفضل إظهارها للرموز الدينية. كتبت إحدى الطالبـات في "المدينة التعليمية" تقول: "إنها تحسن الأمور وتحافظ على التراث، وتلتزم حتـى الحجاب. وهـي تملؤنا بالفخر والاعتـزاز". شابة أخرى تعمـل في وزارة الخارجية القطرية عبرت عن إعجابها بالشيخة موزه لأنها "تدعو إلى الإسلام وتحب إرشاد الآخرين وتفيـد المجتمع". القدوتان التاليتان في الترتيب تمثلهما شخصيتان دينيتان أيضا: طارق سويـدان (13.2%) والشيخ السديـس إمام المسجد الحـرام في السعودية. حسن نصر الله، زعيم حزب الله، اختارته أيضا نسبة 10.5% من المبحوثين قدوة لهم.

سورية

مثلمـا هي الحـال في البلاد العربية الأخـرى التي زرناها، احتل عمـرو خالد المرتبة الأولى كنمـوذج يحتـذى مثاله في سورية. وكمـا في الأردن، كان عمرو خالـد المثل الأعلى المعاصـر الوحيـد الذي نال غالبيـة أصوات المبحوثـين. وباستثناء مهاتـير محمد، كانت جميـع النمـاذج التي اختيرت في سورية مـن الشخصيات الدينية: إما علمـاء أو دعاة أو كتاب تناولوا القضايا الإسلامية. أحد الأسباب المحتملة لشعبية مهاتير محمد في سورية انتقـاده العلني للولايات المتحدة وإسرائيل خلال وبعـد أن ترأس على الحكومة الماليزية. المرتبتـان الثانية والثالثة علـى القائمة احتلهما أحمد كفتارو المفتـي السابق للجمهورية،

وعضو البرلمان الإمام محمد حبش. لكن نظرا لأن نسبة مهمة من المبحوثين هم من طلاب معهد أحمد كفتارو، "أبو النور"، أو يحضرون الدروس الدينية التي يلقيها محمد حبش في جامع الزهراء، فإن هذه النتائج بحاجة إلى مراجعة في ضوء ارتباط المبحوثين بالعالمين بطريقة ما. خمس المبحوثين اختاروا يوسف القرضاوي قدوة معاصرة لهم. والقرضاوي واحد من الشخصيات الدينية القليلة التي يظهر اسمها في كل بلد زرناه تقريبا.

الأردن

اختارت غالبية المبحوثين في الأردن (60.5%) عمرو خالد قدوة معاصرة لهم. في حين اختارت نسبة تقل عن 20% نماذج معاصرة يحتذى مثالها. كتبت شابة تقول إنها تستنصح عمرو خالد ويوسف القرضاوي حين يكون لديها سؤال ديني "لأنهما معتدلان، دون إفراط أو تفريط. ومقاربتهما سهلة وتدفع المرء إلى حب الدين؛ وليست منفرة ولا مقيتة". الشخصية الثانية التي تمتعت بأعلى درجة من الشعبية في الأردن هو طارق سويدان، الذي اشتهر بمحاضراته وبرامجه عن الإسلام وتنمية الشخصية، إضافة إلى أنه مؤسس قناة الرسالة الفضائية. لا تختلف رسالة سويدان كثيرا عن رسالة عمرو خالد. فهو يشدد أيضا على الحاجة إلى تأسيس رسالة الإسلام على الكفاءة والأهلية والكمال. فضلا على أهمية تمثيل أسلوب الحياة الإسلامي بطريقة تنسجم مع الحاجات الاجتماعية المعاصرة. ومثلما هي الحال في قطر، اختارت نسبة 10.5% من المبحوثين في الأردن حسن نصر الله، الأمين العام لحزب الله، قدوة معاصرة لهم. ومع أن النسبة ليست كبيرة، لكنها تظل مهمة في دلالتها. فقد تفوق في شعبيته على ملك الأردن الحالي الملك عبد الله الثاني. اختار الطلاب المسلمون والمسيحيون على حد سواء حسن نصر الله قدوة لهم. على سبيل المثال، أشارت شابة أردنية مسيحية (في التاسعة عشرة) إلى أن نصر الله هو قدوتها لأنه "عادل وشجاع ويحمي حقوق الأفراد". كتبت شابة تبلغ العشرين من العمر تقول: "أشعر بالفخر لأن مثل هذه الشخصيات المرجعية تتألق بغيريتها وهي تؤدي الأعمال الخيرية ولا تنتهك مبادئ دينها". اختار قرابة 9.9% من المبحوثين أحمد ياسين الزعيم الروحي لحماس الذي اغتالته إسرائيل عام 2004. في قطر اختارت نسبة 10% على أقل تقدير أحمد ياسين قدوة لها.

باكستان

النمـاذج التـي اختارها المبحوثـون الباكستانيون لم تكن محصـورة في جنوب آسيا، وذلـك خلافا للنماذج الإقليمية التي اختارها نظراؤهم الأتراك والعرب. وفي حين برزت شخصيـة رئيسة واحـدة كقدوة لأكثر من 50% من السكان في الـدول العربية، لم يظهر مثل هذا الإجماع في باكستان. فقد اختار قرابة ربع المبحوثين مهاتير محمد، رئيس وزراء ماليزيـا السابق (1981-2003) قدوة لهـم. ومثلما كانت الحال في تركيا، رفض 16% من الشباب الباكستانيين اختيار قدوة معاصرة لهم. مرة أخرى، يعبر ذلك عن حالة من خيبـة الأمل والإحباط بين الشبـاب كما أشرنا آنفا. اختار 14% مـن الشباب المبحوثين ياسـر عرفات، الرئيـس السابق لمنظمة التحريـر الفلسطينية، ومحمـود أحمدي نجاد، الرئيـس الحالي لإيران. فقد عبر الاثنان كلاهما عن ميل لدى المبحوثين نحو شخصيات تعد "ثورية" و"قوية" وقادرة على الوقوف في وجه الغرب.

مـن اللافت اعتلاء ثلاثة من ملوك السعودية قمة لائحة النماذج التي يحتذى مثالها في نظـر الشباب الباكستانيـين، حيث اختار 7.1% الملك فهـد والملك عبد الله، و4.8% الملـك فيصـل. المفارقة أن المبحوثين العرب لم يذكروا السعوديـة أبدا. أما حقيقة اختيار الملوك الثلاثة من الشباب في مختلف الأماكن (جامعة القائد الأعظم، وجامعة آغا خان، وثانوية كراتشي للمتفوقين) فتبين مستوى الإعجاب والارتباط بالمملكة لدى الشباب المتعلم في باكستان. بعض الأسباب المذكورة وراء اختيار الملك عبد الله بن عبد العزيز هي: "نحن نجـده دوما صديقـا"، أو "خدماته الكبيرة للأمـة الإسلامية"، أو "يتبـع أفضل سياسة خارجيـة مع البلـدان الإسلامية". ومـن الأسباب المذكـورة وراء اختيار الملـك فهد أنه: "أدى دورا حيويا في ازدهار حال المسلمين"، أو "حارب اليهود في سبيل حرية المسلمين الروحيـة". اختـار 10% من الشبـاب الباكستانيين عبد الستار ادهـي، المحسن الشهير في باكستـان، قدوة لهم. فقد أقامت مؤسستـه، "مؤسسة ادهي"، المستشفيات، وخدمات الإسعاف، والعيادات الطبية، وبيوت الأمومة، والمصحات العقلية، وبيوت المعوقين، وبنوك الـدم، ودور الأيتام، ومراكز التبنـي، وثلاجات حفظ الجثث، وملاجئ للأطفال الهاربين والنساء اللاتي يتعرضن للضرب، والمدارس، ودورات تعليم التمريض، والمطاعم الخيرية.

ووفقا لكتـاب غينيس للأرقام القياسية (1997)، تعد خدمـات الإسعاف لمؤسسة ادهي أكبر خدمة إسعافية تطوعية في العالم كله.

الهند

القدوتان اللتان اختارهما أغلب المبحوثين في الهند هما السير سيد أحمد خان (نموذج عليكره)، وأبو الأعلى المودودي (نموذج ديوباند)، حيث فضلهما 18% منهم. يعد السير سيد أحمد خان (1817. 1898)، المعروف باسم السير سيد، أعظم رجال الدولة تأثيرا ونفـوذا في عصـره. فقد كان رائد التعليم الحديث للمسلمـين في الهند حيث أسس الكلية المحمديـة الإنكليزية الشرقيـة، التي أصبحت فيما بعد جامعة عليكـره الإسلامية. وأدت أعمالـه إلى نهوض جيل جديد من المفكرين والسياسيـين المسلمين شكلوا حركة عليكره، التي سعت إلى ضمان المستقبل السياسي للمسلمين في الهند. ونظرا لاعتقاده أن مستقبل المسلمـين مهدد بطبيعتهم المتشددة ونظرتهم المتزمتـة، شجع السير سيد التعليم الغربي عبر تأسيس المدارس والمجلات والمنظمات الحديثة.

يعـد أبو الأعلى المـودودي (1979-1903)، المعروف غالبا باسـم مولانا المودودي، واحـدا من أكـثر المفكرين المسلمين تأثيرا ونفوذا في القـرن العشرين، وهو مؤسس حزب "الجماعة الإسلامية" السياسي في باكستان. ساهمت فلسفة مولانا المودودي وكتاباته الأدبيـة، ونشاطه الذي لم يهدأ، مساهمة كبيرة في تطوير الحركات الإسلامية السياسية والاجتماعيـة في شتى أنحاء العالم. وأثرت أفـكاره تأثيرا عميقا في سيد قطب، أحد أبرز المفكريـن والكتـاب الإسلاميـين في القـرن العشرين، الـذي ينتمي إلى جماعـة الأخوان المسلمين في مصر. احتل سيد قطب المرتبة الرابعة للنماذج المعاصرة التي يحتذى مثالها في الهنـد، حيـث اختارته نسبـة 10% من الشبـاب . وعد المودودي وسيـد قطب وحسن البنا الآباء المؤسسين لحركة الإحياء الإسلامي العالمية، وهم يمثلون نموذج ديوباند الذي يحظى بالجاذبية في الهند اليوم.

بـرز زكير نايك (ولد عام 1965) كشخصية دينيـة تتمتع بالشعبية في جنوب آسيا. فقـد اختارته نسبة تقدر بـ 12% تقريبا من المبحوثين الشبـاب في الهند، واحتل المرتبة الثالثـة بين النماذج التـي يحتذى مثالها. يتناول نايك بإسهـاب موضوع الإسلام والدين

المقـارن. وألقـى أكثر من ستمئـة محاضرة عن الإسـلام في شتى أرجـاء العالم. ويظهر الطبيـب نايـك بانتظام في العديد من محطات التلفزة العالميـة في أكثر من مئة بلد. وهو يرأس "مؤسسة الأبحاث الإسلامية" وألف العديد من الكتب عن الإسلام.

ماليزيا

وكما هي الحال في جنوب آسيا، تمثل النماذج المختارة في ماليزيا تشكيلة متنوعة من المناطق. وبغض النظر عن بعض المبحوثين الذين اختاروا كلا من طارق رمضان (المسلم السويسـري) وإسماعيـل فاروقـي (الفلسطينـي) قدوة لهـم، فإن معظمهـم عبروا عن تأييدهـم للشخصيات الممثلة لنموذج ديوباند، مثل المودودي وسيد قطب وراشد الغنوشي زعيم حزب النهضة الإسلامي المحظور في تونس. أما رؤساء الدول الذين اختيروا نماذج يحتـذى مثالها فهم أولئك الذين وقفوا في وجه الغرب أو إسرائيل في مرحلة من المراحل: آيـة الله الخميني، ومهاتير محمـد، وياسر عرفات، وأحمدي نجـاد. وكما هي الحال في باكستان، احتل مهاتير محمد قمة لائحة النماذج التي يحتذى مثالها، حيث اختاره 35% من المبحوثين. أما المرتبة الثانية فذهبت إلى الشيخ يوسف القرضاوي العلامة الإسلامي الشهـير عالميـا (اختاره 25% مـن المبحوثين). برز اسـم القرضاوي كقـدوة في كل بلد أجرينـا فيـه الاستبيان. واحتل المرتبة الثالثة عبد الله بن حاجي أحمد بدوي، الذي خلف مهاتير محمد في رئاسة الحكومة الماليزية عام 2003.

إندونيسيا

عـبر معظم المبحوثـين الإندونيسيين عن تأييدهـم لنموذج ديوباند، لكـن برز أيضا نمـوذج عليكره عبر عبـد الله جيمانستر، وهـو داعية "تلفزيوني" يتمتـع بشعبية كبيرة، وربمـا يبلغ عـدد جمهوره 80 مليونا. يريـد عبد الله بناء المهنية الماهـرة والكفؤة والروح التجاريـة المبادرة بواسطة الإسلام، وقـد أنشأ خدمة سماها "القرآن بالهاتف الخلوي"، التي ترسل رسائـل نصية أو صوتية تضم تعليقاته وتفسيراته للقرآن. ويتصل بقرابة 60 مليـون شخص أسبوعيا عبر التلفزيـون والإذاعة، فضلا على الكتـب وشرائط التسجيل والفيديـو والصحف ودورات التدريـب الإداري، والأقوال المطبوعة علـى علب المشروبات الخفيفـة التـي يسوقها. ويعد عبـد الله أيضا واحدا من الزعمـاء الإندونيسيين المسلمين

القلائل الذين خطبوا في كنيسة مسيحية وأحد أبرز مروجي السلام والتسامح في البلاد. ثمة قلة من المبحوثين اختارت مفكرين مسلمين ليبراليين كنماذج معاصرة يحتذى مثالها، كنصر حامد أبو زيد، الذي يعيش في المنفى في هولندا بسبب تأويلاته النقدية غير التقليدية للقرآن، حيث اختارته نسبة 4،5% منهم. اختار عدد ضئيل من المبحوثين أيضا باحثين تقدميين أو باحثات نسويات أو تقدميات، مثل أمينة ودود، وحسن حنفي، وفاطمة المرنيسي، ونوال السعداوي. ومع ذلك، كان تأييد نموذج ديوباند بالغ القوة في إندونيسيا. في حين اختير بن لادن قدوة في كل بلد زرناه، اختارته في إندونيسيا نسبة 25% من المبحوثين. الشخصيات الأخرى التي "تقف" في وجه الغرب مثل آية الله الخميني، وصدام حسين، ومعمر القذافي، ومحمود أحمدي نجاد، حظيت أيضا بشعبية كبيرة.

النماذج التاريخية التي يحتذى مثالها

هنالك إجماع أوسع على النماذج التاريخية التي يحتذى مثالها في العالم الإسلامي. النبي هو القدوة الأولى في كل بلد زرناه باستثناء سورية، حيث احتل رأس القائمة الخليفة الراشدي الثاني عمر بن الخطاب وصلاح الدين. ومع ذلك، اختارت الأغلبية الساحقة من المبحوثين النبي في كل بلد، حيث بلغت نسبتها في قطر 87% (أكبر نسبة) وفي باكستان 82%.

بغض النظر عن النبي، كانت أكثر النماذج التاريخية اختيارا الخلفاء الأربعة: أبو بكر (634.632م)، وعمر بن الخطاب (744.634م)، وعثمان بن عفان (656.644م)، وعلي بن أبي طالب (661.656م). الذين عرفوا باسم "الخلفاء الراشدين". حظي عمر بأكبر شعبية بينهم، حيث نال إعجاب المبحوثين غالبا بسبب عدله وقوته وشجاعته وتضحيته في سبيل الإسلام. فقد اعتاد المسلمون النظر إلى عصر الخلفاء الراشدين بوصفه رمزا مجسدا للحكم الإسلامي الأصيل والرشيد الذي لم تعرفه الأمة بعدهم. وجسد الخلفاء احترام الجيل الشاب وإجلاله لأول مجتمع إسلامي وتقديره لمن ساعد في الحفاظ عليه. فهؤلاء نماذج تسمو على الحياة ذاتها في نظر الشباب المبحوثين.

هنالك ميل قوي في جميع البلاد التي زرناها نحو الشخصيات الإسلامية التاريخية، خصوصا تلك التي تمثل الفتوحات الإسلامية. وهذا ينسجم مع جاذبية نموذج ديوباند حاليا واختيار النماذج المعاصرة التي "وقفت" في وجه الغرب.

تركيا

خلافا للبلدان الأخرى، برزت هنا العديد من الشخصيات الصوفية، كحال النماذج المعاصرة التي اختارها المبحوثون، مثل الشاعر والمتصوف الفارسي جلال الدين الرومي، والشاعر التركي يونس امري، والمفكر الإسلامي عبد القادر جيلاني. ومن اللافت عدم ظهور صلاح الدين وخالد بن الوليد في تركيا، في حين حظي الاثنان بشعبية كاسحة في البلدان الإسلامية الأخرى كافة. لكن مال المبحوثون الأتراك نحو شخصيات سياسية أخرى تمثل انتصارات وقوة المسلمين، خصوصا في المنطقة. على سبيل المثال، اختار 12% منهم السلطان محمد الفاتح قدوة لهم. فهو الذي هزم الإمبراطورية البيزنطية حين فتح عاصمتها القسطنطينية. المثل الأعلى الآخر هو الإمام شامل (1797. 1871)، الزعيم السياسي والديني للقبائل الإسلامية في شمال القوقاز، الذي قاد القبائل القوقازية في مقاومة الحكم الروسي خلال ما عرف بالحرب القوقازية، وكان الإمام الثالث في داغستان والشيشان (1834. 1859).

قطر

الشخصيتان اللتان تمتعتا بأكبر قدر من الشعبية في قطر، بعد النبي والخلفاء الراشدين، هما خالد بن الوليد، قائد جيوش المسلمين منذ عهد النبي وحتى الخليفة الثاني، وصلاح الدين الأيوبي، قائد جيوش المسلمين التي هزمت الصليبيين وفتحت القدس عام 1187م. اختار خالد بن الوليد 45% من المبحوثين، فكان أكثر شعبية من عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب. أما صلاح الدين فاحتل المرتبة السادسة في الشعبية، بعد النبي والخلفاء الراشدين الأربعة وخالد بن الوليد.

كانت الأسباب الرئيسة وراء اختيار خالد وصلاح الدين ما تمتعا به من قوة، وما قدماه من تضحية في سبيل الإسلام، فضلا على قدرتهما على تحقيق النصر للمسلمين. قالت شابة في المدينة التعليمية إنهما "من الشخصيات العظيمة في التاريخ الإسلامي التي أثرت وغيرت مجرى تاريخ العالم الإسلامي. فقد حقق كل منهما انتصارات عظيمة وباهرة للمسلمين". طالبة أخرى كتبت تقول: "ترك كل منهما حياة الترف والرفاهية ووقف في وجه أعدائه: وضحى بحياته وروحه في سبيل الله والإسلام". واختارت طالبة

أخـرى صلاح الدين وخالد بـن الوليد بسبب "مثابرتهما وجلدهمـا وثباتهما في الأوقات العصيبة، ودفاعهما عن الدين على الرغم من الصعاب والعقبات التي واجهتهما".

سورية

الشخصيتـان التاريخيتـان اللتـان اختارهمـا المبحوثون في سوريـة قدوتين لهم هما الخليفـة الراشـدي الثاني عمـر (67%)، وصلاح الديـن الأيوبـي (57%)، وتفوقا في الشعبيـة حتـى على النبي ذاته. لكن ذلـك لا يدل على إجلال أقـل للنبي، خصوصا حين نأخـذ بالاعتبار الطبيعة الدينيـة للمؤسسات التي زرناها، بل هو نتاج للظروف السياسية الخاصـة بسوريـة. فالمشاعر المعاديـة لأمريكا متجذرة في سورية، كمـا أثبتتها حقيقة أن بعض الطلاب رفضوا ملء الاستبيانات. فمع تعرض سورية لقدر كبير من ضغط الخطاب الأمريكي ضد الأنظمة الديكتاتورية والإرهاب، يبحث الشباب عن نماذج تاريخية يحتذى مثالها تشير إلى / أو تمثل نصرا عسكريا للمسلمين. وعمر وصلاح الدين كلاهما يمثلان القوة والعدالة والكرامة في أذهان المبحوثين السوريين - المفاهيم والمثل ذاتها التي يسعون إلى استعادتهـا اليـوم. اختـار خالد بن الوليد أيضـا زهاء ربع الشبـاب الذين استطلعنا آراءهـم. وعلى شاكلة عمر وصلاح الدين، يمثـل خالد القوة والنصر في الوعي التاريخي للمسلمين.

الأردن

احتـل النبـي قمة اللائحة في الأردن، كحـال باقي البلاد الإسلاميـة كلها (باستثناء سوريـة). ثم جاء في المرتبتين الثانية والثالثة عمر بن الخطاب وصلاح الدين كنموذجين تاريخيين يحتذى مثالهما. وبعد النبي مباشرة، اختارت عمر بن الخطاب أغلبية واضحة من الأردنيين. ومثلما هي الحال في البلدان العربية الأخرى، احتل أبو بكر الصديق وخالد بن الوليد مرتبتين متقدمتين بعد النبي وعمر وصلاح الدين، مع بعض التفاوت البسيط.

باكستان

اختلفت الآراء المستطلعة في باكستان والدول العربية وفقا لمعيارين مهمين. أولا، حظي علي بن أبي طالب بشعبية كبيرة في باكستان فاقت مثيلتها في الدول العربية. ويرجع ذلك

أساسا إلى العدد الكبير من السكان الشيعة في باكستان، الذين يشكلون زهاء 20%. ثانيا، تربع محمد علي جناح، مؤسس جمهورية باكستان الإسلامية، على قمة لائحة النماذج التاريخية التي يحتذى مثالها بعد النبي والخلفاء الراشدين.

الهند

مثلما هي الحال في معظم البلاد التي استطلعنا الآراء فيها، حظي النبي وعمر بن الخطاب بأعظم قدر من الشعبية كنماذج تاريخية يحتذى مثالها. وفضلا على الخلفاء الراشدين، شملت الشخصيات التاريخية التي حظيت بالشعبية حسن البنا، ومحمد بن عبد الوهاب، وابن تيميه (نموذج ديوباند)، والسير سيد أحمد خان (نموذج عليكره)، ومحمد إقبال، الشاعر والفيلسوف الباكستاني الذي عبر فكره عن النماذج الثلاثة.

ماليزيا

في ماليزيا، حظي النبي والخلفاء الراشدون بأكبر شعبية بين المبحوثين كنماذج تاريخية يحتذى مثالها. إضافة إلى ذلك، وجدنا ميلا قويا نحو المفكرين والعلماء المشهورين في التاريخ الإسلامي: بدءا بابن خلدون وابن سينا، مرورا بالخوارزمي، وانتهاء بالإمام الشافعي والإمام الغزالي. وليس من قبيل الصدفة أن تظهر ماليزيا نزعة فكرية قوية، نظرا لاعتماد المبحوثين الماليزيين على الكتب كمصدر رئيس للمعلومات مقارنة بالمبحوثين في البلاد الأخرى.

إندونيسيا

مثلما هي الحال في ماليزيا، حظي النبي والخلفاء الراشدون في إندونيسيا بأكبر قدر من الشعبية كنماذج تاريخية يحتذى مثالها. واللافت هيمنة شخصيات نموذج ديوباند في إندونيسيا، مثل ابن تيميه، وابن القيم الجوزيه، وحسن البنا. لكن، وعلى شاكلة الماليزيين، أظهر المبحوثون الإندونيسيون تفضيلهم للمفكرين والعلماء مثل الإمام الغزالي، والإمام الشافعي، وابن خلدون، وابن رشد، والإمام الأقرب إلى عصرنا، محمد عبده.

الهوامش

هوامش 1

1 انظر:

Frankie Martin and Hailey Woldt, "Frankie and Hailey Go to the Muslim World with the Leading Islamic Scholar 'Our Favorite Professor,'" Pakistan Link (www. Pakistan-.([link.com/Community [May 26, 2006

"خـلال رحلتنــا. كثـيرا ما التفت أحدنـا إلى الآخر وسأل: (هل يحدث هذا فعلا؟). قبـل سنة واحدة بالضبط كنا نجلس في قاعة المحاضرات نستمع إلى دروس الأستاذ أكبر أحمد عن (صدام أم حوار الحضارات) كما لو أننا غرباء. لكن ها نحن الثلاثة معا نقضي ساعات طويلة في سيارة في الهند. وقد أضنانا الجوع وهدّنا الجو الحار والتعب. كأننا عائلة واحدة منذ عهـود.. عنـد قيامنا بهذا الرحلة. وضعنا ثقتنا الكاملة بالدكتور أحمد. وخلال مسيرة رحلتنا أصبح أبا لنا. حيث حرص دوما علـى معرفـة أين نكون. وتصحيـح كل خطوة من خطواتنا مثل 'أب رؤوف حنون'. ليتأكد لـه أننا نتصرف بشكل لائق ومحترم بحـث لا ننتهـك دون قصد قواعد الثقافة المحلية. خـلال الرحلة. وصلت معرفتنا بأستاذنا حـد المراهنة على خطوته التالية. وكانت هيلي تفوز بالرهان دوما".

2 انظر:

(Aijaz Qasmi, Jihad and Terrorism, in Urdu (India, 2005

3 عمل العلماء المسلمون الذين اتبعوه. مثل ابن تيميه. على تكييف وتأويل هذا القول. انظر:

./www.mpacuk.org/content/view/2203/34

4

Samuel. P. Huntington, The Clash of Civilizations and the Remaking of the World .(Order (New York: Simon & Schuster, 2003

5 فيما يتعلق الدراسية. انظر:

.(Conrad Phillip Kottack, Cultural Anthropology (New York: McGraw-Hill, 2000

6 انظر:

Bronislaw Malinoweski, Argonauts of the Western Pacific (New York: Dutton, 1961), .p. 20

7-

Clyde Kluckhohn, Mirror for Man: A Survey of Human Behavior and Social Attitude .(Greenwich, Conn.: Fawcett, 1944), p. 9

8-

Clifford Geetz, Islam Observed: Religious Development in Morocco and Indonesia ((University of Chicago Press, 1981

9 انظر:

.www.pewglobal.org

10 انظر على سبيل المثال:

David Ray Griffin, The New Pearl Harbor: Disturbing Questions about the Bush Administration and 9/11 (Northampton, Mass.: Interlink, 2004); and Griffin, Christian Faith and the Truth behind 9/11: A Call to Reflection and Action (Louisville, Ky.: Westminster .(John Knox Press, 2006

11

Jonathan Sacks, The Dignity of Difference: How to Avoid the Clash of Civilizations .((London: Continuum, 2002

12

Karen Armstrong, The Battle for God: Fundamentalism in Judaism, Christianity and .(Islam (London: HarperCollins, 2000

13 انظر:

Akbar S. Ahmad, Islam under Siege: Living Dangerously in a Post-Honor World .((Cambridge, U.K.: Polity, 2003

14

Jonathan Hayden, "The Challenge of the Moderates" (www.beliefnet.com [April 24, .([2006

15 انظر:

Hailey Woldt, "A young American in the Muslim World" (www.beliefnet.com [April 24, 2006]); Martin and Woldt, "Frankie and Hailey Go to the Muslim World"; Hayden , "The Challenge of the Moderates"; and Amineh Ahmed Hoti, "A Journey to Understanding: Reflections from Indonesia, "Pakistan Link (www. Pakistanlink.com/Community .([[June 9, 2006

16 للاطلاع على تعليقات أعضاء الفريق، انظر:

."Frankie and Hailey Go to the Muslim World"

"السفر مع الدكتور أحمد فتح مزيدا من الأبواب أمامنا إلى درجة فاقت الخيال. وفوجئنا بحرارة الاستقبال الذي لقيناه من كل من قابلناهم، بغض النظر عن إيديولوجياتهم أو مواقفهم السياسية. وحتى أولئك الذين يعدهم الأمريكيون 'متطرفين إسلاميين". مثل علماء الدين التقليديين والمتشددين فيديوباند. رحبوا بنا بسبب علاقتنا بالدكتور أحمد وانخرطوا

معنـا في مناقشـات مطولة. ورحب السياسيون المشهورون الذين قابلناهم أيضا بالدكتور أحمد وأظهروا له كل احترام، ومنهم الرئيس مشـرف، الذي أشار إليه بعبارة 'أكبر صاحب'، وهي تدل في باكستان على تقدير كبير. ودهشنا بعد خطبة ألقاها في أحـد فنادق إسلام أباد حين اندفعت جمهـرة من الناس للحديث معه، كأنما أستاذنا نجم لامع أو مغن شهير. ثم بدأنا ندرك أنـه معـروف على المستوى العالمـي، وتلك حقيقة لم نكـن نعلمها في الجامعـة في واشنطن، وكانت عامـلا جوهريا ساعد على اتصالنا بطيف واسع من الناس على مختلف مشاربهم السياسية والثقافية في شتى أرجاء العالم".

17 انظر:

Thomas L. Friedman, The Lexus and the Olive Tree: Understanding Globalization (New York: Farrar, Straus and Giroux, 1999), p. xix; and Friedman, The World Is Flat: A .(Brief History of the Twenty-First Century (New York: Farrar, Straus and Giroux, 2005

18 انظر على سبيل المثال:

John Baylis and Steve Smith, eds., The Globalization of World Politics: An Introduc- .(tion to International Relations, 3rd ed. (Oxford University Press, 2005

19

Ulrich Beck, Risk Society: Towards a New Modernity, translated by Mark Ritter .((London: Sage, 1992; originally published 1986

20

Anthony Giddens, Runaway World: How Globalization Is Reshaping Our Lives .(New York: Routledge, 2000), p. 33

21

.Ibid., p. 34

22 استعـار غيدنـز العنوان "عـالم هارب" من سلسلة مـن المحاضرات التي ألقاها العـالم الأنثروبولوجي الشهير ادموند ليتش عام 1968.

23 انظر:

.Giddens, Runaway World, p. 37

24

Daisaku Ikeda, "Foreword," in Subverting Greed: Religious Perspectives on the Global Economy, edited by Paul Knitter and Chandra Muzaffar (New York: Orbis Books, ;Maryknoll, 2002), p. xii

انظر أيضا الدراسة التي كتبتها كارين ارمسترونغ عن بوذا والفكر البوذي:

.(Buddha (New York: Penguin Books, 2001

25 انظر:

.Armstrong, Buddha

انظر أيضا كتاب ماري بات فيشر المرجعي:

Living Religions, 6th ed. (Englewood Cliff, N.J.: Prentice-Hall, 2005); and T. N. Madan, ed., India's Religions: Perspectives from Sociology and History (Oxford Univer-.(sity Press, 2004

للاطلاع على تفسير كامل لهذه الجوانب والملامح بالذات في سياق المجتمع والتاريخ الإسلاميين، انظر:

Akbar S. Ahmed, Discovering Islam: Making Sense of Muslim History and Society London: Routledge, 2002): originally published in 1988, and Ahmed, Islam under .Siege

للاطلاع على مناقشة متميزة لهذه القيم في الديانة اليهودية، انظر:

.(Jonathan Sacks, To Heal a Fractured World (London: Continuum, 2005

26 انظر على سبيل المثال:

Al Gore, An Inconvenient Truth: The Planetary Emergency of Global Warming and .(What We Can Do About It (New York: Rodale Press, 2006

إضافة إلى الوثيقة التي فاز بها بجائزة نوبل.

27

.Sacks, The Dignity of Difference, pp. 106-107

28 انظر:

United Nations Population Division, World Population "Prospects": The 2004 Revi-.(sion (http://esa.un.org/unpp/index.asp

29

Amy Chua, World on Fire: How Exporting Free Market Democracy Breeds Ethnic Hatred and Global Instability (New York: Doubleday, 2003); Therese Delpech, Savage Century: Back to Barbarism (Washington, D.C.: Carnegie Endowment for International .(Peace, 2007

30 انظر على سبيل المثال:

Philip Pan, "Civil Unrest Challenges China's Party Leadership," Washington Post, 4 .November, 2004

31

.Ahmed, Islam Under Siege

32

.Ahmed, Discovering Islam

33 للاطلاع على مناقشة مفيدة في هذا الصدد، انظر:

.Armstrong, The Battle for God; Sacks, To Heal A Fractured World

34

.Sharon Marcus, Sufi: A Commentary (Toronto: Sufi Press, 2006), p. 362

35

.Ibid., p. 97

36

Shaykh Fadhlalla Haeri, The Thoughtful Guide to Sufism (Alresford, U.K.: O Books, .2004; originally published 1990), pp. 7-9

37

.Ibid., p. 8

38 نورمـان غيرشمـان. مراســلات شخصية. للاطلاع على دراسة مبتكرة وتفتـح آفاقا جديدة فيما يتعلق بالعرب الذين أنقذوا اليهود خلال الحرب العالمية الثانية. انظر:

Robert B. Satloff, Among the Righteous: Lost Stories from the Holocaust's Long .(Reach into Arab Lands (New York: Public Affairs, 2006

39 للاطلاع على تعليق متعمق ومفيد على مجتمع وتاريخ الشيعة. انظر:

Michael J. Fischer, Iran: From Religious Dispute to Revolution (Harvard University .(Press, 1980

ولتعرف وجهة نظر أحدث. انظر:

Vali Nasr, The Shia Revival: How Conflicts within Islam Will Shape the Future (New York: W.W. Norton, 2006); Vali Nasr, Democracy in Iran: History and the Quest for Liberty (Oxford University Press, 2006); and Riza Aslan, No God but God: The Origins, .(Evolution, and Future of Islam (New York: Random House, 2005

40

Richard Ashby Wilson, ed., Human Rights in the "War on Terror" (Cambridge Uni- .(versity Press, 2005

41 انظر:

.Giddens, Runaway World, p. 22

هوامش 2

1 انظر:

Rajmohan Gandhi, Revenge and Reconciliation: Understanding South Asian History .((New Delhi: Penguin Books India, 1999

2

Gordon Johnson, Cultural Atlas of India: India, Pakistan, Nepal, Bhutan, Bangladesh .and Sri Lanka (New York: Facts on File, 1996), p. 108

3 انظر:

Yoginder Sikand, "Beyond 'Hindu' and 'Muslim': Dara Shikoh's Quest for Spiritual .([Unity" (www.svabhinava.or/MeccaBenares/YoginderSikand/DaraShikoh.htm[2004

4

Akbar S. Ahmad, Discovering Islam: Making Sense of Muslim History and Society .(London: Routledge, 2002; originally published 1988), p. 80

5 انظر:

Amatyan Sen, Identity and Violence: The Illusion of Destiny (New York: W. W. Nor-.ton, 2006), p. 64

6

.Stanley Wolpert, A New History of India (Oxford University Press, 2000), pp. 157-58

7

Michael H. Fisher, Visions of Mughal India: An Anthology of European Travel Writ-.(ing London: I. B. Tauris, 2007

8 الأعمال النثرية ورسائل شاعر دلهي المشهور ميرزا غالب (بالأوردية).

9 انظر:

Tridivesh Singh Maini, South Asian Cooperation and The Role of the Punjabis (New .(Delhi: Siddharth Publications, 2007

حتى قبل تأليف هذا الكتاب، أظهر تريفيديش قدرته على التواصل بتعاطف سخي مع أتباع الأديان الأخرى. كتب في أحد الهوامش: "الدكتور أحمد مفخرة لكل فرد في جنوب آسيا – مسلم أو هندوسي أو من السيخ.. العقلانية والهدوء ورباطة الجأش والتواضع هي الخصال العظيمة التي يمتلكها الدكتور أحمد". وهو يرغب بأن تتبنى "الشخصيات المهمة" كلها هذه الفضائل أيضا.

10

Daniel Ladinsky, Love Poems from God: Twelve Sacred Voices from the East and .West (New York: Penguin Compass, 2002), p. 2

11

.Ibid., p. 9

12 انظر:

.Coleman Barks, The Essential Rumi (San Francisco: Harper, 1995), pp. 201-204

13 نقلت هذه الكلمات من موقع ديوباند الرسمي على الويب، تحرير إعجاز.

14 انظر:

Barbara Daly Metcalf, Islamic Contestation: Essays on Muslims in India and Pakistan (Oxford University Press, 2004), p. 35. See also Metcalf, Islamic Revival in British .(India: Deoband, 1860-1900 (Oxford University Press, 2002

15 انظر:

.www.DarulUloom-Deoband.com/english

16

.(Jawaharlal Nehru, The Discovery of India (London: Meridian Books, 1960

17 انظر:

Christina Lamb, The Sewing Circles of Heart: A Personal Voyage through Afghanistan (London: HarperCollins, 2002); and William Dalrymple, "Inside the Madrasas," .(New York Review of Books 52, no. 19 (2005

18

".Dalrymple, "Inside the Madrasas

19

.Ibid

20 للاطلاع على مناقشة معاصرة ومتعمقة فيما يتعلق بالمسلمين في الهند، انظر:

.(Islam and Muslim Societies: A Social Science Journal 2, no. 1 (2006

21 تؤكد هذه الإحصائيات المخيفة مقالات مثل مقالة أيوب خان:

Are Indian Muslims Destined to Become a Permanent Underclass?" (www.mark-" .([persaud.ca[June 6, 2006

22 انظر:

Somini Sengupta, "Report Shows Muslims near Bottom of Social Ladder," New York Times, November 29, 2006; and Khalid Hasan, "Report Finds Indian Muslims Lagging .Behind," (Lahore) Daily Times, November 30, 2006

23 انظر:

Sir Sayyed, An Essay on the Cause of Indian Revolt, translated from Urdu (Alla- .(habad, 1873); and Loyal Muhammadans of India (London: 1860

24

.Metcalf, Islamic Revival in British India, p. 305

25

Mohammed Ali Jinnah, Speeches of Quaid-I-Azam Mohammed Ali Jinnah as Gover-
.nor General of Pakistan (Karachi: Sind Observer Press, 1948), pp. 9-10

هوامش 3

1 انظر:

Thomas L. Friedman, The World is Flat: A History of the Twenty-First Century (New
.(York: Farrar, Straus and Giroux, 2005

2

Amy Chua, World on Fire: How Exporting Free Market Democracy Breeds Ethnic
.(Hatred and Global Instability (New York: Doubleday, 2003

3

Evelyn Howell, Mizh: A Monograph on Government's Relations with the Mahsud
.Tribe(Oxford University Press, 1979), p. xii

4 للاطلاع على تحليل متعمق (من الداخل) للسياسة المعقدة لباكستان التي يهيمن عليها العسكر، انظر:

Husain Haqqani, Pakistan: Between Mosque and Military (Washington, D.C.: Carn-
;(egie Endowment for International Peace, 2005

وللاطلاع على نظرة مرجعية (من الخارج)، انظر:

.(Stephan Philip Cohen, The Idea of Pakistan (Brookings, 2004

5 انظر:

Ali Waqar, "Pakistan Recognizes Islamic Emirates of Waziristan?" (Lahore) Daily
.Times, September 19, 2006

6

John Masters, Bulges and a Tiger: My Life in the Gurkhas (New York: Viking, 1956),
.p. 161

7 انظر:

Madeleine Albright, Madame Secretary: A Memoir (New York: Hyperion, 2003), p.
.469

8

Nicholas Schmidle, "Migration Season: The Taliban and Their Expanding Influence
in Pakistan," NES-4 Pakistan (Hanover, N.H.: Institute of Current World Affairs, June
.(2006

9

.Ibid

10 هيئة الإذاعة البريطانية، 21/1/2003.

11

Amineh Ahmed, Sorrow and Joy among Muslim Women: The Pukhtuns of Northern .Pakistan Cambridge University Press, 2006), pp. 27-29

12 للاطلاع على دراسات حالة مفصلة، انظر:

Akbar S. Ahmed, Resistance and Control in Pakistan, rev. ed. (London: Routledge, .(2004; originally published 1991

13 انظر:

Mohammad Al-Bukhari. The Translation of the Meaning of Sahib Al-Bukhari. Translated by Muhammad Muhsin Khan. vol. 8 (Egyptian Press and U.S.C-MSA Compendium .of Muslim Texts. 1959). bk. 73. no. 2

14

.Ibid

15 انظر

Shaykh Muhammad a—Ghazali. A Thematic Commentary on the Qur'an. translated .by Ashur Shamis (London: International Institute of Islamic Thought. 2000). p. 58

16

Glenn Kessler. "Musharraf Denies Rape Comments: Recording Shows Post Article .Correctly Quoted Pakistani President." Washington Post. September 19. 2005

17

Mukhtaran Mai. In the Name of Honor: A Memoir (New York: Simon & Schuster. .(2006

18 للاطلاع على رواية كاملة لنواب وقبيلة بوغتي، انظر:

Akbar S. Ahmad. "Trial by Ordeal among Bugtis: Ritual as a Diacritical Factor in Baloch Ethnicity." in Marginality and Modernity: Ethnicity and Change in Post-Colonial .(Balochistan. edited by Paul Titus (Oxford University Press. 1996

19 انظر:

.(Sylvia Matheson. The Tigers of Baluchistan (Oxford University Press. 1996

20

.Lahore) Daily Times. August 29. 2006)

21 انظر:

United Nations Development Program Report. "Nigeria 2006" (www.ng.undp.org/ .(dicuments/nigeria-delta-hdr.pdf

22

United Nations Commissioner for Refugees. "Profile of Internal Displacement: Nige- .(ria 2004' (www.unhcr.org

23 للاطلاع على دراسات بحثية ممتازة عن الصومال، انظر:

I. M. Lewis, A Modern History of the Somali: Nation and State in the Horn of Africa (Ohio University Press, 2002), and I. M. Lewis, Saints and Somalis: Popular Islam in .(Clan-Based Society (Lawrenceville, N.J.: Red See Press, 1998

كان لويس يكتب عن الصومال عموما، لا المحاكم الإسلامية. وفيما يتعلق بأمراء الحرب في أفغانستان، انظر:

Christina Lamb. The Sewing Circles of Heart: A Personal Voyage through Afghani- .(stan (London: HarperCollins. 2002

24 على سبيل المثال. هيئة الإذاعة البريطانية. 11/7/2006.

25 انظر:

Anne Penketh and Steve Bloomfield. "U.S. Strikes on al-Qaida Chiefs Kill Nomads." .(London) Independent. January 13. 2007

26

.Ahmed. Sorrow and Joy among Muslim Women. pp. 27-29

هوامش 4

1 لمزيد من التفاصيل، انظر:

Sandra Salmans, "Muslim Awakening of the West," Trust (Pew Charitable Trusts), 9, .(no. 2 (2006

2 اعترف تشيني أمام بوب ودوارد أن كيسنجر يأتي لتقديم النصح والإرشاد للبيت الأبيض "مرة في الشهر على أقل تقدير. وأنا أتحدث معه أكثر من أي شخص آخر على الأرجح". انظر:

Bob Woodward, State of Denial: Bush at War, Part III (New York: Simon & Schuster, .2006), p. 406

3 انظر على سبيل المثال:

Helen Caldicott, The New Nuclear Danger: George W. Bush's Military-Industrial .(Complex (New York: New Press, 2004

للاطلاع على وجهة نظر متعمقة (من الداخل)، انظر:

John Dean, Conservatives without Conscience (New York: Viking Adult, Penguin .(Group, 2006

4

.Coleman/Bartlett's, "Washington Focus," September 29, 2006

5 للاطلاع على خلفية المحافظين الجدد، انظر:

Neoconservatism: Empire Builders," Christian Science Monitor (www.csmonitor." .([com/special/neocon [June 2005

6 انظر:

.Francis Fukuyama, "The End of History?" National Interest, Summer 1989

7 للاطـلاع علـى دراسة استقصائية متعمقة لإيديولوجية المحافظين الجـدد وغيرها من التوجهات الفكرية المكونة للسياسة الخارجية الأمريكيةمنذ نهاية الحرب الباردة، انظر:

Robert Merry, Sands of Empire: Missionary Zeal, American Foreign Policy, and the .(Hazards of Global Ambition (New York: Simon & Schuster, 2005

8 انظر:

Thomas L. Friedman, The Lexus and the Olive Tree: Understanding Globalization (New York: Farrar, Srauss & Giroux, 1999); Friedman, The World Is Flat: A Brief History .(of the Twenty-First Century (New York: Farrar, Srauss & Giroux, 2005

9 خطبة بول ولفوويتز في نادي الجيش/البحرية في واشنطن، 15/11/2004.

.www.worldsecuritynetwork.com

10 انظر:

.Bill Kristol, "It's Our War," Weekly Standard, July 24, 2006

11

David Frum and Richard Perle, An End to Evil: How to Win the War on Terror (New .York: Random House, 2003), p. 9

12 انظر:

Thomas H. Etzold and John Lewis Gaddis, eds., "PPS/1: Policy with Respect to American Aid to Western Europe," Containment: Document on American Policy and .Strategy, 1945-1950 (Colombia University Press, 1978), p. 103

13

.(NSC-68, 1950 (www.fas.org

14 للاطلاع على مزيد من المعلومات عن بناء الأمن القومي الأمريكي بعد الحرب العالمية الثانية، انظر:

David Campbell, Writing Security: United State Foreign Policy and the Politics of .(Identity (University of Minnesota Press, 1998

15 انظر:

.([National Security Strategy of the United States (www.whitehouse.gov [2002

16 خطبة ولفوويتز أمام نادي الجيش/البحرية.

17

.(Edward W. Said, Orientalism (New York: Penguin Books, 1978

18 انظر على سبيل المثال:

M. Shahid Alam, Challenging the New Orientalism: Dissenting Essays on the "War .(Against Islam" (North Haledon, N.J.: Islamic Publications International, 2006

في الفصل الأول الذي يحمل عنوان "برنارد لويس: دراية معرفية أم حذلقة سفسطائية؟"، يشن المؤلف هجوما حادا على المستشرقين المعاصرين، الذين يربطهم بالمحافظين الجدد البارزين.

19 انظر:

.Michael Hirsh, "Bernard Lewis Revisited," Washington Monthly, November 2004

20

.Ibid

انظر أيضا:

Peter Waldman, "A Historian's Take on Islam Steers U.S. in Terrorism Fight," Wall .Street Journal, February 4, 2004

21 يشارك تشيني برنارد لويس رأيه، وانكشفت سلطته وتأثيره في الأحداث الدولية التي أدت إلى غزو العراق وما بعده منذ عام 2003. انظر موضوع الغلاف في مجلة "نيوزويك" (17/11/2003):

.How Cheney Sold the War," Newsweek, November 17, 2003"

22 انظر:

.Frum and Perle, An End to Evil, p. 273

23

Francis Fukuyama, America at the Crossroads: Democracy, Poverty, and the Neocon-.(servatives Legacy (Yale University Press, 2006

24

Francis Fukuyama, "After Neoconservatism," New York Times Magazine, February .19, 2006

25 انظر:

.Marghoob Quraishi, "Neocons in Washington," Geopolitics Review, Fall 2003

26

Charles Krauthammer, "The Truth about Torture," Weekly Standard, December 5, .2005

27

.Daniel Pipes, "Fighting Militant Islam, without Bias," City Journal, Autumn 2001

28 انظر:

.Daniel pipes, Associated Press, October 18, 2001

انظر أيضا:

Robert Spencer, "Dr. Daniel Pipes and CAIR's Lynch Mob" (FrontPageMagazine. .([com [July 23, 2003

29

Charles Krauthammer, "The Truth about Daniel Pipes," Washington Post, August 15, .2003

30

.Pipes, Associated Press, October 18, 2001

31 انظر:

Ian Buruma, "Tariq Ramadan Has an Identity Issue," New York Times Magazine, February 4, 2007, and Deborah Solomon, "Singing a New Song," interview with Yusuf .Islam, New York Times Magazine, January 7, 2007

32

Angel Rabasa, Cheryl Bernard, Peter Chalk, C. Christine Fair, Theodore Karasik, Rollie Lal, Ian Lesser, and David Thaler, The Muslim World after 9/11 (Santa Monica, .(Calif.: RAND, 2004

33 انظر:

Ayaan Hirsi Ali, The Caged Virgin (New York: Simon & Schuster, 2006); Irshad Manji, The Trouble with Islam Today: A Muslim's Call for Reform in Her Faith (New York: St. Martin Press, 2005); Asra Q. Nomani, Standing Alone in Mecca: An American .(Woman's Struggle for the Soul of Islam (San Francisco: HarperSanFrancisco, 2005

34

.([Andrew Bostom (FrontPage Magazine.com [July 5, 2006

35 انظر:

.www.isufirock.com

36 انظر:

.www.muslimsforamerica.us and www.mislimsforbush.com

37

Asma Gull Hasan, Why I Am a Muslim: An American Odyssey (Canada: HarperCol-
.(lins Thorsons/Element, 2004

38 انظر:

Roger Hardy's series, "Europe's Angry Muslims," BBC World Service, broadcast in
.March 2006 and available online

39

Akbar S. Ahmed, Postmodernism and Islam: Predicament and Promise, rev. ed. (Lon-
.don: Routledge, 2004; originally published 1992), p. 157

40

.Ibid., pp. 155-157

41 مـن الخطـوات الأولى التي اتخذناها كأعضاء في اللجنة تحديـد موضوعنا عبر نحت مصطلح "إسلاموفوبيا" (الخوف الرهابي من الإسلام)، الذي اكتسب منذ ذلك الحين شهرة عالمية. لكشف هذه التوجهات والميول، انظر:

Akbar. S. Ahmed, "Postmodernist Perceptions of Islam: Observing the Observer," Asian Survey 31 (March 1991); Ahmed, "World without Honor?" World Today (London: Royal Institute of World Affairs, 1998); Ahmed, "Islam's Crossroads," Cross Current, History Today (London, 1999); Adam Lebor, A Heart Turned East: Among the Muslims of Europe and America (London: Little, Brown, 1997); Philip Lewis, Islamic Britain: .(Religion, Politics and Identity among British Muslims (London: I. B. Tauris, 1994

فيما يتعلق بمبادرات الحوار بين الأديان، انظر:

Akbar, S. Ahmed, "Salman Rushdie: A New Chapter" (London) Guardian: Review, January 17 1991; Ahmed, "Islam Is a Religion of Tolerance," Podium: From a Lecture Given by the Fellow of Selwyn College at London's Liberal Jewish Synagogue, (London) Independent, January 13, 1999; Shahed Sadullah, "Akbar Ahmed's Away Win against Salman Rushdie," (London) News International , January 24, 1996; Sadullah, "Akbar Ahmed's Unique First in Interfaith Dialogue," (London)News International, May 21, 1996; Sadullah, "Lord's Book Launch Marks New Point in Search for Lasting Relation-
.ship between Islam and the West," (London) News International, February 19, 1999

للاطلاع على توصيات لجنة رونيميد فيما يتعلق بالأحكام المسبقة والمتحيزة ضد المسلمين، انظر:

.(Islamophobia: A Challenge for Us All (London, 1997

42 انظر على سبيل المثال:

Condemnations of the Luxor Massacre," reported on The World at One, BBC Radio"
4, November 18, 1997; also Malise Ruthven, "Islam in the Media," in Interpreting Islam,
.edited by Hastings Donnan (London: Sage Publications, 2002), p. 55

43 استخدم العنصريون التعبير الازدرائي "باكي" على نطاق واسع للإشارة إلى جميع الآسيويين، وهو مشتق من لفظة "باكستاني".

44 انظر أيضا:

.(Pew Global Attitudes Project, July 14, 2005 (pewglobal.org

45 الأبيات مأخوذة من كتاب فتح الله كولن:

.Criteria or Lights of the Way (London: True Star, 1998), p. 19

46 انظر:

M. Fethullah Gulen, Sufism: Emerald Hills of the Heart (Rutherford, N.J.: The Light, .2004), p. v

47

Grant Slater, "Speaker: Education Key to Curbing Extremism: Experts on Islam, .Other Religions Sound Off," Oklahoma Daily, November 6, 2006

48 انظر:

Yusuf al-Qaradawi, The Lawful and the Prohibited in Islam, edited by Ahmed Zaki Hammad and translated by Kamal El-Helbawi, M. Moinuddin Siddiqui, and Sayed .(Shukry (Islamic Books Service 1982; originally published 1960

49 للاطلاع على رؤى ثاقبة وكاشفة عن وسائل الإعلام العربية، انظر:

Emirates Center for Strategic Studies and Research, Abu Dhabi, Arab Media in the .(Information Age (London: I. B. Tauris, 2006

50 انظر:

Arab Satellite Television: The World through Their Eyes," Special Report, Econo-" .mist, February 24, 2005

51 انظر على سبيل المثال:

Samantha Shapiro, "Ministering to the Upwardly Mobile Muslim," New York Times .Magazine, April 26, 2006

52

.St. Augustine, The City of God (New York: Random House Inc., 1950), p. 113

53 انظر:

Pervez Musharraf, In the Line of Fire: A Memoir (New York: Simon & Schuster, .(2006

54 للاطلاع على مزيد من الرؤى المتعمقة في كفاح الرئيس، انظر المصدر السابق.

55

Nina Shea, "On the Line: Textbook Intolerance in Saudi Arabia," Voice of America .interview, Jun 3, 2006

56 انظر المناقشة المثيرة عن العالم العربي التي أجراها الديبلوماسي الهندي البارز تلميز أحمد:

Reform in the Arab World: External Influences and Regional Debates (New Delhi: .(India Research Press, 2005

57 للاطلاع على شرح واف من بن لادن نفسه. انظر:

.Bin Laden's Letter to America," London Observer, November 24, 2002"

58

.Ibid

59 للاطلاع على نظرة أنور إبراهيم للعالم حين كان في السلطة. انظر:

Anwar Ibrahim, The Asian Renaissance (Singapore: Times Books International, .(1996

60

Akbar S. Ahmed, Pukhtun Economy and Society: Traditional Structure and Econom- .(ic Development in a Tribal Society (London: Routledge and Kegan Paul, 1980

61 الموضوعات التالية قدمها أنور إبراهيم أيضا في محاضرته في مركز بيركلي بجامعة جورج تاون(19/10/ 2006). ويستشهد إبراهيم بمحمد إقبال مرارا وتكرارا في كتابه "النهضة الآسيوية".

62

.Ibrahim, The Asian Renaissance

63 للاطلاع على أفكاره. انظر:

.(Nuh Ha Mim Keller, Becoming Muslim (Amman: Wakeel Books, 2001

64 للاطلاع على أفكار سيافي أنور، انظر:

M. Syafi'I Anwar, "The Development of Progressive-Liberal Islam in Indonesia: Challenges and Opportunities," paper presented at the International Seminar on Progressive Islam and the State in Contemporary Societies, Institute of Defense and Strategic .Studies, Singapore, March 7-8, 2006

65 انظر:

Indonesian Survey Institute, "Support for Radical Religious Attitude and Behavior" .((Jakarta, 2006

66

Aminah Ahmed Hoti, "A Journey to Understanding: Reflections from Indonesia"

.([(www.pakistanlink.com [May 26, 2006

67

Akbar S. Ahmed, Jinnah, Pakistan and Islamic Identity: The Search for Saladin (Lon-
.(don: Routledge, 1997

68

Philip Woodruff, The Man Who Ruled India: The Guardians and The Founders (New
.(York: St. Martin's Press, 1954

69

Anthony Kirk-Greene, On Crown Service: A History of HM Colonial and Overseas Civil Service, 1837-1997 (London: I. B. Tauris, 1999); Kirk-Greene, Symbol of Author-
.(ity: The British District Officer in Africa (London: I. B. Tauris, 2005

70

Akbar S. Ahmed, Resistance and Control in Pakistan, rev. ed. (London: Routledge,
.2004; originally published 1991), p. 35

71 الحقائق والأرقام الداعمة للمناقشة عن فيلم محمد علي جناح موجودة ضمن تقرير محاسبي مفصل للمشروع برمتــه أعدته شركـة "براون ومكليود وبيري" لتدقيــق الحسابات في كيمبردج، ونشر في الصحــف. وللاطلاع على رأي مهني متعمق للممثل الرئيس كريستوفر لي عن مخرج الفيلم، انظر:

Christopher Lee, Tall, Dark and Gruesome (London: Midnight Marquee Press,
.(1997

للاطلاع على مناقشة مرجعية للمجادلات التي دارت آنذاك، انظر:

Masood Haider, "Pakistan's Treatment of Intellectuals," Pakistan Link, January 25,
.2002

72 انظر:

.Labor, A Heart Turned East, pp. 142-45

هوامش 5

1 انظر

Samuel Huntington, "The Clash of Civilizations?" Foreign Affairs 72 (Summer
.(1993

2 انظر:

Thomas L. Friedman, The Lexus and the Olive Tree: Understanding Globalization
.(New York: Farrar, Strauss and Giroux, 1999), p. xix

3 للاطـلاع علـى تحليـل حديـث للاتجاهات الجديـدة في تلفزيـون الواقعية وقدرتـه على إعادة خلـق جوانب من الهويـة الاجتماعيـة وأسلوب الحياة الاستهلاكـي، إضافة إلى تحويل الأشخاص العاديين إلى نجـوم شهيرة والنجوم الشهيرة إلى أشخاص عاديين، انظر:

Dana Heller, Makeover Television: Realities Remodeled (London: I. B. Tauris, .(2006

4

Jonathan Sacks, The Dignity of Difference: How to Avoid the Clash of Civilizations .(London: Continuum, 2002), 106-07

5 انظر:

Paul Vallely, "UN Hits Back at U.S in Report Saying Parts of America Are As Poor .as Third World," (London) Independent, September 8, 2005

6 انظر:

Alkman Granitsas, "Americans Are Turning Out the World," YaleGlobal, November .24, 2005

7

Brook Noel with Art Klein, The Single Parent Resource (Los Angeles, Calif.: cham-.(pion Press, 1998

8 للاطلاع على رواية مفعمة بالحياة للذهنية الباردة والسلوك الممل لجيل "الأنا" المعولم، انظر:

.(Tom Wolfe, I Am charlotte Simmons (New York: Farrar, Strauss and Giroux, 2004

9 انظر موقع اللعبة على الويب:

.LeftBehindGames.com

10

Jose Antonio Vargas, "We Radical, Dude: Now Playing: Video Games with an Is-.lamist Twist," Washington Post, October 9, 2006

11 انظر:

Steven Peacock, ed., Reading 24: TV against the Clock (London: I. B. Tauris, .(2006

12

Paul Farhi, "Calling on Hollywood's Terrorism 'Experts,' Homeland Security Chief .Compares Reality and '24,'" Washington Post, June 24, 2006

13

Khaled Hasan, "Fox Show Demonizes Muslims," (Lahore) Daily Times, January 19, .2007

14

David Gilson, "Michael Savage: America's Laziest Fascist" (Salon.Com [May 20, .([2004

15

Deborah Tate, "U.S. Senator: 'Outraged by the Outrage' over Iraqi Prisoner Abuse, .([Capitol Hill" (VOAnews.com. [May 12, 2004

16 انظر:

Bob Drogin, "Most 'Arrested by Mistake': Coalition Intelligence Put Numbers at 70% to 90% of Iraq Prisoners, Says a February Red Cross Report, Which Details Further .Abuses," Los Angeles Times, May 11, 2004

17

Max Blumenthal, "Conservative Ann Coulter Describes Muslims as Ragheads; Sen- .([ate Leader Ducks Comment" (http://rawstory.com/news/2005 [February 10, 2006

18- رد اليسون بالقول إن المواطنين في دائرته الانتخابية "يعلمون جيدا أنني أكن حبا عميقا لبلادي. ولا يوجد من هو وطني أكثر مني. ولذلك.. لا ضرورة لإثبات مشاعري الوطنية". انظر:

.Cnn.com transcript, November 14, 2006

ولتبيان تاريخ أمريكا الطويل في التسامح الديني، أقسم اليسون حين انضم إلى الكونغرس على "قرآن توماس جيفرسون".

19

Jimmy Carter, Palestine: Peace Not Apartheid (New York: Simon & Schuster, .(2006

20 انظر:

.Robert Greenwald, Outfoxed: Rupert Murdoch's War on Journalism

وهو فيلم وثائقي أنتج عام 2004 وأظهر أن إمبراطوريات وسائل الإعلام تخوض "سباقا حتى النهاية" في نشرات الأخبار التلفزيونية.

21

.Andrew J. Bacevich, "What's an Iraqi Life Worth?" Washington Post, July 9, 2006

22

Hanna Rossin, "Younger Graham Diverges from Father's Image; Ministry's Patriarch Accepted Islam, but His Son Condemns the Religion," Washington Post, September 2, .2002, p. A3

23

Alan Cooperman, "Anti-Muslim Remarks Stir Tempest; Leading Evangelicals Back .Baptist Preacher," Washington Post, June 20, 2002, p. A3

24

Richard N. Ostling, "Jerry Falwell Calls Islam's Prophet a 'Terrorist' in Television .Interview," Associated Press, October 3, 2002

25

Richard Leiby, "Christian Soldier: Lt. Gen. William Boykin Is Inspiring Faith in .some and Doubt in Others," Washington Post, November 6, 2003, p. C1

26 للاطلاع على الحوادث الواردة كشواهد، انظر:

.Council on American-Islamic Relations website

27

Distrust of Muslims Runs Deep in U.S.," Reuters Report, (Lahore) Daily Times," .December 3, 2006

28

Richard Sounders, Poor Richard, 1734. An Almanac for the Year of Christ 1734 .(Philadelphia: Yale University Library), p. 349

29

David Hackett Fischer, Washington's Crossing (New York: Oxford University Press, .2004), p. 379

30 انظر:

.www.quoteland.com/auther.asp?AUTHOR_ID=288

31

San Loughlin, "Rumsfeld on Looting in Iraq: Stuff Happens,'" CNN (www.cnn.com/ .([2003/US/04/11/sprj.irq.pentagon/ [Saturday, April 12, 2003

32

Bob Woodward, State of Denial: Bush at War, Part III (New York: Simon & Schuster, .2006), p. 134

33

Putin Jabs Bush: 'We Certainly Would not Want... the Same Kind of Democracy" as They Have in Iraq,'" in Think Progress (http://thinkprogress.org/2006/07/15/putin- .([jab/[July 15, 2007

34 انظر:

Rayan Lenz, "Soldier Pleads in Iraq Rape, Murder Case," Associated Press, November 15, 2006.

35

Robert H. Reid, "Videotape Alleges Three U.S. Soldiers Killed in Revenge for Rape-Murder," Associated Press Worldstream News, July 11, 2006.

36

Jason Tedjasukmana, "Indonesia's Skin Wars," Time, April 10, 2006.

37

Philip Hitti, History of the Arabs (New York: St. Martin's, 1970), p. 363.

38 في الحقيقة، كشف كتاب ودوارد "حالة إنكار" أن كيسنجر واحد من كبار مستشاري الرئيس بوش في السياسة الخارجية.

39

Ayaz Amir, "Unintended Consequences," (Karachi) Dawn, August 4, 2006.

40

Saad Eddin Ibrahim, "The 'New Middle East' Bush Is Resisting," Washington Post, August 23, 2006.

41

Clayton E. Swisher, The Truth about Camp David: The Untold Story about the Collapse of the Middle East Peace Process (New York: Nation Books, 2004), pp. xxi-xxii.

42

John Mearsheimer and Stephan Walt, "The Israel Lobby: Does It Have Too Much Influence on U.S. Foreign Plicy?" Foreign Policy 28, no. 6, (2006); Scott Ritter, Target Iran: The Truth about the White House's Plans for Regime Change (Emeryville, Calif.: Nation Books, 2006).

43

David Wallechinsky, "The World's Ten Worst Dictators," Washing Post, January 22, 2006.

44

Ibid.

45

Kenneth Pollack, The Persian Puzzle: The Conflict between Iran and America (New York: Random House, 2004), p. 83.

46

Elton L. Daniel, The History of Iran (Westport, Conn.: Greenwood Press, 2000), p. .160

47

Dafna Linzer, "Past Arguments Don't Square with Current Iran Policy," Washington .Post, March 27, 2005

48

Karen Armstrong, The Battle for God: Fundamentalism in Judaism, Christianity and .Islam (London: HarperCollins, 2000), p. 249

49

.Ibid., p. 251

50

.Pollack, The Persian Puzzle, pp. 93-94

51

.Armstrong, The Battle for God, p. 251

52

.Ibid., o. 256

53

.Pollack, The Persian Puzzle, p. 127

54 تحول جيمي كارتر منذ ذلك الحين إلى رجل دولة عالمي مرهف الحس. كما تبدى ذلك بوضوح في كتابه: "قيمنا المعرضة للخطر: أزمة أمريكا الأخلاقية". انظر:

Jimmy Carter, Our Endanger Values: America's Moral Crisis (New York: Simon & .(Schuster, 2005

55

.Pollack. The Persian Puzzle. p. 183

56

.Efraim Karsh, The Iran-Iraq War 1980-1988 (Oxford: Osprey, 2002), p. 44

57

.Pollack, The Persian Puzzle, p. 198

58

.Karsh, The Iran-Iraq War, p. 57

59

Michael Dobbs, "U.S. Had Key Role in Iraq Buildup," Washington Post, December .30, 2002

60

.Ibid

61 انظر:

Seyed Mohammed Khatami, "Dialogue among Civilizations and Cultures," in After Terror: Promoting Dialogue among Civilizations, edited by Akbar S. Ahmed and Brian .(Forst Cambridge: Polity Press, 2005

62 للاطلاع على فكرة وممارسة "النموذج الكربلائي". الذي يحرك نزعة الشيعة المتأصلة للتضحية بالنفس لمحاربة الظلم والطغيان. انظر:

M. J. M. Fischer, Iran: From Religious Dispute to Revolution (Harvard University .(Press, 1980

63

Robert H. Reid, "For Iran, Defiance So Far Has Hade Little Cost," Associated Press .Worldstream News, September 19, 2006

هوامش 6

1 انظر:

Akbar. S Ahmed, Discovering Islam: Making Sense of Muslim History and Society .((London: Routledge, 2002; originally published 1988

2 للاطلاع على بقية القصيدة، انظر:

Akbar S. Ahmed, More Lines: Selected Poems (Karachi: Royal Book Company, for .Pakistan Academy of Letters, 1980), pp. 37-40

3 في عرض نادر في صراحته، خصصت "واشنطن بوست" افتتاحيتها في عدد 26/10/2005 لنائب الرئيس ديك تشيني تحت عنوان "نائب الرئيس يؤيد التعذيب". أما النتيجة الختامية للافتتاحية الصريحة في انتقادها فكانت: "بكلمات أخرى، أصبح نائب الرئيس مدافعا بطريقة سافرة وعلنية عن التعذيب".

4

Akbar S. Ahmed, Jinnah, Pakistan and Islamic Identity: The Search for Saladin (London: Routledge, 1997); Stanley Wolpert, Shameful Flight: The Last Years of the British .(Empire in India (Oxford University Press, 2006

5

Rajmohan Gandhi, Eight Lives: A Study of the Hindu-Muslim Encounter (State Uni-
.versity of New York Press, 1986), p. 178

6

Anthony Giddens, Runaway World: How Globalization Is Reshaping Our Lives
.(New York: Routledge, 2000), p. 34

7

.(Jonathan Sacks, To Heal a Fractured World (London: Continuum, 2005

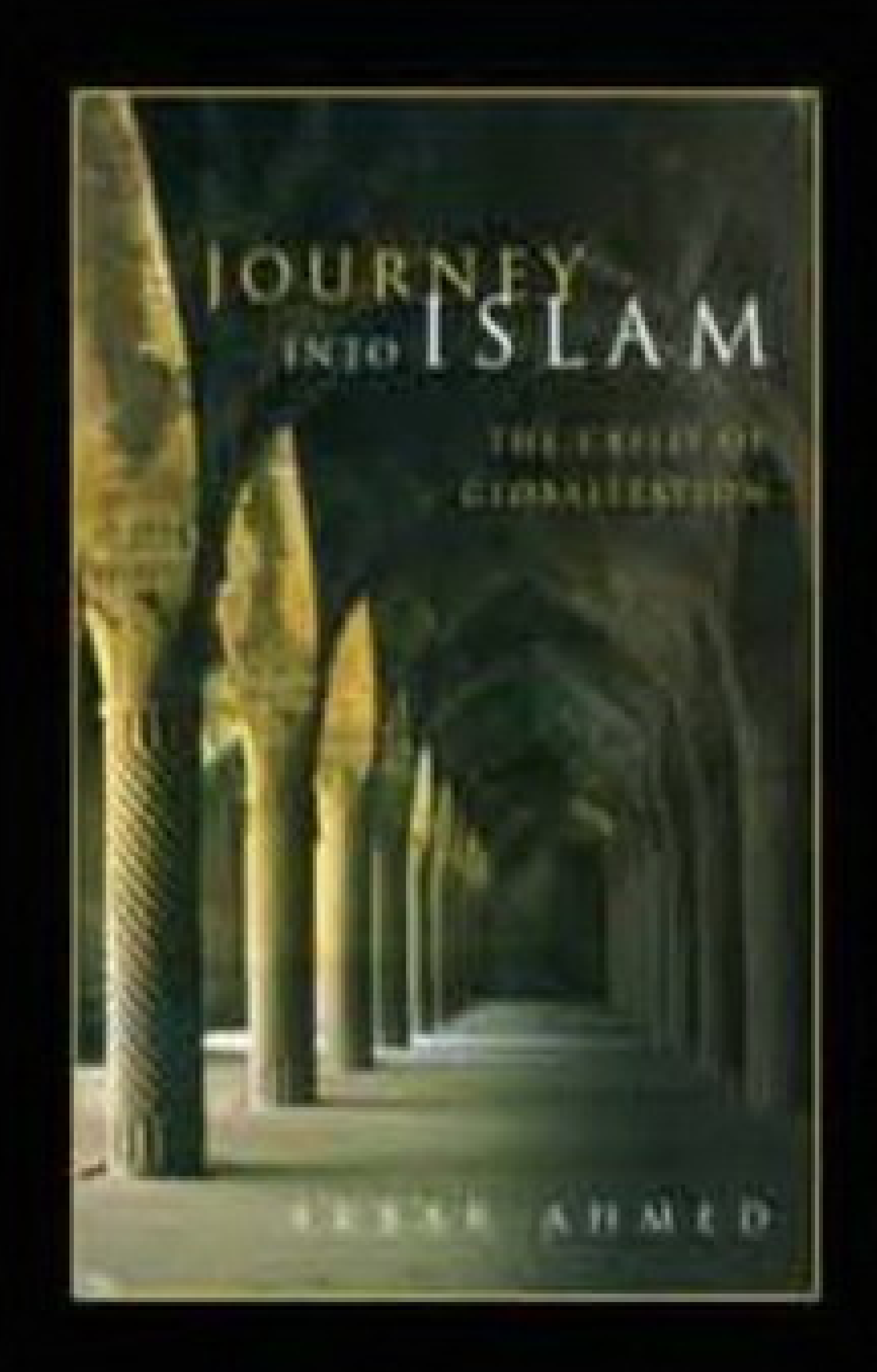
8

United Nations Population Division, World Population "Prospects": The 2004 Revi-
.([sion (http//:esa.un.org/unpp.index.asp [January 22, 2007

هوامش (الخاتمة)

1 في الثاني من كانون الثاني/يناير 2007، وجدت نفسي أنا وابنتي في الكاتدرائية الوطنية نحضر القداس الذي أقيم على روح الرئيس الراحل جيرالد فورد. فقد تم اختياري أنا والحاخام بروس لوستيغ رسميا "كممثلين عن الأديان". وانضممنا إلى موكب رافق نعش الرئيس فورد إلى داخل الكاتدرائية(www.cathedral.org/pdfs/Ford-Funeral.pdf). جلسنا، أنا وابنتي، إلى جانب فرقة المرتلين، وكنت على بعد حوالي متر من المنبر الذي وقف عليه الرئيسان جورج بوش الأب والابن لرثاء الرئيس الراحل. بعد انتهاء المراسم، قلت لابنتي، التي أصبحت الآن ناشطة في حركة حوار الأديان وافتتحت أول جمعية إبراهيمية في ثانوية والت ويتمان (في بيثيسيدا): "تذكري يا ابنتي هذا اليوم الاستثنائي. فبفضل صديقنا الأسقف جون تشان، شاركنا في التاريخ الأمريكي، ولأنه أراد تكريمنا. جلسنا قرب خمسة رؤساء أمريكيين –وعدد من المرشحين للرئاسة في المستقبل". ولا بد أن روح العون والتسامح والتراحم والإحسان التي خيمت على مراسم تأبين الرئيس فورد، سوف تفيد ابنتي، المراهقة التي ستعيش في قرن طويل ومضطرب، فائدة كبيرة.





بدءاً من مساجد دمشق، مرورا بالمدارس الدينية في كراتشي، وانتهاء بالمنازل في جاكرتا، التقى أحمد وصحبه المسلمون من مختلف المشارب والنحل والملل. فأصغوا إلى الطلاب والأساتذة، ورؤساء الدول والحكومات، وعلماء الدين والشيوخ، وسائقي سيارات الأجرة، لكشف ما يراود المسلمين من آمال وأحلام وما يعانونه من خيبات وإحباطات، لم يسمع عنها الغرب من قبل. ثم عادوا من رحلتهم المبتكرة، حاملين معهم حقائق تسبب القلق وأخرى تدعو إلى الأمل.

الكتاب يرفض القوالب النمطية و"الحكمة التقليدية" فيما يتعلق بالإسلام ومواجهته مع العولمة، ويعرض إطاراً جديداً لفهم العالم الإسلامي وتفهمه. وفي حين يشن الزعماء الغربيون الحرب على الإرهاب، يقدم أكبر أحمد اقتراحات متخمة بالرؤى الثاقبة يمكن أن تتبعها الولايات المتحدة لتحسين علاقاتها بالدول والشعوب الإسلامية. كتاب (رحلة داخل الإسلام) يقدم حجة دامغة لمصلحة إقامة روابط وثيقة تخترق حواجز الدين والعرق والتراث، في سبيل إيجاد حالة من التناغم الدائم بين الإسلام والغرب. ومن الضروري قراءته في حقبة يسودها الشك والعنف وسوء الفهم.

أكبر أحمد: هو أستاذ الدراسات الإسلامية في الجامعة الأمريكية (متخصص في فكر ابن خلدون)، وزميل زائر في معهد بروكينغز. درس في جامعات برينستون، وهارفارد، وكيمبردج، وشغل منصب المندوب السامي الباكستاني في بريطانيا. ألف العديد من الكتب منها:

- "بعد الإرهاب: تشجيع الحوار بين الحضارات" (مع بريان فورست) (٢٠٠٥).
- "الإسلام تحت الحصار: العيش المحفوف بالخطر في عالم ما بعد الشرف" (٢٠٠٣).
- "فهم التاريخ والمجتمع الإسلامي" (٢٠٠٢).

"الكتاب يحقق اختراقا مهما في فهمنا للعلاقة المعقدة بين العولمة والإسلام.. ويعد مصدرا أساسيا لكل مهتم بالأسئلة الرئيسة في عصرنا، المتعلقة لا بدور الإسلام في المجتمع العالمي فقط، بل بالمفاهيم المختلفة للتدين".

اللورد أنتوني غيدنز، عضو مجلس اللوردات، والمدير السابق لكلية لندن للاقتصاد.

"أكبر أحمد واحد من دعاة الإسلام البارزين، ومن أفضل شراحه ومفسريه: نموذج يحتذى مثاله للعقل في عصر القلق، والتسامح في زمن التعصب، والأمل حين يغري اليأس الكثيرين. قراءة (رحلة داخل الإسلام) ضرورة جوهرية، فهو مترع بالحكمة، والمعرفة، والبصيرة، والتفاؤل، والصدق، والإنسانية. إنجاز لواحد من أعظم الحكماء الدينيين في عصرنا".

الحاخام السير جوناثان ساكس، كبير حاخامي بريطانيا والكومنويلث.

ISBN:978-9960-54-0000

موضوع الكتاب:

موقعنا على الإنترنت:
http:/www.obeikanbookshop.com